



الزُّبُرَانُ في ترتيبِ سَوِّ الْفُرَانِ

للعفيدة أبة جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزُّبير الغرناطي

(627 - 708 هـ / 1230 - 1308 م)

دراسة وتحفيظ:

د. محمد شعباني

راجعته وصححته:

ددة. فريدة زمرو

1441 هـ / 2020 م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية



البرهان في ترتيب سائر الفرائد

للعقيد ابن جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي

(627 - 708 هـ / 1230 - 1308 م)

دراسة وتحقيق:

د. محمد شعباني

راجعه وصحّته:

د. فريدة زمر

1441 هـ / 2020 م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- الكتاب : البرهان في ترتيب سور القرآن
تأليف : الفقيه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي
(627-708 هـ / 1230-1308 م)
- دراسة وتحقيق : د. محمد شعباني
الناشر : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
مراجعة وتصحيح : دة. فريدة زمر
الحقوق : جميع الحقوق محفوظة للوزارة
الطبعة الثانية : 1441 هـ / 2020 م
الإيداع القانوني : 2020MO1182
رقم : 0-46-770-9920-978
لصم وإخراج : مطبعة المعارف الجديدة / الرباط 2020
العنوان : 8، نفقة الرخاء، الحي الصناعي - ح.ي.م الرباط - المغرب
الهاتف : + 212 05 37 79 47 08
الفاكس : + 212 05 37 79 47 38
البريد الإلكتروني : info.impmaarif@imprimerieelmaarif.com

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله و سلم و بارك على سيد الخلق أجمعين و على آله و صحبه الطيبين الطاهرين .

و بعد، فقد جعل الله هدايته الخالدة للناس قرآنا، و تحدى به تصرّحا فقال عز وجل: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: 88)، ولم يقصر وجوه إعجازه على أحاد المداخل وإنما تركها عامّة، دلالة على أنه لا تنقضي عجائبه و لا يخلق عن كثرة الرد.

ولقد عني العلماء منذ القديم بأحد أبرز هذه الوجوه، وهو نظمه الفريد و نسجه البديع، فدرسوا ذلك في أبواب كثيرة من أجلها التناسب، وهو مبحث يعنى بإظهار أوجه انتظام أجزاء القرآن الكريم، قاصدا بذلك الكشف عن علل ترتيبها إثباتا لأوجه الإعجاز، و بيانا لبعض أسرارها، وهو مسلك من النظر يتأسس على توقيف ترتيب الآيات إجماعا، و توقيف ترتيب السور عند من يرى ذلك من العلماء .

وقد عرف هذا المبحث من علوم القرآن تطورا ظاهرا فكانت إرهاباته الأولى في الأقوال المأثورة - عن المفسرين وعلماء المعاني - عن أوجه المشاكلة بين السابق و اللاحق من الكلمات و الآيات، ثم وقع الاهتمام بتناسب السور مطالع و خواتيم، ثم ما لبث أن تطور النظر إلى أوجه المناسبة ومداهها، في مسالك جديدة اهتدى من خلالها بعض المتأخرين إلى فكرة «نظام القرآن»، و مبدأ «الوحدة الموضوعية»، التي تمكن من النظر إلى القرآن الكريم باعتباره نسقا واحدا.

وبالرجوع إلى التصانيف في هذا الفن، في تراثنا القديم، يلاحظ أن كتب التفسير - عموما - لا تخلو من الإشارة إلى المناسبة بين أجزاء القرآن الكريم، وإلى ذكر بعض نكت هذه المناسبة وفوائدها، خاصة عند من كانت له عناية خاصة بهذا الأمر كالفخر الرازي (606هـ)، وأبي حيان الأندلسي (745هـ)، لكن أفراد هذا الفن بالتأليف، كان مما تأخر، و مما قل أيضا، و مما وصلنا من ذلك: «نظم الدرر في تناسب الآي و السور»، لبرهان الدين البقاعي (885هـ) وقد كان في معظم كتابه ناقلا عن العلامة أبي الحسن

الحَرَالي المراكشي (636هـ)، وكتاب «تناسق الدرر في تناسب السور» و«مراصد المطالع في تناسب المقاطع و المطالع» للسيوطي (910هـ).

ولقد نسب الكثير من العلماء الأولية في إفراد تناسب السور بالتأليف إلى ابن الزبير الغرناطي (708هـ) أحد أهم أعلام القرن السابع الهجري، صاحب تفسير «ملاك التأويل»؛ قال عبد الله بن الصديق الغماري عن مناسبة السور بعضها لبعض: «و أول من أفرد هذا النوع بالتأليف - فيما أعلم - العلامة أبو جعفر بن الزبير الأندلسي، شيخ العلامة أبي حيان، ألف كتابا سماه: «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن»¹. وقال البقاعي مصرحا باستفادته من كتاب ابن الزبير: (وطالعت على ذلك كتاب العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الأندلسي «المعلم بالبرهان في ترتيب سور القرآن»، وهو لبيان مناسبة تعقيب السورة بالسورة فقط، لا يتعرض فيه للآيات، وسأذكر في أول كل سورة ما قاله فيها بلفظه)²،

إلا أن شهرة البقاعي بهذا الفن كانت أسبق لدى العديد من الباحثين، في المشرق والمغرب، فحجبت من كان له اليد الطولى على البقاعي وغيره ممن اعتنى بتناسب السور، وهو ابن الزبير الغرناطي، الذي شهد له الكثيرون بإمامته في هذا الفن.

لأجل ذلك، كانت وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية - بما توليه من اهتمام بتراث الغرب الإسلامي - سباقة إلى إخراج هذا السفر ونشره أول مرة، وذلك سنة 1410هـ - 1990م، ثم ارتأت إعادة نشره - مراجعا مصححا - بعد ما نفذت نسخ طبعته الأولى. فالله نسأل أن ينفع الباحثين المهتمين بهذا المصنّف، وأن يكون نشره محفزا للبحث أكثر في جوانب أخرى من نظم القرآن الكريم وإعجازه.

دة. فريدة زمرو

أستاذة بمؤسسة دار الحديث الحسنية - الرباط -

1 - جواهر البيان في تناسب سور القرآن، عبد الله بن الصديق الغماري الحسني، ص: 16. مكتبة القاهرة.
2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، ج 1، ص: 6. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

تقديم

وبعد، فإنه لم ينل كتاب من الكتب عبر أجيال هذه الأمة الإسلامية من دقيق العناية وكبير الاهتمام، وبالعقد التقديس والاحترام ما ناله القرآن الكريم حفظاً وقراءة، تعليماً ودراسة، تبيناً وتفسيراً.

وإذا كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قد بادر بتلقي القرآن المبين فحفظوه لنا حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، منذ بداية نزوله على خاتم الأنبياء والمرسلين، وإلى حين جمعه في المصحف في عهدي أبي بكر وعثمان، رضي الله عنهما، تحقيقاً لوعده الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فإن ما تعاقب من أجيال هذه الأمة قد تابع مسيرتهم ونهجهم في حفظ كتاب الله وتعليمه، ومدارسته وتفسيره، مما أثمر لنا مكتبة قرآنية تنوعت علومها وفنونها، وتشجعت جوانبها وفروعها، وأصبحت تعز عن الحصر، وتجل عن الوصف، وبقي القرآن بفضل ذلك خالداً خلود الإسلام، يتحدى بإعجازه مختلف الأزمان والأعصار، ويظل مقروءاً على تعاقب الأجيال، تتوارد عليه جيلاً بعد جيل، ويبقى أبداً ثري المورود، سخي العطاء، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد أمامه الأفق بعيداً عالياً، يفوق طاقة الدارسين والمفسرين.

وقد تبلورت في هذا المجال دراسات وأبحاث، وألفت كتب ومجلدات، ودارت حول إعجازه مذاكرات ومناقشات، ومحاورات ومساجلات، وحسبك من ذلك، الكتب الشهيرة عبر تلك الأجيال، مثل كتاب نظم القرآن للسجستاني، وإعجاز القرآن لأبي عبد الله الواسطي، وبيان إعجاز القرآن للخطابي، وإعجاز القرآن للباقلاني، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبُقاعي، والإتقان في علوم القرآن، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، وإعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي، وغيرها من المؤلفات القيمة في هذا المجال.

ويأتي كتاب: « البرهان في ترتيب سور القرآن » لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي، من علماء القرن السابع الهجري في صدارة تلك المؤلفات ومقدمتها، بل يعتبر أول كتاب فريد في بابهِ، كشف فيه مؤلفه عن نوع من إعجاز القرآن، القائم على ترابط أجزائه وتلاحم آياته وتناسق سورهِ.

وبالنظر إلى نزوله منجماً ومفرقاً حسب الوقائع والأحداث، والدواعي والأسباب المتجددة على نيف وعشرين سنة، وإلى ترتيبه في القراءة والمصحف لا على حسب النزول، ولا على المعهود في تأليف الكتب، إنما على حساب نظام غير مألوف، وأسلوب ونهج جديد غير معروف، بالنظر إلى ذلك كله، وإلى أحوال صاحب هذه الرسالة الإسلامية عليه الصلاة والسلام، من كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، يتبين لكل عاقل منصف أن القرآن الكريم بخصائصه المتميزة يستحيل صدوره من أي بشر مهما بلغ من العلم والعبقرية والنبوغ، فضلاً عن أن يصدر عن من لا يقرأ ولا يكتب، وصدق الله القائل في محكم كتابه الحكيم: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.

وهذا الكتاب في دراسته وتحقيقه أعده الأستاذ محمد الشعباني وقدمه رسالة جامعية نال بها دبلوم الدراسات الإسلامية العليا من دار الحديث الحسنية، تلك المؤسسة الخالدة التي أسسها أمير المؤمنين جلاله الحسن الثاني على تقوى من الله ورضوان لتكون منها للعلوم الإسلامية، ومركزاً لإشعاعها الديني والحضاري داخل المغرب وخارجه، فأخذت تعطي باستمرار نتائجها الحسنة وتوتي ثمارها الطيبة في تخريج العلماء، وإسهامهم بالبحوث والدراسات القيمة في النهضة العلمية والحضارية التي يشهدها العهد الحسني الزاهر الميمون. والكتاب من خلال الإشارة إلى موضوعه ومحتواه، تبدو أهميته العلمية ومكانته بين مكتبة الدراسات القرآنية والمؤلفات فيها.

وإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي دأبت على العناية بكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ)، وفي إطار رسالتها الدينية والحضارية التي تضطلع بها في مجال إحياء التراث الإسلامي ودعم الثقافة الإسلامية وطبع مؤلفاتها المخطوطة القيمة، وغيرها من الدراسات الإسلامية الجادة، تواصل سعيها في هذا المضمار، وتتابع مسيرتها بخطى حثيثة وعزيمة ثابتة، تهدف إلى خدمة العلم والدين، ونفع الإسلام والمسلمين.

وتتوجه إلى الله العلي القدير أن يجعل طبع هذا الكتاب في صحيفة مولانا أمير المؤمنين،
وحسنة من حسناته الخالدة، وأن يبارك في عمره وحياته، ويبقيه ذخرا وملاذا للبلاد والعباد،
ويقر عينه بولي عهده المحبوب سمو الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه المجيد سمو الأمير
مولاي رشيد، وأن يحفظه في كافة أفراد أسرته الملكية الشريفة، إنه سميع مجيب.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية سابقا

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

1410 هـ / 1990 م

مقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن آية باهرة، وحجة ظاهرة، تتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد مبلغ الرسالة الأمين، والمبعوث رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا.

وبعد،

فإن القرآن الكريم كان ولا يزال عبر تاريخ هذه الأمة كتابها الخالد ودستورها الفريد، منه تستمد أخلاقها وتشريعها، وفيه تجد طمأنينتها وملاذها، وبفضله ازدهرت علومها ومعارفها، فتكونت علوم اللغة العربية بكافة فروعها، وقامت على أساسه علوم القرآن بكل فنونها، ونما في أحضانه علم الأصول والفقه وغيرها.

إن عظمة القرآن وخلوده، تتجلى أساسا في بيانه المعجز وإعجازه البين، وإن جمعه بين البيان والإعجاز لأعظم حجة على خلوده واستعصائه على الجاحدين والمنكرين، ذلك أن الله عز وجل اقتضت حكمته أن يكون هذا الكتاب المنزل على سيدنا محمد حجة على قومه وعلى سائر الأقوام من بعده إلى يوم الدين، ولذلك فإن ما اشتمل عليه من الإعجاز، يقوم حجة قاطعة، ومعجزة ساطعة على بني الإنسان، وكلما تقدم الإنسان في العلم المادي وتعمق في البحث العلمي، الا وانكشف له من وجوه إعجازه ما يخرس الممتريين، ومن ساطع براهينه ما يثمر الطمأنينة ويرد اليقين.

ولئن قامت على أساس إعجاز القرآن دراسات من السابقين واللاحقين، فإن مما تداركه ابن الزبير الغرناطي المتوفى سنة 708 هـ على سابقه، هو دراسة العلاقة بين سور القرآن الكريم التي تتفاوت طولا وقصرا، في كتابه: «البرهان في ترتيب سور القرآن»، علما بأن بعض قصيرها نزل طويلها، وأن بعض ما نزل منها أولا وضع في الترتيب آخرا، مما جعل ابن الزبير ومن أتى بعده وحذا حذوه يتساءل عن كيفية ترتيب القرآن الكريم هل كان بتوقيف من الشارع تحقيقا لقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ أم أنه كان عملا من أعمال الصحابة ليس إلا؟

وإذا كانت المكتبة القرآنية تعز على الحصر، فإننا لم نجد كتابا يجلي هذه القضية الهامة قبل ابن الزبير إلا في نثرات هنا وهناك ضمن تفاسير القرآن والدراسات القرآنية، حيث نجده وقد فتح هذا الباب بفن مستقل، وتأليف قائم بذاته يجلي فيه العلاقة بين سور القرآن الكريم

جميعها، ولجه من بعده آخرون كثيرون، بل قل ما تجد من درس التفسير وعانى في تفسير القرآن الكريم بعد هذا الإمام إلا واقتبس منه أو حاول أن يسلك مسلكه...

ولا تخفى أهمية هذه الدراسة التي تأتي بنوع جديد من الإعجاز القرآني وتبين مدى ما في ترتيب سور القرآن من ترابط وتناسب، ذلك أن القرآن الكريم الذي يراه الغر المبتدئ مقسماً إلى سور، يظن لأول وهلة أنه لا رابط بينها ولا انسجام، وهذا ما ينفيه هذا الإمام العظيم في كتابه هذا، وسيؤكد القارئ للقرآن الكريم من خلال هذا البحث أنه مترابط السور، محكم الآيات، وكلما تعمق القارئ أو الدارس في تأمله ودراسته، ازدادت هذه الحقيقة رسوخاً عنده حتى يصل في النهاية إلى ما وصل إليه الكثير ممن انقطعوا للقرآن ودراسته، من أن القرآن كله كالكلمة الواحدة التي لا تدل على كمال المعنى إلا بتأليف حروفها.

وإذا كان تحقيق هذا المخطوط، يعد عملاً تبرز من خلاله قيمة علمائنا الأعلام، ونفائس مخطوطاتهم التي ما تزال في طي المجهول، فإن تراث هذه الأمة العظيمة، ما يزال في معظمه مغموراً في بطون المخطوطات التي تزخر بعطاء علمائنا الأفاضل، وإنتاجاتهم القيمة، وأعمالهم الجليلة.

وإنه ليسعدني أن أساهم بجهدي المتواضع في القيام بدراسة وتحقيق كتاب «البرهان» استشعاراً مني بضرورة إحياء روح هذه الأمة لمعاودة نهضتها، واستئناف دورها الحضاري المتمثل في الشهادة على الإنسانية، وإنقاذ البشرية من شقوتها الجاهلية.

هذا، ولقد وجدت نفسي بعد اختياري لهذا الموضوع أمام محورين اثنين يشكلان أساس هذه الدراسة ومدخلها الرئيس.

المحور الأول يتعلق بدراسة جمع القرآن وترتيبه، والتناسب المراعي في ذلك، والمحور الثاني يتعلق بدراسة شخصية ابن الزبير والوضع السياسي والعلمي في عصره.

فبالنسبة للمحور الأول: قمت بدراسة سلطت فيها الضوء على مراحل جمع القرآن في عهد نزوله وحرص الصحابة على جمعه وحفظه، ودواعي هذا الجمع في عهد الخليفين أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، وإجماع الصحابة بعد ذلك على الجمع العثماني وإقرار عثمان على عمله بإنفاذ نسخ من المصحف الإمام إلى مختلف الأقطار الإسلامية وإحراق ما عداه من المصاحف الفردية.

ثم انتقلت بعد ذلك إلى موضوع ترتيب الآيات مبرزاً النصوص الوفيرة الدالة على توقيفية ترتيبها، وأعقبته بالحديث عن ترتيب السور، فأوردت آراء العلماء في ذلك، حيث رجحت ما ذهب إليه جملة من العلماء من أن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء مستعرضاً الحجج والبراهين المعتمدة في ذلك.

ثم تعرضت إلى ترتيب القرآن حسب نزوله، وبينت مدى ما في ترتيب القرآن كما هو في المصحف من إعجاز، وكان الأولى أن يرتب إما بحسب تجانس الموضوعات، وإما بحسب ترتيب نزوله الأول فالأول، إلا أن كل ذلك لم يقع، ووقع الإجماع ممن شاهدوا نزول الوحي على الترتيب المعهود، مما يدل على وجود أحكامه بهذا الوضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب سيدنا محمد (ﷺ).

ثم فندت دعوى القائلين بإعادة ترتيب القرآن على حسب نزوله، وما يمكن أن تثيره هذه الدعوى من شكوك حول سلامة النص القرآني إذا ما سلمنا بفتح باب إعادة ترتيب القرآن، دون أن أغفل موقف بعض المستشرقين من اختلاف بعض المصاحف الفردية التي كانت لدى الصحابة، واستثمار ذلك لخدمة أغراضهم بالتشكيك في المصدر الرباني للقرآن الكريم، وتنزيله منزلة الكتب البشرية التي تخضع للتبديل والتغيير والزيادة والنقصان، مجانبين في ذلك - غالباً - الموضوعية في البحث والدقة في النقل، يدفع الكثيرين منهم ركام من الخلفيات الفكرية للصراع الحضاري بين المسيحية والإسلام.

أما بالنسبة للمحور الثاني وهو ما يتعلق بشخصية ابن الزبير وعصره، فقد قمت بدراسة عنه، تناولت مختلف الجوانب التي اكتنفت حياته وعصره، فبدأت بترجمته مستقرئاً كل من ترجم له حيث استخرجت من تلك التراجم - التي تكررت في كثير من الأحيان، واختلفت في أحيان أخرى - اسمه ونسبه، ومولده ونشأته ومكانته العلمية، مبرزاً مساهماته وعطاءاته العلمية في مختلف العلوم والفنون التي كانت سائدة في عصره، كعلوم القرآن والتفسير وعلوم الحديث والرواية، وعلم العربية والنحو وعلم الأصول والفقه... إلخ.

ثم بعد ذلك تتبعت في كتب التاريخ والتراجم شيوخ ابن الزبير الذين تتلمذ عليهم في مختلف الفنون فأحصيت منهم أربعة وتسعين شيخاً ممن تلقى عنهم قراءة أو مكاتبة، مما يعكس حبه لطلب العلم وولوعه بالرحلة إلى العلماء.

كما تتبعت أيضا تلامذته الذين كانوا يقصدونه من مختلف الأمصار للرواية وطلب العلم، فأحصيت عدداً منهم، كان من بينهم القضاة، والكتاب، واللغويون، والمفسرون وغيرهم.

ثم تعرضت إثر ذلك إلى مؤلفاته المتنوعة والتي برزت من خلالها شخصيته العلمية التي تفاعلت مع بيئته والظروف المحيطة به أخذاً وعطاءً.

ثم انتقلت للحديث عن عصره فسلطت الأضواء على نهاية عصر الموحدين، وسقوط المدن والقواعد الكبرى في يد النصارى، وظهور زعامة ابن هود، ثم ابن الأحمر الذي حاول لم الشمل وصد هجمات الصليبيين على الثغور والحصون المتبقية في يد المسلمين الذين عصفت بهم رياح التفرقة، ومزقتهم مطاعم الزعامة.

في ذلك الوضع المتأزم سياسياً واجتماعياً، قمت برصد الحياة العلمية، في عصر ابن الزبير، حيث اشتهرت عدد من البيوتات والأسر في الأندلس بتعلم العلم ونشره وتوريثه، ومنها أسرة ابن الزبير، وأسرة بني منظور القيسي المالقي، وأسرة عبد الرحمن اللخمي، وغيرها من الأسر التي كانت نجوماً في سماء العلم والمعرفة.

ثم تتبعت مراكز الإشعاع العلمي في هذا العصر المبثوثة في مختلف حواضر الأندلس التي كان يتحلق فيها طلاب العلم الشيوخ في مساجدها الكبرى، مثل جيان والجزيرة الخضراء، ومرسية ورنده، ووادي آش، وغرناطة، وقرطبة، ومالقة، وغيرها من المراكز التي كانت - ويا حسرتاه - محط رحال كثير من طلاب العلم الذين كانوا يفدون عليها من مختلف مدن الأندلس بل وحتى من المغرب والمشرق.

كل هذا ساهم وبشكل رئيسي في استمرار جذوة العلم مشتعلة، وساهم في حفظ ما تبقى للأندلس من روح ووجود رغم ما كانت تفجأ به من أعاصير الحقد الصليبي، والتناحر الطائفي اللذان كانا يعصفان باستقرارها وتماسك أطرافها.

كما تتبعت في هذا السياق أيضاً حركة التأليف في هذا العصر التي تأثرت إلى حد ما بالوضع السياسي وانحسار الوجود الإسلامي، وذلك حتى ترسم الصورة واضحة لمختلف العوامل التي عاصرها ابن الزبير وأثرت فيه، فجاءت شخصيته انعكاساً لما تميز به عصره من علوم لغوية وشرعية، ليس الإنسان - كما يقال - إلا ابن بيئته وعصره.

وبعد أن فرغت من دراسة المحورين المذكورين، ألقيت أضواء على المخطوط، فقامت بتحقيق عنوان الكتاب ونسبته إلى صاحبه، وعرفت بنسخ المخطوطة التي اعتمدتها في التحقيق مبرزا قيمة كل نسخة على حدة، ثم أوضحت منهج التحقيق الذي سرت عليه في تقديم النص على الوجه المطلوب، دون أن أغفل بيان الإشارات والرموز التي اعتمدتها في التحقيق، ثم خلصت أخيرا إلى تحقيق نص الكتاب.

وقد كان لعدد من أساتذتي فضل كبير علي في تشجيعي ومساعدتي من أجل إنجاز هذا العمل أذكر من بينهم أستاذي الجليل الدكتور عبد السلام الهراس، وأستاذي العلامة محمد المنوني، ومدير دار الحديث الحسنية الدكتور محمد فاروق النبهان، وغيرهم ممن مدوا لي يد المساعدة دون جزاء أو شكور محتسبين عملهم لوجه الله تعالى.

فإلى هؤلاء وإلى كل الإخوة والأصدقاء الذين ساعدوني وإلى إدارة دار الحديث الحسنية، وقيمي الخزانة الملكية والخزانة العامة بالرباط، أتقدم بخالص الشناء والتقدير، سائلا الله تعالى الصدق في القول والإخلاص في العمل.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

الجزء الأول : الدراسة

القسم الأول
جمع القرآن وترتيبه



القسم الثاني
عصر ابن الزبير وترجمته ومؤلفاته

القسم الأول

جمع القرآن وترتيبه

المبحث الأول: جمع القرآن وتدوينه

المبحث الثاني: ترتيب سور القرآن

المبحث الثالث: التناسب وجه من وجوه الإعجاز

المبحث الأول
جمع القرآن وتدوينه

جمع القرآن وتدوينه

إن القرآن الكريم الذي يتداوله المسلمون اليوم بين دفتي المصحف¹ ويتكون من 114 سورة، تبتدئ بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس، وتتفاوت سورته في الطول والقصر، تتدرج سورته في ترتيبها بوجه عام حسب طولها، تتقدمها السور الطويلة ثم المتوسطة ثم القصيرة.

إن هذا القرآن لم يكن على هذا الترتيب في حياة الرسول (ﷺ)، فقد قبض عليه السلام ولم يكن القرآن جمع في شيء كما قال الخطابي: «إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته»².

لقد كان نزول القرآن مفزاً منجماً على مدى حوالي عشرين سنة³ بحسب الأسباب⁴ المقتضية لذلك، ومع ذلك فقد أمكن جمع هذا المصحف وتصنيفه في سلسلة ذهبية مترابطة الحلقات متآخية الفقرات، منسجمة العبارات متناسقة المعاني والإشارات، لا تنبو كلمة عن كلمة، ولا تنفر آية من آية، بل جاء كله - رغم تباعد الزمن - في غاية الفصاحة والبلاغة وروعة الإحكام والانسجام، ودقة التناسب والالتحام.

لقد كان الرسول (ﷺ) يتلو كل جزء ينزل عليه ويعلمه للسامعين ليصل عن طريقهم إلى من لم يسمعه من فم الرسول مباشرة، وكان الناس جميعاً ينتظرون الوحي بشغف، يتمنون أن يتلقوه فور نزوله، كما أن أعداء الرسول أنفسهم الذين لم يكونوا يهتمون شأن القرآن، كانوا يحرصون على سماعه إما للبحث في نقط ضعف فيه تعينهم على مغالبتها أو مهاجمتها، وإما لإشباع حاجاتهم الملحة في التذوق الأدبي⁵.

1. قال السيوطي: "أخرج ابن أبي أشتة في كتاب المصاحف عن ابن بريدة قال: أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فجمعه ثم ائتمروا ما يسمونه؟ فقال بعضهم سموه السفر، قال: ذلك اسم تسمية اليهود فكرهوه، فقال رأيته مثله في الحشبة يسمى المصحف فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف". الاتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المشهد الحسني، مصر، ط1، 1967، (1/166).

2. الاتقان، 1/124.

3. أخرج النسائي عن أبي عباس قال: "نزل القرآن في رمضان ليلة القدر، فكان في الساء الدنيا، فكان إذا أراد الله أن يحدث شيئاً نزل فكان بين أوله وآخره عشرون سنة". أنظر: فضائل القرآن للنسائي، تحقيق د. فاروق حمادة، ط1، دار الثقافة، ص: 59.

4. سبب النزول هو الحادث الذي نزلت الآيات القرآنية متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أو موضحة لأمره.

5. مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارنة لعبد الله دراز، ترجمة: محمد عبد العظيم علي، دار القلم ودار القرآن الكريم، الكويت، ط1، 1971م، ص: 34.

أما بالنسبة للصحابة، فقد كان اهتمامهم بالقرآن يفوق كل شيء، فهو بالنسبة إليهم غذاء الروح وقاعدة السلوك ومادة العبادة، وأداة الدعوة إلى الإسلام، قانونهم الجوهري ودستورهم في كل شؤون الحياة، ولذلك لم يقتصروا على اعتبار النص المنزل قرآنا يتلى ويقرأ، بل تجاوزوا ذلك إلى حفظه في الصدور، وكتابته بالمداد، ولهذا كان الرسول (ﷺ) كلما جاءه الوحي وتلاه على الحاضرين أملاه من فوره على كتبه الوحي ليدونوه على أي شيء كان في متناول أيديهم، وكانوا على ما اعتاده العرب يكتبونه في اللخاف، والعسب، والأكتاف، والرقاع، والأقتاب وقطع الأديم⁶.

كتاب الوحي:

لقد كان لرسول الله (ﷺ) كتاب يكتبون له، فمنهم من يكتب بشكل عام ومنهم من كان يكتب له بشكل خاص، ويذكر العلماء الثقة أن عدد كتاب الوحي بلغ تسعة وعشرين كاتباً⁷، أشهرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح، وهؤلاء من كتبه الوحي المكي، وقد زاد عليهم من انضم إليه من الأنصار وهم: أبي بن كعب وهو أول من كتب له عليه الصلاة والسلام بالمدينة، وزيد بن ثابت وهو أكثرهم كتابة للوحي المدني ثم انضم إليهم: الزبير بن العوام، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وعبد الله بن رواحة، وعمر بن العاص، وخالد بن الوليد، والأرقم بن الأرقم⁸.

وقد كان رسول الله (ﷺ) وهو يتلو ما تنزل عليه من الوحي على أصحابه حريصاً على أن يكون تلقيهم للوحي كما أنزل بألفاظه وترتيبه كما تؤكد ذلك الروايات المتعددة، ففي الحديث الذي رواه الطبراني بسند رجاله ثقة أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "كنت أكتب الوحي عند رسول الله (ﷺ) وهو يملي فإذا فرغت قال: اقرأ، فأقرأه، فإذا كان فيه سقط أقامه ثم أخرج به إلى الناس"⁹.

6. اللخاف جمع خففة- بضم اللام وسكون الخاء- هي الحجارة الرقاق، وقال الخطابي: صفائح الحجارة. والعسب: جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. والأكتاف جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة كانوا إذا جف كتبوا عليه. والرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. والأقتاب: جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه، وقطع الأديم وهو الجلد المدبوغ. أنظر: الإتيان: 168/1، الجمع الصوتي الأول للقرآن أو المصحف المرتل للدكتور لييب السعيد، ط: 2، 1978، دار المعارف، بيروت، ص: 32-33.

7. مدخل إلى القرآن لعبد الله دراز، ص: 3.

8. أنظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1379، (18/9).

9. أنظر: تاريخ توثيق نص القرآن الكريم لخالد عبد الرحمن العك، دار القلم، دمشق، ص: 47.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) كانت تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا» الحديث¹⁰.

حفظ الصحابة للقرآن:

كان (ﷺ) يستحفظ أصحابه القرآن كما جاء في البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب». وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتبادرون إلى النبي (ﷺ) وإلى من سماهم من الحفظة يأخذون منهم القرآن ويحفظونه كل على قدر طاقته، يتسابقون إلى مدارسته وتفهمه، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه، وكانوا يهجرون لذة النوم وراحة الهجود إثارةً للذة القيام في الليل، والتلاوة له في الأسفار، والصلاة به والناس نيام حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدجى يسمع فيها دوي النحل بالقرآن، وكان الرسول (ﷺ) يذكي فيهم روح هذه العناية بالتنزيل، ويبلغهم ما أنزل إليه من ربه، ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته يعلمانهم الإسلام ويقرئانهم القرآن، وأرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء¹¹. وقد استطاع استجماع القرآن كله - حفظاً - غير هؤلاء الأربعة: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو زيد عم أنس بن مالك، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد بن الصامت، وطلحة، وحذيفة، وأبو هريرة، وسعد بن عبيد، ومن النساء الصحابيات: عائشة، وحفصة، وأم سلمة أزواج النبي (ﷺ)، وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث، وغيرهم كثير، فقد ثبت في الصحيح أن يوم بئر معونة قتل فيه من الأنصار سبعون كانوا يسمون القراء¹².

10. أنظر: الإتيقان، وتاريخ توثيق نص القرآن الكريم، 172/1، ص: 48، وأنظر: الحديث بتمامه في فضائل القرآن للنسائي، ص: 70، 71.

11. أنظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت، ط: 1، 1996، (241/1)، ص: 49.

12. تاريخ توثيق نص القرآن الكريم، خالد عبد الرحمن العك ص: 49.

تدوين الصحابة للقرآن الكريم:

وإذا كانت كتابة الوحي في عهده (ﷺ) لم تأخذ طابعها الرسمي، فإن هناك واقعة أكيدة وهي أن المؤمنين لم يتوانوا منذ البداية - بل وخلال صنوف الاضطهاد التي تعرضوا لها - في تسجيل الآيات القرآنية التي وصلتهم في مخطوطات شخصية لاستعمالهم الخاص، وقصة إسلام عمر رضي الله عنه بعد دخوله على أخته فاطمة زوجها سعيد بن زيد وعندهما خباب بن الأثر ومعه صحيفة فيها سورة «طه» لأوضح دليل على ذلك¹³.

ومن الجلي أن هذه المخطوطات على هيئتها الأولى لم تكن تمثل مجموعة متجانسة ومنظمة ومرقمة، وكما أن الرسول (ﷺ) لم يكن عنده شيء مكتوب، فلم يكن كذلك عند الأفراد في هذه الحقبة نسخة واحدة كاملة من القرآن، وإنما كانت المخطوطات متفرقة ومبعثرة بين المؤمنين، ولم تأخذ شكلها النهائي في صدورهم إلا قرب نهاية حياته (ﷺ)، ولم تكن مجموعات الآيات المنزلة - منذ وقت مبكر - لتبقى منعزلة بعضها عن بعض، ولا أن تتوالى في ترتيب زمني بعضها تلو الأخرى حسب نزول الوحي. فقد كانت مجموعات كثيرة منها تتزايد بمعزل عن مجموعات أخرى وتكون تدريجياً وحدات مستقلة بعد أن تنضم إليها آيات أخرى نزلت بعدها، وأن بعضها كانت تضاف هنا والأخرى تتداخل مع غيرها هناك بحسب أمر الرسول الصريح الذي كان يتلقاه بدوره من الروح القدس¹⁴.

وحتى تتاح الفرصة لسور القرآن الكريم كي يتم بناؤها تدريجياً، كان ينبغي الانتظار إلى أن يكتمل الوحي كله لإخراج القرآن في شكل وحدة كاملة، فقد أخرج الحاكم في مستدركه بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال: «كنا عند رسول الله (ﷺ) نؤلف القرآن من الرقاع»¹⁵. قال البيهقي يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي (ﷺ)¹⁶.

ورغم غياب تتابع نزول الآيات المكتوبة في هذه المرحلة، فإن ذلك لم يحل بين المؤمنين وبين المعرفة الشفوية لموضع كل آية جديدة من كل سورة على وجه التحديد، وفي كل مرحلة من مراحل نزول الوحي، وكذلك كان الأمر بالنسبة للصلاة والتعاليم والوعظ والقراءات، وهكذا نرى أنه كان في حياة الرسول (ﷺ) مئات من الصحابة يطلق عليهم

13. قصة إسلامه مشهورة، أنظر: السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، (1/365-368).

14. مدخل إلى القرآن الكريم، ص: 35.

15. المستدرک على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: عبد السلام بن محمد علوش، دار المعرفة، بيروت (2/611).

16. الإتيقان، (1/164).

حفظه القرآن قد تخصصوا في تلاوة القرآن وفي حفظه عن ظهر قلب- كما أسلفت الإشارة إلى ذلك- وفي معرفة كل سورة في هيئتها المؤقتة¹⁷ أو النهائية.

وقد كان كل ما يكتب من القرآن على عهد النبي (ﷺ) يحفظ في بيته، والشيعه يروون في هذا أن رسول الله (ﷺ) قال لعلي كرم الله وجهه: « يا علي؛ إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه »¹⁸.

ولئن قيل: «إن الثابت هو أن النبي (ﷺ) لحق بالرفيق الأعلى والقرآن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور، فقد علمنا بأن ذلك كان من حيث الكتابة فقط لا من حيث الحفظ في الصدور، فقد كان (ﷺ) يقوم بعرض ما تنزل عليه من القرآن على جبريل في شهر رمضان من كل عام، وإنه في العام الأخير عارضه بالقرآن مرتين¹⁹. روى البخاري في صحيحه والنسائي في فضائله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « كان يعرض على النبي (ﷺ) القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه »²⁰.

وهكذا تنتهي المرحلة الأولى والقرآن الكريم مدون في الصحف المتفرقة، ومحفوظ في صدور المئات من الصحابة الذين تلقوه من رسول الله مباشرة أو من الصحابة الحفاظ الذين شهد لهم رسول الله بالحفظ، وأمر بأخذ القرآن منهم، وهؤلاء بدورهم أخذوه من رسول الله (ﷺ) على وفق ما كان يتلقاه من جبريل ويؤكد له بعرضه عليه كل سنة، وفي هذا المنهج من التحقيق والتثبت والتوثيق ما يطمئن قلوب المؤمنين، ويدحض حجج المشككين والمعاندين.

جمع القرآن في عهد الخليفين أبي بكر وعثمان

أولاً: جمع القرآن في عهد أبي بكر

لم يمض عام واحد بعد أن قبض رسول الله (ﷺ) إلا وبدت الحاجة ملحة لجمع وثائق القرآن المبعثرة في مجموعة مدونة سهلة الاستعمال، حيث تتابع آيات كل سورة كما هو ثابت من قبل في حافظة عدد كبير من المؤمنين، وكان الدافع الرئيسي والمباشر لهذا الجمع في عهد

17. مدخل إلى القرآن الكريم، ص: 35.

18. الجمع الصوتي الأول للقرآن، الكريم أو المصحف المرتل بواعثه ومخططاته، لسبب السعيد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص: 33.

19. الإتيان: 164/1.

20. أنظر: فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن باري محمد فؤاد عبد الباقي، محيي الدين الخطيب، دار المكتبة السلفية، (42/1)، ص: 61.

أبي بكر الصديق، ارتداد بعض العرب عن الإسلام وظهور مسيلمة في عدد من أتباعه مدعيًا النبوة، فتصدى أبو بكر لقتالهم جميعًا في غزوة اليمامة²¹، وقتل من الصحابة يومئذ عدد كبير²²، فأثار ذلك الخوف على القرآن.

روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع فقال: ²³

«... عن زيد بن ثابت قال: أرسل إلي أبو بكر - مقتل أهل اليمامة- فإذا عمر بن الخطاب عنده.

- قال أبو بكر رضي الله عنه:

إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحر يوم اليمامة بقرآن وإني أخشى أن يستمر القتل في المواطن²⁴، فيذهب كثير من القرآن²⁵، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

- قلت لعمر:

كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله (ﷺ)؟

- فقال عمر: هذا والله خير.

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك رأي عمر.

- قال زيد: وقال أبو بكر:

- إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ﷺ): فتتبع القرآن واجمعه.

- قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علي مما أمروني به من جمع القرآن.

21. ذكر الحافظ ابن كثير في كتابه فضائل القرآن، دار الأندلس، ط: 4، 1979، ص: 15 قصة هذا القتال وفيه أن مسيلمة الكذاب التف معه من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهر أبو بكر لقتاله خالد بن الوليد في قريب من ثلاثة عشر ألفًا، فالتقوا معهم فانكشف الجيش الإسلامي لكثرة من فيه من الأعراب، فنادى القراء من كبار الصحابة: يا خالد خلصنا، يقولون: ميزنا من هؤلاء الأعراب فيتميزوا منهم وينفردوا، فكانوا قريبًا من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة وقتلوا قتالا شديدا وجعلوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة. فلم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله عليهم، وولى جيش الكفر فارا، وأتبعهم السيوف المسلمة في اقفيتهم قتلا وأسرا، وقتل الله مسيلمة وفرق شمل أصحابه، ثم رجعوا إلى الإسلام، وقد قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة رضي الله عنهم، مما دفع عمر رضي الله عنه ليشير على أبي بكر بأن يجمع القرآن.

22. روى الطبري في تاريخ الأمم والملوك في حوادث السنة الحادية عشرة من الهجرة أنه استشهد في هذه الغزوة من الصحابة 450 وقيل 700 وقيل أكثر، وجملة القتلى من المسلمين 960 أو يزيدون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار دخائر العرب، (252/3).

23. أنظر: فتح الباري لابن حجر (13-8/9).

24. أي: الأماكن التي يقع فيها القتال.

25. أي: بذهاب حفاظه فينقصون عن عدد التواتر مما يجعله ظنيا لا يؤمن الغلط فيه.

- قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله (ﷺ).

- فقال: هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتبعت القرآن أجمعه من العصب واللخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر التوبة «لقد جاءكم...»²⁶ مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل النبي (ﷺ) شهادته بشهادة رجلين، لم أجدها مع غيره فألحقها في سورتها»²⁷.

ومن خلال هذا الحوار الذي دار بين عمر وأبي بكر رضي الله عنهما حول جمع القرآن تجلت المصلحة لأبي بكر واقتنع بصواب الفكرة وشرح الله لها صدره، وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ كتاب الله عز وجل والمحافظة عليه من التحريف والضياع، وإنه ليس من محدثات الأمور، وضلالات البدع، بل هو مستمد من القواعد التي وضعها الرسول (ﷺ) بتشريع كتابة القرآن، واتخاذ كتاب للوحي وجمع ما كتبه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه.

قال الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي في كتاب فهم السنن: «كتابة القرآن ليست بمحدثه، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابتها، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعصب، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله (ﷺ) فيها القرآن منتشرًا، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء»²⁸.

تنفيذ أبي بكر للفكرة:

لما كان الصحابة قد شاهدوا الوحي والتنزيل، ومنهم من حفظ القرآن عن ظهر قلب، ومنهم من كان يكتب الوحي ويدونه، وكان تزوير ما ليس منه مأموناً، وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صحفه²⁹. فقد اهتم أبو بكر بتحقيق هذه الرغبة، فانتدب لتحقيقها رجلاً من خيرة رجال الصحابة هو زيد بن ثابت رضي الله عنه، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات

26. سورة التوبة / 129-130.

27. ليس معنى ذلك إثبات الآية بخبر الواحد، لأن زيدا كان قد سمع الآيتين وحفظهما عن ظهر قلب وعلم موضعهما في سورة التوبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك زيادة في التوثيق لأنه لو لم يكن يعرفها فكيف افتقدتها؟ ويقول ابن حجر - معترضاً بعدة روايات موثقة - إن أبا خزيمة لم ينفرد بها، بل كان معه عمر، وزيد وعثمان وأبي بن كعب. أنظر: فتح الباري، (9/12، 13).

28. الإتيان (168/1).

29. نفس المرجع.

الأثر في القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال، إذ كان من حفاظ القرآن ومن كتبه الوحي لرسول الله (ﷺ)، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته (ﷺ)، وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله وشدة ورعه، وعظم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، إلا أن زيدا رضي الله عنه تردد في بداية الأمر، لكنه سرعان ما اقتنع بصواب ما ندب إليه³⁰.

وقد أتبع في هذا الجمع منهج دقيق حريص متحرج؛ أعان على وقاية القرآن من كل ما لحق النصوص الأخرى من مظنة الوضع والانتحال وعوامل النسيان والضياع، وقد حدد الدكتور لبيب السعيد هذا المنهج في العناصر التالية:

1. كان كل من تلقى من رسول الله (ﷺ) شيئاً من القرآن يأتي به، ومعلوم أن ذلك كان بكل الأحرف السبعة التي نزل بها.

2. وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب³¹.

3. وكان لا يكتب إلا:

أ. من عين ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم لا من مجرد الحفظ، مع المبالغة في الاستظهار والوقوف عند هذا.

ب. وما ثبت أنه عرض على النبي (ﷺ) عام وفاته دون ما كان مأذونا فيه قبلها.

ج. وما ثبت أنه من الوجوه التي نزل بها القرآن.

4. وكانت كتابة الآيات والسور على الترتيب والضبط اللذين تلقاهما المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

5. وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان³²، أي أنه لم يكن يكتفي بمجرد وجود الشيء مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً.

³⁰ مناهل العرفان (250/1).

³¹ الظاهر أن جمع القرآن على يد بن ثابت كان في الصحف لا في الألواح والعصب، ففي مغازي ابن عقبة عن ابن شهاب قال: «لما أصيب المسلمون باليامة فرع أبو بكر وخاف أن يذهب من القرآن طائفة، فأقبل الناس بها كان معهم وعندهم حتى جمع في عهد أبي بكر في الورق فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في الصحف. قال ابن حجر: "ووقع في رواية عمارة بن غزيرة أن زيد بن ثابت قال: "فأمرني أبو بكر فكتبت في قطع الأديم والعصب، فلما هلك أبو بكر وكان عمر كتبت ذلك في صحيفة واحدة فكانت عنده. ثم قال والأول أصح، إنما كان في الأديم والعصب أولاً قبل أن يجمع في عهد أبي بكر ثم جمع في الصحف في عهد أبي بكر كما دلت عليه الأخبار الصحيحة المترادفة». الاتقان: (169/1).

³² قال ابن حجر: «وكان المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب أو المراد أنها يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن». فتح الباري (12/9).

6. وبأمر أبي بكر كان عمر وزيد يقعدان على باب المسجد- وهو وقتئذ مقر لجنة الجمع- ليكتبا ما يشهد عليه الشاهدان³³.

وكان في هذا المنهج ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق وتحريات شاملة، وقد التزمت اللجنة بهذه القواعد التزاما كاملا حتى إن عمر نفسه رضي الله عنه أتى بآية الرجم فلم يكتبها لأنه كان وحده³⁴.

وعلى هذا المنهج تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ولعمر في الاقتراح ولزيد في التنفيذ وللصحابة في المعاونة والإقرار.

وبعد جمع القرآن بكل هذه الاحتياطات، سلمه زيد إلى أبي بكر الذي احتفظ به طوال خلافته وعهد به قبل موته إلى عمر المرشح للخلافة من بعده، ثم قام عمر بتسليمه إلى ابنته حفصة أم المؤمنين في آخر لحظة من حياته لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع في ذلك الوقت.

ثانيا: جمع القرآن في عهد الخليفة عثمان بن عفان

1. دواعي هذا الجمع:

لما امتدت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان واتسعت رقعة الإسلام وتفرق المسلمون في الأقطار والأمصار بعيدا عن منزل الوحي، يلقنون الناس القرآن على النحو الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم وقعت بينهم اختلافات يسيرة في حروف الأداء ووجوه القراءة، وفتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن، فكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يقرأون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة، فأهل الشام يأخذون بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود، وهناك من يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري.

وفي سنة 25 من الهجرة، أي في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة عثمان، وبعد أن قبض رسول الله (ﷺ) بخمس عشرة سنة- فتحت أرمينية، وكان عثمان أمر أهل الشام وأهل العراق أن يجتمعوا على ذلك، وكان حذيفة من جملة من غزا معهم، وكان هو على أهل

33. الجمع الصوتي الأول للقرآن، ص: 37، 38.

34. الاتقان: (168/1).

المدائن وهي من جملة أعمال العراق³⁵، فرأى حذيفة اختلاف أهل الشام والعراق وتنازعهم في القراءة حتى كادت تكون بينهم فتنة، ففرع لذلك، فقدم على عثمان فقال: يا أمير المؤمنين أدرك الناس، قال: وما ذاك؟ قال غزوت أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبي كعب فيأتون بما لم يسمع أهل العراق وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفر بعضهم بعضاً³⁶.

وكان هذا الاختلاف قد وقع مثله في المدينة فوصل إلى عثمان أيضا « حتى اقتتل الغلمان والمعلمون، فقال عثمان رضي الله عنه: لديّ تكذبون به وتلحنون فيه، فمن نأى عني كان أشد تكذيبا وأكثر لحنا، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماما³⁷ ».

يضاف إلى هذا أن الأحرف السبعة³⁸ التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون، إنها كان كل صحابي في إقليم يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الشقاق والخلاف. فكانت هذه جملة من الدواعي والأسباب التي دعت سيدنا عثمان رضي الله عنه إلى تدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع، فجمع أعلام الصحابة وذوي الرأي منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة ووضع حدا لهذا الاختلاف، فقال لهم: « أرى أن نجتمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف، فقال الصحابة: نعم ما رأيت³⁹ ».

2. تشكيل لجنة الجمع:

أرسل عثمان رضي الله عنه إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر أن أرسلني إلينا⁴⁰ بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت

35. فتح الباري: 14/9.

36. فتح الباري: 15/9. في رواية أخرى - في نفس المرجع - أن يزيد بن معاوية النخعي قال: «إني لفي المسجد زمن الوليد بن عقبة في حلقة فيها حذيفة فسمع رجلا يقول قراءة عبد الله بن مسعود، وسمع آخر يقول قراءة أبي موسى الأشعري فغضب ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين».

37. الإتيان (170/1) وفتح الباري (15/9، 16)، ومن هنا جاءت تسمية المصحف العثماني بالإمام. لاعتقاده دون سواه، ومعلوم أن المصاحف التي كانت سائدة في عهد عثمان حرق بعد جمع القرآن في المصحف العثماني.

38. نزول القرآن على سبعة أحرف ورد في عدة نصوص رواها البخاري ومسلم في صحيحهما ورواها غيرهما مما جعل الإمام أبا عبيد بن سلام يقول بتواتر حديث " أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف ". أنظر: هذه الأحاديث والكلام عنها في: مناهل العرفان في علوم القرآن (139/1) وما بعدها.

39. فتح الباري: 16/9.

40. أي تلك التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق.

وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف⁴¹.

وفي رواية مصعب بن سعد بن أبي وقاص أن عثمان قال: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت. قال: فأبي الناس أعرب؟ وفي رواية أفصح؟ قالوا: سعيد بن العاص.

قال عثمان: فليملل سعيد وليكتب⁴² زيد.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنها نزل⁴³ بلسانهم.

ولما احتاجوا إلى من يساعد في الإملاء أو الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق أضافوا إلى زيد جماعة منهم مالك بن أبي عامر جد مالك بن انس، وكثير بن أفلح، وأبي بن كعب وأنس بن مالك، وعبد الله بن عباس⁴⁴. وقد جاء من طريق محمد بن سيرين أن عثمان جمع اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار لجمع القرآن⁴⁵.

وتفيد بعض الروايات أن هذه اللجنة ضمت أيضاً عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبان بن سعيد، وربما كان القصد من كل هذه الجماعة المساعدة المشتهر أعضاؤها بالضبط والمعرفة أن ينضم العدد إلى العدالة، وإلا فقد كان زيد قادراً بذاته على هذه المهمة⁴⁶.

وقد أثار تشكيل هذه اللجنة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وشق عليه صرفه عن كتابة المصحف وإسنادها إلى زيد بن ثابت حتى قال: «يا معشر المسلمين، أعزل عن نسخ كتابة المصاحف ويتولاها رجل، والله أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر، يريد زيد بن ثابت⁴⁷».

41. فتح الباري: 16/9.

42. فتح الباري: 16/9.

43. نفس المرجع، ص: 17.

44. نفس المرجع، ص: 16، 17.

45. نفس المرجع، ص: 16.

46. أنظر: الجمع الصوتي الأول للقرآن، ص: 48، 49 نقلاً عن الكواكب الدرية للحداد خلف الحسيني، ص: 21، 22.

47. فتح الباري، 17/9.

وإذا كان ابن مسعود يرى في نفسه الأهلية والكفاءة للقيام بهذا العمل لعدة اعتبارات منها:

1. إنه أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله (ﷺ) أيام شدة المسلمين وضعفهم⁴⁸.
 2. إنه أعطي حظاً عظيماً في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيبه، حتى لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد »⁴⁹ يعني عبد الله بن مسعود.
 3. إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتعلم القرآن من أربعة، أولهم عبد الله بن مسعود. فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول: استقرئوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل⁵⁰.
 4. كان ابن مسعود يقول: « أخذت من في رسول الله (ﷺ) سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لصبي من الصبيان »⁵¹. وكان يقول: « والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه »⁵².
- إلا أن عثمان رضي الله عنه قد يكون اختار زيد بن ثابت لعدة أسباب وجيهة:
1. لقد جمع القرآن بالمدينة وعبد الله بن مسعود بالكوفة وقتئذ، ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر⁵³.
 2. إن عثمان رضي الله عنه إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر وأن يجعلها مصحفاً واحداً، وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر هو زيد بن ثابت لكونه كان كاتب الوحي فكانت له في ذلك أولية ليست لغيره⁵⁴.
 3. إن زيد بن ثابت قرأ القرآن على رسول الله (ﷺ) في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وسميت هذه القراءة بقراءة زيد بن ثابت لأنه كتبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة، وكان يقرئ الناس بها حتى مات⁵⁵.

48. أنظر: قصة جهرة بالقرآن في سيرة ابن هشام، 336/1.

49. مسند الإمام أحمد، باب فضل القراءة عبد الله بن مسعود.

50. صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب سالم مولى ابن حذيفة، رقم الحديث: 3758.

51. فتح الباري، 17/9 وفي رواية بضع وسبعون سورة. نفس المرجع 43/9.

52. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي، رقم الحديث: 5002.

53. فتح الباري، 17/9.

54. نفس المرجع.

55. تاريخ نص القرآن الكريم، ص: 78، نقلاً عن المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة، ص: 69.

4. وكان زيد بن ثابت- مثل ابن مسعود- من الستة الصحابة أصحاب الفتوى وهم: عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وزيد بن ثابت⁵⁶.
5. إن قول أبي بكر لزيد يوم طلب منه الجمع الأول للقرآن: «إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي» تفيد أن لزيد - كما يقول ابن حجر- أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك:

- كونه شاباً فيكون أنشط لما يطلب منه.
- وكونه عاقلاً فيكون أوعى له.
- وكونه لا يتهم فتركن النفس إليه.
- وكونه كان يكتب الوحي فيكون أكثر ممارسة.

ثم يقول ابن حجر: وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره ولكن مفرقة⁵⁷.

3. منهج الجمع العثماني:

لقد كان عمل اللجنة التي تولت جمع القرآن بأمر سيدنا عثمان رضي الله عنه ينحصر في الأمور التالية:

1. إحضار الصحف التي توجد في بيت أم المؤمنين حفصة بنت عمر، واعتماد عمل اللجنة الأولى التي تولت الجمع على عهد أبي بكر وكان مستنداً - كما سبقت الإشارة إلى ذلك- على الأصل المكتوب بين يدي النبي (ﷺ) وبأمره⁵⁸.
2. أن يتعهد هذه اللجنة خليفة المسلمين بنفسه⁵⁹.
3. أن يأتي كل من عنده شيء من القرآن سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم⁶⁰.
4. كانوا إذا اختلفوا وتدارؤوا في آية، قالوا هذه أقرأها رسول الله (ﷺ) فلانا فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له: كيف أقرأك رسول الله (ﷺ) آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً⁶¹.

56. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، ط: 1، مطبعة السعادة، مصر، 1328 هـ (23/3).

57. فتح الباري، (10/9، 11).

58. الإتيان: (170/1) والجمع الصوتي الأول للقرآن، ص: 58.

59. الإتيان: (170/1).

60. المصاحف، أبو بكر بن أبي داود، تحقيق: آرثر جفري، المطبعة الرحمانية، مصر، 1355 هـ، (24/1).

61. الإتيان: (170/1).

5. الاقتصار على لغة قريش عند الاختلاف، لأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع قراءته بلغة غيرهم رفعا للخرج والمشقة في ابتداء الأمر، فقد رأى عثمان أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقصر على لغة واحدة⁶².

6. جمع القرآن على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي (ﷺ) وإلغاء ما ليس كذلك، والأخذ بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد⁶³.

7. عدم كتابة ما لم يكن في العرصة الأخيرة، وما نسخت تلاوته، وما لم يثبت من القراءات، وما كانت روايته أحادا، وما لم تعلم قرآنيته، أو ما ليس بقرآن كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحا لمعنى أو بيانا لناسخ أو منسوخ أو غير ذلك⁶⁴.

8. عند كتابة لفظ تواتر النطق به على أكثر من وجه، تبقي اللجنة هذا اللفظ خالياً من أية علامة تقصر النطق به على وجه واحد لتكون دلالة اللفظ الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المفهومين⁶⁵. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

• «فتبينوا» التي قرئت أيضا «فتثبتوا»⁶⁶.

• «ننشرها» التي قرئت أيضا «ننشرها»⁶⁷.

• «أف» التي قرئت بثلاث قراءات⁶⁸.

وأما الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضا فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة،

62. الإتيان: (1/ 171).

63. نفس المرجع.

64. نفس المرجع، ص: 171. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط: 1، 1376 هـ، بيروت، لبنان، (1/ 235، 236).

65. النشر في القراءات العشر، شمس الدين ابن الجزري، تصحيح ومراجعة علي محمد الضياع، المطبعة التجارية الكبرى، (33/1).

66. سورة الحجرات: 6.

67. سورة البقرة: 259.

68. سورة الإسراء: 23.

وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية كقراءة «وصى» بالتضعيف، و«أوصى» بالهمز، وهما قراءتان في قوله تعالى: «ووصى بها إبراهيم بنيه»⁶⁹.

وكقراءة «جنات تجري تحتها الأنهر»⁷⁰ ترسم بأحد المصاحف بزيادة «من» قبل تحتها.

وكقراءة «إن الله هو الغني الحميد»⁷¹ تثبت في أحد المصاحف بحذف «هو»⁷².

9. التزام اللجنة ما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد اتبعه في العرضة الأخيرة- في السنة التي توفي فيها- في شأن ترتيب آيات كل سورة، واعتبار هذا الترتيب توقيفياً من الله بالإجماع⁷³. والتزامها كذلك في ترتيب السور ما كان في عهد النبي (ﷺ) وما روعي في جمع أبي بكر أيضاً⁷⁴.

4. تحريق عثمان للمصاحف المخالفة؛

بعد أن تم جمع القرآن على المنهج المبين أعلاه، عمل عثمان رضي الله عنه على إرسال نسخ منها إلى الأقطار⁷⁵، وأمر أن يحرق كل ما عداها مما يخالفها، سواء كانت صحفاً أم مصاحف، وإذا كان إعدام هذه المخطوطات الفردية يبدو فيه شيء من القسوة في الوقت الذي لم يوجد بالفعل أي تحريف على الإطلاق، فإنه يدل مع ذلك على أن عثمان كان بعيد النظر، وعميقاً في إدراك حقيقة الأمور.

ويرجع فضل تمتع المسلمين اليوم- كما يقول الدكتور دراز- بوحدة كتابهم واستقراره، إلى هذا العمل المجيد من جانب عثمان، ومهما أضيف إلى المصحف العثماني من علامات خارجية (ابتكرها أبو الأسود الدؤلي وأتباعه، ونصر ابن عاصم، ويحيى بن يعمر، وحسن البصري، وخليل بن أحمد)، فإن النص باق كما هو على الدوام يتحدى فعل الزمن، ووجود بعض الحروف الزائدة أو الكلمات المدغمة أو الكتابات القديمة التي اقتضت على كتابة المصاحف وحدها في جميع نسخ القرآن اليوم المطبوع منها والمخطوط، يعد شهادة بليغة على

69. سورة البقرة: 132.

70. سورة التوبة: 100.

71. سورة الحديد: 24.

72. أنظر: مناهل العرفان 258/1 والجمع الصوتي الأول للقرآن: 62.

73. الإتقان: 172/1.

74. الجمع الصوتي الأول للقرآن، ص: 62.

75. اختلف في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الأقطار الإسلامية ف قيل سبعة أرسل بها إلى مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبس بالمدينة واحداً (أنظر: الإتقان: 172/1).

الأمانة التي انتقل بها البناء القرآني من جيل إلى جيل حتى وصل إلينا بهذا الكمال المنقطع النظير⁷⁶، وتكفي شهادة سيدنا علي كرم الله وجهه على جليل هذا العمل الذي قام به سيدنا عثمان رداً على من شكك أو شك في عمل بحجة أن ذلك لم يعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذي فعل إلا عن ملاء منا»⁷⁷.

شبهة تعارض المصحف العثماني مع مصاحف بعض الصحابة:

من الأمور التي يثيرها بعض المعنيين بالدراسات القرآنية - جهلاً أو كيداً - ما يقال من أن المصحف العثماني الذي أجمع عليه المسلمون يخالف خطأ أو زيادة أو نقصاً أو ترتيباً مصاحف عدد من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، الذين عاصروه وشهدوا الوحي:

وقد تعددت المصاحف التي قيل أنهم كتبوها، فهناك مصاحف منسوبة إلى عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وأبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك، وعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبيد بن عمير، وأمّهات المؤمنين: عائشة، وحفصة، وأم سلمة⁷⁸.

ومع أن هذه المصاحف على فرض وجودها ومخالفتها للمصحف العثماني فردية وخاصة، ومع أن من أصحابها من قيل أنه اشترك في الجمع العثماني مثل أبي بن كعب، ومنهم أيضاً من كان أحد المجمعين على فعل عثمان مثل علي بن أبي طالب، فقد روي الكثير عن اختلاف هذه المصاحف عن مصحف عثمان⁷⁹، وكأنها وجد بعض المستشرقين في ذلك ميداناً مناسباً يشفي رغبة في صدورهم في زلزلة العقيدة الإسلامية، وفتح أبواب الشكوك والزيغ حول نص القرآن المتواتر، وفصم العروة الوثقى والرابطة المحكمة بين المسلمين، مما جعلهم يلحون في طلب روايات الاختلاف ويوسعون البحث فيها، وينقلونها في غير تحرز، ولا يمتحنون أسانيدها، ولا يلتفتون إلى آراء علماء المسلمين فيها⁸⁰.

76. مدخل إلى القرآن الكريم، ص: 50، 51.

77. الإتيان: 170/1.

78. أنظر: الجمع الصوتي، ص: 319، 320.

79. قام عدد من العلماء بالتأليف في موضوع "اختلاف المصاحف وذلك لبيان القراءات التي لا يحتملها رسم واحد، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الجمع العثماني: من بينهم: أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني، ت 248هـ، وابن أبي داود السجستاني ت 316 هـ، وابن اثينة الأصبهاني ت: 360 هـ. (أنظر: تاريخ القرآن، إبراهيم الأبياري، دار الشروق، بيروت، لبنان، ص: 99، 100).

80. أنظر: الجمع الصوتي الأول للقرآن، ص: 323.

ومهما يكن من أمر، فإن المصاحف المقول بمخالفتها لمصحف عثمان- على فرض أنها بقيت بعد الجمع العثماني- لم تظفر بما ظفر به هذا الأخير من إجماع الصحابة وثقتهم وأخذهم بها تضمنه من الأوجه والقراءات، وقد تنبه المسلمون منذ قديم إلى أن هذه المصاحف كانت فردية كتبها أصحابها لأنفسهم، وإنها ربما تضمنت ما كانت روايته أحادا وما نسخت تلاوته وما لم يكن في العرصة الأخيرة، وإنه اختلطت فيها أحيانا الألفاظ القرآنية بالشرح وبيان التأويل: مما دفع بعثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المصحف إلى أن يأمر بحرقها على ملأ من الصحابة وبموافقتهم ولم ينكر عليه ذلك أحد.

وقد تتبع الدكتور لبيب سعيد أشهر التحريفات المدعاة على مصحف عثمان مفندا تلك الدعاوى بما يشفي الغليل مع عرض آراء علماء السلف من الفقهاء والمفسرين، والمعنيين بعلوم القرآن عامة⁸¹، مما يدل على أن المسلمين في جميع عصورهم، قد أولوا القرآن أصدق عناية، وضبطوه أشد ضبط، وحفظوه أتم حفظ⁸²، وصدق الله العظيم إذ يقول: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»⁸³.

81. أنظر: المصدر السابق، ص: 325 وما بعدها، وأيضا مناهل العرفان 236/1 وما بعدها.

82. أنظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي 240/1.

83. الحجر: 9.

المبحث الثاني ترتيب القرآن الكريم

ترتيب الآيات

تتضافر النصوص النبوية على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر صحابته من كتبة الوحي أن يضعوا الآية أو مجموعة من الآيات في موضعها المعين من السورة، وذلك بناء على توجيه من ملك الوحي جبريل، الذي كان يتلقى عنه النبي (ﷺ) كلمات ربه وتوجيهه. ولم يكن للصحابة الكرام أي شأن في ترتيب آيات القرآن في السور، والحجة في ذلك النصوص المترادفة وإجماع الأمة على ذلك.

فمن النصوص الواردة في ذلك:

- ما أخرجه الإمام النسائي في « فضائل القرآن » عن يوسف بن ماهك قال: «إني لعند عائشة أم المؤمنين إذ جاءها عراقي فقال: أي أم المؤمنين أرني مصحفك قالت: لم؟ قال: أريد أن أؤلف عليه القرآن، فإننا نقرؤه غير مؤلف، قالت: ويحك، وما يضرك أيتته قرأت قبل، إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع شرب الخمر، ولو نزل أول شيء لا تزنا لقالوا: لا ندع الزنا، وإنه أنزلت « والساعة أدهى وأمر » بمكة وإني لجارية ألعب مع محمد، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده: قال: فأخرجت إليه المصحف، فأملت عليه أي السور»¹.

- وما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان ما حملكم إن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني إلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينها، ولم تكتبوا بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموها في السبع الطول؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا... الحديث².

- وما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: "كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه، ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع

1. أنظر: فتح الباري: (38/9)، وفضائل القرآن للنسائي، ص: 56. فضائل القرآن، ابن كثير، دار الأندلس، بيروت، ط 4، 1979م، ص: 39، 40.

وفي هذا الحديث دليل على توقيفية الآيات في سورها ووجوب قراءتها على ترتيبها التوقيفي الذي جاء عن الشارع.

2. أنظر: الاتقان (72/1)، وفضائل القرآن للنسائي، ص: 70، 71.

هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى»³ إلى آخرها.

- وما أخرجه البخاري عن أبي الزبير قال: قلت لعثمان: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا»⁴ قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: «يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه»⁵.

- وما أخرجه مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي (ﷺ) عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله، حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: «تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»⁶.

- وما أخرجه مسلم أيضا عن أبي الدرداء مرفوعاً «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال» وفي لفظ عنده: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف»⁷.

ومن النصوص الدالة على ذلك إجمالا ما ثبت من قراءته صلى الله عليه وسلم لسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء⁸. وأنه قرأ سورة الأعراف في صلاة المغرب⁹ و«سورة قد أفلح» في صلاة الصبح، وسورة الروم في الصبح أيضا، و«الم تنزيل» وهل «أتى» في صبح الجمعة¹⁰، و«ق» في الخطبة، وغير ذلك من السور¹¹ التي كان يقرأها صلى الله عليه وسلم في الصلاة وفي غيرها من المناسبات، وبمحضر من الصحابة مما يدل على «أن ترتيب أيها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر»¹². قال ابن الحصار: «وضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي... وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف»¹³. وأما الإجماع فقد حكاه الزركشي وابن الزبير.

3. سورة النحل: 90.

4. سورة البقرة: 234.

5. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: (والذين يتوفون منكم، البقرة: 234) رقم الحديث: 4530.

6. صحيح مسلم، كتاب الفرائض، باب: ميراث الكلاله، رقم الحديث: 1617.

7. صحيح مسلم، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم الحديث: 809.

8. سنن أبي داود: 216/1، ضبط وتعليق محيي الدين عبد الحميد، نشر دار إحياء السنة النبوية.

9. سنن أبي داود، أبواب: تفریع استفتاح الصلاة، باب قدر القراءة في المغرب، رقم الحديث: 812.

10. سنن أبي داود: 169/1.

11. أنظر: الإتيان 174/1 وسنن أبي داود: 180/1.

12. أنظر: الإتيان 174/1.

13. نفس المرجع 176/1.

وقال الزركشي: «فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه»¹⁴.

وقال ابن الزبير: «إن ترتيب الآيات في سورها وقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين»¹⁵.

وأما أقوال العلماء الدالة على توقيفية الآيات في سورها فقد أورد السيوطي طائفة منها¹⁶ نذكر من بينها ما يلي:

قال مكّي وغيره: ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة.

- وقال القاضي أبو بكر في الانتصار: «ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا».

وقال أيضا: «الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمته الله تعالى، ورتبه عليه رسوله من أي السور، لم يقدم من ذلك مؤخر ولا آخر منه مُقدّم، وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب أي كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة».

- وقال البغوي في شرح السنة: «الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله... ووضعوا له ترتيبا لم يأخذه من رسول الله (ﷺ)¹⁷، وكان رسول الله (ﷺ) يلقي أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية، أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ثم كان ينزله عند الحاجة وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة».

14. أنظر: البرهان 256/1.

15. أنظر: البرهان في ترتيب سور القرآن الجزء الثاني من هذا الكتاب، ص: 182.

16. أنظر: الإتيان (175/1-176).

17. يقصد بذلك ترتيب الصحابة لمصاحفهم الخاصة التي خالفت في ترتيبها المصحف العثماني.

ترتيب السور

إذا كان الأمر بالنسبة لترتيب الآيات في المصحف موضوع اتفاق بين العلماء في كونه من الشارع وبتوقيف منه صلى الله عليه وسلم، فإن الأمر يختلف في مسألة ترتيب السور، حيث تعددت آراء العلماء في ذلك واختلفت أقوالهم وبتتبعها واستقراءها يمكننا أن نحصرها فيما يلي:

1. ترتيب السور اجتهادي:

استند أصحاب هذا الرأي إلى اختلاف الصحابة في ترتيب مصاحفهم، فمنهم من كتب السور في المصحف على تاريخ النزول وقدم المكي على المدني، ومنهم من جعل أوله سورة «اقرأ» وهو أول مصحف علي. وأما مصحف ابن مسعود فأوله «مالك يوم الدين» ثم البقرة، ثم النساء على ترتيب مختلف، وفي مصحف أبي كان أوله «الحمد» ثم النساء ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم الأعراف، ثم المائدة، على اختلاف شديد¹⁸.

وقد صادف هذا المذهب هوى في نفس بروكلمان فذهب في حديثه عن جمع عثمان إلى «أن زيدا رتب السور حسب طولها، وابتدأ بأطولها، بعد الفاتحة التي وضعها على رأس السور كلها، وعلى هذا المنوال جمع القرآن أيضا أبي بن كعب، والمقداد بن عمرو وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري»¹⁹.

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن ترتيب سور القرآن أو بعضها إنما كان باجتهاد من الصحابة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم فوض ذلك إلى أمته من بعده. فقد حكى السيوطي والزركشي بأن القائلين بهذا الرأي هم جمهور العلماء منهم: مالك، والقاضي أبو بكر في أحد قوله فيما اعتمده واستقر عليه رأيه²⁰.

وأخرج ابن أشته في المصاحف من طريق إسماعيل بن عياش عن حبان بن يحيى عن أبي محمد القرشي: أمرهم عثمان أن يتابعوا الطوال فجعلت سورة الأنفال وسورة التوبة في السبع ولم يفصل بينهما بسم الله الرحمن الرحيم²¹.

18. البرهان: 259/1، 260 وأنظر أيضا: الفهرست، المطبعة الرحمانية، مصر، ص: 39-42.

19. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النجار، ط 5، دار المعارف، القاهرة، (140/1).

20. البرهان: (257/1) والإتقان: (176/1).

21. الإتقان: (176/1).

وقد مال ابن عطية إلى أن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها في حياته صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال، والحواميم والمفصل، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده²².

إلا أن ابن الزبير الغرناطي يذهب أبعد من ابن عطية فيما يمكن أن يكون قد فوض فيه الأمر إلى الأمة فيقول: « الآثار تشهد بصحة ما ذهب إليه في أكثر مما نص عليه ابن عطية ويبقى منها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف »²³.

2. ترتيب السور توقيفي إلا الأنفال وبراءة؛

وهو ما ذهب إليه البيهقي ووافقه عليه الإمام السيوطي، فقد قال البيهقي في المدخل « كان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتبا سورته وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان السابق »²⁴.

وقال السيوطي: « والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي، وهو أن جميع السور توقيفي إلا براءة والأنفال ولا ينبغي أن يستدل بقراءته صلى الله عليه وسلم سورا ولأعلى أن ترتيبها كذلك، وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران²⁵ لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، فلعله فعل ذلك لبيان الجواز »²⁶.

وقد رد الشيخ محمد عبده على مذهب السيوطي والبيهقي بقوله: « إنه لا يعقل أن يرتب النبي صلى الله عليه وسلم جميع السور إلا الأنفال وبراءة، وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام واحدة من كل عام، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين، فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته؟ التحقيق أن وضعهما في موضعهما توقيفي وإن فات عثمان أو نسيه، ولولا ذلك لعارضه

22. البرهان في ترتيب سور القرآن، ج2، ص: 185.

23. البرهان في ترتيب سور القرآن، ص: 7، 8.

24. الإتيان 177/1، والحديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال: "قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثني، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر: "بسم الله الرحمن الرحيم" ووضعتموها في السبع الطوال، فقال عثمان... كانت الأنفال من أوائل ما نزل في المدينة، وكانت براءة من آخر نزولها وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب سطر "بسم الله الرحمن الرحيم".

25. الحديث رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان قال: "صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح سورة البقرة فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران..."، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم الحديث: 772.

26. الإتيان: 179/1.

الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن كما روي عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره في الأقطار»²⁷.

كما رد الحديث الذي استند عليه كل من البيهقي والسيوطي بأن في سنده يزيد الفارسي الذي سئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه ثم قال: « فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر »²⁸.

3. الخلاف في ترتيب السور لفظي:

وهو ما قرره كل من أبي جعفر ابن الزبير في مناسباته، والزركشي في برهانه.

قال ابن الزبير: « إن الأمر في ذلك كيفما قدر، فلا بد من رعي التناسب، والتفات الواصل والتجاذب، فإن كان بتوقيف منه صلى الله عليه وسلم، فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم، وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، فقد أعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه وفهمه، والعارفون بأسباب نزول الآيات، ومواقع الكلمات، وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا قول مالك رضي الله عنه في حكاية بعضهم عنه، ومالك أحد القائلين بأن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين كما تقدم عنه، فكيفما دار الأمر فمنه صلى الله عليه وسلم عُرف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر، فإذا إنما الخلاف هل ذلك بتوقيف قولي أو بمجرد استناد فعلي بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر؟ فهذا موضع الخلاف »²⁹.

وقال الزركشي: « والخلاف يرجع إلى اللفظ، لأن القائل بالثاني- أي بالاجتهاد- يقول: إنه رمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته، ولهذا قال الإمام مالك: إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم، فالخلاف إلى أنه: هل ذلك بتوقيف قولي أم بمجرد استناد فعلي؟³⁰.

27. أنظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط 4، مكتبة القاهرة، 1773، (539/9)، (540).

28. نفس المرجع (540/9).

29. أنظر: البرهان في ترتيب سور القرآن، ص: 183 من الجزء 2 من هذا الكتاب.

30. البرهان: (257/1).

4. ترتيب السور توقيفي:

ذهب جمع من العلماء إلى أن ترتيب السور كما هو في المصحف إنما كان من الشارع وبتوقيف منه لا فرق في ذلك بين ترتيب الآيات والسور، لأنه لم ينقل عن الصحابة- زمن الجمع العثماني- أي اعتراض على ترتيب السور، مما يدل على أن الأمر لا دخل للاجتهاد فيه.

ويعتضد أصحاب هذا الرأي بعدة نصوص وحجج من بينها:

• ما أخرجه أحمد وأبو داود عن أوس بن حذيفة الثقفي، وكان في وفد ثقيف الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، خمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده³¹.

• ومنها ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن سعيد بن خالد: «صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبع الطوال في ركعة»³².

• ومنها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المثني، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل»³³.

• ومنها ما أخرجه البخاري في صحيحه أيضا عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: «في بني إسرائيل، والكهف، وطه، والأنبياء، إنهم من العتاق الأول وهن من تلادي»³⁴. فذكرها نسقا كما استقر ترتيبها في المصحف.

واستنادا إلى هذه النصوص فقد ذهب جلة من العلماء إلى أن تأليف القرآن وترتيب آياته وسوره إنما كان بالوحي.

قال أبو جعفر النحاس: «المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم»³⁵. واستدل على ذلك بحديث واثلة المذكور.

31. سنن أبي داود، أبواب قراءة القرآن وترتيبه وترتيبه، باب تحزيب القرآن، حديث رقم: 1393.

32. مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: عبد الخالق الأفغاني، ط 2، سنة 1979، الهند، 368/1.

33. قال أبو جعفر النحاس هذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه مؤلف من ذلك الوقت، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأليف القرآن، وفيه أيضا دليل على أن سورة الأنفال سورة على حدة وليس من براءة (البرهان في علوم القرآن 258/1).

34. فضائل القرآن لابن كثير، ص: 42. وقوله: «من العتاق الأول أي من قديم ما نزل»، وقوله «من تلادي أي من قديم ما قنيت وحفظت».

35. البرهان 258/1.

وقال أبو بكر الأنباري: « أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرق في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر ويوقف جبريل النبي (ﷺ) على موضع السورة والآية، فالتساق السور كالتساق الآيات والحروف كله عن النبي (ﷺ)، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن»³⁶.

وقال الطيبي: « أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ»³⁷.

وقال ابن الحصار: «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا» وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله (ﷺ)، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف»³⁸.

وقال السيوطي: «ومما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاء وكذا الطواسين ولم ترتب المسبحات ولاء، بل فصل بين سورها، وفصل بين طسم الشعراء، وطسم القصص بطس مع أنها أقصر منها، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء وأخرت طس عن القصص»³⁹.

ويرد صاحب المباني على من يرى أن ترتيب السور والآيات اجتهادي فيقول: «فأي عقل كان يوجب تأخير «سورة اقرأ» إلى أخريات الكتاب وهي من أوله نزولاً، وتقديم قوله تعالى «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله»⁴⁰ إلى أول الكتاب وهي من آخره نزولاً؟ وكيف كان يوجب تأخير السور المكية وهي من أوائلها نزولاً، وتقديم السور المدنية وهي من أواخرها نزولاً؟ فعلمت بهذا أن هذا أمر لا يهتدي إليه بعقل دون أن يكون له توقيف مع سمع»⁴¹.

36. البرهان 260/1.

37. الإتيان 177/1.

38. الإتيان 176/1.

39. الإتيان 179/1.

40. البقرة: 280.

41. مقدمتان في علوم القرآن، نشر آرثر جيفري، مكتبة الخانجي، 1954م، ص: 61.

الرأي المختار:

إذا كانت مسألة ترتيب سور القرآن قد اختلفت فيها الآراء، فذهب بعضهم إلى أنه اجتهادي من الصحابة مستندين في ذلك إلى اختلاف ترتيب مصاحف بعض الصحابة، وإلى حديث ابن عباس المذكور أعلاه، وذهب آخرون إلى أن دائرة الخلاف ضيقة وأن ما يمكن أن يجري فيه الخلاف سور معدودة، بل هناك من حصره في الأنفال وبراءة، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن الخلاف لفظي، وأن الترتيب الذي هو في المصحف كان من فعل الصحابة كما تعلموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن الذي نختاره في المسألة هو أن جميع سور القرآن كان ترتيبها توقيفياً للأسباب التالية:

1. النصوص الوفيرة التي يشد بعضها بعضاً، والتي تثبت أن الأكثر والأغلب من سور القرآن كان معلوم الترتيب، وهذا لا يعني أن باقي السور لم تكن معلومة الترتيب.
2. إن جبريل كان يعرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم في العام مرة، وفي العام الذي توفاه الله مرتين⁴². فكيف كان يعرض عليه ويعارضه بالقرآن؟ هل على ترتيب نزوله! أم على الترتيب الذي هو عليه في المصحف؟ ولو كان عرض القرآن على ترتيب النزول، أو على ترتيب آخر، فهل كان زيد بن ثابت يخالف ذلك الترتيب وهو - بيقين - شهد العرضة الأخيرة وكان يقرئ بها الناس حتى مات، مما شرفه أن يختار مشرفاً على لجنة الجمع العثماني؟ إنه مما لا شك فيه أن عرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم كان على حسب ما رتب عليه بعد في المصحف العثماني وأقرته لجنة الجمع بدون خلاف.
3. أجمعت الأمة منذ الصدر الأول - والحمد لله - على هذا الترتيب وارتضته جيلاً بعد جيل، فأصبح التزامه أمراً لا محيد عنه إلى قيام الساعة.
4. إن القرآن كما هو معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، وأن ما يقوم بين جمل القرآن وآية وسوره من التناسب البارع والارتباط المحكم والائتلاف المحكم والائتلاف البديع ينتهي إلى حد الإعجاز لأكبر دليل على أنه نزل من اللوح المحفوظ كذلك.

42. قال ابن كثير: «والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى ليبقى ما بقي، ويذهب ما نسخ وتوكيدا واستثباتاً، وحفظاً لهذا عرضه عليه السلام في السنة الأخيرة من عمره على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك، ولهذا فهم عليه السلام اقتراب أجله» (فضائل القرآن لابن كثير، ص: 44).

ترتيب القرآن حسب النزول

من الثابت المشهور أن القرآن الكريم نزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين سنة حسب الخلاف في مدة إقامته بمكة بعد البعثة⁴³.

أخرج أبو عبيد والنسائي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، وقرأ: «لا ياتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً» وقرأ: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً»⁴⁴.

ولقد اهتم العلماء بضوابط القرآن المكي والمدني، وتتبعوا مواقع نزوله وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني وعكسه، وما نزل في المدينة وعكسه، وما يشبه نزول المكي في المدني، وعكسه، وما نزل بالبحر، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل الحديبية، وما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل مشيئاً⁴⁵، وما نزل مفرداً، ثم الآيات المدنية في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة وعكسه، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما نزل مجملاً، وما نزل مفسراً، وما نزل مزموماً، ثم ما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكِّي⁴⁶.

وقد أورد كل من الزركشي، والسيوطي سور القرآن المكي والمدني حسب ترتيب نزولها وكان أول ما أنزل من القرآن: اقرأ، ثم ن، ثم يا أيها المزمّل، ثم يا أيها المدثر، ثم تبت يدا أبي لهب، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبّح، ثم والليل، ثم والفجر، ثم والضحى، ثم ألم نشرح، ثم والعصر، ثم والعاديات، ثم إنا أعطيناك، ثم أهاكم التكاثر، ثم أرايت الذي يكذب، ثم قل يا أيها الكافرون، ثم سورة الفيل، ثم الفلق، ثم الناس، ثم قل هو الله أحد، ثم والنجم إذا هوى، ثم عبس، ثم إنا أنزلناه، ثم والشمس وضحاها، ثم والسماء ذات البروج، ثم والتين، ثم لا يلاف قريش، ثم القارعة، ثم لا أقسم بيوم القيامة، ثم الهمزة، ثم المرسلات، ثم ق، ثم لا أقسم، ثم الطارق، ثم اقتربت الساعة، ثم ص والقرآن، ثم الأعراف، ثم

43. الإتيان: (116/1).

44. قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه، أنظر: المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، (368/2).

45. ورد في الحديث أن سورة الأنعام شيعها سبعون ألف ملك ما بين السماوات والأرض لهم زجل بالتسبيح. البرهان: (199/1).

46. البرهان: (192/1) والاتيان: (22/1).

الجن، ثم يس، ثم الفرقان، ثم الملائكة، ثم مريم ثم طه، ثم الواقعة، ثم الشعراء، ثم النمل، ثم القصص، ثم بني إسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم حم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم همعسق، ثم حم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ثم الذاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم النحل، ثم إنا أرسلنا نوحا، ثم إبراهيم، ثم الأنبياء، ثم المؤمنين، ثم تنزيل السجدة، ثم الطور، ثم تبارك الملك، ثم الحاقة، ثم سأل، ثم عم، ثم النازعات، ثم إذا السماء انفطرت، ثم إذا السماء انشقت، ثم الروم، ثم العنكبوت، ثم ويل للمطففين.

فهذا ما أنزل الله بمكة، ثم أنزل بالمدينة: البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت، ثم الحديد، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم إذا جاء نصر الله، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة⁴⁷.

قال الرزكشي: «وأما ما اختلفوا فيه ففاتحة الكتاب، قال ابن عباس والضحاك ومقاتل وعطاء: إنها مكية، وقال مجاهد: مدنية، واختلفوا في «ويل للمطففين» فقال ابن عباس مدنية، وقال عطاء هي آخر ما نزل بمكة، فجميع ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة، وجميع ما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة على اختلاف الروايات»⁴⁸.

ويرجع سبب الاختلاف في المكي والمدني، إلى أن المرجع في ذلك إلى حفظ الصحابة والتابعين، لأنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك قول، لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول صلى الله عليه وسلم⁴⁹.

الإعجاز في ترتيب القرآن:

والذي يهمننا من ذلك هو اختلاف ترتيب المصحف العثماني عن اختلاف بعض مصاحف الصحابة الخاصة التي كانت مرتبة- على العموم- حسب ترتيب السور نزولاً⁵⁰ ويمكننا أن

47. البرهان: (1/193، 194) والاتقان: (1/26، 27) والفهرست لابن النديم، ص: 37-39.

48. الرزكشي: 1/194.

49. الاتقان: 1/23.

50. أنظر ترتيب السور من هذا البحث، ص: 48 وما بعدها.

نتساءل عن الأساس الذي رتب عليه المصحف العثماني مع قولنا بتوقيفية ترتيب السور؟ ألم يكن من الطبيعي والبديهي أن يرتب القرآن كما نزل بالتتابع الأول فالأول؟.

يقول الدكتور عبد الله دراز: «كان ينبغي أن يتبع إما الترتيب التاريخي للنزول، وإما الترتيب المنطقي البسيط المبني على تجنب الموضوعات، إلا أن السور القرآنية تتنوع موضوعاتها ولا تخضع لأي من الفرضين أو الترتيبين السابقين مما يدعونا إلى ترجيح وجود تصميم معقد يكون قد وضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب الرسول، ولكن سرعان ما نميل إلى الانصراف عن هذا الافتراض بسرعة لأننا نرى مدى الجراءة والاستحالة التي ينطوي عليها إلقاؤه أو إظهاره على مدى عشرين عاما، وبما يتناسب مع عديد من الملابسات والظروف التي تستدعي هذا الحديث، والتي لا يمكن توقعها أو التنبؤ بها، غير أن السنة تؤكد لنا هذا الافتراض الغريب وتؤيده»⁵¹.

فالواقع أنه فور نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم كان كل جزء منه صغيرا أو كبيرا يوضع في السور التي لم تكن قد اكتملت بعد، وفي مكان محدد من السورة، وفي موضع رقمي من آياتها، وفي ترتيب لم يكن دائما هو الترتيب التاريخي، وبمجرد وضع الآية أو الآيات في موضع ما، بقيت فيه إلى الأبد دون أن يطرأ عليها تحويل أو تصحيح، وهذا يدل على أنه كان هناك تصميم لكل سورة، فضلا عن تصميم أو خطة عامة للقرآن في جملته بمقتضى كل منهما كان كل وحي جديد يوضع في مكانه توا بين آيات هذه السورة أو تلك من السور المفتوحة⁵².

وطريقة تأليف القرآن الكريم بهذا الشكل لا مثيل لها على الإطلاق، فلا يوجد كتاب من الكتب الدينية أو الأدبية أو غير ذلك ألف بهذا الشكل وفي مثل هذه الظروف، يقول الدكتور دراز: «وكأن القرآن كان قطعاً متفرقة ومركمة من بناء قديم كان يراد إعادة بنائه في مكان آخر على نفس هيئته السابقة، وإلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفوري والمنهجي في آن واحد فيما يتعلق بكثير من السور، إذا لم تكن الصحائف الخالية والصحائف التامة تمثل وحدة كاملة في نظر المؤلف»⁵³؟

ويضيف متسائلا: «أي ضمان تاريخي يستطيع أن يتحصل عليه الإنسان عند وضع مثل هذه الخطة إزاء الأحداث المستقبلية ومتطلباتها التشريعية والحلول المنشودة لها، فضلا عن الشكل اللغوي الذي يجب أن تقدم به هذه الحلول وتوافقها الأسلوب مع هذه السورة بدلا

51. مدخل إلى القرآن الكريم، ص: 120.

52. مدخل إلى القرآن الكريم، ص: 120.

53. نفس المصدر، ص: 21.

من تلك؟ وكيف يمكن مجرد تجميع وتقريب هذه القطع المبعثرة بعضها من بعض بدون تعديل أو لحام أو وصلات- رغم تنوعها الطبيعي وتفرقها التاريخي- أن يجعل منها هذا وحدة عضوية متجانسة يتوافر فيها ما نرجوه من التماسك والجمال؟ ألا يصدر مثل هذا المشروع، وقد بلغ هذا المبلغ من الطموح إلا عن حلم خيالي أو عن قوة فوق قدرة البشر، تتوفر فيها القدرة على إقامة مثل هذا التنسيق المنشود؟ وإلا فمن هو المخلوق الذي يستطيع أن يوجه الأحداث بما يتوافق تماما مع هذا التصميم المرسوم، أو كيف يمكن أن نخرج من مجموعة مصادفات بمثل هذا البناء الأدبي الرفيع وهو القرآن؟⁵⁴

أليس ذلك وحده آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو من وضع العليم الخبير؟ بلى «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا»⁵⁵.

إعادة ترتيب النص القرآني:

إذا كان النص القرآني قد رتب وفق نمط فريد، وعلى مدى عشرين سنة، فقد دل ذلك على وجود تصميم معقد يكون قد وضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، لا دخل لأحد فيه، مما جعل المسلمين يدركون - منذ الصدر الأول أن ترتيب القرآن هو فوق الطاقة، فقد قال محمد بن سيرين لعكرمة أيام الجمع الأول للقرآن: «ألفوه - أي القرآن- كما أنزل الأول فالأول، فأجاب عكرمة: لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه ذلك التأليف ما استطاعوا»⁵⁶.

وإذا كان عمل الصحابة في تدوين القرآن الكريم في مصاحف خاصة بهم، قد ألغي بتدوين المصحف العثماني، وبالترتيب الذي أجمع عليه الصحابة، واعتمدته الأمة دون أي اعتراض، فإن هناك دعوات تنبعث من حين لآخر لإعادة ترتيب القرآن الكريم، إما عن سوء نية وخبث طوية، وإما بدافع معرفة تتابع أحداث الدعوة الإسلامية في عهد المبعث أولا بأول وحادثة بحادثة، بل إن أفرادا قدماء ومحدثين رتبوا القرآن ترتيبا خاصا كما أشرت إلى ذلك من قبل.

وكيفما كان الحال فإن هذه الدعوة تنطوي على أمر خطير وهو فتح باب للاشتباه في سلامة النص القرآني، وزعزعة الثقة أمام الأجيال المقبلة التي قد يقول قائل منها: إنه في عصر ما غير ترتيب سور القرآن فلعله وقعت تغييرات أخرى لم تطلع عليها.

54. نفس المصدر، ص: 120.

55. النساء: 81.

56. الإتيان 1/166.

موقف بعض المستشرقين من ترتيب القرآن:

لقد جهد كثير من المستشرقين وتحمسوا لدراسة النص القرآني باعتباره مصدر التحدي للعالم الغربي، وأساس الاختلاف بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية، ولذلك كان تركيزهم على القرآن قويا، وقد وجدوا في اختلاف ترتيب المصاحف الخاصة بالصحابة والتابعين وغيرهم مجالا للتشكيك في سلامة النص القرآني، ومن بين هؤلاء المستشرقين في العصر الحديث: «نولدكه» صاحب كتاب «المصاحف» الذي أخذ ترتيبه عن كتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي من رجال القرن الخامس، و«بلاشير» الفرنسي صاحب كتاب القرآن: نزوله وتدوينه، ترجمته، تأثيره.

يقول بلاشير في سياق تقويمه لعمل المستشرقين في هذا المضمار: «اهتم بعض المؤرخين من علماء الإسلاميات أمثال: «هوير، ونولدكي»، بالاهتداء إلى التعاقب التاريخي في هذا المصحف للمنزلات التي نقلها محمد⁵⁷... لكن نولدكي، ونخبة من علماء الإسلاميات الألمان قد نجحوا في تحديد طريقة أخرى للبحث بفضل معالجتهم الجديدة للمسألة بكاملها في «تاريخ القرآن» الذي ظهر من سنة 1919 إلى 1938، لقد تنازل هؤلاء العلماء عن مطمحهم للاهتداء إلى تسلسل النصوص القرآنية لا لبس فيه، فنجحوا في إعادة جمع هذه النصوص وفقا لمرآحل متعاقبة حدودها بحسب الأسلوب من جهة، وبحسب الموضوعات السياسية والدينية الموسعة في القرآن من جهة، وبحسب الموضوعات السياسية والدينية الموسعة في القرآن من جهة أخرى، وقد أبقى الجمع الجديد للنصوص على التقسيم العام الذي كرسه المؤلفون الإسلاميون العرب إلى آيات مكية وآيات مدنية»⁵⁸.

وكعادة المستشرقين- غالبا- فإن بلاشير ينظر إلى القرآن وكأنه كتاب من الكتب البشرية خالف بتنظيمه الغير المعهود الترتيب التاريخي للنصوص التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم وأحدث بذلك خللا لا دواء له، وكأن ذلك من النقص أو الغلط الذي أوقعه سيدنا عثمان رضي الله عنه في القرآن وهو يجاري في تأليفه له عادات الساميين، وفقهاء اللغة العراقيين في تقديم القصائد الشعرية الطويلة في مقدمة دواوينهم⁵⁹.

57. الجمع الصوتي الأول للقرآن، ص: 358، 359.

58. لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ينقل الوحي، وإنما كان يأمر كاتبه بوضع كل جزء أو قطعة نزلت من القرآن في مكانها المرسوم لها في السورة بتوجيهه من أمين الوحي جبريل.

59. القرآن: نزوله وتدوينه ترجمته تأثيره، بلاشير، ترجمة: رضا سعادة، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974، ص: 26.

يقول بلاشير: « إن المائة والأربعة عشرة سورة التي يتألف منها هذا النص ترد إجمالاً وفقاً لتدرج هبوطي في الطول، هذا الترتيب يبدو مطابقاً لبعض العادات الخاصة بالساميين، هكذا أيضاً- في القرنين الثامن والتاسع- كان فقهاء اللغة العراقيون يضعون القصائد في مقدمة دواوينهم التي تضم آثار الشعر العربي القديم، هذا التنظيم في مصحف عثمان كانت نتيجته إحداث خلل لا دواء له في الترتيب التاريخي للنصوص التي نزلت على محمد، فإن السور الطويلة موافقة للدعوة في المدينة بين سنة 622-632م، أما السور القصيرة والمتوسطة، وهي نصوص من الفترة المكية على العموم، فإنها ترد في نهاية المصحف فقط... فيمكننا القول بأننا نقرأ القرآن بتاريخ معكوس»⁶⁰.

ومثل بلاشير فإن المبشر الإنجليزي « آرثر جفري » مؤلف كتاب المصاحف⁶¹. قد وقع تحت تأثير التاريخ الكنسي المسيحي الذي ألف دراسته إلى درجة أنه يكاد يكون قد نقله بأحداثه الكاملة أثناء بحثه في المجال الإسلامي، فهو يحاول أن يثبت أن النص القرآني قد مر بأطوار تشبه من جوانب كثيرة ما مر به الإنجيل⁶².

وإذا كان المستشرقون- عموماً وبدافع من الخلفيات الفكرية للصراع الحضاري بين المسيحية والإسلام- كانوا ينساقون إلى مجانية الموضوعية في دراساتهم للإسلام وكتبه العزيز فإن كتاباً ومفكرين من أبناء جلدتنا إما بدافع التأثر بالدراسات الاستشراقية، وإما بدافع الاجتهاد في البحث والدراسة قد أخطأوا في الاتجاه إلى القول بإعادة ترتيب سور القرآن سور القرآن حسب نزولها من سورة العلق ثم المزل ثم المدثر ثم الفاتحة حتى يختم بسورة النصر، بدعوى « أن ترتيب القرآن، لأنه يخالف منهج التدرج التشريعي الذي روعي في النزول ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة، لأن القارئ إذا انتقل من سورة مكية إلى سورة مدنية، اصطدم صدمة عنيفة وانتقل- بدون تمهيد- إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه.. إلخ»⁶³.

60. القرآن نزوله وتدوينه، ص: 37، 38.

61. جمع فيه الاختلافات المنسوبة إلى المصحف الفردي لكل من: ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وحفصة، وأنس بن مالك، وعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وابن الزبير وعائشة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأم سلمة، وعبيد بن عمير، كما جمع الاختلافات المنسوبة إلى مصاحف التابعين للصحابية وهم الأسود بن يزيد، وعلقمة، وحطان، وسعيد بن جبير، وطلحة وعكرمة، وعطاء بن رباح، والربيع بن الخثيم، والأعمش، وجعفر الصادق، وصالح بن كيسان، والحارث بن سويد، كما جمع الاختلافات المنسوبة إلى المصاحف المجهولة الأتباع (أنظر: الجمع الصوتي الأول للقرآن، ص: 322، 323).

62. مدخل إلى القرآن الكريم، ص: 45.

63. صاحب هذه الدعوى هو « يوسف راشد » الذي تقدم برسالة « تحت عنوان: ” رتبوا القرآن كما أنزله الله “ وقد كتب المرحوم الدكتور عبد الله دراز تقريراً عن هذه الرسالة رفعه إلى إدارة الأزهر، نص التقرير نشر في مجلة: كنوز القرآن: عدد أكتوبر ونوفمبر 1951 (الجمع الصوتي الأول للقرآن ص: 359، وهامش رقم 1) ولا يخفى ما في هذا القول من جراءة وتطاول على ترتيب القرآن ونظمه.

رفض تفسير القرآن حسب ترتيب نزوله

إذا كان بعض العلماء- قدماء ومحدثين- قد سوغوا لأنفسهم تفسير وحدات أو سور قرآنية مستقلة عن مجموع آيات وسور القرآن⁶⁴ خدمة لكتاب ربهم، وتبسيطا لقضايا دينهم بطريقة تكون أكثر نفعا، وأقرب منالا ودون أن تثير أي اعتراض أو نقد، فإن أحد العلماء المحدثين في الشام، وهو الدكتور محمد عزة دروزة رحمه الله⁶⁵ قد توسع في المسألة كثيرا، متخذًا مما ذكرنا مستندا، فقام بإنجاز تفسير للقرآن الكريم، مرتبا سورته على ترتيبها في النزول، معززا رأيه بأن التفسير ليس مصحفا للتلاوة من جهة وهو عمل فني أو علمي من جهة ثانية، ولأن تفسير كل سورة يصح أن يكون عملا مستقلا بذاته لا صلة له بترتيب المصحف وليس من شأنه أن يمس قدسية ترتيبه من جهة ثالثة⁶⁶.

وقد اعتضد هذا العالم فيما ذهب إليه إلى فتوين:

- إحداهما: صدرت عن مفتي سورية الشيخ أبو اليسر عابدين جاء فيها: «ليس التفسير بقرآن يتلى حتى يراعى فيه ترتيب الآيات والسور، فقد يعن للمفسر أن يفسر آية ثم يترك ما بجانبها لظهور معناها، وقد يفسر سورة ثم يترك ما بعدها اعتمادا على فهم التالي، ولا مانع من تأليف تفسير على الشكل المذكور، والله أعلم».

- والثانية: صدرت عن الشيخ عبد الفتاح أبي غدة جاء فيها: «إن شبهة المنع لهذه الطريقة آتية من جهة أنها طريقة تخالف ما عليه المصحف الشريف، ودفع هذه شبهة أن المنع يثبت فيما لو كان هذا الصنيع مسلوكا من أجل أن يكون هذا الترتيب مصحفا للتلاوة...

64. من القدماء: هشام الكلبي، روى ابن النديم في فهرسته (ص 51) أن له كتاب تفسير الآيات التي نزلت في أقوام بأعيانهم، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كتب تفسيراً لسورة الإخلاص وكتب تفسيراً لسور: الأعلى، والشمس، والليل، والعلق، والتين، والبيّنة، والكافرون.

ومن المحدثين عدد كبير منهم: الإمام الشيخ محمد عبده الذي نشر له تفسير سورة العصر، وتفسير جزء عم، والإمام الشيخ المراغي الذي نشر له تفسير ميسر لأي خاصة من القرآن الكريم، والدكتورة بنت الشاطئ نشر لها التفسير البياني للقرآن الكريم في جزئين يتناول (ج 1) سور: الضحى، والزلزلة، والنازعات، والعاديات، والبلد، والتكافؤ - ويتناول (ج 2) سور: العلق، والقلم، والعصر، والليل، والفجر، والهمزة، والماعون، والشهيد حسن البنا نشر له تفسير الفاتحة، والداعية المرحوم أبو الأعلى المودودي نشر له تفسير سورة النور.

إلا أن هذه التفسيرات رغم قيمتها العلمية فإنها لا تنهض - من وجهة نظرنا - دليلا على جواز تفسير القرآن وفق ترتيب مخالف لترتيب المصحف العثماني لاختلاف القصد بين هؤلاء وأولئك.

65. وهو عالم جليل، أصله من فلسطين قاوم الاستعمار وتعرض للسجن بسبب الثورة الفلسطينية من سنة 1937 - مارس 1945 وفي السجن كتب مسودة تفسيره: «التفسير: الحديث» حسب ترتيب النزول، وله عدة مؤلفات قيمة منها: عصر النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن، والدستور القرآني في شؤون الحياة، والقرآن المجيد، جعله بمثابة مقدمة مستقلة لتفسيره، والمبشرون والقرآن... أنظر مقدمة تفسيره، ط 1، دار إحياء الكتب العربية 1962م لباني الحلبي، ص: 5، 6.

66. أنظر مقدمة تفسيره، ص: 9.

ويستأنس لسواغية هذه الطريقة بما سلكه أجدله من علماء الأمة المشهود لهم بالإمامة والقُدوة من المتقدمين في تأليفهم، ولم يعلم أن أحدا أنكر عليهم ما صنعوا⁶⁷.

وقد اعتمد في تفسيره على الترتيب الذي جاء في مصحف الخطاط قَدْرُوغلي، لأنه ذكر فيه أنه طبع تحت إشراف لجنة خاصة من ذوي العلم والوقوف، حيث يتبادر إلى الذهن أن يكون قد أُشير إلى ترتيب النزول فيه (السورة كذا نزلت بعد السورة كذا) بعد إطلاع اللجنة على مختلف الروايات والترجيح بينها⁶⁸.

ولا يخفى ما يمكن أن يواجه ترتيب القرآن وفق النزول من صعوبات، وقد اعترف المؤلف بذلك حين اضطر إلى مخالف الترتيب الذي اختاره حيث قال: « ولقد رأينا مع ذلك أن تخالف هذا المصحف⁶⁹ بعض الشيء. فسور العلق، والقلم، والمزمل، والمدثر، التي وردت فيه كالسور الأولى والثانية والثالثة والرابعة بالتوالي ليست كذلك إلا بالنسبة لمطالعها فقط على أحسن تقدير، حيث إن ما يأتي بعد هذه المطالع لا يمكن أن يكون نزل إلا بعد نزول سور وفصول غيرها⁷⁰ ».

كما لم يفت المؤلف أن يشير إلى أن ترتيب سور القرآن على حسب النزول فيه شيء من التجوز فنص على أنه ليس في الإمكان تعيين ترتيب صحيح لنزول السور القرآنية جميعها، كما أنه ليس هناك ترتيب يثبت بكامله على النقد أو يستند إلى أسانيد قوية ووثيقة، وزيادة على هذا فإن في القول بترتيب السور حسب نزولها شيئا من التجوز⁷¹.

وقد سلك هذا المسلك في تفسير القرآن أيضا الدكتور أسعد أحمد علي، فأصدر تفسيراً⁷² جاء اكتشافاً لمنهج في اليسر التربوي قوامه ستة مستويات في كل منها تفسير تسع عشرة سورة⁷³، وقد تتبع فيه « تفاصيل السيرة النبوية، وتدرج نزول آيات القرآن على النبي بدءاً بالآيات الأولى من سورة العلق، وانتهاء بسورة النصر، مروراً بما بينهما من السور وفق تاريخ نزولها⁷⁴ ».

67. أنظر نص الفتويين في مقدمة تفسيره، ص: 9-11.

68. المصدر السابق، ص: 12، 13، وأنظر جدول ترتيب نزول سور على حسب ما ورد في مطالع سور هذا المصحف، ص: 14-15.

69. يقصد مصحف الخطاط قدر وجلي الذي اختاره لأن ترتيبه أكثر ضبطاً لطبع تحت إشراف لجنة من ذوي العلم والوقوف (مقدمة تفسيره، ص: 12).

70. مقدمة التفسير الحديث، ص: 16.

71. نفس المصدر.

72. عنوانه: تفسير القرآن المرتب منهج لليسر التربوي، طبع بدار السوال للطباعة والنشر بدمشق سنة 1979 (ط 1).

73. تفسير القرآن المرتب منهج لليسر التربوي، ص: 10.

74. نفس المصدر، ص: 29.

وإذا كان مستند هؤلاء القائلين بترتيب سور القرآن حسب نزولها متقاربا ومتشابهها يضع في الاعتبار التدرج التشريعي الذي روعي في النزول لئلا تتبلبل الأفكار وتضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن⁷⁵، أو إظهار حكمة التنزيل ومبادئ القرآن ومتنولاته عامة بأسلوب وترتيب حديثين متجاوبين مع الرغبة الشديدة الملموسة عند كثير من شبابنا الذين يتذمرون من الأسلوب التقليدي ويعرضون عنه⁷⁶، أو وضع منهج ليسر التبروي⁷⁷. وهي كلها اعتبارات متداخلة وتبريرات ضعيفة لتغيير الترتيب المجمع عليه والمنقول إلينا بالتواتر جيلا بعد جيل، ونحن مع أبي بكر الأنباري في أن « اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأن من قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن »⁷⁸.

ولذلك فإننا لا نملك إلا التمسك بالقول بتوقيفة، ترتيب السور، وأن دعوى إعادة ترتيب القرآن مردودة- في نظرنا- للأسباب التالية:

أ. إن ترتيب السور توقيفي على ما يقرره جمهور العلماء، ولم يخالف سني ولا شيعي في التزام هذا الوضع الذي كان عليه المصحف من أول يوم.

ب. وإن احترام قدسية الوضع المأثور يقضي بالمحافظة على النسق القائم الآن في الآيات والسور جميعا، وأن فكرة ترتيب المصحف- على حسب النزول - كانت تقضي بتغيير الوضع في السور والآيات جميعا بل هي - في الآيات- كانت أشد اقتضاء ومع ذلك فقد خولفت.

ج. وإن تغيير الترتيب يفتح مجال الشبهة أمام العصور المقبلة فيقول قائل منهم: إنه لم يبق لنا ثقة بأن هذا الكتاب بقي في كل العصور بعيدا عن كل تبديل، لأنه في عصر ما غيرت أوضاع السور فيه، فلعله قد أصابته- قبل ذلك تعديلات أخرى لم تصل إلينا أنباؤها.

75. وهو ما قال به "يوسف راشد" الآنف الذكر.

76. مقدمة التفسير الحديث، ص: 5.

77. وهو مستند د: أسعد أحمد علي.

78. البرهان: (260/1).

د. وإن هذه الدعوة خارقة لإجماع المسلمين، ويُحرف بها الكلم عن مواضعه التي وضعها الله فيها ولن يكون من ورائها إلا إفساد النسق وتشويه جماله⁷⁹.

هـ. إن فتح إعادة ترتيب السور حسب نزولها- قد يؤدي إلى فتح باب آخر أشد خطراً على كتاب الله العزيز، فيغري بعض المتطفلين على القرآن فيطالبون بإعادة ترتيب الآيات حسب نزولها، وفي ذلك من التحريف والتشويه لنظم القرآن، وإفساد لحسن ترتيبه ورصف آياته وكلماته، ما لا يقول به إلا جاهل ببيان القرآن وإعجازه، أو ماكر يريد أن يأتي على بنيان الإسلام من أركانه.

79. رد الدكتور عبد الله دراز على رسالة "يوسف راشد" المذكورة والتي طالب فيها بترتيب القرآن حسب النزول بهذه الحجج ورفعها ضمن تقريره إلى إدارة الأزهر (الجمع الصوتي الأول للقرآن هامش 1، 2 من ص: 359).

المبحث الثالث

**التناسب وجه من وجوه الإعجاز
في القرآن الكريم**

التناسب وجه من وجوه الإعجاز

تعريف التناسب:

المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول والنظيرين والضدين، ونحو ذلك¹.

ومناسبة الآيات والسور، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، مرتبطة المباني وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم «فكما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته»².

علم المناسبات وأهميته:

علم مناسبات القرآن هو «علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير كنسبة علم البيان من النحو»³.

قال السيوطي: «علم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته، ومن أكثر منه الإمام فخر الدين، قال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»⁴. وأول من سبق إلى هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان كثير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئت عليه الآية: «لم جعلت هذه الآية جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة في جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»⁵.

1. معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام السيوطي، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي، (57/1)

2. نفس المرجع (56/1).

3. نظم الدرر في تناسب الآي والسور لبرهان الدين البقاعي (مخطوط) رقم 181 في الخزانة العامة بالرباط: 3/1.

4. معترك الأقران (55/1).

5. هو محمد بن عبدوس بن أحمد بن الجنيد أبو بكر المقرئ المفسر الواعظ النيسابوري، إمام فاضل عالم بمعاني القرآن توفي سنة 338هـ، طبقات المفسرين، شمس الدين الداودي، تحقيق: علي محمد عمر، ط 1، مطبعة الاستقلال الكبرى، نشر مكتبة وهبة، (191/2).

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: « المناسبة علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصاب عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»⁶.

وقد وَهَّم الشيخ ولي الدين الملوحي من قال لا يطلب للآية الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة فقال: « وفصل الخطاب إنها - أي الآية- على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، فالمصحف على وفق اللوح المحفوظ مرتبة سوره وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة»⁷.

أنواع التناسب:

لقد تنبه المفسرون والباحثون في البلاغة وإعجاز القرآن إلى ألوان ودرجات من التناسب تبلغ الذروة في تصوير القرآن وإعجازه ذكر منها سيد قطب ما يلي:

1. التنسيق أو التناسب في تأليف العبارات بتخير الألفاظ، ثم نظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها، وقد أكثروا من القول في هذا اللون وبلغوا غاية مداه.
2. الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص، ومع أن هذه الظاهرة واضحة جد الوضوح في القرآن، وعميقة كل العمق في بنائه الفني، فإن حديثهم عنها لم يتجاوز ذلك الإيقاع الظاهري، ولم يرتق إلى إدراك التعدد في الأساليب الموسيقية، وتناسق ذلك كله مع الجو الذي تطلق فيه هذه الموسيقى، ووظيفتها التي تؤديها في كل سياق.

3. تلك التنبيهات البلاغية التي تنبه لها الكثيرون من التعقيبات المتفقة مع السياق، كأن تجيء الفاصلة «وهو على كل شيء قدير» بعد كلام يثبت القدرة، والفاصلة «إن الله عليم بذات الصدور»⁸ بعد كلام في وادي العلم المستور، وكان يعبر بالإسم الموصول لتكون جملة الصلة بياناً لعللة الجزاء مثل: «إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»⁹، وكأن

6. معترك الاقران (55/1).

7. المصدر السابق (55/1، 56).

8. لقمان: 23.

9. الأعراف: 39.

يعبر بلفظ «الرب» في مواضع التربية والتعليم مثل « إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان، ما لم يعلم»¹⁰ بينما يعبر بلفظ «الله» في مواضع التأليه والتعظيم مثل: « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام»¹¹.

4. ذلك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض وبعضهم يتمحل لهذا التناسق- يقول سيد قطب - تمحلا لا ضرورة له حتى ليصل إلى حد من التكلف ليس القرآن في حاجة إلى شيء منه.

5. التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص، والخطوات النفسية التي تصاحبها كقول الزمخشري عند تفسيره لسورة الفاتحة: « إن العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله: « الحمد لله » الدال على اختصاصه بالحمد، وإنه حقيق به، وجد من نفسه لا محالة محركا للإقبال عليه، فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله: « رب العالمين » الدال على أنه مالك للعالمين، لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته قوى ذلك المحرك، ثم إذا انتقل إلى قوله: « الرحمن الرحيم » الدال على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها، تضاعفت قوة ذلك المحرك، ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام وهي قوله: « مالك يوم الدين » الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء، تناهت قوته، وأوجب الإقبال عليه، وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، « إياك نعبد وإياك نستعين »¹².

ثم عقب رحمه الله - على هذه الأنواع من التناسب بقوله: «ومع أن الخصائص التي طرقوها حقيقية وقيمة، فإنها لا تزال أولى مظاهر التناسق التي يلمحها الباحث في القرآن، ووراءها آفاق أخرى لم يتعرضوا لها أصلا»¹³.

ثم قال: « ولما كان التصوير في القرآن مسألة لم يعرضوا لها قط بوصفها أساسا للتعبير القرآني جملة فقد بقي التناسق الفني في هذا «التصوير» بعيدا عن آفاق بحثهم بطبيعة الحال»¹⁴.

10. العلق: 1.

11. لقان: 33.

12. التصوير الفني في القرآن، للشهيد السيد قطب، ط. 1971/7م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص: 74، 75، 27.

13. نفس المصدر، ص: 75.

14. نفس المصدر، ص: 76.

6. التصوير الفني: ويمكن اعتبار «التصوير الفني في القرآن» نوعاً سادساً من أنواع التناسق، وهي مسألة لم يسبق إليها- سيد قطب رحمه الله، وبقي التناسق الفني في هذا «التصوير» بعيداً عن آفاق بحثهم كما يقول هو نفسه»¹⁵.

والتصوير الفني عند سيد قطب «هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو- أي القرآن- يعبر بالصورة المحسنة المتخيَّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحوادث المحسوس، المشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية».

فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخيل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يُجِل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا الكلام يتلى ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادثة يقع، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الإنفعال بشتى الوجدانيات المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتتم عن الأحاسيس المضمرة¹⁶.

التناسب في نظم القرآن:

وإذا كان التناسب في القرآن هو منبع السحر فيه، فإن بعض الباحثين في مزايا القرآن قد تلمسوا جوانب أخرى لتأثير القرآن وإعجازه كتشريع العادل، وأخباره عن المغيبات التي تحققت بعد سنوات، ومطابقته للحقائق العلمية في خلق الكون والإنسان.

وإذا كان البحث في هذه المجالات إنما يثبت المزية للقرآن مكتملاً، فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم، ولا تجمع- بطبيعة الحال- كل المزايا المتفرقة في القرآن؟ إن هذه السور القلائل- ومنذ نزولها- قد سحر العرب بها مما يدل على أنها كانت تحتوي على العنصر الذي يأخذ بالباب المستمعين ويستحوذ على المؤمنين والكافرين، حتى قال قائلهم فيه «إن هذا إلا سحر يوتر»¹⁷.

15. نفس المصدر.

16. التصوير الفني في القرآن، ص: 34.

17. المدثر: 24.

وقصة تولي الوليد بن المغيرة¹⁸ الواردة سورة «المدثر» وهي من أوائل السور نزولا أي سحر كان في هذه السور حتى اضطرب له الوليد بن المغيرة ذلك الاضطراب مع أننا لا نجد فيها تشريعا محكما، ولا علوما كونية ولا إخبارا بالغيب يقع بعد سنين كالذي ورد في سورة الروم وهي السورة الرابعة والثمانون نزولا.

لا بد إذن- يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله- أن السحر الذي عناه المغيرة كان كامنا في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية، لا بد أنه كامن في صميم النسق القرآني¹⁹ ذاته.

ويقول الرافعي: « لما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظه بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه ونسق حروفه في كلماتها وكلماته في جملها ونسق هذه الجمل في جملة... »²⁰.

وإذا كان منبع السحر والإعجاز في القرآن الكريم هو في نظمه، وأن جهات النظم ثلاث: في الحروف، والكلمات، والجمل، كان لا بد لنا من أفراد كل جهة بالكلام لنبين من خلال تناسب حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، وجملة في سورة ما يطلعنا على النقص في كلام البلغاء، وانحطاطه عن مرتبة القرآن، وظهوره على سائر الكلام.

1. تناسب الحروف في الكلمات:

لما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض. يقول الدكتور عبد الله دراز: « دع القارئ يقرأ القرآن ويرتله حق ترتيله نازلا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلا بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبه منه مكانا قصيا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريدا وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا

18. أنظر في سيرة ابن هشام 283/1 وما بعدها قصة القرار الذي اتخذ مع قريش في حق سيدنا محمد (ﷺ) وهو أنه ساحر للحيلولة دون سماع الوفود القادمة للموسم للقرآن الكريم. دار الفكر، ضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

19. التصوير الفني في القرآن، ص: 19.

20. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ط 9، سنة 1973م، دار الكتاب العربي، ص: 189.

التجويد، ستجد اتساقا وائتلافا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر... فإذا ما اقتربت بأذنك قليلا قليلا فطرت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها ترتيب أوضاعها فيما بينها»²¹.

ويقول الراجعي: «فلو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيء بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب الثقل - أيها كان - فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أو كس النصيين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان واكتفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه»²².

من ذلك لفظة «النذر» فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا فضلا عن جُساءة²³ هذا الحرف ونبوّه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام. فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتهى من طبيعته في قوله تعالى: «ولقد آذركم بطشتنا فتماروا بالنذر»²⁴ فتأمل هذا التركيب وأنعم ثم أنعم على تأمله وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع، وتأمل مواضع القلقلة²⁵ في دال «لقد» وفي الطاء من «بطشتنا»، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تماروا» مع الفصل بالمد، كأنها تثقل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من «تماروا» فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء «النذر» حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم

21. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د. عبد الله دراز، باختصار. ط 2، سنة 1970م، دار القلم، الكويت، ص: 101-103.

22. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للراجعي، ص: 227.

23. الجساءة: الخشونة (اللسان لابن منظور: جساء).

24. القمر: 36.

25. حروف القلقلة خمسة وقد رمزوا إليه ب: «قطب جد» وسميت بذلك لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقف عليهن وإرادة إتمام النطق بهن، فذلك الصوت في الوقف عليهن أبين منه في الوصل بهن. (أنظر الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، لمكي بن أبي طالب، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار المعارف للطباعة، دمشق، 1973، ص: 100.

أعجب لهذه الغنة²⁶ التي سبقت الطاء في نون أنذرهم وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر»²⁷.

وإذا كان نظم القرآن قد اشتمل على ما مر من التناسب والجمال، ألم يكن أجدر بمعارضيه الجبلية كما يصنع الكتاب والخطباء في اقتداء بعضهم ببعض؟

إن الذي منعهم من ذلك ولا شك- ما فيه من منعة طبيعية في غريب بنيته، ورصف حروفه وكلماته وجمله وآياته فلا جرم- يقول الدكتور دراز- إنهم «لم يجدوا له مثالا يحاذونه به، ولا سبيلا يسلكونه إلى تذليل منهجه، وآية ذلك أن أحدا لو حاول أن يدخل عليه شيئا من كلام الناس من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فم كل قارئ، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذا لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»²⁸.

وإذا كان نظم القرآن قد أعجب العرب وهم أهل الفصاحة والبيان فقد وجد من المفسرين والنحاة من قال في بعض الكلمات القرآنية: إنها مقحمة، وفي بعض حروفه إنها زائدة زيادة معنوية²⁹. «إلا أن الحكم بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل- مستورا أو مكشوفًا- بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن»³⁰.

ولنأخذ على سبيل المثال: قوله تعالى: «فبما رحمة من الله لنت لهم»³¹ وقوله: «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا»³² فإن النحاة يقولون إن «ما» في الآية الأولى و«أن» في الثانية زائدتان في الأعراب. فيظن من لا بصر له أنهما كذلك في النظم وقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته،

26. الغنة صوت يخرج من الأنف لا عمل للسان فيه، ومقدارها حركتين، وتكون الغنة على الميم المشددة مثل: «أما» و«عم» وعلى النون المشددة نحو: «إن» «الجنة» و«الناس». أنظر الرعاية لتجويد القراءة ولفظ التلاوة، ص: 214 وما بعدها، وحق التلاوة لحسن شيخ عثمان، ط 2، سنة 1977م، مؤسسة الرسالة المكتبة السلفية، ص: 69.

27. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ص: 227، 228.

28. فصلت: 41.

29. النبأ العظيم: ص: 105-106.

30. نفس المصدر، ص: 130-131. تقول الدكتورة بنت الشاطي في كتابها «الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق» ص: 168 حاول اللغويون والبلاغيون في تأويلها- أي الحروف- أن يعدلوا بها على وجه التقدير عن الوجه الذي جاء به، لكي تلي مقتضيات الصنعة الإعرابية وتخضع لقواعد المنطق البلاغي المدرسي، فبقيت هذه الحروف تتحدى كل محاولة بتغيير أو تقدير لحذف أو زيادة» أنظر لمزيد من التوسع الكتاب المذكور من ص: 168-191، دار المعارف بمصر 1971م.

31. آل عمران: 159.

32. يوسف: 96.

فإن المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقومه وأن ذلك رحمة من الله فجاء هذا المد في: «ما» وصفا لفظيا يؤكد معنى اللبن ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها- وهو لفظ رحمة- مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وبنه الفكر على قيمة الرحمة فيه وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية كما ترى.

والمراد بالثانية: تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبعدهما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظرا بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي «أن» في قوله: «أن جاء»³³.

وعلى هذا يقول الراجعي: «يجري كل ما ظن أنه في القرآن مزيد، فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها بمعناها، إنما هو نقص يحل القرآن عنه، وليس يقول بذلك إلا رجل يعتسف الكلام ويقضي فيه بغير علمه أو بعلم غيره... فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأي يسنح في البلاغة من جهة نظمه، أو دلالة أو وجه اختياره، بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق، أو حرف نافر، أو جهة غير محكمة، أو شيء مما تنفذ في نقده الصنعة الإنسانية من أي أبواب الكلام أن وسعها منه باب»³⁴.

2. تناسب الكلمات في الجمل:

الجملة هي مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي، إذ يحيل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة إلى معان تصورها في نفسه أو تصفها، ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها، على حين قد لا يراها المتكلم الذي أهدفها لكلامه غرضا، ولكنه بالكلام كأنه يراها، ولذا كانت المعاني في كلماتها التي تؤدي إليها كأنها في الاعتبار بقية الشعاع النظري الذي اتصل بالمادة الموصوفة أو بقية حس آخر من الحواس التي هي في الحقيقة جملة آلات الإنسان في صنع اللغة³⁵.

فإذا ركب الكلام على أصل من التركيب لا يتأدى بالمعاني إلى أبعد من مظاهر الحس، فهذا هو الكلام الطبيعي الذي لا يزيد من فضيلة المتكلم أكثر مما تزيد الحواس نفسها في هذا المتكلم من فضيلة الإنسانية، فإذا ارتفع الكلام إلى أن يصير في تقليبه ومداورته كان طرق

33. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 231.

34. المصدر السابق ص: 232.

35. المصدر السابق ص: 236.

ما بين الحواس في أنواع إدراكها وبين النفس، فلا يخطئ التأثير ولا ينافر جهة من جهاته، ولا يعدو أن يبلغ من الفؤاد مبلغه الذي قسم له، فهذا هو الكلام الذي يبين البليغ ويفرده من قومه ويجعله مهوى قلوبهم، فإذا بعد الكلام وأمعن حتى يكون بدقائق تركيبه وطرق تصويره كأنها يفيض النفس على الحواس إفاضة، ويترك هذا الإنسان من الإحساس به كأنه قلب كله، ثم يبلغ من ذلك إلى أن يكون روح لغة كاملة وبيان أمة برمتها، لا يحيله الزمن عن موضعه، ولا يقلبه عن جهته، وإلى أن يجعل البلغاء على تفاوتهم فيما بينهم وكأنهم معه طبقة واحدة، وفي طوق واحد من العجز، فذلك هو الكلام المعجز، بل هو معجزة الطبيعة الكلامية التي لم يعرف أن بلغاء أمة من الأمم قد أقروا وأجمعوا عليها إجماعا يتوارثونه علما ونظرا على تعاقب الأجيال إلا ما كان من ذلك في القرآن، وما لا يزال الإجماع منعقد عليه ما بقي في الأرض لفظ من العرب³⁶.

فألفاظ القرآن الكريم « كيفما أدرتها وكيفما تأملتها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردّها، ومن أية جهة وافقتها، فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب، وتراها تتسائر إلى غاية واحدة، وتسبح في معرض واحد، ولا يمتنعها لاختلاف حروفها تباين معانيها، وتعدد مواقعها من أن تكون جوهرًا واحدًا في الطبع والصقل، وفي الماء والرونق، كأنها تتلامح بروح حية ما هو إلا أن تتصل بها حتى تمتزج بروحك وتخالط إحساسك فلن تكون معها إلا على واحدة»³⁷.

إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها، ثم الافتتان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختل، فلا جرم إن كان في نظمه وتركيبه نمطا واحدا في القوة والإبداع لا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته، ما دامت تنعطف على جوانب هذا الكلام الإلهي، وما دام في موضعه من النظم والسياق، فإذا أنت حرفت ألفاظه من موضعها أو أخرجتها من أماكنها وأزلتها عن روابطها حصلت معك ألفاظ كغيرها بما يدور في الألسنة ويجري في الاستعمال، ورأيتها- وهي في الحالين لغة واحدة- كأنها خرجت من لغة إلى لغة لبعد ما كانت فيه مما صارت إليه³⁸.

36. المصدر السابق ص: 236-237.

37. المصدر السابق ص: 240-241.

38. المصدر السابق ص: 242، 245 بتصرف.

ولتجلية الأمر في ذلك وتوضيحه نسوق الأمثلة التالية:

1- قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾³⁹.

ذهب أكثر أهل العلم إلى القول بزيادة الكاف في قوله: « كمثله » بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة فرارا من المحال العقلي الذي يفضي إليه بقاؤها على معناه الأصلي من التشبيه، إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله، فتكون تسليما بثبوت المثل له سبحانه، أو على الأقل محتمة لثبوت وانتفاءه، وقليل منهم من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصا ولا احتمالا لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضا⁴⁰.

« وقصارى هذا التوجيه- لو تأملته- يقول الدكتور دراز- أنه مصحح لا مرجح، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين ميسر الحاجة إليه، ألسنت ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء».

ثم يقول «ولو رجعت إلى نفسك قليلا لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظا بقوة دلالة قائما بقسط جليل من المعنى المقصود في جملة، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو تهدم ركن من أركانه... لأنه لو قيل: « ليس مثله شيء » لكان ذلك نفيا للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب، إذ أن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ «المثل» عند إطلاقه، وإذا دب إلى النفس ديب الوسوس والأوهام: أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية، ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن والكهان والأوثان، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما في قدرته أو علمه، وشرك ما في خلقه أو أمره... فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاء العالم كله عن المماثلة وعمما يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل: «ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثالا لله، فضلا عن أن يكون مثالا له على الحقيقة»⁴¹.

2- قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد

39. الشورى: 11.

40. النبأ العظيم، ص: 132.

41. النبأ العظيم، ص: 133.

إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا، وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج⁴².

وقوله تعالى: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون، ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت⁴³﴾.

فقد عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر، وقبل تفتحها بالنبات مرة بأنها هامة، ومرة بأنها خاشعة وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنوع في التعبير.

إلا أننا «عند التأمل السريع في هذين السياقين- يقول سيد قطب رحمه الله- يتبين وجه التناسق في «هامة» و«خاشعة»، إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج، فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها «هامة»، ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود يتسق معه تصوير بأنها خاشعة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت⁴⁴».

فلو أنك حاولت وضع كلمة «هامة» بدل «خاشعة» أو العكس، فإنك تكون كمن يريد زرع عضو في جسم هو يرفضه، ولو أنك حاولت استبدال الكلمتين بغيرهما فإنك- ولا شك- عاجز عن إيجاد ما يقوم مقامهما ويؤدي معناهما، ولو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني لما كانت هناك ضرورة لهذا التنوع، ولكن التعبير القرآني لا يرمي إلى مجرد المعنى الذهني، إنما يريد الصورة كذلك، والصورة تقتضي هذا التنوع ليتم التناسق مع الأجزاء الأخرى في اللوحة أو المشهد المعروض⁴⁵.

3- قوله تعالى: ﴿أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ أفلا تبصر وأنت تقرأ كلمة «أغطش» متنبها إلى طبيعة حروفها ووقعها في أذنك، إنها تقدم لك المعنى في تلايف حروفها قبل أن تقدمها لك في معناها المحفوظ؟⁴⁶

«ومن طبيعة الإنسان- يقول د. محمد سعيد رمضان البوطي- أنه لا يستطيع أن يطوع ألفاظ اللغة لكل ما يتصوره من دقائق المعاني والأخيلة، فهو كثيرا ما يضطر أن ينزل عن

42. الحج: 5.

43. فصلت: 35-38.

44. التصوير الفني في القرآن ص: 98-99.

45. نفس المصدر، ص: 100.

46. النازعات: 27، 29. وسمك كل شيء قامته وارتفاعه، وأغطش ليلها: أي أظلمه. (في ظلال القرآن 446/8).

بساط خياله المحلق لحاقاً بكلمة هي دون خياله الحالم، ولكنه لا يجد من حوله سواها، فيضطر أن يهبط إلى مستواها، وبذلك يفسد سير فكره وتصوراته»⁴⁷.

3- قوله تعالى: ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا﴾⁴⁸.

وأنظر حينما يصف القرآن الكريم دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتي تحدثن منتقدات عن مراودتها لفتاها يوسف عن نفسه، إلى جلسة لطيفة راقية في بيتها لتطلعهن على يوسف وجماله حتى يعذرنها فيما أقدمت عليه... لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاماً ولا شك، ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك في الطعام، فهذه الكلمة إنما تتصور شهوة الجوع وتنتقل بالفكر إلى «المطبخ» بكل ما فيه من ألوان الطعام ورائحته وأسبابه، وهي سورة لا تتفق مع ما تريد الآية أن تضعه أمام خيالك من مظهر المجلس الأنيق الذي يضم نسوة بينهن امرأة العزيز يطلع عليهن فيه على حين غرة يوسف.

فانظر إلى الكلمة التي عبر بها البيان القرآني عن الطعام في هذه الحال «متكأ» كلمة تصور لك ذلك النوع من الطعام الذي إنما يقدم إلى المجلس تفكها وتبسطة وتجيلاً للمجلس وتوفيراً لأسباب المتعة فيه، ولذلك فالشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والإتكاء. فأى تعبير هذا الذي تمتد به الدقة في تصوير المعنى إلى هذا الحد غير تعبير القرآن.

وبعد ما وضح من الأمثلة المذكور ما تمتاز به الكلمة القرآنية من جمال توقيفها في السمع، وجميل اتساقها مع المعنى لا يسعنا إلا أن نقول بقول ابن عطية من أنك «لو نزع من القرآن لفظة ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد»⁴⁹.

3. تناسب نظم الآيات في السور:

لقد اقتضت مشيئة الله عز وجل أن ينزل القرآن الكريم منجماً بحسب الحاجة: خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل⁵⁰، وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول «غير أولي الضرر»⁵¹ وحدها، وهي بعض آية، وكذا قوله «وإن خفتن عيلة»⁵² إلى آخر الآية نزلت بعد نزول أول الآية⁵³.

47. من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ط 5، سنة 1977، مكتبة الفارابي، ص: 177، وقارن بظلال القرآن 446/8.

48. يوسف: 31.

49. وانظر أمثلة أخرى عن تناسب الكلمات في النظم القرآني في كتاب: «روائع القرآن للوطي» من ص: 178 إلى 186.

50. النبا العظيم: ص 112.

51. النساء: جزء من الآية 94.

52. التوبة: 28.

53. الإتيان: 124/1.

وعلى هذا المنوال ظل القرآن ينزل نجوما ليقراه النبي (ﷺ) على مكث ويتلقاه الصحابة شيئا بعد شيء يتدرج مع الأحداث والوقائع والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول خلال ثلاثة وعشرين سنة.

ولعل هذا الانفصال الزمني في نزول الآيات، واختلاف دواعيها وتناولها لكثير من الأغراض من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل إلى ضروب شتى، لعل ذلك كان يستتبع لانفصال الحديث عنها عن ضرب من الاستقلال والاستئناف أن لا يدع بينها منزعا للتواصل والترابط، ويكون سببا في تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله إذا أريد نظم طائفة من تلك الآيات في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة.

وسبب آخر كان أجدر أن يزيد نظم السور تفكيكا ووحدتها تمزيقا وآياتها تنافرا وتناكرا هو الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض، فقد كان رسول الله (ﷺ) «لا يتربص بترتيب نجومه حتى كملت نزولا، بل لم يترث بتأليف سورة واحدة منه حتى تمت فصولا، بل كان كلما ألقى إليه آية أو آيات أمر بوضعها من فوره في مكان مرتب من سورة معينة، على حين أن هذه الآيات والسور لم تتخذ في ورودها التنزيلي سبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي، فكم من سورة نزلت جميعا أو أشتاتا في الفترات بين النجوم من سورة أخرى، وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولا وتأخرت ترتيبا وكم من آية على عكس ذلك»⁵⁴.

أخرج ابن أشته في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال: «سمعت ربيعة يسأل: لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه»⁵⁵.

فلو أنك أقبلت على آية سورة في التنزيل - ولتكن تلك التي تناول مختلف الأغراض وما أكثرها في القرآن - وتنقلت بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ملاحظا مطلعها ومقطعها، وتقابل أوضاعها وتعادها، وتلاقي أركانها وتعانقها وازدواج مقدماتها بنتائجها، فإنك كما يقول الدكتور دراز: «لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، وسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت

54. النبأ العظيم، ص: 149، 150.

55. الإتيقان: 179/1.

نجوماً، أو لتقولن إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثّل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته ثم فرق أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوا يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة»⁵⁶.

أمثلة عن وحدة السورة وترابطها:

إذا أردنا إقامة شاهد من العيان على صحة ما ذكر من وحدة السورة وترابطها فلنأخذ مثلاً سورة البقرة التي جمعت بضعا وثمانين ومائتي آية، وحوت -فيها وصل إلينا- نيفاً وثمانين نجماً، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً⁵⁷.

يقول الدكتور عبد الله دراز: «اعلم أن هذه السورة -البقرة- على طولها تتألف من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب»:

المقدمة في عشرين آية (1-20) وهي في التعريف بشأن هذا القرآن وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم، وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض، المقصد الأول في خمس (آيات 1-5) وهو في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

المقصد الثاني: في ثلاث وعشرين ومائة آية (40-162) وهو في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

المقصد الثالث: في ست ومائة آية (178-283) وهي في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً.

المقصد الرابع: في آية واحدة (284) وهي في ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم من مخالفتها.

الخاتمة: في آيتين اثنتين (285-286) وهي في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجى لهم في أجلهم وعاجلهم⁵⁸.

56. النبأ العظيم ص: 154-155.

57. لقد عمد الدكتور عبد الله دراز إلى دراسة سورة البقرة دراسة تحليلية لأجزائها ومقاطعها وأغراضها أبرز فيها ما يثير الدهشة والعجب من بديع ائتلافها وتأليفها ولطيف الانتقال بين معانيها وأغراضها وحسن المقابلة بين أوائلها وأواخرها، وقد أجاد رحمه الله وأفاد، وسوف نقتبس أعضاء من تحليله للسورة المذكورة التي استغرقت دراسته لها (68 صفحة) أي من ص 163 إلى 211 من كتابه القيم النبأ العظيم فلتراجع هناك لمن أراد التفصيل.

58. النبأ العظيم ص: 158.

وبعد عرضه لأسرار ترتيب هذه السورة وتناسق أجزائها وائتلاف أطرافها، وجمال أسلوبها علق عليها قائلا: « تلك هي سورة البقرة، رأييت وحدتها في كثرتها، أعرفت اتجاه خطوطها في لوحاتها؟ رأييت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سجاؤها بغير عمد تسندها؟ رأييت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها، لا أقول أحسن دمية، بل أجمل صورة حية؛ كل ذرة في خلقتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقصود وفقا لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها، فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها لكان جمع أشاتها على هذه السورة معجزة فكيف وكل نجم منها كسائر النجوم في سائر كان يوضع في رتبته من فور نزوله وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارا لحلوله. وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل.⁵⁹ ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام بل بتسعة أعوام؟⁶⁰.

ومثال آخر على تأكيد ما ذهبنا إليه مما يجلي الأمر أجلى بيان، ويقطع الشك بأسطع برهان، هو سورة «ق».

تبدأ هذه السورة بمقدمة وثلاث مقاصد وخاتمة.

- المقدمة في آية واحدة وفيها القسم ب «ق» والقرآن المجيد.

- المقصد الأول في ثلاث آيات (2-4) وهي في تعجب الكافرين من بعثة منذر منهم.

- المقصد الثاني في عشر آيات (5-15) وهي في تصورات الكافرين وتكذيبهم للحق لما جاءهم والرد عليهم بلفت نظرهم إلى الكون من حولهم ليتعرفوا فيه على قدرة الله في إحياء الأرض بعد مواتها بالمطر، وذلك مثل بعث الأجساد بعد موتها ثم يذكر تكذيب الأقوام السابقين، وأن تكذيب هؤلاء مثل تكذيب أولئك وكما أنه خلقهم فإنه لا يعجزه بعثهم مرة ثانية.

- المقصد الثالث في ثلاث وعشرين آية (15-38) وهي استطراد في قضية البعث التي عاجلها المقصد الثاني بلمسات جديدة ولكنها رهيبة مخيفة، تذكر بخلق الإنسان، وعلم الله بما توسوس به النفوس ورقابة الملائكة على الإنسان، وتذكيره بالموت وبالمصير الفظيع المعد

59. نفس المصدر ص: 163.

60. نفس المصدر: 210-211.

للكافرين والمصير المشرق المعد للمؤمن التقي وفي ذلك ما يكفي لمن له قلب فأصغى وتدبر، ثم بخلق الله السماوات والأرض وما فيهما دون لغوب وهو أهون عليه من البعث والنشور.

- الخاتمة: في سبع آيات (39-45) وهي في الحث على الصبر على ما يقولون من إنكار للبعث، وجحود بقدرة الله على الإحياء والإعادة في جو جديد من التسبيح والتحميد والسجود، وانتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل المتوقع في كل لحظة من لحظات الليل والنهار يوم تشقق عنهم الأرض سراعاً، ويكون حشر الله لهم يسيراً، وفيه أخيراً تثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه جدلهم الذي لا سلطان له عليهم، وإنما مهمته أن يذكرهم⁶¹.

وبعد وضوح التناسق والترتيب، والوحدة والتكامل في المثالين السابقين- وسور القرآن كلها لا تشذ عن ذلك- فإننا مع الدكتور عبد الله دراز في قوله: بأنه إذا: « كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أسباب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمرى إنه في ترتيب آية على هذا الوجه هو معجزة المعجزات »⁶².

61. أنظر أمثلة أخرى في تناسق الآيات في سورها في الجزء (2) من كتاب الرسول للشيخ سعيد حوى (فصل المعجزات) ص: 15-30، ط 3، سنة 1973.

62. النبأ العظيم: 211.

التناسب بين كتب التفسير، والتأليف المستقل

أهمية المناسبة في التفسير:

إذا كان القرآن الكريم نزل منجماً تبعاً لما تفرق من الأسباب والوقائع، فإن هذه الأسباب والوقائع لا يمكن فصلها عن النص الذي كانت سبباً في نزوله لأنها تعين على فهمه، وتفيد في استلهاهم أرجح التأويل وأصح التفسير، ولذلك لا نعجب إذا حرّم العلماء المحققون الإقدام على تفسير كتاب الله لمن كان جاهلاً بأسباب النزول، حتى قال الواحدي: « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها »⁶³.

إلا أن ترتيب القرآن في المصحف على غير سبب النزول لم يكن ليتعارض مع تلمس سبب نزول الآيات، بل كانوا يجمعون بين السبب التاريخي والسياق الأدبي، فما أغفلوا حقائق التاريخ في اشتراط الزمان لمعرفة سبب النزول، ولا أغفلوا التناسق الفني حين أقصوا فكرة الزمان لمراعاة السياق.

وعليه فقد قال الزركشي: ⁶⁴ « إن الزمان إنما يشترط في سبب النزول ولا يشترط في المناسبة لأن المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها، والآيات كانت تنزل على أسبابها ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها في المواضع التي علم من الله تعالى أنها مواضعها ». فما أكثر الآيات التي وضعت في السطور على حسب الحكمة ترتيباً، وحفظت في الصدور على حسب الوقائع تنزيلاً.

ألا ترى قوله تعالى: « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً »⁶⁵. قد نزل في كعب بن الأشرف كان قدم إلى مكة وشاهد قتلى بدر وحرص الكفار على الأخذ بثأرهم وغزو النبي (ﷺ) فسأله: من أهدى سبيلاً؟ المؤمنون أم هم! فقال أنتم قالها كذباً منه وضلالة⁶⁶. فهذه الآية نزلت في حقه وحق من شاركه في تلك المقالة، وهم أهل كتاب يجدون عندهم في كتابهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم وصفته، وقد أخذت عليه المواثيق ألا يكتموا ذلك وأن ينصروه، وكان ذلك أمانة لازمة فلم يؤدوها وخانوا فيها، فذلك مناسب لقوله تعالى: « إن الله يأمركم أن

63. الإتقان 1-82.

64. البرهان للزركشي 1-26.

65. النساء: 51.

66. أنظر أسباب النزول للواحدي ص: 114. ط. عالم الكتب بيروت، وبهامشه الناسخ والمنسوخ لهبة الله ابن سلامة.

تؤدوا الأمانات إلى أهلها» التي نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري حاجب الكعبة لما أخذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة ثم رده عليه⁶⁷.

وما دامت هذه الآية نزلت في الفتح وتلك نزلت في قصة كعب بن الأشرف عقب بدر وبينهما ست سنين فإن الرابط بين هذين المقطعين يكاد يكون منهما موضوعا واحدا محكم البناء متلاحم الأجزاء آخذا بعضه بأعناق بعض.

قال ابن العربي: «وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقولهم: أن المشركين أهدى سبيلا، فكان ذلك خيانة منهم، فانجرّ الكلام إلى ذكر جميع الأمانات⁶⁸.

ولذلك، فقد اهتم كثير من المفسرين بالمناسبة اهتمامهم، بسبب النزول بل، لم يبالغ المفسرون- كما يقول د. صبحي الصالح- «حين قدموا أحيانا ذكر المناسبة بين الآيات على معرفة سبب نزولها كلما رأوا هذه المناسبة هي المصححة لنظم الكلام، ولعلمهم بلغوا ذروة التحقيق العلمي حين أوجبوا البداءة بذكر سبب النزول حين يكون وجه المناسبة متوقفا على معرفة الأسباب⁶⁹.

وقد توسع بعض المفسرين في التماس أوجه التناسب لا فيما بين الآيات بعضها ببعض ولكن أيضا بين السور فيما بينهما استنادا إلى توقيفية الترتيب القرآني آيات وسورا وهو ما عولنا عليه وانتصرنا له⁷⁰.

وسنحاول بإذن الله - بما يتناسب وهذا البحث- بسط القول في وجوه التناسب عند المفسرين والباحثين في تناسب السور والآيات، أو في تناسب السور، لا على سبيل التفصيل والاستقصاء- فذلك له شأن آخر قد ييسر الله العودة إليه والتفرغ له- ولكن على سبيل الإيجاز والتمثيل.

أولا: تناسب الآيات عند المفسرين

لم يحفل المفسرون بإبراز أوجه التناسب بين وحدات وآيات السور، إلا قليلا، وذلك راجع إلى دقتها وخفائها، علما بأن «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط⁷¹.

67. نفس المرجع، ص: 116.

68. البرهان 1-26.

69. مباحث في علوم القرآن، ط 10، سنة 1977، دار العلم للملايين، بيروت، ص: 150-151.

70. ارجع إلى ما فصلناه في ص: 71 وما بعدها.

71. وهو قول الإمام فخر الدين الرازي. (معتك الأقران: 55/1).

ما دفع الإمام الرازي إلى القول: «إني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متبهيين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار صورته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر⁷²

ولعل أول من سبق إلى هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابوري، «وكان يقول على الكرسي إذا قرئت عليه الآية لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد بعدم علمهم بالمناسبة»⁷³.

وإذا كان الإمام الفخر الرازي قد امتاز من المفسرين الأقدمين بإكثاره من التماس المناسبات في تفسيره، فإن سيد قطب من المحدثين قد أبدع في إبراز ألوان من التناسق الفني في التصوير القرآني ولعل في الأمثلة التالية التي استقيتها من تفسير الرجليين العظميين ومن تفسير المنار لمحمد عبده ما يجعلنا نستشف بعض تلك اللطائف الدقيقة المودعة في ترتيب القرآن وتناسقه.

1. أمثلة من تفسير الفخر الرازي؛

أ. قال عند تفسيره لسورة الفاتحة: «إن سورة الفاتحة فيها عشرة أشياء: منها خمسة من صفات الربوبية وهي: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك، وخمسة أشياء من صفات العبد وهي: العبودية والاستعانة، وطلب الهداية وطلب الاستقامة، وطلب النعمة... فانطبقت تلك الأسماء الخمسة على هذه الأحوال الخمسة، فكأنه قيل: إياك نعبد لأنك أنت الله، وإياك نستعين لأنك أنت الرب، إهدنا الصراط المستقيم لأنك أنت الرحمن، وارزقنا الاستقامة لأنك أنت الرحيم، وأفض علينا سجل نعمك وكرمك لأنك مالك يوم الدين»⁷⁴.

ثم إن «أول السورة مشتمل على الحمد والثناء عليه والمدح له، وآخرها مشتمل على الذم للمعرضين عن الإيمان والإقرار بطاعته، وذلك يدل أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله تعالى، ومطلع الآفات ورأس المخافات هو الإعراض عن الله تعالى والبعد عن طاعته والاجتناب عن خدمته»⁷⁵.

72. معترك الأقران: 56/1.

73. معترك الأقران: 55/1.

74. التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، المطبعة البهية المصرية الأزهر، سنة 1934، 285/1.

75. نفس المرجع 262/1.

ب. وقال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون»⁷⁶: اعلم أن في هذه الآيات مسائل:

المسألة الأولى: إن الله تعالى لما قدم أحكام الفرق الثلاثة أعني المومنين والكفار والمنافقين: أقبل عليهم بالخطاب وهو من باب الالتفات المذكور في قوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين...» وثانيها: كأنه سبحانه وتعالى يقول: جعلت الرسول واسطة بيني وبينك أولا: ثم الآن أزيد في إكرامك وتقريبك فأخاطبك من غير واسطة ليحصل لك من التنبيه على الأدلة شرف المخاطبة والمكاملة، وثالثها: مشعر بأن العبد إذا كان مشغلا بالعبودية فإنه يكون أبدا في الترقى بدليل أنه في هذه الآية انتقل من الغيبة إلى الحضور، ورابعها: إن الآيات المتقدمة كانت في حكاية أحوالهم، وأما هذه الآيات فإنها أمر وتكليف، ففيه كلفة ومشقة فلا بد من راحة تقابل هذه الكلفة، وتلك الراحة هي أن يرفع ملك الملوك الواسطة من بين ويخاطبهم بذاته، كما أن العبد إذا أزل تكليفا شاقا، فلو شاقه المولى وقال: أريد منك أن تفعل كذا فإنه يصير ذلك الشاق لذيذا لأجل ذلك الخطاب»⁷⁷.

ج. وقال عند تفسيره لقوله تعالى: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم»⁷⁸: اعلم أن هذا هو النعمة الثانية التي عمت المكلفين بأسرهم وما أحسن ما راعى الله سبحانه وتعالى هذا الترتيب فإن الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة، فلهذا ذكر الله أمر الحياة أولا، «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون»⁷⁹. ثم أتبعه بذكر السماء والأرض⁸⁰.

2. أمثلة من تفسير الشيخ محمد عبده:

أ. قال عند تفسيره لقوله تعالى: «والهكم إله واحد لا إله إلا الرحمن الرحيم»⁸¹: نطقت الآيات السابقة بأن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ملعونون لا ترجى لهم

76. البقرة: 22

77. التفسير الكبير: 82/2.

78. البقرة: 28.

79. البقرة: 27.

80. التفسير الكبير: 153/2.

81. البقرة: 162.

رحمة الله تعالى إلا أن يتوبوا، فإن هم ماتوا على كتمانهم وما يستلزمه كفرهم من الأعمال كانوا خالدين في اللعنة لا يخفف عنهم من عذابها شيء... فناسب بعد هذا أن يبين الله تعالى أن شارع الدين ومحق الحق هو واحد لا يعبد غيره ولا تكتم هدايته ولا يجعل كلام البشر معيارا على كلامه وهو مفيض الرحمة والإحسان... ثم قال الشيخ محمد عبده بعد كلامه عن توحيد الله وأنواع الشرك: «أرأيت هذا الاتصال المحكم بين الآية وما قبلها، أن بعض المفسرين قد قطع عراه وفصمها وجعل الآية جوابا لقوم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك، قاله الجلال... وسبب النزول إنما يحتاج إليه في آيات الأحكام لأن معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته وسره، ومثلها ما فيه إشارة إلى بعض الوقائع كغزوة بدر والنصر فيها، ومصيبة المؤمنين في أحد، وأما الآيات المقررة للتوحيد، وهو المقصود الأول من الدين فلا حاجة إلى التماس أسباب لنزولها بل هي لا تتوقف على انتظار السؤال، وإنما كان يبين عند كل مناسبة، وما عساه يكون قد قارن نزولها من حادثة أو سؤال مثل هذا الذي ذكر آنفا، فهو إن صح رواية لا يزيدنا بيانا في فهم الآية ولا يصح أن يجعل سببا لنزولها لاسيما بعد الذي علم من اتصالها بما قبلها كما يليق ببلاغة القرآن. ومثل هذا السبب يجعل القرآن مبددا متفرقا لا ترتبط أجزاؤه ولا تتصل أنحاءه⁸².

ب. قال عند تفسيره لقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم»⁸³ ظهر بهذا التقرير أن الآية متصلة بما قبلها ومتممة له، وقال بعض المفسرين - وله وجه فيما قال - : إن ما تقدم من أول السورة إلى ما قبل هذه الآية كله في القرآن والرسالة وأحوال المنكرين للداعي، وما جاء فيها من الأحكام فإنما جاء بطريق العرض والاستطراد، وهذه الآية ابتداء قسم جديد من الكلام وهو سرد الأحكام، فإنه يذكر بعدها أحكام محرّمات الطعام وأحكام الصون والحج والقصاص والوصية والنكاح والطلاق والرجعة والعدة والإيلاء والرضاع وغير ذلك، ينتهي هذا القسم بما قبل قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم⁸⁴... الآية» ولا غرو فإن بين كل قسم وآخر في القرآن من التناسب مثل ما بين كل آية وأخرى في القسم الواحد «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»⁸⁵.

82. تفسير القرآن الحكيم (المنار) (56-54/1).

83. البقرة: 171-172.

84. (*). البقرة: 243.

85. هود: 1، أنظر تفسير المنار (97/1).

ج. وقال عند تفسيره لقوله تعالى: « وأتموا الحج والعمرة لله⁸⁶... » اتصال هذه الآيات بما قبلها جلي جدا لاسيما لمن قرأ ما تقدم من التفسير، فإن آيات القتال السابقة نزلت في بيان أحكام الأشهر الحرم والإحرام المسجد الحرام، فكان الغرض الأول من السياق بيان أحكام الحج بعد بيان أحكام الصيام، لأن شهوره بعد شهره الذي هو رمضان⁸⁷.

3. أمثلة من تفسير سيد قطب:

أ. قال عند تفسيره لسورة الفجر: « هذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الالتفات بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر.. ولكنها تتضمن ألوانا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال، ألوانا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنا واحدا متعدد النغمات موحد الإيقاع.

في بعض مشاهدتها جمال هادئ رقيق، ندي السمات والإيقاعات، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة، وبطل العبادة والصلاة في ثنانيا تلك المشاهد.. « والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر⁸⁸.

وفي بعض مشاهدتها شد وقصف، سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف: « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا، وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد⁸⁹.

وفي بعض مشاهدتها نداوة ورقة ورضى يفيض وطمانينة تتناسق فيها المناظر والأنغام كهذا الختام: « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي⁹⁰.

وفيه إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين، وإيقاعها بين بين، بين إيقاع القصص الرخي وإيقاع المصارع القوي: « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد⁹¹.

86. البقرة: 196.

87. تفسير المنار (217/1).

88. الفجر: 1-4.

89. الفجر: 23-29.

90. الفجر: 30-32.

91. الفجر: 6-14.

وفيهما بيان لتصورات الإنسان وقيمه غير الإيمانية، وهي ذات لون خاص في السورة تعبيراً وإيقاعاً: « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن... »⁹².

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم: « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حبا جما »⁹³.

يلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم، فقد جاء بعده: « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا... إلخ »⁹⁴ فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير.

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها. كما يبدو نظام تعدد الفواصل وتغير حروف القوافي بحسب تنوع المعاني والمشاهد فالسورة من هذا الجانب نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني، فوق ما فيها من جمال ملحوظ مأنوس⁹⁵.

ب. وقال عند تفسيره لسورة الليل: « في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء. ولما كانت هذه الحقيقة متنوعة المظاهر: « إن سعيكم لشتى. فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره ليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »⁹⁶ وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة: « فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى »⁹⁷.

لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين وذات اتجاهين، كذلك كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذات لونين في الكون وفي النفس سواء: « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى » « وما خلق الذكر والأنثى »⁹⁸ وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني⁹⁹.

92. الفجر: 15-18.

93. الفجر: 19-22.

94. الفجر: 23-32.

95. في ظلال القرآن: (568/8-569).

96. الليل: 4-10.

97. الليل: 14-18.

98. الليل: 1-3.

99. في ظلال القرآن: (594/8-595).

ج. وقال عند تفسيره لسورة المسد: « وفي الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها، نقتطف في بيانه سطوراً من كتاب: «مشاهد القيامة في القرآن» نمهد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل التي ذعرت لها وجن جنونها:

أبو هب، «سيصلى ناراً ذات هب. وامراته حمالة الحطب»، ستصلاها وفي عنقها « جبل م: مسد».

ثم أتى من بعده الشيخ برهان الدين البقاعي¹⁰³ فألف كتابه: « نظم الدرر في تناسب الآي والسور »¹⁰⁴ وجعل المناسبة أساس تفسيره، وعليها يدور جل كلامه.

كما ألف الإمام السيوطي الذي عاصر البقاعي في تعلقات القرآن كتاب « أسرار التنزيل » اشتمل على بضع عشرة نوعاً من أنواع الإعجاز منها.

- بيان مناسبات ترتيب سوره وحكمة وضع كل سورة منها.
- بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها.
- مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سبقت له.
- مناسبة أوائل السور لأواخرها.
- مناسبات ترتيب آياته واعتلاق بعضها ببعض وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.
- بيان فواصل الآي ومناسبتها للآي التي ختمت بها.
- مناسبة أسماء السور لها.

إلى غير ذلك من وجوه التناسب والبلاغة في القرآن الكريم¹⁰⁵، وهو كتاب على غاية من الأهمية في بابيه كما ترى من محتوياته، ولعلنا نجد فيه- لو وقع بين أيدينا¹⁰⁶ من أسرار التناسب وحكمة الترتيب ما لا نجده في غيره من كتب التفسير والمناسبات.

أما من تعرض لمناسبات الآيات والسور من المحدثين فأهمهم الشيخ محمد عبده في تفسيره المنار وسيد قطب رحمه الله الذي سار على منوال جديد، ومنهج فريد في إبراز ألوان التناسق في القرآن الكريم¹⁰⁷.

103. هو إبراهيم بن عمر برهان الدين البقاعي منسوب إلى البقاع من بلاد سورية، مفسر أديب توفي سنة 885هـ وكان رحمه الله من أجل تلامذة الحافظ بن حجر (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي التسوكاني، ط 1، مطبعة السعادة، 1948، (19/1).

104. وهو تفسير كامل للقرآن الكريم توجد مخطوطة منه في الخزنة الملكية تحت رقم: 2596 وتقع في ثماني مجلدات، وتوجد نسخة أخرى بالخزانة العامة- قسم المخطوطات بالرباط تحت رقم: ق 181، ويقوم بتحقيقه في الهند السيد محمد عمران الأعظمي، (أنظر مجلة الأمة عدد 32/شعبان 1403) وقد بلغني أن أجزاء منه قد طبعت بالمشرق.

105. أنظر تناسق الدرر في تناسب السور (أسرار ترتيب القرآن)، تحقيق: عبد القادر أحمد، دار الاعتصام، ط. سنة 1978، ص: 65، 66.

106. قام السيد أحمد الشرقاوي إقبال بجمع وتصنيف آثار الإمام السيوطي في كتاب سماه، "مكتبة حلال السيوطي" أحصى له 725 كتاباً في مختلف الفنون، ولم يشر إلى هذا الكتاب الذي ذكره السيوطي في كتابه معترك الأقران 55/1 وتناسق الدرر المذكور أعلاه. (ط. دار المغرب للتأليف والنشر 1977).

107. لا يخفى سيد قطب رحمه الله في تفسيره " في ظلال القرآن " بتجلية أوجه التناسب بين السورة بقدر ما يحفل بإبراز الوحدة الموضوعية للسورة وأوجه التناسق بين مواضعها من جهة، وبين التصوير الفني كأفضل أداة للتعبير القرآني من جهة ثانية، وذلك واضح من الأمثلة التي أوردناها سابقاً من تفسيره في تناسب الآيات (أنظر ص: 61-63).

وفي الأمثلة السابقة التي ضربتها من تفاسير: الإمام الرازي، والشيخ محمد عبده والشهيد سيد قطب ما يكفي، ولمن أراد المزيد فليرجع إلى هذه التفاسير ففيها ما يغني.

ثالثاً: تناسب السور

إذا كان بعض المفسرين قد تعرض لمناسبات الآيات كالفخر الرازي والزخشي وبعضهم الآخر قد تعرض لمناسبة الآيات والسور كابن حيان الغرناطي، وبرهان الدين البقاعي والإمام السيوطي، والشيخ الإمام محمد عبده، والشيخ مصطفى المراغي، فإن صنفًا ثالثًا من المفسرين والباحثين في علوم القرآن وإعجازه قد تعرض لمناسبة السور واعتلاق بعضها ببعض خاصة، بدءًا من سورة الفاتحة وانتهاء بسورة الناس.

وقد اتفقت كلمتهم على أن أول من صنف تصنيفًا مستقلًا في تناسب السور هو أبو جعفر بن الزبير الغرناطي والذي يقول: «اقتصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على وجوه ترتيب السور، وإن لم أر في هذا الضرب الخاص شيئًا لمن تقدم وغبر...»¹⁰⁸.

ثم تلاه الإمام السيوطي الذي ألف كتابه. «تناسق الدرر في تناسب السور» لخصه من كتابه: «أسرار التنزيل» ليكون - كما وصفه - عجالة لمريده وبغية لمستفيده، كما نص على أنه: «من نتاج فكره، وولاد نظره، لقلة من تكلم في ذلك»¹⁰⁹.

وقد ألف في هذا الموضوع من علماء العصر الشيخ عبد الله بن الصديق أمد الله في عمره كتابًا لطيفًا يعتبر ثالث تصنيف في ذلك سماه: «جواهر البيان في تناسب سور القرآن» وفي ذلك يقول:

«وأول من أفرد هذا النوع بالتأليف - فيما أعلم - العلامة أبو جعفر بن الزبير الأندلسي شيخ العلامة أبي حيان ألف كتابًا سماه: «البرهان في مناسبة سور القرآن» ثم كتب الحافظ السيوطي كتابه «تناسق الدرر»، وكتابي هذا ثالث كتاب في هذا العلم الشريف»¹¹⁰.

108. البرهان في ترتيب سور القرآن، ص: 181.

109. تناسق الدرر في تناسب السور، ص: 67.

110. عبد الله بن الصديق، جواهر البيان في تناسب سور القرآن، مطبعة محمد عاطف وسيد طه بمصر، بدون تاريخ، ص: 16.

القسم الثاني

عصر ابن الزبير وترجمته ومؤلفاته

المبحث الأول: عصر ابن الزبير

- الحالة السياسية في عصره
- الحياة العلمية في عصره

المبحث الثاني: ترجمة ابن الزبير

- اسمه ونسبه
- مولده ونشأته
- وفاته
- مكانته العلمية
- تلاميذه
- شيوخه
- مؤلفاته

المبحث الثالث: البرهان في ترتيب سور القرآن

- نسبته إلى صاحبه
- منهج التحقيق
- الإشارات والرموز

المبحث الأول

عصر ابن الزبير

- الحالة السياسية في عصره

- الحياة العلمية في عصره

عصر ابن الزبير

الحالة السياسية في عصره

وافق ميلاد ابن الزبير سنة 627 هـ بداية انهيار الحكم الموحي الذي لحقه الضعف والهزال، وعاصر سقوط عدد كبير من حواضر الأندلس وثغورها وانحسار الوجود الإسلامي في مملكة بني الأحمر بغرناطة على يد النصاري الصليبيين، مع ما رافق ذلك من قتل وتشريد إرواء لغيل الحقد الصليبي وإشباعا لغريزة الانتقام والتنكيل بأهلها، كما شاهد انبعاث روح الطوائف القديمة سواء من أحفاد ملوك الطوائف القدامى أو من المتطلعين الجدد.

أ- نهاية الموحدين؛

لقد كانت بداية الضعف الموحي في الأندلس قبل هذا التاريخ¹، إلا أن الانهيار بدأ فعلا قريبا من هذا التاريخ، فبعد موت المستنصر الموحي الشاب فجأة سنة 620 هـ تولى أبو محمد (المخلوع) عبد الواحد بن الخليفة أبي يعقوب يوسف عم بن الخليفة المستنصر الخلافة بعده والذي تم خلعها سريعا بعد بضعة أشهر أي سنة 621 هـ حيث تمت مبايعة أبي محمد عبد الله الملقب بالعدل ابن الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور، تلتها بيعته أخيه أبي العلاء (العلي) الملقب بالمأمون سنة 629 هـ ثم بيعته ابنه أبي محمد الملقب بالرشيد سنة 640 هـ ثم انتهى أمر الموحدين بالمغرب نفسه على يد المرينيين² سنة 668 هـ وهذا التتابع في عزل وتولي الخلفاء وفي مدة وجيزة لم يكن يسمح لأهم بتقوية نفوذه وسلطانه في المغرب بله في الأندلس المتزامن مع ضعف السيطرة الموحدية فيها من جهة، وتحين النصاري الفرصة لابتلاع الأندلس من جهة ثانية، كان كل ذلك، المؤشر الذي دفع بأحداث الأندلس سريعا نحو إنهاء الوجود الموحي في الأندلس سواء كان ذلك على يد أبناء الأندلس الثائرين على سلطان الموحدين كابن هود وابن الأحمر أو على يد النصاري الذين وجدوا الفرصة مواتية لتفكيك نظم عقد ثغور الأندلس ونظمها من جديد لتزین جيد مملكتهم المتحدة ضد الإسلام.

1. ظهر المرينيون في المغرب الأقصى بزعامة عبد الحق بن محيو المتوفى سنة 614 هـ واستقل بنو زيان من بني عبد الواد بالمغرب الأوسط وأعلنوا استقلالهم نهائيا سنة 633 هـ واستقل أبو حفص بالمغرب الأدنى (تونس) بزعامة عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص حوالي سنة 623 هـ.

2. الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ط 2، الشركة المصرية للطباعة والنشر، (141/1)، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، 1960، ص: 413.

ب - سقوط المدن والقواعد الكبرى في يد النصارى؛

ضعف نفوذ الموحدين وتضاءل سلطانهم فطمح العدو لهضم الأندلس مستغلا الفرصة السانحة فوحد صفوفه ونشط الرهبان والقساوسة لحصد بذور الحقد التي كرسوا جهودهم من أجل شحن القلوب بها أزمانا متطاولة فوجه ملوك النصارى ضرباتهم المتوالية السريعة إلى كبرى حواضر الأندلس وقواعدها المهمة وقلاعها الحصينة فسقطت تباعا رغم المقاومة المستميتة التي أبدتها سكان كل من تلك المدن، ومنها:

1. الجزائر الشرقية حيث سقطت كبراهها ميورقة بيد جيوش متحدة من مملكة أرغون وملكها «الطاغية جاميش بن بطرة بن جايمش» ومن فرنسا وإيطاليا يوم الاثنين 14 صفر سنة 627 هـ (1230/1/1م) ³ فكان الحادث التي هز الأركان بالأندلس وكانت نكبة كبرى على السكان المسلمين.

2. قرطبة حاضرة الأندلس الكبرى وعاصمة الغرب الإسلامي سقطت بيد ملك قشتالة فرناندو بن الفونس التاسع ⁴ يوم الأحد 23 شوال سنة 633 هـ فكانت المصيبة التي قرحت القلوب.

3. بلنسية إحدى المدن المجاهدة وكبرى قواعد شرقي الأندلس وشعر من ثغوره العظيمة حيث اكتست عملية إسقاطها الطابع الصليبي المتطرف وذلك بإصدار الباب جريجوري التاسع مرسومه بإسباغ الصفة الصليبية على حروب إسقاط بلنسية التي بدأت سنة 631 هـ/1233م. وسقطت في صفر 636 هـ/1238م بعد حصار شديد وطويل ذهبت فيه الأقوات والمؤن. تجاوز السنة والنصف بيد جيوش النصارى المتحالفة وبعد معارك كثيرة وضارية منها معركة انيشة ⁵ التي هزم فيها البلنسيون أمام ملك أرغون جاميش ⁶ ومحاولة أمير بلنسية ⁷ وأهلها استرداد انيشة بعد ذلك فلم يفلح، وقهرت بلنسية السليبية بقيادة الملك الأرغوني وكثير من الجند الوافدين منهم

3. التكملة 155/1 والذيل والتكملة 12/5 ونفح الطيب 469/4 والإحاطة 383/1 وعصر المرابطين والموحدين (406-402/2).
4. هكذا ورد اسمه في المراجع الأوروبية أما في المراجع العربية فاسمه في الإحاطة 383/1 هراندة بن الهنشة وورد في غيرها هراندة بن الفنش. أنظر التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، عبد الرحمن الحجي، ط 1، سنة 1976، دار القلم، الكويت، ص: 472.

5. انيشة حصن يقع شمال مدينة بلنسية على بعد سبعة أميال.

6. وقعت معركة «انيشة» يوم الخميس الموافق عشرين من ذي الحجة عام 634 هـ أنظر المصدرين السابقين.

7. أميرها يومئذ هو أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش الجذامي استنجد بحواضر الأندلس، وبني حفص التونسيين، إلا أن النجيدات لم تصل في الوقت المناسب وفشلت نجدة الحفصيين في الوصول إلى المدينة المحاصرة المنكوبة (التاريخ الإسلامي من الفتح إلى سقوط غرناطة ص: 477 وما بعدها).

حشود المتطوعة الفرنسيين بقيادة مطران مدينة أربونة وآخرون من جنوه⁸ وبعد سقوط بلنسية تساقطت المدن التي تجاورها واحدة بعد الأخرى.

4. فشقر أواخر سنة 369هـ. ودانية في ذي الحجة سنة 641هـ وجيان في 643هـ. وشاطبة في صفر 644هـ⁹.

5. ثم سقطت إشبيلية في يد النصارى بمساعدة ابن الأحمر في يد القشتاليين سنة 646هـ¹⁰.

6. وسقطت مرسية سنة 664هـ. استسلمت صلحا لجايمش ملك أرغون فدخلها بجيشه وخرج منها أهلها بالأمان فغدروهم في الطريق وقتلوا جميع الرجال وسبوا النساء والأطفال...¹¹.

وكان يستتبع سقوط كل مدينة أو حصن أو قلعة إخلاؤها من أهلها المسلمين إما قتلا أو إجلاء أو سبيا أو بها مجتمعة.

ج - الزعامات الأندلسية وانبعاث روح الطوائف:

وتمثل ذلك في ابن هود وابن الأحمر:

1. ابن هود:

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجدامي أحد أحفاد أسرة بني هود أصحاب سرقسطة أيام ملوك الطوائف لقب نفسه بأمير المسلمين سيف الدولة والمتوكل على الله¹²، كان يسكن مرسية ومن أجنادها ومنها بدأ حركته حوالي سنة 625هـ ودخلت معها قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية في طاعته لتعطش النفوس إلى القيادة الحكيمة، إلا أن ابن هود لم يكن بذاك إذ كان فيه من الخفة والاستعجال ما أدخله في معارك عديدة دون إعداد كامل، نازل فيها فرناندو الثالث ملك قشتالة ووالده الفونس التاسع فخرها وإن كان صد بعض الهجمات النصرانية أو أوقف بعضها على أرض الأندلس وإن لم يصمد في ذلك طويلا إذ سرعان ما تساقطت المدن الأندلسية في يد الصليبية الحاقدة وتوالت عليه الهزائم،

8. العبر لابن خلدون، ط 1958، 1959، بيروت، 6/601.

9. نفح الطيب لأبي العباس أحمد المقرئ، تحقيق: إحسان عباس ط، بيروت، 1968.

10. نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان ط، القاهرة، 1966.

11. البيان المغرب (طبعة تطوان) 438/3.

12. العبر 364/4 ونفح الطيب 215/1 والإحاطة 130/25 والمغرب في أخبار المغرب 320/1.

ثم انتهى أمره سريعاً بموته سنة 635هـ. وإن كان من جهة أخرى عجل بنهاية الوجود الموحد في الأندلس بظهوره والتفاف الناس حوله أول أمره¹³.

2. ابن الأحمر:

وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر الملقب بالشيخ والغالب بالله وهو يرجع بنسبه إلى الصحابي الجليل سعد بن عباد الأنصاري من مواليد أراجونة من حصون شرق قرطبة سنة 591هـ، ظهر ابن الأحمر بعد قليل من ظهور ابن هود وكأنه كان ينتظر النموذج الذي سيحذو حذوه في نقض بقية الوجود الموحد بالأندلس وكان جندياً وافر العزم والجرأة دعا للـم الشمل فاستقام له الأمر في عدة مدن ثم كانت بيعته في رمضان سنة 635هـ، وانفرد بالزعامة بعد موت ابن هود - في نفس الشهر - المنافس للدود له، فانضم له ما كان تحت يد الهالك وأصبحت غرناطة عاصمة له. حاول في مبدأ الأمر ضد هجمات الصليبيين تارة، ومخالفتهم تارة أخرى على إخلاء بعض الثغور أو مساعدتهم على احتلال مناطق أخرى¹⁴ إلى أن قويت شوكة المرينيين في المغرب الذين هبوا لنجدته أكثر من مرة وإن كان تصرفه شاذاً في بعض الأحيان، حيث كان يتحالف مع النصارى كدخوله في طاعة فرناندو سنة 643هـ، مقابل توضيحات جسام تحمل بها، منها جزية سنوية ذات بال وإعانة النصارى في حروبهم ضد الممالك الإسلامية الأخرى¹⁵ والتنازل عن بعض القلاع أو الحصون كعربون ولاء¹⁶ ومقابل هذا السخاء من بني الأحمر يسمح بحضور مجلس قشتالة النيابي كأمر تابع للعرش ويهادنه النصارى لمدة عشرين سنة ويقرونه على ما بقي في يده من القواعد والحصون¹⁷ إلا أن النصارى سرعان ما نقضوا اتفاقهم معه رغم التزام ابن الأحمر بكل ما ورد فيه عندما وجدوا الفرصة سانحة بخلافه مع أصهاره بني إشبيلية وتدهور علاقته بهم فهاجم ملك قشتالة على الجزيرة الخضراء وعاث فيها فساداً فاضطر ابن الأحمر إلى الاستعانة بالمرينيين الذين هبوا لنجدته إلا أن منيته كانت أسرع إليه منهم فلم يشهد النصر الكبير الذي حققه المرينيون على النصارى مع بداية خلفه محمد الفقيه

13. البيان المغرب (تطوان) 335 ونفح الطيب 446/1.

14. الإحاطة 100-99/2- ونفح الطيب 216/1 ونهاية الأندلس 38-40.

15. كاشيولية التي سقطت في يد ملك قشتالة بمساعدته سنة: 646هـ (نهاية الأندلس ص: 33).

16. تنازل له عن الحصون والقلاع التالية: حصن "بيع" وقلعة "جابر" و"أراجونة" و"جيان" و"بركونة" و"الحجاز" وأرض "أفرنيرة".

17. أنظر مقدمة: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، 1983.

تباعا من سنة 673 هـ إلى سنة 674 هـ حيث وقعت الواقعة الكبرى حول استجة¹⁸ التي قتل فيها «دون نينوي ديلارا» صهر ملك قشتالة وقائد النصارى ثم افتك المرينيون في نفس السنة «شريس» من يد النصارى ثم عاد ملك المغرب بعد خمسة أشهر قضائها في الجهاد والنصر على النصارى إلا أن محمد الفقيه ساءت نيته في المرينيين وارتاب في علاقتهم مع بني اشقيلولة أصحاب مالقة أصهار بني الأحمر وخاصة بعد تنازل ابن محمد ابن اشقيلولة عنها بعد موت أبيه لجند المرينيين حتى يتخذوها قاعدة لحماية الأندلس فرد محمد الفقيه بالتحالف مع ملك قشتالة والاستيلاء على مالقة بعد ذلك، ونزلت جيوش النصارى بالجزيرة لمنع المنصور المريني من العبور كما أرسل يغمراسن بلبتمسان يسأله التحالف والعون إلا أن المرينيين أسرعوا إلى الأندلس فحالفهم النصر على النصارى الذين غدروا بمحمد الفقيه حيث هجموا مع بني اشقيلولة على غرناطة عاصمة ملكه إلا أنه استطاع صدهم عنها ولم يجد في غير المرينيين وفاء فعاد إلى مصالحتهم والركون إليهم وتنازل بنفسه عن مالقة للمرينيين ليتخذوها قاعدة للدفاع عن الأندلس¹⁹.

وبعد موت سلطان المرينيين أبو يوسف يعقوب المريني في طريق العودة إلى المغرب، تولى ولده أبو يعقوب، إلا أن النصارى عادوا إلى الإغارة على ثغور الأندلس سنة 690 هـ بقيادة ملك قشتالة سانشو، فرد عليه المرينيون كيده، فالتجأ إلى الحيلة والخدعة، فأغرى ابن الأحمر وأوغر صدره على المرينيين، وتحالف معه لصدهم فاستجاب له ابن الأحمر واحتل وإياه مدينة طريف طريق العبور من يد المرينيين ثم ظهر غدر النصارى ومكرهم إذ رفضوا تسليم طريف لابن الأحمر بعد ذلك فتبين له حقيقة تحالفهم معه وعاد إلى طلب نجدة المرينيين وعادوا هم إلى نجدة²⁰ إلا أن خلفه محمد المخلوع²¹ سرعان ما اتجه فجأة إلى النصارى وحالفهم ضد المرينيين بل تجاوز ذلك إلى إثارة الفتن والقتل في وجوههم بالتحريض على الخروج عليهم، ليس فقط في الأندلس ولكن أيضا في المغرب واضطرب الحال في المغرب بموت أبي يعقوب المنصور واختلاف ولديه من بعده على الخلافة. وتوالت الأحداث بعد ذلك على المغرب والأندلس سراعاً نحو التآزم بسبب ذلك وإن استقام الحال قليلا لأبي ثابت المريني قبل موته، وثار على محمد المخلوع أبو الجيوش نصر بن محمد ومن رفضوا معه تناقضات أخيه وطغيان وزيره ابن الحكيم وكان ذلك يوم عيد الفطر من سنة

18. وهي مدينة تقع جنوب غرب قرطبة أنظر أخبار هذه المعركة وقادتها في الإحاطة 565/1 ونهاية الأندلس : 100.

19. التاريخ الإسلامي من الفتح إلى سقوط غرناطة 538 وما بعدها.

20. المرجع السابق.

21. تولى بعد موت أبيه سنة 701 هـ وخلع سنة 708 هـ المصدر السابق: 541.

708هـ حيث قتل الوزير واعتقل الأمير وأجبر على التنازل لأخيه ثم أرغم نصر نفسه عن التنازل عن الحكم سنة 713هـ ليتولى الحكم أبو الوليد إسماعيل ابن أخ محمد الأول المؤسس لهذه الدولة الذي أعاد نوعاً من الاستقرار في غرناطة مع حياة الجهاد والمرابطة²².

الحياة العلمية في عصر ابن الزبير

رغم الوضع السياسي المتأزم في الأندلس في عصر ابن الزبير، فقد خلفت العصور السابقة التي تميزت بنوع من الاستقرار المؤدي إلى ازدهار الثقافة وإشراق المعرفة خلفت استمراراً في العطاء وتقديم نسبياً نحو مزيد من النماء الثقافي والتأليف العلمي.

ولا شك أن ذلك راجع لعوامل منها:

- (1) أن المسجد كان مركزاً للإشعاع الفكري والحضاري في المجتمعات المسلمة.
- (2) أن المجتمع الأندلسي بلغ الذروة في الحضارة مما كان يجعل الاتجاه نحو التعليم اتجاهاً مطلوباً ومنسجماً مع هذا الوسط المتحضر الذي توارثت أجياله المركز والجاه العلمي وخاصة في الأسر ذات الماضي العريق في المشيخة في الأندلس ومنها بيت ابن الزبير.
- (3) المنافسة الحاصلة بسبب تعدد المراكز العلمية التي اشتهرت بها الأندلس وكذلك بسبب تعدد البيوت العلمية ونفس الأمر بالنسبة لحكام الأندلس الذين توارثوا المنافسة بينهم في إحاطة أنفسهم بالعلماء وتشجيعهم لتلك المراكز.
- (4) ما اشتهر به الأندلسيون من حب الرحلة لطلب العلم، كما كانت تشد إليهم الرحال لنفس الغاية أو لغيرها من الغايات.

ومن ثم يمكن أن نجمل عناصر ازدهار الحياة العلمية في عصر ابن الزبير في النقاط التالية:

أولاً: البيوت العلمية

من البيوت العلمية نذكر على سبيل المثال أفراداً ينتسبون لتلك البيوت ممن كان لهم مركز مرموق وهم أمثلة فقط لما يزيد التدليل عليه من توارث الأجيال وتواصل العطاء بين أفرادها العلماء، في الأندلس المسلمة:

22. المصدر السابق.

(1) فمن بيت ابن منظور القيسي المالقي اشتهر عالمان هما:

- أبو عمر عثمان بن منظور القيسي المالقي الذي قال عن عراقه أصله ومكانته العلمية أبو الحسن الحيننباهي: «... أحد بيوت النباهة بالأندلس كان صدرا في علماء بلده ممتعا من أهل النظر والتحقيق ثاقب الذهن أصيل البحث مضطلعا بالمشكلات، مشاركا في الفقه والعربية إلى أصول وقرئات وطب ومنطق»²³.

- وأبو بكر بن عبيد الله بن منظور القيسي المالقي، وقال عنه النباهي أيضا: « أصله من إشبيلية من البيت الأثيل المشهور ويكفي في التعريف بقدم أصالته الكتاب المسمى «بالروض المنظور في أوصاف بني منظور»²⁴.

(2) ومن بيت عبد الرحمان اللخمي اشتهر عدد منه:

- أبو القاسم محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي المتوفى في وقعة الطاعون سنة 750هـ. قال عنه ابن الخطيب «فرع الدوحة والأصالة والخصوصية والعلم والدين والمكانة والجلالة مجلى بيته ومجدد مآثره برا ومجاملة وخيرية»²⁵.

- وأبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي وهو أيضا توفي سنة 750 هـ وقال عنه ابن الخطيب أيضا: « كان صدر أبناء أصحاب النعم وبقية أعلام البيوت ترف نشأة وعزّ تربية وكرم وطيب مجالسة، يقرض الشعر ويقوم على الكتاب العزيز حفظا وتجويدا وإتقاناً، ويسرد نتف التاريخ وعيون الأخبار إلى حسن الخلق وكمال الأبهة»²⁶.

(3) واشتهر أفراد من بيوتات أخرى منهم:

- أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن الزيات الكلاعي ولد الشيخ الخطيب ابن جعفر الزيات من أهل «بلش» بقية أبناء المشايخ ظرفا وأدبا ومروءة وحشمة... ورواية عالية ومشاركة في فنون²⁷.

- وأبو عبد الله محمد بن أحمد الاستجى الحميري المتوفى سنة 639 هـ من أهل مالقة وأصله من استجه، كان من جملة حملة العلم، وكان من أهل الجلالة ومن بيت علم ودين،

23. المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس) لأبي الحسن النباهي نشر المكتب التجاري للطباعة

والنشر والتوزيع بيروت، ص: 147.

24. المرقبة العليا 154.

25. الإحاطة: 266/2.

26. الإحاطة 272/2.

27. نفس المصدر 138/2-139.

أقرأ وقعد بالجامع الكبير منه يتكلم على صحيح البخاري وانتقل آخر عمره إلى غرناطة²⁸ وقال عنه ابن الزبير: «كان من ابرع أهل زمانه في الأدب»²⁹.

- وأبو جعفر أحمد بن عبد الوالي الرعيني المتوفى سنة 750 هـ. قرأ على ابن الزبير وهو من بيت تصاون وعفاف ودين، كانوا في غرناطة في الأشعار وتجويد القرآن بحمله وعكوفهم عليه نظراء بني عزيمة باشيلية وبني البادش بغرناطة³⁰.

ثانياً: المراكز العلمية

تعددت المراكز العلمية في الأندلس عصر ابن الزبير بتعدد حواضر الأندلس التي كان يتحلّق فيها طلاب العلم حول الشيوخ بمساجدها الكبرى.

وبتقليص رقعة الأندلس في عصر ابن الزبير ازداد التركيز على الحواضر الأندلسية التي لم تكن قد وقعت في يد العدو (النصارى). ومن هذه وتلك نذكر المراكز التالية:

(1) جيان: قبل سقوطها والتجاء أهلها إلى الحواضر الأخرى وخاصة غرناطة. وهي بلد ابن الزبير وبها ولد ورحل عنها لما تغلب عليها العدو سنة 643 هـ. وممن كان يؤخذ عنهم العلم فيها- المقرئ الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يربوع وممن أخذ عنه عبد الحق يوسف بن تونارت الصنهاجي الجياني المتوفى سنة 640 هـ.³¹

(2) الجزيرة الخضراء: من علمائها الخطيب أبو العباس بن خميس وأخذ عنه من العلماء أبو بكر محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي المالقي³².

(3) مرسية: ومن شيوخها الأعلام الأستاذ أبو بكر محمد بن محمد المعروف بالقريشي ومن أخذ عنه محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي المرسى³³.

28. نفس المصدر 316/2.

29. نفس المصدر 316/2.

30. نفس المصدر 193/1.

31. صلة الصلة لابن الزبير، القسم الأخير من الكتاب، تصحيح وتعليق: أ. بروفنسال المطبعة الاقتصادية الرباط 1930، ص: 12.

32. الإحاطة: 171/2 كذلك 228/2.

33. الإحاطة: 427/2.

(4) رندة: ومن شيوخها الشيخ النحوي أبو الحسن علي بن يوسف العبدري وابن القاسم ابن الايسر الخطيب ومن أخذ عنهم وعن والد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي الرندي النشأة الأشبيلي الأصل المكنى بذي الوزارتين المقتول سنة 708 هـ³⁴.

(5) وادي آش: ومن علمائها أبو يحيى محمد بن رضوان بن محمد النصري المتوفى سنة 757 هـ³⁵.

(6) بلنسية: ومن شيوخها الكبار ابن خيرة وأخذ عنه جماعة منهم أبو علي بن الناظر بن أبي الأحوص القريشي الفهري الغرناطي المتوفى سنة 699 هـ³⁶.

(7) أريولة: ومن شيوخها أبو الحسن بن بقي ومن أخذ عنه ابن أبي الأحوص السابق³⁷.

(8) ألمرية: ومن علمائها أبو اسحاق البلقيني ومن أخذوا عنه أبو بكر محمد بن مفضل بن مهيب اللخمي وهو الذي تزوج ابنته وانتقل بها إلى سبتة إلى وفاته سنة 645 هـ³⁸. ومن علمائها أيضا أبو عبد الله الميورقي ومن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن لب الأمي المعروف بابن الصائغ وهو من أهلها³⁹ توفي سنة 720 هـ.

(9) إشبيلية: ومن علمائها الحسن بن زرقون والأستاذان أبو الحسن بن جابر الدباج وأبو علي الشلبوين⁴⁰.

(10) قرطبة: ومن علمائها الخطيب أبو جعفر أحمد بن يحيى بن إبراهيم الحميري ومن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد الاستجي الحميري وهو من أهل مالقة⁴¹.

(11) مالقة: وكانت حاضره بني اشقيلولة أصهار بني الأحمر بغرناطة وكانت بينهما ما كان من المنافسة واستقطاب العلماء. وقد استقر بها ابن الزبير نفسه فترة عند الطلب وأخرى قضائها في التدريس إلى أن كانت فتنة الفزاري فخرج بنفسه منها لا يلوي على شيء وانتهت داره بها. وقد اشتهر فيها اعلام كثيرون نذكر منهم:

34. الإحاطة: 444/2-451.

35. الإحاطة: 142/2.

36. الإحاطة: 464/1.

37. الإحاطة: 464/1.

38. المصدر السابق: 145/2.

39. المصدر السابق: 434-2.

40. صلة الصلة: 12.

41. الإحاطة: 327-326/2.

- أبو عبد الله محمد بن أحمد الاستجى وهو من أهلها كان حيا سنة 641 هـ ومن غير أهلها⁴² المقيمين بها: أبو علي ابن الناظر ابن الأحوص القرشي الفهري الغرناطي استقر بمالقة يقرئ ويحدث، وولي خطبتها بقصبتها سبعة وعشرين سنة⁴³. ومحمد بن علي الجزولي المعروف بابن الحاج أحد أعلام المغرب دخل الأندلس وأقام بمالقة زمانا⁴⁴.

- وأبو البركات محمد بن خلف السلمي المعروف بابن الحاج البلفيقي المتوفى سنة 773 هـ تلميذ ابن الزبير. قعد بمجلس الإقراء بمالقة للكلام على صحيح مسلم ثم رحل إلى فاس ثم آب إلى الأندلس واستقر بالمرية للاقراء⁴⁵.

- وأبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري المعروف بالتلمساني المتوفى سنة 690 هـ بسبته كان فقيها أديبا شاعرا محسنا انتقل به أبوه إلى الأندلس وهو طفل فاستوطن غرناطة ثم رحل إلى مالقة فسكن بها مدة وبها قرأ معظم قراءته⁴⁶.

12) غرناطة: وهي عاصمة بني هود ثم بني الأحمر بعد سنة 635 هـ وكانت ملتقى العلماء النازحين من المراكز الأخرى بعد سقوطها أو طلبا للعيش في كنف حكامها. واشتهر من علمائها في هذه الفترة عدد جم نذكر منهم صاحبنا ابن الزبير وابن أبي الأحوص القرشي المذكور سابقا والخطيب أبي الحسن القيحاوي⁴⁷ وإبراهيم بن أبي العاصي تلميذ ابن الزبير⁴⁸ وأبو يحيى محمد بن رضوان النميري⁴⁹ وغيرهم.

ثالثا: الرحلات العلمية

عرفت الأندلس منذ الفتح الإسلامي وإلى سقوط مملكة غرناطة الرحلة من المشرق والمغرب عليها، ومنها إليهما، وقد توزعت الراحلين إليها والمترجلين منها نوازع ودوافع مختلفة إلا أن الغالب عليها من طرف الأندلسيين كان الحج وطلب العلم ولقاء الشيوخ العالية في الإسناد، وفي نهاية أمر المسلمين بالأندلس الفرار من ظلم وعذاب النصارى المتسلطين الغاليين على الأندلس.

42. الإحاطة: 326/2-327.

43. المرقبة العليا: 127 والإحاطة: 664/1.

44. المرقبة العليا: 135.

45. الإحاطة: 145/2.

46. الإحاطة: 328/1.

47. الإحاطة: 434/2.

48. المصدر السابق: 374/1-375.

49. المصدر السابق: 142/2.

في عصر ابن الزبير كان الغالب على الرحلات العلمية الاتجاه نحو حواضر أقطار المغرب وخاصة: فاس ومراكش وسلا وسبتة، وتونس، وتلمسان وبجاية. أو الاتجاه نحو الحجاز مروراً ببعض الحواضر السابقة الذكر وبمصر وربما بعد أو قبل موسم الحج يعرج الحاج أو الطالب على بعض مراكز العلم في سوريا أو العراق وغيرهما وفي مقدمة الراحلين من الأندلس إلى حواضر المغرب نجد أستاذنا ابن الزبير الذي كانت له رحلة إلى سبتة⁵⁰ وأخرى إلى سلا⁵¹. وقد صرح هو نفسه بذلك، كما كان له تجول بين حواضر الأندلس الأخرى طلباً للعلم والرواية⁵².

واشتهر أيضاً بالرحلة إلى نفس المراكز السابقة أبو جعفر أحمد بن عبد النور بن راشد المتوفى سنة 702 هـ. من أهل مالقة كان قيمياً على العربية إذ كانت جل بضاعته. رحل من بلده مالقة إلى سبتة، ثم انتقل إلى الأندلس وأقرأ بوادي آش مدة وتردد بين ألمرية، وبرجة... ناب عن الكثير من القضاة ودخل غرناطة...⁵³.

وأبو البركات محمد بن خلف السلمي المعروف بابن الحاج البليقي المتوفى سنة 773 هـ اجتهد في طلب العلم صغيراً وكبيراً، عبر البحر إلى بجاية فأدرك بها المدرس المشهور أبا علي منصور المشدالي وحضر مجالسه العلمية، وأخذ عن غيره من أهلها، ثم أتى مراكش، وآثر السكنى بسبتة على طريقة جده إبراهيم، ثم عاد إلى الأندلس فأقام منها بمالقة واختص بخطيبها الشيخ الوالي: أبي عبد الله الطنجالي وروى عنه وعن غيره، وقيد الكثير بخطه، ورام في ابتداء طلبه التشبه بالقاضي أبي بكر العربي في لقاء العلماء ومصاحبة الأدباء والأخذ في المعارف كلها، والتكلم في أنواعها، ومن أخذ عنهم الأستاذ ابن الزبير⁵⁴.

- أبو بكر محمد بن أحمد بن شبرين المتوفى سنة 747 هـ الذي كانت له رحلة إلى تونس لقي فيها قاضي الجماعة الشيخ الإمام أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيغ وغيره فاتسع بذلك نطاق روايته⁵⁵.

50. قال ابن عبد الملك المراكشي عن ابن الزبير "متسع الرواية عنى بها كثيراً ورحل بسببها إلى سبتة وإلى كثير من بلاد الأندلس" الذيل والتكملة ص 1 ق 1 ص 44.

51. قال ابن الزبير في صلة الصلة في ترجمة علي بن عبد الله بن قطرال الأنصاري "وكنيت بمدينة سلا أيام كونه بفاس" ص: 139.

52. أنظر الذيل والتكملة ص 1 ق 1 ص 44.

53. الإحاطة: 197/1.

54. المرقبة العليا: 164 والإحاطة: 144/2-154.

55. المرقبة العليا 153 والإحاطة: 240/2.

- ومحمد بن يحيى بن بكر الأشعري المالقي المتوفى سنة 241 هـ رحل إلى مدينة سبته وأخذ بها عن عميد الشرفاء ابن علي بن أبي التقي طاهر بن ربيع، وأبي فارس عبد العزيز الهواري.

كما أخذ عن أبي إسحاق التلمساني، وأبي عبد الله بن الخضار، والمقرئ ابن القاسم بن عبد الرحيم والأستاذ أبي بكر بن عبيدة، وأجازه من المشرق الإمام شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي، والرواية المحدث أبو المعالي أحمد بن إسحاق القوصي إلى جماعة من المصريين والشاميين وغيرهم، وعاد إلى بلده مالقة وقد صار سباق الحلبات معرفة بالأصول والفروع والعربية والتفسير والقراءات⁵⁶ ورحل إلى المشرق عدد جم من طلاب العلم بالأندلس نذكر منهم:

- أبا أحمد جعفر بن سيد بونة المتوفى سنة 624 هـ الصوفي الشهير الذي أدى فريضة الحج ولقي جلة من الفضلاء، أشهرهم في باب الزهد ورفيع المقامات الشيخ الصالح أبو مدين شعيب بن الحسين مقيم بجاية⁵⁷.

- وأبا عبد الله محمد عبد الله بن لب الأمي المعروف بابن الصائغ من أهل ألمرية المتوفى سنة 720 هـ سار إلى غرناطة وقرأ بها العربية وغيرها ثم رحل إلى المشرق فلم يتجاوز القاهرة وأخذ في إلقاء العربية بها وعرف بها إلى أن صار يدعى بابن عبد الله النحوي، وكان بمدرستها الصالحية نبيه المكانة معدودا في أهل العلم والديانة⁵⁸.

- وأبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي الملقب بذي الوزارتين رندي النشأة إشبيلي الأصل رحل إلى الحجاز على سنة 683 هـ فحج وزار وتجول في بلاد المشرق منتجعا عوالي الرواية في مظانها، ومنقرا عنها عند مسني شيوخها وقيد الأسانيد الغربية، وأقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فأخذ بها عن جماعة وانصرف إلى المدينة المشرفة ثم قفل مع الركب الشامي إلى دمشق ثم كر إلى المغرب لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا روي أو روى واحتل رندة عام 685 هـ ومات مقتولا سنة 708 هـ وهو أحد تلاميذ ابن الزبير⁵⁹.

- وأبا جعفر أحمد بن محمد مفرج المعروف بالعشاب وابن الرومية كان إماما في الحديث وعلم النبات، رحل إلى المشرق فاستوعب المشهور من إفريقيا ومصره وشامه وعراقه وحجازه، وعاین الكثير مما ليس بالمغرب⁶⁰.

56. المرقبة العليا ص: 141.

57. المرقبة العليا ص: 137.

58. الإحاطة: 434/2.

59. المصدر السابق: 446/2.

60. الإحاطة: 208/1.

- وإبراهيم بن محمد الأنصاري الساحلي المعروف بالطويجن من غرناطة كان حيا سنة 739هـ. كان نسيج وحده في الأدب نظما ونثرا لا يشق له فيها غبار رحل بعد أن اشتهر فضله فشرق وحج وجال في الشام والعراق واليمن ومصر ثم دخل بلاد السودان حيث استقر بها⁶¹.

ومن قصد الأندلس للأخذ عن علمائها نذكر:

- أبا عبد الله محمد بن عمر المليكي التونسي، كان فاضلا أديبا شاعرا صوفيا جميل العشرة كتب عن الأمراء بإفريقية ونال حظوة ثم شرق وحج ولقي جلة ووصل الأندلس عام 718هـ فلقي بغرناطة حفاوة وانسحبت بها عليه جراية. وقد اسمع بها وارتسم في جملة الكتاب بها ولقي من كان بها من الأعلام، ثم انصرف عن غرناطة فاتصل بسبته فأكرم رئيسها قدومه ثم اتصل ببلده⁶² وبها توفي سنة 740هـ.

- وأبا القاسم محمد بن أحمد الحسني الشريف الغرناطي الذي ارتحل عن بلده سبته وقد تملأ من العلوم وبرع في طريقتي المنثور والمنظوم فطلع على الأندلس طلوع الصباح بعد السرى وخلص فيها خلوص الخيال مع سنة الكرى فانظم في الحين في سلك كتابها⁶³. وغير هؤلاء وأولئك كثير.

رابعا: حركة التأليف في هذا العصر

من مظاهر النشاط العلمي في هذا العصر رغم انحصار رقعة الأندلس المسلمة ظهور عدد من المؤلفات التي تعبر عن نوع الثقافة السائدة في ذلك العصر والمعبرة عن اهتمامات الناس وقضاياهم ومحط اهتمام الفئة المثقفة في المجتمع.

ومن بين تلك المؤلفات التي ظهرت إلى جانب مؤلفات ابن الزبير التي كانت تدور محتوياتها حول الذب عن الإسلام في مواجهة الانحرافات والتيارات الجارفة لعقائد الناس: كملاك التأويل، والبرهان في ترتيب سور القرآن، وإيضاح السبيل من حديث سؤال جبريل، وسبيل الرشاد في فضل الجهاد، وردع الجاهل عن اعتساف المجاهل إلخ... إلى جانب ذلك برزت إلى الوجود المؤلفات التالية:

61. المصدر السابق: 329/1.

62. المصدر السابق: 563/2 و 570 و 571.

63. المرقبة العليا: 171.

«التكميل والإتمام لكتاب التعريف والاعلام» و«المختصر في السلوك عن ذهاب البصر»⁶⁴.

«ومطلع الأنوار ونزهة الأبصار» فيما احتوت عليه مألقة من الرؤساء والأعلام الأخيار وتقيد من المناقب والآثار، «والمشعر الروي»⁶⁵ وكلها لابن عبد الله بن عسكر المتوفى سنة 636هـ.

وظهر أيضا «تنظيم الدر في علماء الدهر» لأبي عامر يحيى بن ربيع بن قاضي الجماعة⁶⁶ المتوفى سنة 639هـ.

وكتاب «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازي الثلاثة الخلفاء» في أربع مجلدات «والمسلسلات من الأحاديث والآثار والإنشاءات» وكتاب «نكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال» وكلها لأبي الربيع سليمان الكلاعي⁶⁷ المتوفى سنة 634هـ.

وكتاب «ظهور الإعجاز بين الصدور والإعجاز» في شرح شعر المتنبي، وكتاب «شمس البيان في لمس البنان» وكتاب «الزهرة الفائحة في الزهرة اللائحة» و«نفح الكمات في شرح المقامات» و«اقتراح المتعلمين في اصطلاح المتكلمين» و«التصور والتصديق في التوطية لعلم التحقيق» و«رقم الحل في نظم الجمل» و«مفتاح الإحسان في إصلاح اللسان» وكلها لأبي عبد الله محمد بن أحمد الاستجعي الحميري المالقي⁶⁸ كان حيا سنة 645هـ.

كما ألفت الكتب التالية: «رجال المعلم بزوائد البخاري على مسلم» و«اختصار غريب حديث مالك للدارقطني»، و«نظم الدراري فيما تفرد به مسلم عن البخاري» و«توهين الطرق في حديث الأربعين» و«حكم الدعاء في أدبار الصلوات» و«كيفية الأذان يوم الجمعة» و«اختصار الكامل في الضعفاء والمتروكين لابن عدي»، و«الحافل في تذييل الكامل» و«أخبار محمد بن إسحاق» و«شرح حشائش دياسقوريدوس وأدوية جالينوس والتنبيه على أوهام ترجمتها» و«التنبيه على أوهام الغافقي»، و«الرحلة النباتية» و«المستدركة» وكلها لأبي جعفر أحمد بن محمد بن مفرج الأموي المعروف بالعشاب وابن الرومية⁶⁹ المتوفى سنة 637هـ.

64. المرقبة العليا: ص 123.

65. الإحاطة: 174/2، والرقبة العليا ص: 123.

66. المرقبة العليا: ص: 129.

67. المرقبة العليا: ص: 119.

68. الإحاطة: 325/2 و 326.

69. المصدر السابق: 211/1. (*) الإحاطة 198/1.

وكتاب «الحيلة في ذكر البسملة والتصلية» و«رصف المباني في حروف المعاني» و«كتاب في شرح الكوامل لأبي موسى الجزولي نحو الموطأ في الجرم»، وكتاب «شرح مغرب أبي عبد الله بن هشام الفهري المعروف بابن (الشواش)» ولم يتم، وغيرها وكلها لأبي جعفر أحمد بن عبد لنور بن راشد المالقي المتوفى سنة 702هـ^(*).

وألّف أبو جعفر أحمد بن الحسن الزيّات الكلاعي من أهل بلش مالقة المتوفى سنة 728هـ تصانيف كثيرة منها: «نظم السلوك في شيم الملوك» و«المجتبى النظر والمقتنى الخطير» و«العبارة الوجيزة عن الإشارة» و«اللطائف الروحانية والعوارف الربانية» و«أس مبنى العلم رأس معنى الحلم» في علم الكلام و«لذات السمع من القراءات السبع» نظماً وقاعدة البيان وضابطة اللسان» في العربية، و«النفحة الوسمية والمنحة الجسميّة» وتشتمل على أربع قواعد اعتقادية وأصولية وفروعية وتحقيقية»، و«تلخيص الدلالة في تخلص الرسالة» وغيرها⁷⁰.

وألّف أبو بكر محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي المتوفى سنة 750هـ «نفحات النسوك وعيون التبرك المسبوك في أشعار الخلفاء والملوك» وكتاب «السحب الواكفة والظلال الوارفة في الرد على ما تضمنه المضمّنون به من اعتقادات الفلاسفة» وكتاب «البرهان والدليل في خواص سور التنزيل»⁷¹، و«الصيب اهتان الواكف بعناية الإحسان والمشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية وسور القرآن وكتاب يشتمل على «أربعين حديثاً في الرقائق الموصولة الأسانيد» وكتاب «تحفة الأبرار في مسألة النبوة والرسالة وما اشتملت عليه من الأسرار» وكتاب «الفعل المبرور والسعي المشكور فيما وصل إليه أو تحصل لديه من نوازل القاضي ابن عمر بن منظور»⁷².

وألّف أبو البركات ابن الحاج البليقي مفخرة تلاميذ ابن الزبير المتوفى سنة 773هـ: «المؤتمن في أنباء من لقيه من أبناء الزمن» و«الإفصاح عمن عرف بالأندلس بالصلاح» وكتاب «خطر فبطر ونظر فخطر على تنبيهات وثائق ابن فتوح»، و«سلوة الخاطر فيما أشكل من نسبة الرتيب إلى الذاكر». و«حركة الدخولية في المسألة المالقية» و«خطرة المجلسة في كلمة وقعت في شعر استنصر به أهل الأنديلس» و«تاريخ ألمرية» غير تام. و«المرجع بالدرك على من أنكر وقوع الشرك» و«مشبهات اصطلاح العلوم» و«ما كثر وروده في

70. المصدر السابق: 1/289-290.

71. المرقبة العليا: ص: 155.

72. الإحاطة 171/2-172.

مجلس القضاء» و «الغلسيات» و «الفصول والأبواب فيمن أخذ عني من الشيوخ والأتباع والأصحاب»⁷³ وغيرها كثير.

وألّف أبو يحيى محمد بن رضوان بن محمد بن أرقم الوادي آشي كتابا سماه «الاحتفال في استيفاء ما للخيل من الأحوال»⁷⁴.

وألّف أبو القاسم محمد الحسني الشريف الغرناطي جملة تصانيف منها: «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة»، ومنها «رياضة الآن في شرح الخزر جي»⁷⁵ وغيرها كثير، وفيها ذكرنا أمثلة لما لم نذكر.

73. المرقبة العليا: 165. والإحاطة 148/2-149.

74. الإحاطة 141/2.

75. المرقبة العليا: 167.

المبحث الثاني ترجمة ابن الزبير

- اسمه ونسبه
- مولده ونشأته ووفاته
- شيوخه
- مكانته العلمية
- تلاميذه
- مؤلفاته

ترجمة ابن الزبير¹

1) اسمه ونسبه:

هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم² (بن الزبير)³ (بن الحسن بن الحسين)⁴ بن الزبير بن عاصم⁵ بن مسلم بن كعب⁶ بن مالك بن علقمة بن خباب⁷ بن مسلم بن عدي بن مرة بن عوف بن ثقيف⁸.

يكنى أبا جعفر، وابن الزبير نسبة إلى أحد أجداده الثلاثة الذين سموا بهذا الاسم وهم الجد الأول والرابع والسابع.

وهو من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس⁹، ولذلك عرف بالثقيفي نسبة إلى بني ثقيف¹⁰ والعاصمي¹¹ نسبة إلى جده الثامن، والجاني¹² نسبة إلى مسقط رأسه جيان،

1. اعتمدت في ترجمته على الذيل والتكملة (45-39/1) تذكرة الحفاظ (1484/4)، الوافي بالوفيات (223-222/6)، الإحاطة (193-188/1) الديباج المذهب (188/1)، غاية النهاية في طبقات القراء (32/1)، الدرر الكامنة (86-84/1) بغية الوعاء (291/1) طبقات المفسرين 26/1، فهرس الفهارس (341/340/1) لعبد الحي الكتاني، المطبعة الجديدة بالطالعة، فاس، سنة 1946. كما استعنت في ترجمته على المصادر التالية: طبقات الحفاظ ص 513، نفح الطيب (98/6)، شذرات الذهب (16/6)، درة الحجال (11/1)، البدر الطالع (33/1)، كشف الظنون (241/1)، هدية العارفين (103/1) شجرة النور الزكية ص 212 طبقات المالكية، ص 372، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم: 3928، د. بروكلمان (377-376/2)، معجم المؤلفين (138/1)، الاعلام (29/1) الموسوعة المغربية للاعلام البشرية، عبد العزيز بن عبد الله، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1975 م، (110/1).

2. تتفق أغلب التراجم إلى هذا الحد.

3. سقط من: الإحاطة، الدرر الكامنة، غاية النهاية.

4. كذا ورد في: غاية النهاية، بغية الوعاء، طبقات المفسرين، الإحاطة، الذيل والتكملة، وفي معجم المؤلفين: هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين وهو خلاف ما اتفقت عليه معظم كتب التراجم.

5. كذا ورد في الذيل والتكملة والإحاطة، وغاية النهاية.

6. في الذيل والتكملة: كذا نقلت نسبه من خطه.

7. في الإحاطة: حباب.

8. في الذيل والتكملة، والإحاطة وردت هذه الترجمة بتمامها دون خلاف بين المصدرين باستثناء سقوط "ابن الزبير" الجد الرابع للمؤلف من الإحاطة، ويلاحظ أن أغلب من ترجم له من بعدهما قد اعتمد عليها.

9. الاعلام، خير الدين الزركلي، الطبعة 2، دار العلم للملايين، بيروت، 29/1.

10. نسبة إلى بني ثقيف، وهو بطن من هوازن من العدنانية، واشتهروا باسم أبيهم فيقال لهم ثقيف واسمه قسي بن منبه ابن بكر بن هوازن، ومنها عبد الله بن أبي أوفي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي 1959/16 تحقيق: إبراهيم الأبياري 199، 442، الإحاطة 135/1.

11. وردت في: الذيل والتكملة، طبقات الحفاظ، تذكرة الحفاظ، هدية العارفين، درة الحجال، فهرس الفهارس وغيرها.

12. وردت في طبقات المفسرين، بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، القاهرة، 1964.

والغرناطي¹³ نسبة إلى غرناطة التي استقر بها، وفيها عاش وترعرع حتى صار علما من أعلامها، والأندلسي¹⁴ نسبة إلى موطنه الأندلس.

واشتهر بالأستاذ¹⁵، وكثيرا ما نجد في تراجم تلامذته أنهم قرأوا على الأستاذ، أو أستاذ الجماعة، أو شيخ الجماعة، أو الأستاذ الكبير¹⁶، فهو كما وصفه عبد الحي الكتاني أستاذ القراء¹⁷.

(2) مولده ونشأته:

ولد ابن الزبير ببلدة جيان¹⁸ دون خلاف في ذلك.

وكان مولده في ذي القعدة¹⁹ سنة سبع وعشرين وستمائة²⁰، وقيل ثمان وعشرين وستمائة للهجرة²¹ (627 أو 628هـ) الموافق ثلاثين ومائتين وألف للميلاد²² (1230م).

ولئن كان ابن الزبير قد ولد بجيان وأمضى بها طفولته فإنه سرعان ما غادرها صحبة أبيه سنة 643هـ عندما تغلب عليها العدو وهو لم يتجاوز بعد الخامسة أو السادسة عشرة من

13. وردت في: طبقات الحفاظ، تذكرة الحفاظ، درة الحجال، شجرة النور الزكية، وغيرها.

14. وردت في: درة الحجال، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، دار الجبل.

15. كلمة أعجمية الأصل، ومعناها الماهر بالشيء أو العظيم، وهي على ما يراه أبو منصور الجواليقي تطلق على المعلم الذي يربي الصبيان، فكأنه أصبح مثالا لهم في حسن الأدب، كما أنها كانت تطلق على المجبوب (الخصي)، ثم أصبحت تطلق على كل ماهر في فنه العلمي مبرزا فيه. المصباح المنير 18/1، تاج العروس 564/2 للزبيدي ط 1، المطبعة الخيرية بجمالية مصر 1306هـ.

16. الإحاطة: 28/3، 77، 230، 412 وغيرها من الصفحات.

17. فهرس الفهارس والاثبات، عبد الحي الكتاني، المطبعة الجديدة بالطالعة، فاس، 1946، 340/1.

18. جيان بالفتح والتشديد وآخره نون مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة 17 فرسخا وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة وبلدانا. (أنظر معجم البلدان)، ياقوت الحموي، دار صادر بيروت، 1957، 195/2.

كانت إسبانيا مقسمة في عهد الفتح الإسلامي إلى خمس ولايات، وكانت جيان تقع في الولاية الأولى (إقليم الأندلس) وأشهر مدنها بالإضافة إلى جيان، قرطبة، وإشبيلية، مالقة، واستجة، وكانت جيان من القواعد الأندلسية الهامة أيام الدولة الإسلامية وهي اليوم قاعدة الولاية الإسبانية المسماة باسمها، أنظر الإحاطة (188/1)، الهامش رقم 5 ودولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ص: 69، ط القاهرة، 1969.

19. الدرر الكامنة 84/1 وفي الإحاطة 192/1 في أواخر عام 627هـ، وكذا في غاية النهاية لابن الأثير الجزري، نشر ج. بروجستراس، دار الكتاب، بيروت، 1980، 32/1.

20. الإحاطة 192/1 والوافي بالوفيات 222/6، غاية النهاية 32/1، طبقات الحفاظ للسيوطي، ص: 513، تحقيق: علي محمد عمر، ط 1، 1973، بغية الوعاة، البدر الطالع للشوكاني ص 33، 1/ سنة 1948، مطبعة السعادة، درة الحجال لابن القاضي، تحقيق: محمد الأحدي أبو النور، 1970، 11/1، الديباج المذهب لابن فرحون، تحقيق: محمد الأحدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، 188/1، طبقات المفسرين 26/1، شجرة النور الزكية لابن مخلوف ص 212، ط. مصورة عن ط 1 بالمطبعة السلفية بمصر، 1349هـ، طبقات المالكية مخطوط مجهول المؤلف رقم 3929 د، ص 372، الاعلام 29/1.

21. الذيل والتكملة 35/1، الدرر الكامنة 84/1، تذكرة الحفاظ للذهبي 1484/4، نسخة مصورة بيروت، فهرس الفهارس 340/1، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 138/1.

22. الاعلام 29/1، معجم المؤلفين 138/1.

عمره، وهو ينحدر من أسرة ذات حسب أصيل وجاه ومال أعانتته على تكوين شخصيته العلمية.

يقول ابن الخطيب عن ابن الزبير: «أصله من مدينة جيان منزل قنشرين من العرب الداخلين إلى الأندلس، ونسبه بها كبير وحسبه أصيل، وثروته معروفة، خرج به أبوه تغلب العدو عليها عام 643هـ. ولأبيه إذ ذاك ثراء وجدة أعانتته على طلب العلم وأرفاد من أحوجته الأزمة في ذلك الزمان من جالية العلماء»²³.

وأن المصادر التي بين أيدينا لا تسعفنا بتاريخ محدد لانتقال ابن الزبير إلى غرناطة، هل كان في نفس السنة التي خرج فيها صحبة أبيه سنة 643هـ أم كان بعد ذلك. إلا أننا نرجح نزوله بها واستقراره فيها بعد خروجه من جيان مباشرة لعدم توفرنا على ما يرد ذلك.

ففي مدينة غرناطة عاش ابن الزبير وترعرع، وفيها اشتهر وبرز، تلك المدينة التي خلبت لب لسان الدين بن الخطيب ففضلها على أهم بلاد الشرق قائلا:²⁴

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق
ما هي إلا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق²⁴

وقال أيضا في وصفها وقد حفت بالبساتين العريضة والأدواح الملتفة:²⁵

بلد يحف به الرياض كأنه وجه جملي والرياض عذاره
وكأنها واديه معصم عادة ومن الجسور المحكمات سواره²⁵

23. الإحاطة 1/188-189.

24. نفح الطيب: 1/124.

25. الإحاطة: 1/115.

(3) وفاته:

توفي ابن الزبير بغرناطة عن إحدى وثمانين سنة²⁶ على حال جميل، يوم الثلاثاء ثامن ربيع الأول²⁷ سنة ثمان وسبعمائة للهجرة (708هـ) الموافق لثمان وثلاثمائة وألف للميلاد (1308)²⁸.

(4) شيوخ ابن الزبير:

ولد ونشأ ابن الزبير في أسرة أصيلة في العلم والمشيخة مما أتاح له وسطا مناسباً ليس فقط لطلب العلم وملاقة الشيوخ بل لما يستلزمه ذلك من تفرغ وجدة، لذا نجده يحرص حرصاً خاصاً على ملاقة الشيوخ وملازمتهم ويعتني بالرواية ويحفل بالسماع عن شيوخها منتقلاً إلى أماكنهم راحلاً من أجلها²⁹ كما كان يحرص على نيل الإجازات من أصحابها فيعمد إلى مكتابة العلماء مستجلباً لها لنفسه ولأبنائه من بعده³⁰ ومن ثم ندرك وتزول الغرابة من كثرة شيوخه الذين بلغوا حوالي الأربعمائة³¹. قد وقع التعرف على جملة منهم أذكرهم فيما يلي مرتبين على حروف المعجم:

1. إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبيدس النفري³².
2. إبراهيم بن محمد الكاد أبو إسحاق الحافظ³³ أخذ عنه ابن الزبير كثيراً.
3. أحمد بن أبي محمد القرطبي أبو بكر³⁴ حميه، سمع منه وشاركه في بعض شيوخه.

26. في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي عن ثمانين سنة. نسخة مصورة عن ط 1، المكتب التجاري بيروت، (دون تاريخ)، 16/6.

27. البدر الطالع، ص: 33.

28. في الديباج المذهب 188/1 توفي عام ثمان وسبعمائة، وفي معجم المؤلفين (38/1) توفي سنة 708هـ أو 707هـ.

29. ذكر ابن الزبير نفسه رحلته إلى حواضر الأندلس وإلى حواضر المغرب ومنها سلا إذ أشار إلى ذلك بقوله عند حديثه عن علي بن عبد الله بن قطرال الأنصاري أحد شيوخ عصره: وكنت بسلا أيام كونه بفاس وكنت أتحدث بلقائه وأأخذ عنه (صلة الصلة: 139)، وقال عند حديثه عن شيخه أبي الحسن الشاري أنه دخل سبتة (صلة الصلة 151) كما أشار إلى انتقاله إليه عند إقامته بالقة في نفس المصدر ص: 153 وقال عنه ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة متسع الرواية عني بها كثيراً ورحل إلى سبتة وإلى كثير من بلاد الأندلس، س 1 ق 1 ص 43، 44.

30. الإحاطة: 156/3.

31. شجرة النور الزكية: 212، والديباج المذهب: 188/1.

32. الذيل والتكملة س 1 ق 40/1 والإحاطة 330/1.

33. ذكره في صلة الصلة 220 والذيل والتكملة س 1 ق 40/1. وتذكرة الحفاظ 1484/4 والوافي بالوفيات 222/6 والدرر الكامنة 84/1 والبدر الطالع 33 ترجمة 20 وفيه الكمال.

34. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص 40.

4. أحمد بن الحسن المرادي أبو المجد الحضري³⁵ أخذ منه الحديث.
5. أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي أبو المطرف أخذ عنه الحديث³⁶.
6. أحمد بن محمد بن السراح أبو الحسن³⁷ أخذ عنه الحديث كما روى عنه الموطأ³⁸.
7. أحمد بن محمد بن العاصي أبو بكر³⁹ تلا عنه بالسبع⁴⁰.
8. أحمد بن المضرس⁴¹ أخذ عنه القراءة.
9. أحمد بن يوسف بن فرتون أبو العباس المؤرخ المتوفى سنة 660هـ من أهل مدينة فاس نزل سبته لقي ابن الزبير أول مرة سنة 649هـ قال عنه ابن الزبير مشيدا به: « كان ذاكرا للرجال والتاريخ والكثير من متون الأحاديث وقسطا صالحا من الجرح والتعديل وطبقات الناس توفي سنة 660هـ عن سن عالية تناهز الثمانين »⁴².
10. إسحاق بن عامر الطوسي أبو إبراهيم ذكره ابن الزبير نفسه⁴³ وهو من مشاهير شيوخه⁴⁴ وروى عنه الموطأ⁴⁵.
11. إسماعيل بن يحيى الأزدي أبو الوليد العطار ذكره ابن الزبير⁴⁶ كثيرا أخذ عنه القراءات وغير ذلك⁴⁷.

35. الذيل والتكملة س 1 ق 1/40 و 94 والديباج 188/1.

36. الإحاطة 175/1 والذيل والتكملة سفر 1 قسم 41/1.

37. ذكره ابن الزبير في صلة الصلة 14 و 18 والمراكشي في الذيل والتكملة س 1 ق 1/41 وذكره ابن الخطيب 91/1 وذكر أخذه عنه أيضا في الوافي بالوفيات 22/6 ترجمة 2690 والديباج المذهب 188/1 والدرر الكامنة 84/1 وثبت البلوي 277.

38. ثبت البلوي أبي جعفر أحمد الوادي أشي، تحقيق د. عبد الله العمراني ذ. دار الغرب الإسلامي، ص: 277.

39. في صلة الصلة 124.

40. في الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 39.

41. غاية النهاية 32/1 ترجمة 132.

42. مقدمة صلة الصلة (ط ي) والذيل والتكملة سفر 1 قسم 1 ص: 39 والديباج 188/1 والدرر الكامنة 84/1 وطبقات المفسرين 26/1.

43. في صلة الصلة ص 54 و 129.

44. في الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 40 وتذكرة الحفاظ 1484/4 والوافي بالوفيات والدرر الكامنة 84/1 والبدر الطالع 33 و 20.

45. وردت في ثبت البلوي: 277.

46. في صلة الصلة عدة مرات منها 20 و 220 وغيرها.

47. تذكرة الحفاظ 1484/4 والدرر الكامنة 84/1 وغاية النهاية في طبقات القراء 32/1 والبدر الطالع 33.

■ من عرف بابن أو أبو من شيوخه :

12. ابن أحمد بن الشيخ الفهري، وقد تدبجا وشاركه في طائفة من شيوخه⁴⁸.
13. ابن علي الدهان⁴⁹.
14. ابن محمد بن بالغ⁵⁰.
15. أبو إسحاق بن محمد بن عبيد الله الأوسي⁵¹ أخذ عنه الحديث وسمع منه⁵².
16. أبو بكر بن رشيق تلا بالسبع تلا بالسبع وأخذ عنه ابن الزبير⁵³.
17. أبو جعفر ابن عثمان الوراد ذكره ابن عبد الملك المراكشي⁵⁴.
18. أبو جعفر ابن محمد بن خلف بن خديجة⁵⁵.
19. أبو الحجاج بن محمد المريلي ذكره ابن الملك المراكشي⁵⁶.
20. أبو الحسن بن أحمد الغزال⁵⁷.
21. أبو زكرياء بن عبد الملك المولي⁵⁸.
22. أبو زيد الشريشي العشاب⁵⁹.
23. أبو عبد الله بن أحمد السماني أكثر عنه ذكره ابن عبد الملك المراكشي⁶⁰.
24. أبو عبد الله ابن أحمد بن زكريا الآلشي⁶¹.
25. أبو عبد الله ابن الحسن بن الزبير قريبه وسمع منه⁶².

48. الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص: 40.

49. المصدر السابق.

50. المصدر السابق.

51. صلة الصلة 219.

52. الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص: 39.

53. صلة الصلة 57.

54. الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص: 40.

55. المصدر السابق.

56. المصدر السابق.

57. المصدر السابق.

58. المصدر السابق.

59. المصدر السابق.

60. المصدر السابق.

61. المصدر السابق، ص: 39.

62. المصدر السابق.

26. أبو عبد الله ابن عبد الرحمن بن جدير البلنسي⁶³.
 27. الحاج أبو عبد الله ابن عبد الكريم الجرشي⁶⁴.
 28. أبو عبد الله ابن يحيى بن محمد العبدري الفاسي سمع منه ابن الزبير⁶⁵.
 29. أبو عبيد الله الصدفي⁶⁶.
 30. أبو القاسم ابن محمد بن رحمون⁶⁷.
 31. أبو محمد بن محمد بن أيوب الجياني وهو قريبه⁶⁸.
 32. أبو يحيى بن عبد الرحيم⁶⁹.
 33. أبو يعقوب المحساني الحافظ⁷⁰.
 34. الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي الفهري، كان متفننا في جملة معارف حافظا للحديث والتفسير وآخر مقرئي القرآن والعربية بغرناطة ثم انتقل إلى مالقة⁷¹ روى عنه الجهم الغفير، منهم ابن الزبير⁷².
 35. سعد⁷³ بن محمد الحفار أبو عثمان⁷⁴ أخذ عنه الحديث والقراءة⁷⁵.
- ولم تتفق له منه إجازة، وذلك لموت الحفار وابن الزبير غائب عن غرناطة رغم قراءته الكثيرة عليه⁷⁶.

63. صلة الصلة 88 و 57 و 112 و 215 و 216 وتذكرة الحفاظ (1484/4).

64. صلة الصلة 120 والذيل والتكملة س 1، ق 1، ص: 39.

65. الذيل والتكملة س 1 ق 1، ص: 39.

66. صلة الصلة 123.

67. صلة الصلة 123 والذيل والتكملة س 1، ق 1، ص: 40.

68. الذيل والتكملة س 1 ق 1، ص: 40.

69. صلة الصلة 8 و 112.

70. الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص: 40 والوافي بالوفيات (222/6).

71. الإحاطة 664/1.

72. درة الحجال (11/1) وكذا المرقبة العليا: 127.

73. وفي تذكرة الحفاظ "سعيد" (1484/4).

74. في صلة الصلة ص 122 "أبو عثمان" حيث قال عنه بعد حديثه عن أبي الحسن علي ابن أحمد المحاربي الحاج «وحدث عنه من شيوخنا أبو عثمان سعد ابن محمد الحفار وهو آخر من سمعه على الحاج المذكور». وفي شجرة النور الزكية أبو الحسن الحفار 212 ترجمة 741.

75. الذيل والتكملة س 1 ق 1، ص: 40 وتذكرة الحفاظ (1484/4) والوافي بالوفيات (222/6).

76. الذيل والتكملة س 1 ق 1، ص: 40.

36. عبد الرحمان بن عبد المنعم بن الفرس أبو يحيى الوزير ذكره ابن الزبير⁷⁷ وقال: « هو أول من قصده في طلب الحديث »⁷⁸.

37. عبد العظيم بن عبد الله بن يوسف البلوي أبو محمد ويعرف بابن الشيخ. قال ابن الزبير: « كان رحمه الله ورضي عنه يقرئ الفقه وأصول الفقه، ويعتمد في الأكثر قراءة مستصفي أبي حامد وجواهر ابن شاس، وكان له بهذين الكتابين اعتناء كبير وفيهما تصرف لتحويله عليهما ودؤوبه على تدريسهما، وكان مسدد النظر جليلاً في دينه صحبته رحمه الله لمدة ثلاثة أعوام، وأخذت عنه مسائل من مستصفي أبي حامد مما كان له فيه اختيار أو مفهوم ما، وقرأت عليه أشياء خلال تلك من الأصول وغيرها. ت 666 هـ »⁷⁹.

38. عبد الله بن احمد بن محمد بن عطية القيسي⁸⁰.

39. عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله الحارثي الأزدي أبو عمر⁸¹.

40. عبد الله بن يحيى بن ربيع أبو القاسم⁸² روى عنه ابن الزبير الموطأ⁸³.

41. عبد المنعم بن سالم بن سمالك العاملي ولد سنة 613 وتوفي سنة 703 هـ. حدث عنه ابن الزبير كما استجازه لنفسه ولأولاده فأجازه وسمع عنه أولاد ابن الزبير: إبراهيم والزبير⁸⁴.

42. عثمان بن محمد بن الحاج أبو عمرو⁸⁵.

43. علي بن عبد الله الغافقي المعروف بأبي الحسن الشاري وهو من أهل سبتة.

قال عنه ابن الزبير: « دخل الأندلس سنة 641 هـ فنزل « ألمرية » وأقرأ بها القرآن وكتب إلي منها أجازة ما رواه⁸⁶ ورحلت إليه فسمعت منه وقرأت كثيراً وتلوث عليه الكتاب

77. صلة الصلة: 20.

78. الذيل والتكملة عن برنامج ابن الزبير س 1 ق 1 ص: 40. وأنظر: الوافي بالوفيات 222/6، والديباج 188/1، وبغية الوعاة 291/1.

79. ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة: 35، وذكره المراكشي في الذيل والتكملة في جملة شيوخه س 1 ق 1 ص 40.

80. ذكره ابن الزبير في صلة الصلة في ص: 6، 8، 20، 51، 112. وذكر البلوي في « الثبت » ص: 277 أن ابن الزبير روى عنه الموطأ. كما ذكر في شجرة النور الزكية ص: 212 في أشياخه.

81. صلة الصلة ص: 11، 20، 57، 110. والذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 41. والديباج 188/1، وشجرة النور الزكية: 212.

82. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 40.

83. ثبت البلوي الوادي آشي: 276.

84. ذكر ذلك ابن الزبير في صلة الصلة ص: 23.

85. الذيل والتكملة. س 1، ق 1 ص: 40.

86. صلة الصلة ص: 151.

العزیز وأقبلت إليه من حضرة غرناطة مرارا إلى أن أدركته وفاته سنة 649هـ. ثم قال عنه أيضا: وكان يجلس لنا بمالقة نهاره كله إلا القليل، وكنا نتلو عليه الكتاب العزيز ليلا لاستغراق نهاره فيها ذكره⁸⁷ وسبب قدوم أبي الحسن إلى الأندلس كان لتغريب أمير سبته له وإلى هذا أشار ابن الزبير بقوله: وقرأت إذ ذاك عليه وكان يروم من مالقة الرجوع إلى بلده ويحوم عليه فلم يقض له ذلك، وأقام بها يؤخذ عنه العلم إلى أن أته منيته⁸⁸ وأخذ عنه الحديث وتلا عليه بالسبع⁸⁹. وروى عنه أيضا الموطأ⁹⁰ والبخاري⁹¹ وأجازته إجازة عامة، وفاز برواية النسائي عنه والتي لم يكن بين أبي الحسن وصاحبها غير ستة أنفس.

44. علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي المعروف بابن الصنائع⁹² قال عنه ابن الزبير بلغ الغاية في الفن النحوي... وإما فن العربية وعلم الكلام فلم يكن في وقته من يقاربه في هذين العلمين، وإما فهمه وتصرفه في كتاب سيبويه فلا أراه سبقه في ذلك أحد... ثم قال عن أخذه عنه: لازمته وأخذت عنه كتاب سيبويه في عدة سنين وأكثر كتاب الإيضاح، وجل الزجاجة إلى غير ذلك، وجمع التلخيصات للسهرودي وطائفة كبيرة من إرشاد أبي المعالي، ومن كتاب الأربعين، لابن الخطيب وغير ذلك⁹³.

45. عيسى بن سليمان الرعيني أبو محمد قال عنه ابن الزبير، ممن أخذنا عنه وكان ضابطا لما رواه مقيدا متقنا عارفا بالرجال والأسانيد نقادا، ثم قال: ألف كتابا في الصحابة وألف معجم أشياخه وجلب كتب كثيرة مما لم يكن وصل المغرب ولا دخل الأندلس وكان قدومه آخر سنة 631 هـ توفي سنة 632 هـ⁹⁴ ويعرف بالرندي إذ أصله من رندة وسكن مالقة رحل على المشرق وأقام مدة تزيد عن العشرين عاما ثم انتقل إلى الأندلس.

46. محمد بن عبيد الله أبو عبد الله الأزدي القاضي⁹⁵ روى عنه الموطأ وحديث الماهر بالقراءة⁹⁶.

87. نفس المصدر ص: 153.

88. نفس المصدر ص: 31، 116، 120، 123.

89. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 39، والإحاطة (189/4)، والوافي بالوفيات (222/6) والدرر الكامنة (84/1)، وغاية النهاية في طبقات القراء (132/1).

90. ثبت البلوي الوادي آشي ص: 276.

91. المصدر السابق ص: 272.

92. الإحاطة (122-121/1).

93. الإحاطة (122، 121/1).

94. صلة الصلة 51 وما بعدها.

95. ذكره ابن الزبير نفسه في صلة الصلة 31 و 120 و 20 وفي الذيل والتكملة س 1 ق 1، (40/1) وفي الوافي بالوفيات (222/6).

96. ثبت البلوي الوادي آشي 276.

47. محمد بن عياض بن موسى أبو عبد الله اليحصبي قال عنه ابن الزبير، أجاز لي مرتين اثنتين. وقال حدثني أبو عبد الله مشافهة⁹⁷.

48. محمد بن عيسى بن هلال أبو عبد الله. وهو من مالقة ذكره ابن الزبير نفسه⁹⁸.

49. محمد بن محمد بن لب الكناني، قال عنه ابن الزبير وكانت فيه لوثة واخشيشان وكان له ارب في التطواف وخصوصا بأرض النصارى يتكلم مع الأساقفة في الدين فيظهر عليهم وكانت أموره غريبة من امتزاج اليقظة بالغفلة وخلط السذاجة بالدعابة وقال عنه أيضا:

وعرض لي في مالقة يرجع بعضها إلى الطريقة البيانية والمآخذ الأدبية والمآخذ الدينية وصحت ضرورة إلى الأخذ معه فيها وفي آيات من الكتاب العزيز فاستدعيته إلى منزلي وكان فيه تخلق وحسن ملاقة مع خفته الطبيعية وتشتت منازعه فأجاب وأخذت معه في كل ذلك فألفيته صائما عن ذلك جملة⁹⁹.

50. محمد بن مسمغور أبو عبد الله¹⁰⁰ قال ابن الزبير عنه، هو أول من قصده بغرناطة من أهلها وفتحت عليه كتاب متعلم¹⁰¹.

51. محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (صاحب البحر المحيط) أخذ عن الأستاذ ابن الزبير استدركه الحافظ بن حجر في ذيله على طبقات الحافظ¹⁰².

52. محمد بن يوسف الطنجالي أخذ عنه وشاركه في بعض شيوخه¹⁰³.

53. مالك بن عبد الرحمن بن سعد بن سالم بن الفرج¹⁰⁴ قال عنه ابن الزبير: شاعر مطبوع متقدم سريع البديهة رشيق الأغراض تحرف مدة بضاعة التوثيق ببلده وولى القضاء مرات بجهاات غرناطة وغيرها. وكان حسن الكتابة إذا كتب والشعر أغلب عليه، ثم قال تكرر قدومه علينا بغرناطة وآخر انفصالاته عنها آخر سنة أربع وسبعين وستائة¹⁰⁵.

97. فهرس الفهارس والإثبات 108/1.

98. صلة الصلة 220 والذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 41.

99. الإحاطة 81-80/3.

100. الذيل والتكملة س 1 ق 2/39.

101. المصدر السابق.

102. صلة الصلة 132 والإحاطة 229-228/2.

103. الذيل والتكملة س 1 ق 39/1 ودرة الحجال 11/1.

104. الإحاطة 304/3.

105. الإحاطة 363/3.

54. محمد بن إبراهيم بن مستقور الغرناطي الطائي أبو عبد الله¹⁰⁶ وهو من أشهر من أخذ عنهم. وأول من قصده بغرناطة وفتح عليه كتاب متعلم.

55. محمد بن إبراهيم بن موسى بن علي أبو القاسم الجياني¹⁰⁷ أخذ عنه الحديث كما روى عنه الموطأ¹⁰⁸.

56. محمد بن أحمد بن أبي القاسم السهاني الشريشي المقرئ المسن ذكره ابن الزبير نفسه فقال حدثني من شيوخ أبي عبد الله محمد¹⁰⁹.

57. محمد بن أحمد بن خليل أبو الخطاب السكوني الكاتب من أشهر أساتذة ابن الزبير قال عنه: وكان شيخنا القاضي العالم الجليل أبو الخطاب بن خليل¹¹⁰.

58. محمد بن سعيد الطراز أبو عبد الله¹¹¹.

59. محمد بن عبد الرحمن بن جوبر¹¹² سمع منه التيسير عن أبي حمزة عن أبيه عن الداني بالإجازة وهذا سند في غاية الحسن والعلو¹¹³.

60. محمد بن عبد الوهاب أبو سعد¹¹⁴ سمع منه الحديث.

61. يحيى بن عبد الملك بن يحيى بن أبي الغصن اللخمي أبو زكرياء من أهل مولة وسكن مرسية، رحل إلى المشرق وحج ولقي في رحلته جملة وأخذ عنهم وأجازوه مثل أبي محمد يونس بن أبي البركات الهاشمي، وأبي الفتوح نصر بن أبي الفرج بن علي الحصري أمام الحنابلة، وأبي بكر بن حزب الله القفصي، وأبي الحسن علي بن محمد بن الحصار الخزرجي¹¹⁵ قال ابن الزبير مشيدا بشيخه هذا. «كان لهذا الشيخ اعتناء بالحديث ولقاء أهله وكان من أهل السنة والفضل» وقال عن لقائه به أخذه عنه:

106. الإحاطة 189/1.

107. الإحاطة 91/3 وثبت البلوي الوادي آشي 277.

108. المصدر الأخير السابق والذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 40.

109. صلة الصلة 169.

110. الذيل والتكملة س 1 ق 1 الإحاطة 472/3 وأيضا 91/3 والوافي بالوفيات 22/6 والديباج 188/1 والدر الكامنة 84/1 وبغية الدعاة 291/1 وطبقات الداودي 26/1 والبدر الطالع 33 وشجرة النور 212.

111. صلة الصلة 227.

112. صلة الصلة 207 وشجرة النور الزكية 212 ترجمة 741.

113. صلة الصلة 58 وغاية النهاية 32/1 ترجمة 132 والذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 39.

114. المصدر السابق ص: 40.

115. صلة الصلة 198-200 تذكرة الحفاظ 1484/4 ترجمة: 1169 والوافي بالوفيات 222/6 ترجمة 2690.

«لقيته بمرسية - أعادها الله - وقرأت عليه غير شيء وأجاز واستحسن اعتناءه...»
توفي سنة 659 هـ. وكان مولده 575 هـ¹¹⁶.

62. يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن بن ظافر بن إبراهيم بن أحمد المرادي أبو بكر يعرف بابن المرباط من أهل أريولة وأعيانها¹¹⁷ قال عنه ابن الزبير... «كان الشيخ رحمه الله من جلة من أخذنا عنه عدالة وفضلا وتمسكا بالسنة عقدا وفعلا كاتباً جليلاً أديباً بارعاً وتورعاً سرياً، ولي بعد خروجه من بلده قضاء وادي آش ثم قضاء مالقة فأحسن السيرة وتظاهر من العدل ما يلائم علمه ودينه وأعز الخطة والصنف العلمي فكان ممن ختم به قضاة العدل بالأندلس فلم يُربها بعده مثله رضي الله عنه، ثم قال عن أخذه عنه، روى عنه جلة من أصحابنا وكتب لي بالإجازة ثم لقيته وشافهني بها ورأيت منه رجلاً عظيماً من أفضل من لقيت، توفي عفا الله عنه في محرم سنة 658 هـ بمالقة ومولده سنة 582 هـ¹¹⁸.

63. يوسف بن أبي ریحانة المالقي¹¹⁹.

116. صلة الصلاة: ص 200.

117. صلة الصلاة 197-198. وهكذا ورد نسبه فيها، وفي ص: 129 أبو بكر بن المرباط أما في الوافي بالوفيات (222/6) فهو أبو زكريا وكذلك في الذيل والتكملة س 1، ق 1 ص: 40.

118. صلة الصلاة: 198.

119. صلة الصلاة: 58، ودرة الحجال: (11/1).

■ إجازة ابن الزبير من أقطار مختلفة

عرف ابن الزبير بحرصه الشديد على لقاء الشيوخ واستجازتهم، ولهذا كان يكتب العلماء، فيروي عنهم بالمكاتبة، ويستجيزهم لنفسه ولأبنائه¹²⁰ سواء بالأندلس أو غيرها من الأقطار. نذكر فيما يلي طائفة ممن كاتبهم وأجازوه:

• من بجاية كتب إليه:

64. أبو بكر بن محمد بن محرز¹²¹.

65. أحمد بن محمد بن سراج بن عباس أبو الحسن¹²².

66. أبو المطرف بن عميرة¹²³.

67. محمد بن أحمد بن سيد الناس أبو بكر¹²⁴.

68. يحيى بن عباس بن أحمد بن أيوب بن محمد بن خليفة القيسي أبو زكرياء¹²⁵. قال عنه ابن الزبير: « كتب إلي من بجاية مرتين بإجازة عامة ما رواه. وتاريخ كتبه الثاني تاسع شهر ربيع الأول سنة 649هـ¹²⁶ وأصله من قسطنطينية رحل إلى الأندلس سنة 608هـ ثم عاد إلى بلده¹²⁷. »

• ومن سبتة:

69. أبو بكر بن محمد بن مشليون¹²⁸.

70. أبو العباس بن محمد البطيط¹²⁹.

120. الإحاطة: 156/1.

121. الذيل التكملة س 1، ق 1 ص: 41 وذكره ابن الزبير في صلة الصلة في ص: 169، 215.

122. الذيل التكملة س 1، ق 1 ص: 41.

123. المصدر السابق.

124. المصدر السابق.

125. صلة الصلة 202 حيث ترجم له.

126. المصدر السابق.

127. المصدر السابق.

128. الذيل والتكملة س 1، ق 1 ص: 41 وفي صلة الصلة (غشليون).

129. المصدر السابق.

• من قوص:

71. أبو الحسن علي بن زيد بن مطيع القشيري المالكي بن دقيق العيد¹³⁰.

ومن مالقة:

72. أبو عبد الله بن عيسى بن هلال.

من كتبوا إليه وأجازوه من مصر:

73. أحمد بن حامد بن أحمد بن محمد الأرتاجي قال عنه ابن الزبير: «أراه ابن أخي الراوية مجود الخط»¹³¹.

74. أحمد بن محمد بن مزين القرطبي أبو العباس ضياء الدين¹³².

75. إسماعيل بن عبد القوي بن أبي العز بن داود بن غرون الأنصاري¹³³.

76. الحسين بن علي بن أبي الفرج بن عبد الرحمن بن علي الجوزي (أبو علي)¹³⁴.

77. عبد الرحمن بن أبي محمد مكي بنسلمة البخاري الشافعي¹³⁵.

78. عبد الغني بن سليمان بن بنين بن خلف أبو القاسم الشافعي¹³⁶.

79. عبد المجيد بن علي الأنصاري بن الزبير أبو محمد¹³⁷.

80. عبد الهادي بن عبد الكريم بن علي بن عيسى بن تميم القيسي المضري¹³⁸.

81. عثمان بن عبد الرحمن بن عتيق بن حسين بن رشيق الربيعي¹³⁹.

82. عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي أبو محمد¹⁴⁰.

130. المصدر السابق.

131. الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص: 41.

132. المصدر السابق.

133. المصدر السابق.

134. المصدر السابق.

135. المصدر السابق ص: 42.

136. المصدر السابق.

137. المصدر السابق.

138. المصدر السابق.

139. المصدر السابق.

140. المصدر السابق.

83. عيسى بن سليمان بن رمضان بن أبي الكرم الشافعي¹⁴¹.
84. محمد بن البغدادي¹⁴².
85. محمد بن عبد الدايم أبو المكارم¹⁴³.
86. نجيب الدين بن عبد اللطيف بن عبد المنعم بن هبة الله الحراني أبو محمد¹⁴⁴.
وكتب إليه من مكة:
87. إبراهيم رضي الدين بن عمر بن مضر بن فارس الواسطي أبو إسحاق¹⁴⁵.
88. إسحاق بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري¹⁴⁶.
89. جمال الدين بن أبي بكر بن محمد بن محمد بن إبراهيم أبو يعقوب أخ السابق الذكر¹⁴⁷.
90. عبد الصمد وإبراهيم ومحمد ثلاثة أسماء وغلبت عليه كنية وهي أبو اليمن بن عساكر¹⁴⁸ وتتمه نسبه: ابن أبي الحسن عبد الوهاب بن عساكر.
91. محمد أبو عبد الله إمام المالكية بالحرم الشريف ضياء الدين ابن إمام المالكية بن علي بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن الحسن القسطلاني¹⁴⁹.
92. محمد جمال الدين أبو عبد الله بن يوسف بن مسدي الغرناطي¹⁵⁰.
من غيرها من بلاد المشرق كتب إليه:
93. أبو بكر بن علي بن مكارم بن فتيان الأنصاري الدمشقي الشافعي¹⁵¹.

141. المصدر السابق.

142. المصدر السابق.

143. المصدر السابق.

144. المصدر السابق.

145. الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص: 42.

146. المصدر السابق.

147. المصدر السابق.

148. المصدر السابق بغية الوعاة 291/1 وطبقات المفسرين 29/1.

149. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 42.

150. المصدر السابق.

151. المصدر السابق.

94. وكمال الدين علي بن شجاع بن سالم القرشي العباسي أبو الحسن الضرير¹⁵² وكتب عنه بإذنه: عبد القوي بن عطايا بن عبد القوي بن عطايا القرشي، وعيسى بن مظفر بن عبد العباسي، ومحمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي مدرس الحنابلة، ومحمود الدمشقي، وغيرهم يزيدون عن المائة، قال عنهم بن الزبير: «وقد استوفيت ذكرهم في جزء مشيختي»¹⁵³.

قال ابن عبد الملك المراكشي: «كذا قال- أي ابن الزبير- ولم أقف عليه، وإنما استخرجت هؤلاء المذكورين هنا من برنامج رواياته التي بعث بها إلي محملا لي ولبني إياه»¹⁵⁴.

■ ومن لم يجزه من شيوخه:

- أبو الحسن الحفار، وأبو جعفر بن خلف (ابن خديجة)، قال ابن الزبير: «أما الحفار فلم تتفق إجازته مع كثرة قراءتي عليه لموته، وأنا غائب عن غرناطة، وأما الأستاذ أبو جعفر فلازمته ولم تتفق منه إجازة.

- أبو زيد العشاب، وأبو عبد الله العبدري الصوفي. لم يميزه أيضا رغم أنه روى الأربعين للسلفي عن الأول، وتعقب الثاني في أصول الفقه والعربية، وذلك راجع إلى أن العشاب لم يميزه، وأن العبدري لم يكن يقول بالإجازة»¹⁵⁵.

(5) مكانته العلمية:

كان الأستاذ ابن الزبير من صدور العلماء المقرئين، حافظا، مؤرخا، وكان خاتمة المحدثين، وإليه انتهت الرئاسة بالأندلس في العربية والتفسير والأصول، وتجويد القرآن ورواية الحديث¹⁵⁶.

بل هناك من يعده آخر من بلغ مرتبة الاجتهاد في الأندلس، يقول الشيخ عبد الرحمن بن إدريس المنجرة في فهرسته: «أحمد بن إبراهيم بن الزبير شيخ أبي حيان وابن جزي هو آخر من بلغ مرتبة المجتهدين بالأندلس»¹⁵⁷.

152. المصدر السابق وغاية النهاية 32/1 وثبت البلوي الوادي آشي ص: 414.

153. الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص: 42 ونهاية النهاية 32/1 وثبت البلوي ص: 414.

154. نفس الذيل والتكملة.

155. نفس الذيل والتكملة.

156. الإحاطة 189/1. فهرس الفهارس 340/1، الاعلام 29/1.

157. تسمى فهرسته "الإسناد الشفيح يوم التناد" ص 16، 17 ب مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم: 2285.

يوضح لنا ابن الخطيب مكانته العلمية فيقول: « كان خاتمة المحدثين صدور العلماء والمقرئين، نسيج وحده في حسن التعلم والصبر على التسميع والملازمة للتدريس، لم تختل له مع تخطي الثمانين، ولا لحقته سامة »¹⁵⁸. هو الذي انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية والتجويد ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه، والقيام على التفسير والخوض في الأصولين¹⁵⁹.

لقد كان ابن الزبير طرازاً فريداً في تعليم العربية وتدريس الفقه والمثابرة على إفادة العلم ونشره. يقول ابن عبد الملك المراكشي شاهد عصره: « وهو الآن متصدر لإقراء كتاب الله تعالى، وإسماع الحديث، وتعليم العربية، وتدريس الفقه، عامراً بذلك عامة نهاره، عاكفاً عليه، مثابراً على إفادة العلم ونشره، انفرد بذلك في بلده قاعدة جزيرة الأندلس صارت الرحلة إليه »¹⁶⁰.

بل إنه بلغ من الشهرة والإشادة بذكره ما لم يبلغه سواه كما يقول لسان الدين ابن الخطيب¹⁶¹ « فارتحل إلى بابيه العلماء لسعة معارفه »¹⁶² « وتخرج به جماعة، وبه أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها »¹⁶³.

إن انحدار ابن الزبير من أسرة ذات حسب أصيل، وثروة معروفة، قد أعانته على طلب العلم¹⁶⁴، التفنن في علوم كثيرة وإتقانها ثم التأليف فيها، والتفرغ لتدريسها، حتى نال بذلك مرتبة الأستاذية. فقد « روي عنه جماعة من أهل بلده طائفة من الراحلين إليه من أقطار الأندلس وغيرها »¹⁶⁵، وتفقه عليه خلق... وانفرد بالإفادة ونشر العلم¹⁶⁶.

لقد كان ابن الزبير - كما قال عنه تلميذه أبو حيان - « أفصح عالم رأيت، واشفق على خلق الله تعالى »¹⁶⁷ كما « كان معظماً عند الخاصة والعامة حسن التعليم ناصحاً »¹⁶⁸.

158. الإحاطة 189/1 والديباج المذهب 188/1.

159. الإحاطة 189/1.

160. الذيل والتكملة 43/1.

161. الإحاطة: 189/1.

162. الوافي بالوفيات 291/1.

163. بغية الوعاة 291/1.

164. الإحاطة 188/1.

165. الذيل والتكملة 43/1.

166. البدر الطالع 33/1.

167. الوافي بالوفيات 222/6.

168. الدرر الكامنة 85/1.

وإذا تتبعنا المصادر التي بين أيدينا عن مكانة ابن الزبير العلمية فإننا نجد أنها قد أجمعت على سعة معارفه، «حتى بلغ من الشهرة والإشادة بذكره ما لم يبلغه سواه»¹⁶⁹ فقد انتهت إليه الرئاسة في بعض العلوم، والمشاركة في بعضها الآخر، فهو كما وصفه عمر رضا كحالة: «محدث، ناقد، نحوي، أصولي، أديب، مقرئ، مفسر، مؤرخ»¹⁷⁰.
وسنبين فيما يلي جوانب من مكانته العلمية باستعراضنا للعلوم والفنون التي برز أو شارك فيها:

1. علوم القرآن والتفسير:

لقد كان ابن الزبير من أكبر الدارسين للقرآن وتفسيره وعلومه وبه ختم علم القرآن بالأندلس وسائر المغرب في عصره.

قال تلميذه ابن جزى «ثم ختم علم القرآن بالأندلس وسائر المغرب بشيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير، فقد قطع عمره في خدمة القرآن وآثاه الله بسطة في علمه، وقوة في فهمه، وله فيه تحقيق، ونظر دقيق»¹⁷¹.

وقال تلميذه الآخر أبو حيان: «فما كان في كتابي هذا من تفسير الزمخشري رحمه الله تعالى فأخبرني به أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير قراءة مني عليه فيه، وإجازة أيام كنت أبحث معه في كتاب سيبويه»¹⁷².

وقد نقل عنه كثيرا في تفسيره (البحر المحيط) مما يتعلق بمناسبات السور بعضها ببعض - كما سنبين فيما بعد - من ذلك ما ذكره عند تعرضه لمناسبة سورة الفاتحة للبقرة حيث قال: «وسمعت الأستاذ أبا جعفر إبراهيم بن الزبير شيخنا يقول: ذلك إشارة على الصراط كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو هذا الكتاب» وبهذا الذي ذكره الأستاذ تبين وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد»¹⁷³ وهذا القول أولى لأنه إشارة إلى شيء سبق ذكره لا إلى شيء لم يجر ذكره¹⁷⁴.

169. الإحاطة 189/1.

170. معجم المؤلفين 138/1.

171. كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزى الكلبي، ط 2، 1973م، دار الكتاب العربي، بيروت، (10/1).

172. البحر المحيط، ط 1، سنة 1328هـ، مطبعة السعادة، مصر، 8/1.

173. سيأتي بيان ذلك مفصلا في التناسي.

174. البحر المحيط 36/1.

وابن الزبير أيضا « من أهل التجويد والإتقان عارف بالقراءات »¹⁷⁵ إليه « انتهت الرئاسة في صناعة العربية وتجويد القرآن »¹⁷⁶.

ولا أدل على تبحره في علم التفسير وإجاداته وتفننه في مسائله وغوصه في لجج درره من كتابه « البرهان في ترتيب سور القرآن »- موضوع بحثنا- و« ملاك التأويل »¹⁷⁷ الذي يعد من أجل الأعمال المقدمة لخدمة القرآن الكريم، حيث بسط فيه تفسير متشابه القرآن،¹⁷⁸ « ووجه ما تكرر من آياته لفظا أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير فعرس... » الذي تابع فيه الخطيب الاسكافي¹⁷⁹ في « درة التنزيل وغرة التأويل » فاستدرك عليه ما أغفله من الآيات المتشابهات¹⁸⁰ برفع تلك الإشكالات وإبداء المعاني الخفيات القاطعة بدرج البطالات...¹⁸¹ وقد استجرت تلك الآيات جملة وافرة من المقفلات من مثال تلك المشكلات، مما يجاري ويشبه ويلتبس على من قصر في النظر ويشتهبه، مما لم يقع في كتاب « درة التنزيل » ولا تعرض له بذكر بنص التنزيل ولا تأويل فنبهنا إلى ذلك ينحاز من المجتمع على ذكره ويفصل »¹⁸². وقد أحال ابن الزبير عدة مرات في كتابه « البرهان في ترتيب سور القرآن » على ملاك التأويل الذي كان ينعته بالتفسير.

والمواقع أن كتاب « ملاك التأويل » الذي تناول فيه متشابه القرآن بالتفسير والبيان وكتاب البرهان في ترتيب سور القرآن الذي بين فيه وجه التناسب في ترتيب سور القرآن ليؤكد لنا أنه قد أوتي حظا وافرا في علمي التفسير والقراءات اللذين كان له فيهما تحقيق ونظر دقيق كما قال ابن جزى الكلبي¹⁸³.

2. الحديث وعلومه:

حفظ الحديث وروايته من أجل العلوم وأشرفها ولا يستطيعه غير الحافظ المتقن الثقة الضابط العدل وقد اعتنى به الأندلسيون وعظموا حملته منذ عودة بقي ابن مخلد من رحلته

175. الذيل والتكملة 43/1.

176. الإحاطة 189/1 والديباج المذهب 188/1.

177. قام بتحقيقه وإخراجه إلى النور الأستاذ سعيد الفلاح الذي نال به رسالة الدكتوراه الحلقة الثالثة بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، طبعة دار الغرب الإسلامي، سنة 1983.

178. ملاك التأويل 146-145/1.

179. المصدر السابق 146/1.

180. (4) المصدر السابق 147/1.

181. المصدر السابق 147/1.

182. المصدر السابق 147/1.

183. التسهيل لعلوم التنزيل: 10/1.

من المشرق الذي به وبابن وضاح صارت الأندلس دار حديث، وبالأصيلي والباجي - اللذين تدارك الله بهما ديار الأندلس - تجددت الروايات واستحكم هذا الفن بأرضها وتأصل.

وبابن الزبير «شيخ المحدثين في عصره» ختم هذا الفن بالأندلس فقد «كان خاتمة المحدثين وصدور العلماء والمقرئين نسيج وحده في حسن التعليم والصبر على التسميع والملازمة للتدريس»¹⁸⁴.

قال عنه الحافظ ابن نصر: «كان حافظاً علامة أستاذ القراء وشيخ الإسناد عني بالحديث ونظر في الرجال»¹⁸⁵.

فقد «تفرد ابن الزبير بالسنن الكبرى للنسائي عن أبي الحسن الشاري بينه وبين المؤلف ستة أنفس»¹⁸⁶ وهو ثقة عمدة محدث الأندلس بل حافظ ومحدث الأندلس وسائر المغرب¹⁸⁷. كانت إليه الرحلة من أقطارهما للأخذ عنه. فعليه «تخرج علامة عصره في الحديث والقراءة أبو حيان»¹⁸⁸ «وكيان عمدة» أبي البركات ابن الحاج البليقي في الرواية والحديث وبقي يروي عنه بعد سماعه منه نحو السبعين سنة 771هـ.

كما روى عنه الموطأ كل من: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الأقسهري، وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي، وأبو عمر عز الدين عبد العزيز بن أبي عبد الله بن جماعة¹⁸⁹.

وروى عنه حديث الماهر بالقرآن: كل من أبي عبد الله محمد بن يوسف اللوشي الراوية الخطيب «وهو آخر من روى عنه في الدنيا سماعاً»¹⁹⁰.

وأبي جعفر أحمد بن محمد الهاشمي الطنجالي¹⁹¹ وأبي القاسم سلمون بن علي بن سلمون الكناني الذي لازمه بغرناطة وانتفع به رواية ودراية¹⁹². وغير هؤلاء كثيرون جداً.

184. الديباج المذهب 1 (188) وطبقات المالكية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 3928 د، ص 372.

185. طبقات الحفاظ: 513.

186. شذرات الذهب 16/6، وفهرس الفهارس والإثبات 340/1.

187. الدرر الكامنة 84/1 وفهرس الفهارس 341/1.

188. الدرر الكامنة 84/1.

189. ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، تحقيق: د. عبد الله العمراني، ص: 276.

190. غاية النهاية في طبقات القراء 32/1 وثبت البلوي، ص: 171.

191. نفس المصدر السابق، ص: 171.

192. الإحاطة 202/3.

3. علم العربية والنحو:

يعتبر ابن الزبير علما من أعلام عصره في العربية وعلومها وصدرها من صدورها انتهت إليه الرياسة في صناعتها¹⁹³ مقصودا للأخذ عنه فيها متصدرا لتلقيها وتدريسها، فهو أستاذ الجليل في النحو والعربية مدة طويلة بغرناطة ومالقة وبغيرهما قال عنه تلميذه أبو حيان: « خرج من مالقة ومن طلبته أربعة يقرأون كتاب سيبويه، وبه أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها »¹⁹⁴.

وقال أيضا موضحا جوانب من أخذه عنه في مجالي العربية والنحو: «... الوجه الثاني معرفة الأحكام التي لكلم العربية من جهة أفرادها ومن جهة أفرادها ومن جهة تركيبها، ويؤخذ ذلك من علم النحو... وقد أخذت هذا الفن عن أستاذنا الأوحد العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي في كتاب سيبويه وغيره. والوجه الثالث كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبدیع... وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبي جعفر بن الزبير رحمه الله »¹⁹⁵ وقال أيضا: « كان يحرر العربية ويعلمني المنطق... يعني المنطق... له اليد الطولى في علم الحديث والقراءة والعربية... أحكم العربية وأقرأها مدة طويلة »¹⁹⁶.

ولتقدمه في علوم العربية والنحو فقد اكتض مجلسه بالطلبة وشد إليه الركاب ومن الذين قصدوه فيها عبد الله بن عبد البر بن سليمان الرعياني الذي رحل عليه من بلده ارجدونة فلازمه وانتفع به آخذا عنه الكتاب العزيز والعربية... »¹⁹⁷.

ومن الآخذين عنه في العربية والنحو ابن جزي الكلبي¹⁹⁸ وغيره كثير¹⁹⁹. إليه انتهت الرياسة في صناعة العربية²⁰⁰، ولم يقتصر ابن الزبير على تدريس العربية والنحو ولكن كانت له فيها مشاركة واضحة بالتأليف، وعليه كان اعتماد أبو حيان في تفسيره كما سبقت إليه الإشارة، كما أنه صنف تعليقا على كتاب سبويه²⁰¹.

193. الديباج المذهب 188/1، والإحاطة 189/1.

194. بغية الوعاة 299/1، وطبقات المفسرين 26/1.

195. البحر المحيط 4/1.

196. الوافي بالوفيات 222/6.

197. الإحاطة 459/3.

198. الإحاطة 21/3.

199. تذكرة الحفاظ 1484/4.

200. الإحاطة 189/1.

201. بغية الوعاة 291/1.

4. الفقه والأصول؛

كان ابن الزبير عالما متفننا على طريقة القدماء في الموسوعية العلمية متقنا لعدة علوم مجيدا لأغلبها ومنها علمي الفقه والأصول اللذين كان يقوم بتدريسهما بمسجد غرناطة العامر وبالقبة والمرية²⁰² وغيرها من مراكز العلم التي لجأت إليها أوضاع الأندلس المتقلبة. قال ابن الخطيب موضحا مكانته العلمية ومشاركته القوية... « انتهت إليه الرياسة في الأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه والقيام على التفسير والخوض في الأصوليين »²⁰³.

وقال أبو حيان: « وكان ورعا عاقلا له اليد الطولى في علم الحديث والقراءات والعربية ومشاركة في أصول الفقه صنف فيه وفي علم الكلام والفقه²⁰⁴ وله كتب كثيرة وأمّهات »²⁰⁵.

تمثلت مشاركته هذه بشكل واضح في شرحه لكتاب الإشارة في الأصول²⁰⁶ لأبي الوليد الباجي المتوفى سنة 474هـ، كما أنه كان يقوم بتدريسه لطلاب العلم ومنهم أبو حيان تلميذه النجيب الذي قال مشيرا إلى ذلك: «... وقد بحث في هذا الفن في كتاب الإشارة للباجي علي... وعلى الأستاذ العلامة أبي جعفر في كتاب الإشارة وفي شرحها له، وذلك بالأندلس »²⁰⁷.

ولمشاركته تلك ومعرفته ودرايته بالفقه وأصوله ولى ابن الزبير قضاء الأنكحة بغرناطة وكذلك ولى الخطبة والإمامة بها²⁰⁸.

5. التاريخ والرواية؛

ابن الزبير لم تقصر به معارفه على جوانب معينة ولا مشاركته فيما سبق ذكره عن الخوض في التاريخ والرواية كما لم يكتف فيها بالمشاركة والتدريس فقط بل تعدى به تمكنه منها إلى التأليف فيها فترك لنا مؤلفات جليلة مهمة تنبئ عن قدره وعلمه وحجم إجادته في هذا المجال، وأشهر مصنفاته والتي وصلنا بعضها:

202. الإحاطة (73/3).

203. الإحاطة 188/1 والديباج المذهب (188/1).

204. لعله يقصد شرحه لكتاب الإشارة في الأصول للباجي إذ لا نعرف له كتباً مصنفة في الفقه أو لعلها ضاعت ضمن ما ضاع من كتبه في المحنة التي تعرض لها على يد المتغلب بالقبة من الرؤساء التجبيين بسبب مدعي النبوة المسمى بالفزاري، الإحاطة (190/1-191).

205. الوافي بالوفيات (222/6).

206. شجرة النور الزكية: 212.

207. البحر المحيط (4/1).

208. الإحاطة (188/1).

كتاب «صلة الصلة» الذي وصل به كتاب ابن بشكوال «الذي وصل به تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي»²⁰⁹.

وكتاب «الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام»²¹⁰ وهو في علماء الأندلس وأعيانها في عصره.

وله في شيوخه ورواياته «معجم شيوخه» كما له «برنامج رواياته»²¹¹.

6. الدفاع عن العقيدة ومواجهة أهل البدع؛

إن ابن الزبير عالم عامل بما يعلم، فهو من حملة الأمانة ما كانت تردده لومة لائم ولا سطوة حاكم جائر، ولا اعتساف جاهل أو غوغاء عامة، عن الدفاع عن الحق، لقد حمل لواء الإسلام يذود عن حياضه مجردا نفسه لحماية أصوله وسلامة عقيدة أهله، لم يدخر وسعا في رعاية سنة نبيه، قاصدا ردع الضلال والمنحرفين والمتقولين والمرجفين بالباطل. لم يثنه عن ذلك الجور أو التشريد أو الإذابة، بل وقف مواقف الشرف ممتحنا بأعز ما يملك إنسان، مبتلي في ماله وكتبه ونفسه مشردا²¹² فموقفه من فتنة الفزاري المشعوذ الساحر²¹³ وتأليفه في الرد على الشوذية المسمى «بردع الجاهل عن اعتساف المجاهل في الرد على الشوذية وإبداء غوائلها الخفية»²¹⁴ شاهدة على مشاركته وفعاليته كعالم كبير بعطاءاته الكثيرة المتميزة في بيئة وأوضاع مضطربة يجد فيها المنحرفون والجاهلون والضلال المرتع الخصب لترهاتهم وإرجافهم وإفسادهم، وكتابه «ملاك التأويل» الذي عمد فيه إلى تفسير متشابه القرآن هو في الحقيقة من هذا السياق وفي هذا الباب. وكذلك كتابه «سبيل الرشاد في فضل الجهاد»²¹⁵.

(6) تلاميذ ابن الزبير؛

كان ابن الزبير علما من أعلام الأندلس وخاتمة شيوخها في علوم القرآن والتجويد والقراءة والحديث والنحو والتاريخ والفقه وأصوله²¹⁶ وغير ذلك فجعله ذلك مقصد

209. الذيل والتكملة 44/1 والإحاطة 188/1.

210. الذيل والتكملة 44/1 والإحاطة 188/1.

211. الذيل والتكملة 44-45/1.

212. الإحاطة 191/1، 192.

213. الذيل والتكملة 44-45/1 والإحاطة 190/1 وما بعدها.

214. المرقبة العليا: 128. الإحاطة: 191، 192.

215. الذيل والتكملة 44/1.

216. أنظر الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 39-45 والوافي بالوفيات 222/6 وغيرهما.

طالب العلم ومحبي الرواية كما كان هو نفسه حريصاً على نشر العلم وإفادة الخلق ملياً بالحاجة المتعلمين صبوراً على ذلك حليماً صادقاً ناصحاً مثابراً معتكفاً على ذلك حتى انفرد بذلك في بلده قاعدة جزيرة الأندلس²¹⁷ وصارت الرحلة إليه²¹⁸ لذيوع صيته في الأقطار فكثرت المتحلقون حوله سواء في غرناطة أو في مالقة أو غيرها من حواضر الأندلس، والمغرب كما كتبه العلماء واستجازه أهل الروايات²¹⁹ فكثرت الآخذون عنه، ومنهم:

1- إبراهيم بن محمد بن علي بن العاصي التنوخي نشأ بغرناطة واشتهر وكتب في الحملة عن سلطانها، وترقي معارج الرتب، أقرأ فنونا من العلم بعد مهلك أستاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير بإشارة منه، قرأ بغرناطة على ابن الزبير. وكان مقرئاً للقرآن مبرزاً في تجويده مدرسا للعربية والفقه آخذاً في الأدب متكلماً في التفسير²²⁰.

2- إبراهيم بن يحيى بن زكريا قرأ على أبيه ثم تحول إلى الأستاذ أبي جعفر استعمل في القضاء²²¹.

3- أحمد بن أحمد الأنصاري ابن الفقيه حمل عن ابن الزبير رواية شمائل النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عيسى الترمذي بعلو عن القاسم الخليلي، وقد راجعه أبو جعفر ابن الزبير في برنامج رواياته²²².

4- أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي تعلم العلم عن جملة منهم شيخ الجماعة الأستاذ ابن الزبير، استعمل في السفارة، فسد مسد مثله، وأقرأ ببلده فانتفع به²²³ توفي سنة 728هـ.

5- أحمد بن عبد الولي بن أحمد أبو جعفر العيني قرأ على أبي الزبير وكان ممن تطوي عليه الخناصر معرفة بكتاب الله وتحقيقاً لحقه وإتقاناً لتجويده ومثابة على تعليمه ونصحا في إفادته توفي سنة 750هـ²²⁴.

217. قال عنه ابن عبد الملك المراكشي "وهو الآن متصدر لإقراء كتاب الله تعالى وإسراع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه عامراً بذلك نهاره عاكفاً عليه مثابراً في إفادة العلم ونشره انفرد بذلك..."، الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 45.

218. الإحاطة (459/3).

219. أنظر الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 44-45. والهامش الأول من ص 45 والمنقول عن صلة الصلة 18 بدار الكتب المصرية.

220. الإحاطة (334/1 و 375).

221. المرقبة العليا: 154.

222. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 297 و 298.

223. الإحاطة (139/2) و (289/1) وغاية النهاية (32/1).

224. الإحاطة (193/1-194).

- 6- أحمد بن عبد الولي العواد ذكره ابن الجزري²²⁵.
- 7- أحمد بن الطباع أبو جعفر ذكره ابن مخلوف²²⁶.
- 8- أحمد بن محمد بن أحمد بن قعنب أبو جعفر ولي القضاء في أماكن عديدة كلوشة وبسطة وبرجة وغير ذلك يحمل عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير²²⁷.
- 9- أحمد بن محمد بن خديجة أبو جعفر أخذ عن ابن الزبير ذكره ابن فرحون²²⁸.
- 10- أحمد بن محمد الهاشمي الطنجالي أبو جعفر روى عن ابن الزبير²²⁹.
- 11- سلمون بن علي بن عبد الله بن سلمون الكنائي القاضي أخذ عن جملة من الشيوخ أولهم أبو جعفر بن الزبير²³⁰.
- 12- عز الدين عبد العزيز بن جماعة أبو عمر أجاز له ابن الزبير كما روى عنه الموطأ²³¹.
- 13- عبد الله بن أحمد بن سعيد بن زيد الغافقي قال ابن الخطيب: «أجاز له من أهل المغرب شيخ الجماعة بالأندلس ابن الزبير»²³².
- 14- عبد الله بن عبد البر بن سليمان الرعيني. قال ابن الخطيب: «قرأ على الأستاذ الجليل أبي جعفر ابن الزبير رحل إليه من وطنه أوجدونة عام 692هـ ولزمه وانتفع به أخذ الكتاب العزيز والعربية وسمع عليه الكثير من الحديث»²³³.
- 15- عبد الله بن الجبر بن عثمان اليحصبي: «قرأ على أستاذ الجماعة ابن الزبير²³⁴ وشهد له ابن الزبير بأنه «من أعيانها ذوي الشرف والجلالة أخذ عن أشياخ بلده غرناطة»²³⁵.

225. غاية النهاية (32/1). وشجرة النور الزكية 212.

226. شجرة النور الزكية 212.

227. الإحاطة (168/1).

228. الديباج (188/1).

229. ثبت البلوي الوادي آشي: 171.

230. الإحاطة (310/4) والمرقبة العليا: 167.

231. تذكرة الحفاظ 532، وثبت البلوي 276.

232. الإحاطة (412/3).

233. المصدر السابق (459/3).

234. نفس المصدر السابق (335/3).

235. نفس المصدر السابق (385/3).

- 16- عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السلماني قرأ على شيخ وأستاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير فأجازه²³⁶.
- 17- عبد الله بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني قرأ على الأستاذ الكبير أبي جعفر بغرناطة ولازمه وانتفع به دراية ورواية²³⁷.
- 18- عبد الله بن يحيى بن محمد بن زكريا الأنصاري قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير وأجازه²³⁸.
- 19- عبد الله بن يحيى الأنصاري من أهل غرناطة وأصله من مرسية من بيت جود وفضل ولى القضاء دون العشرين وتصرف فيه بقية عمره بالجهات الأندلسية، روى عن ابن الزبير²³⁹.
- 20- عبد المهيم بن محمد بن عبد المهيم الحضرمي قرأ بغرناطة على الشيخ العلامة ابن الزبير وهو من الغرباء الذين قدموا الأندلس²⁴⁰.
- 21- عبد الواحد بن سليمان بن عبد الواحد بن سليمان كان من أهل المشاركة في الحديث والفقه واللغة والأدب حسن الكتابة²⁴¹.
- 22- عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السداد الأموي المالقي الشهير بالباهلي قرأ على ابن الزبير وكان من مفاخره²⁴².
- 23- علي بن سليمان الأنصاري ذكره ابن الجزري²⁴³.
- 24- علي بن عتيق بن أحمد الهاشمي من أهل غرناطة قرأ على الأستاذ ابن الزبير ولازمه وتأدب به وتلا عليه بالسمع وسمع كثيرا من الحديث²⁴⁴.
- 25- علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكتاني القيحاوي قرأ القرآن على ابن الزبير²⁴⁵.

236. المصدر السابق (388/3).

237. المصدر السابق (401/3) وشجرة النور الزكية 212.

238. الإحاطة (414/3).

239. المرقبة العليا: 152.

240. الإحاطة (124/4).

241. صلة الصلة 25-26.

242. الإحاطة (553/3) وغاية النهاية (32/1).

243. غاية النهاية (32/1).

244. الإحاطة (198/4).

245. المصدر السابق (105/4).

- 26- علي بن محمد الجياب أبو الحسن روى عن ابن الزبير صحيح البخاري²⁴⁶.
- 27- علي بن محمد بن عبد الحق بن الصباغ العقيلي من أهل غرناطة. قال ابن الخطيب «نقلت بخطه في بعض ما كتب به إلي، من الأشياخ الذين لقيتهم وأجازوا لي عامة الشيخ الفقيه الأستاذ العالم العلم خاتمة المسندين بالمغرب أبو جعفر أحمد بن الزبير التقفي، نشأت بين يديه وقرأت عليه كثيرا وسمعت وأجازني»²⁴⁷.
- 28- قاسم بن عبد الكريم بن جابر الأنصاري من أهل غرناطة قرأ على خاتمة المقرئين ابن الزبير²⁴⁸.
- 29- محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن يوسف بن روييل الأنصاري أكثر القراءة على شيخ الجماعة العلامة ابن الزبير²⁴⁹.
- 30- محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي قرأ على الأستاذ²⁵⁰ توفي سنة 752هـ.
- 31- محمد بن إبراهيم بن محمد الدوسي قرأ على الأستاذ ابن الزبير²⁵¹.
- 32- محمد بن أحمد بن أمين الأقسهري أبو عبد الله جلال الدين روى عنه الموطأ²⁵².
- 33- محمد بن أحمد الزيات الكلاعي قرأ بغرناطة على الأستاذ ابن الزبير شيخ الجماعة توفي سنة 728هـ²⁵³.
- 34- محمد بن أحمد بن جعفر بن عبد الحق بن حفاف السلمي قرأ على ابن الزبير وأجازه²⁵⁴.
- 35- محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف الكلبي المشهور بابن جزي صاحب القوانين الفقهية. قرأ على ابن الزبير وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والقرآن وبه تفقه بالمرية²⁵⁵.

246. ثبت البلوي 272.

247. الإحاطة (127/4).

248. المصدر السابق (262/4).

249. المصدر السابق (161/3).

250. الإحاطة (161/2).

251. المصدر السابق (161/3).

252. ثبت البلوي 276.

253. الإحاطة (235/3)، و (138/2-139).

254. الإحاطة (138/2).

255. الإحاطة (24-20/3) وشجرة النور الزكية 212.

36- محمد بن أحمد بن علي بن شبرين أبو بكر سمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وكان من كبار أهل العلم فارتسم بالكتابة السلطانية وولى القضاء بعدة جهات، من أهل الدين والعقل والعدالة تاريخياً مقيدا طلعة اختيار أصحابه محققاً لما ينقله، كانت له رحلة إلى الأندلس اتسع بها نطاق روايته، شعره متعدد الأسفار كثير الأغراض²⁵⁶ توفي سنة 747هـ.

37- محمد بن أحمد بن فتوح بن شقرال اللخمي قرأ على الأستاذ ابن الزبير²⁵⁷.

38- محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن خميس الأنصاري قرأ على ابن الزبير²⁵⁸.

39- محمد بن أحمد بن محمد بن الأشعري يعرف بابن المحروق الوكيل بالدار السلطانية القهرمان بها المستور آخر عمره²⁵⁹ قرأ على ابن الزبير وكانت له فيه فراسة صادقة، كتب الشروط وبرز في عدول الحضرة قبل سنة 727هـ²⁶⁰.

40- محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الهاشمي الطنجالي قرأ على ابن الزبير²⁶¹.

41- محمد البياني²⁶².

42- محمد بن بيش العبدري قرأ على شيخ الجماعة ببلده أبي جعفر ابن الزبير²⁶³.

43- محمد بن جابر الوادي أشي شمس الدين أبو عبد الله قرأ وروى عن ابن الزبير ومما رواه عنه الموطأ²⁶⁴.

44- محمد بن محمد بن سهل أبو القاسم: قال الذهبي ورأيت إجازته بالسمع لابن سهل وقد صدرها بخطبة فائقة الحسن من إنشائه²⁶⁵.

45- محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري الساحلي قرأ على الأستاذ ابن الزبير²⁶⁶.

256. الإحاطة (240/2-242).

257. المصدر السابق (24/3).

258. المصدر السابق (185/3).

259. المصدر السابق (136/2).

260. المصدر السابق (137/2).

261. نفس المصدر (247/3).

262. شجرة النور الزكية 212.

263. الإحاطة (28/3).

264. ثبت البلوي 276. ودرة الحجال (11/1) ترجمة: 88.

265. تذكرة الحفاظ (1484/1) وما بعدها والوافي بالوفيات (222/6).

266. الإحاطة (191/3).

- 46- محمد بن محمد بن يوسف بن عمر الطنجالي أبو بكر روى عن جده أبي جعفر وعن الراوية الكبير ابن الزبير²⁶⁷.
- 47- محمد بن يحيى بن أبي بكر الأشعري المالقي أبو عبد الله القاضي من أشياخه أبو جعفر ابن الزبير خاتمة المقرئين كما روى عنه البخاري²⁶⁸.
- 48- محمد بن يوسف اللوشي أبو عبد الله الراوي الخطيب وهو آخر من روى عنه في الدنيا سماعاً، وأنبأنا عنه الإمام جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الشريسي وغيره²⁶⁹.
- 49- محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفري (صاحب البحر المحيط) قرأ ببلده على الأستاذ ابن الزبير ولازمه وانتفع به وشاد له بالمشرق ذكراً كبيراً ويقال أنه نادى في الناس عندما بلغه نعيه وصلى عليه بالقاهرة²⁷⁰ وقد وقعت بينه وبين أستاذه الوحشة فنال منه، وتصدى للتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته، فرفع أمره إلى السلطان فامتعض ونفذ الأمر بتنكيله فاختفى، ثم أجاز البحر مخفياً يلتفت خلفه²⁷¹.
- 50- موسى بن محمد بن جرادة²⁷².
- 51- يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد اللخمي أخذ عن جماعة من أهل بلده غرناطة لما قدم إليها مغرباً عن وطنه أخذ عن الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير²⁷³.
- 52- محمد بن حسان القيسي الوادي أشي أبو عبد الله كتب عن ابن الزبير²⁷⁴.
- 53- محمد بن خلف السلمى المعروف بابن أبي البركات ابن الحاج البلفيقي وعمدته في الرواية من المغاربة أبو جعفر ابن الزبير وقد بقي يروي بعد السماع منه نحو السبعين وتوفي سنة 773هـ²⁷⁵.

267. الإحاطة 194/3 و 247/3.

268. المصدر السابق 179/2 وثبت البلوي 272 وشجرة النور الزكية 212.

269. غاية النهاية 32/1 وثبت البلوي 171.

270. الإحاطة 44/3.

271. نفس المصدر 46/3 وتذكره الحفاظ 1484/4 والوافي بالوفيات 222/6 وشجرة النور الزكية 212.

272. غاية النهاية 32/1.

273. الإحاطة 341/4.

274. ثبت البلوي 99 ترجمة 81.

275. الإحاطة 145/2-149 و 72/2، والمرقبة العليا 165 وغاية النهاية 32/1 وشجرة النور الزكية 212 وفهرس الفهارس والإنبات 75/1.

- 54- محمد بن عبد الله بن عبد العظيم بن أرقم النميري من أهل وادي آش قرأ على ابن الزبير²⁷⁶.
- 55- محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي توفي ببلده مالقة وقبر بها شهيدا بالطاعون سنة 750 هـ أجازته ابن الزبير²⁷⁷.
- 56- محمد بن علي بن مثبت شيخ القدس²⁷⁸.
- 57- محمد بن علي بن عمر بن يحيى بن العربي الغساني أخذ بغرناطة عن ابن الزبير²⁷⁹.
- 58- محمد بن علي بن محمد بن قطران الأنصاري أخذ عن ابن الزبير²⁸⁰.
- 59- محمد بن القاسم بن أبي رمان أبو عبد الله²⁸¹ قرأ على ابن الزبير.
- 60- محمد بن القاسم بن عمران الحضرمي السبتي²⁸² قرأ على ابن الزبير.
- 61- محمد بن محمد بن أحمد بن علي الأنصاري قرأ على ابن الزبير²⁸³.
- 62- محمد بن محمد بن إدريس القضاعي من أهل أسطونة يعرف بالقللوسي قرأ على ابن الزبير بغرناطة²⁸⁴.
- 63- يحيى بن مسود المحاربي ولى قضاء الجماعة بالحضرة، من أهل الأصالة والجزالة والجلالة كان عالي الهمة ماضي العزيمة شديد الشكيمة، اشتهر بالمضاء والاشتداد على أهل الجاه وإقامة الحدود وإضافة الشهود، قرأ على ابن الزبير وتوفي سنة 727 هـ²⁸⁵.
- 64- يوسف بن إبراهيم الفهري من أهل غرناطة قرأ على ابن الزبير ببلده²⁸⁶.

276. الإحاطة 89/3.

277. المرقبة العليا: 153.

278. غاية النهاية 32/1.

279. 97/3 من الإحاطة.

280. المصدر السابق 203/2 و 230/2.

281. الوافي بالوفيات 222/6.

282. المصدر السابق.

283. الإحاطة 37/3.

284. المصدر السابق 77/3.

285. المرقبة العليا: 139.

286. الإحاطة 404/4.

65- يوسف بن موسى بن سليمان المنشاغري من أهل رندة- قال: فمن شيوخي الذين رويت عنهم واسترقت البركة منهم الشيخ الإمام أبو جعفر ابن الزبير²⁸⁷.

وذكرت جماعة من تلاميذه بألقابهم وهم:

66- أبو جعفر بن أبي حبل وهو ممن رثاه بعد موته بقصيدة أوردها ابن الخطيب²⁸⁸.

67- أبو حفص الزيات²⁸⁹

68- ابن الحبان²⁹⁰

69- ابن الشراط²⁹¹

70- الزاهد أبو عمر بن المرباط²⁹².

(7) مؤلفات ابن الزبير:

ابن الزبير عالم كبير كانت له مشاركة واسعة في ثقافة عصره تدريسا وتأليفا وقد خلف لنا مكتبة قيمة تبرز لنا مكانته العلمية وأصالته الفكرية وصلابته العقيدية ولعل عددا من مؤلفاته قد ضاع فيما ضاع له من كتب عندما انتهب العامة بيته بمالقة في فتنة الفزاري.

أما ما عرف من عناوين كتبه فهي على الشكل التالي:

• الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام²⁹³.

• إيضاح السبيل من حديث سؤال جبريل²⁹⁴.

• البرهان في ترتيب سور القرآن وهو موضوع بحثنا.

• تعليق على كتاب سيبويه²⁹⁵ في النحو.

287. المصدر السابق 387/4

288. الإحاطة 193/1

289. شجرة النور الزكية 212

290. نفس المصدر السابق.

291. نفس المصدر السابق.

292. الوافي بالوفيات 222/6.

293. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 44 والدرر الكامنة 85/1 وهدية العارفين 103/1 والأعلام 29/1.

294. ذكره ابن الزبير في بيان مناسبة سورة الماعون لقريش في: "البرهان في ترتيب سور القرآن" ص: 377 من هذا الكتاب.

295. طبقات المفسرين للداودي 26/1.

- الذيل على الصلة لابن بشكوال وهو المعروف بصلة الصلة²⁹⁶.
- ردع الجاهل عن اعتساف المجاهل في الرد على الشوذية²⁹⁷.
- الزمان والمكان²⁹⁸.
- فهرسة شيوخه²⁹⁹.
- سبيل الرشاد في فضل الجهاد³⁰⁰.
- شرح الإشارة لأبي الوليد الباجي في الأصول³⁰¹.
- معجم شيوخه³⁰².
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التنزيل³⁰³.
- نزهة البصائر والأبصار³⁰⁴.
- أرجوزة في الرد على الشوذية³⁰⁵.

296. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 44 والديباج 188/1 والدرر الكامنة 84/1 وطبقات المفسرين 26/1 والاعلام 29/1 والموسوعة المغربية للاعلام البشرية 110/1.

297. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 44 والديباج 188/1 والدرر الكامنة 85/1 وطبقات المفسرين 26/1 وهدية العارفين 103/1.

298. معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 138/1.

299. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 44 وفهرس الفهارس والإثبات " وفيها روايات تلك الفهرسة وتداولها إلى المؤلف".

300. طبقات المفسرين 26/1 وكذلك الديباج 188/1.

301. الديباج 188/1 وطبقات المفسرين 26/1.

302. الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 44.

303. حقق الكتاب الأستاذ سعيد الفلاح ونشر بدار الغرب الإسلامي بيروت سنة 1983.

304. الإحاطة 467/1 حيث نقل عنه ابن الخطيب وأشار إليه.

305. وقد كانت درجة ابن الزبير في النظم منحة ولهذا تعتبر أرجوزته هذه أحط ما ألف وعيب عليه. أنظر الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص: 44-45.

المبحث الثالث

- تحقيق عنوان الكتاب
- وصف النسخ المعتمدة في التحقيق
- قيمة المخطوطتين
- منهج التحقيق
- دليل الإشارات والرموز

تحقيق عنوان الكتاب ونسبته إلى صاحبه

لم يرد عنوان هذا الكتاب بشكل كامل وصحيح عند ابن الزبير سواء في ثانيا كتابه هذا أو في تفسيره لمتشابه القرآن المسمى بـ «ملاك التأويل»، وإنما أشار إلى موضوعه في مقدمة كتابه «البرهان» بقوله «فاقتصر بحكم الإضطرار في هذا الاختصار على وجوه ترتيب السور»¹ ثم قال بعد ذلك: «باب التعريف بترتيب السور»².

كما أحال عليه عدة مرات في كتابه «ملاك التأويل» فنعتته فيه «بالبرهان» اختصاراً، حيث قال عند حديثه عن مناسبة افتتاح السور الخمس: - أم القرآن، والأنعام، والكهف، وسبأ وفاطر - ب: الحمد لله: «وقد بسطت هذا في كتاب البرهان»³.

وقال أيضاً في موضع آخر: «وقد أوضحنا في كتاب البرهان أن ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين»⁴.

وإذا كان ابن الزبير قد أشار إلى أن هذا الكتاب يقتصر على وجوه ترتيب السور، فإننا نجد طائفة ممن ترجموا له أو نقلوا عنه قد وسموا كتابه بـ: «البرهان في ترتيب سور القرآن» ومن بين هؤلاء من هو قريب من عصره ممن يمكن أن يكون قد أخذ عن تلاميذه، مثل ابن فرحون المتوفى سنة 799هـ أي بعد وفاة ابن الزبير بـ 91 سنة، ومن أورد هذا الكتاب تحت نفس العنوان أيضاً⁵: الإمام البقاعي⁶ في كتابه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»⁷ والحافظ شمس الدين محمد الداودي⁸، وخير الدين الزركلي⁹، وعبد العزيز بن عبد الله¹⁰.

1. أنظر ص 2 من النص.

2. نفس المصدر ص: 4.

3. ملاك التأويل 154/1، 155.

4. نفس المصدر 316/1.

5. أنظر الديباج المذهب 188/1.

6. هو إبراهيم بن عمر بن حسن الخرباوي البقاعي الشافعي عالم وأديب ومفسر ومحدث ومؤرخ له عدة مؤلفات من بينها «الأصل الأصول في تحريم النقل من التوراة والإنجيل» توفي بدمشق سنة 325هـ، أنظر معجم المؤلفين لرضا كحالة 71/1.

7. مخطوط بالخط العثماني العامة بالرباط تحت رقم ق: 181، ج 3/1.

8. طبقات المفسرين 27/1.

9. الاعلام 29/1.

10. الموسوعة المغربية للاعلام البشرية 110/1.

كما ورد اسم الكتاب تحت عناوين أخرى متقاربة نذكرها فيما يلي:

• البرهان في تناسب سور القرآن. أورده كل من ابن الباشا البغدادي¹¹، وحاجي خليفة¹²، ومحمد بن مخلوف¹³.

• البرهان في مناسبة سور القرآن: أورده كل من الإمام السيوطي¹⁴، والشيخ عبد الله بن الصديق¹⁵.

• مناسبات ترتيب السور: أورده السيوطي¹⁶.

والذي اختاره هو ما ذهب إليه الصنف الأول- وهو الأكثر- من أن اسم الكتاب هو: البرهان في ترتيب سور القرآن، وهذا موافق لإشارات المؤلف في كتابه «ملاك التأويل» و«البرهان» إلا أن هذا الكتاب يتعلق بترتيب السور.

ولقد كان رأي المؤلف رحمه الله مع من يرى أن ترتيب السور توقيفي لا محل للاجتهاد فيه لذلك، فقد عمل جهده لإبراز الحكمة من هذا الترتيب، وإظهار أوجه الترابط والتناسب بين سور القرآن الكريم كما ورد ترتيبها في المصحف الإمام، ولعل هذا الملحظ في عمل المؤلف هو الذي جعل الكثيرين ممن أشرت إليهم أعلاه يذهبون إلى تسمية كتابه بـ «البرهان في تناسب أو مناسبة سور القرآن».

وإذا كان الإشكال قد وقع في عنوان الكتاب، فإن نسبته إلى ابن الزبير لا إشكال فيها ولا تحتاج إلى دليل لأن جل كتب التراجم والفهارس نسبت له هذا الكتاب من جهة¹⁷، ولأن ابن الزبير نفسه أحال في كتابه ملاك التأويل عليه عدة مرات كما سبقت الإشارة إلى ذلك من جهة ثانية، ولأن الإمام البقاعي قد اطلع عليه وضمنه في تفسيره، كما أن الإمام السيوطي اطلع عليه بدوره وجعله مرجعا من مراجع كتابه: الاتقان¹⁸.

11. أنظر هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين 103/1.

12. أنظر كشف الظنون 241/1.

13. شجرة النور الزكية ص: 212.

14. معترك الاقران 55/1.

15. جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص: 16.

16. الاتقان 20/1.

17. أنظر الديباج المذهب 188/1، طبقات المفسرين 26/1، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي مخطوط بالخرانة العامة تحت رقم ق/181، ج 3/1، الاتقان 20/1 معترك الاقران 55/1، هدية العارفين 103/1، وكشف الظنون 241/1،

وشجرة النور الزكية ص 212، والاعلام للزركلي 29/1 وغيرهم.

18. الاتقان 20/1 وأنظر معترك الاقران 55/1.

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق

يعتبر تحقيق كتاب من نسخة واحدة وخاصة في رسالة جامعية مغامرة كبيرة، وخاصة إذا كانت تلك النسخة غير تامة كما هو الحال بالنسبة لكتاب «البرهان في ترتيب سور القرآن»¹⁹ موضوع بحثنا، لكنني وجدت في نفسي جرأة زائدة على القيام بهذا العمل، وذلك بفضل تشجيع بعض أساتذتي²⁰ للمضي في تحقيق هذا المخطوط مما قوى عزمي، ورغبتني في الإقدام على ما ذكرت، مؤملاً أن أعثر على نسخ أخرى لنفس المخطوط ولم أكد أقطع شوطاً طويلاً في تحقيق هذا المخطوط حتى اطلعت على تفسير البقاعي المسمى ب: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» الذي اعتمد فيه على كتاب ابن الزبير هذا في مناسبات السور خاصة اعتماداً كلياً فكان ذلك فتحاً لي في هذا البحث، ومعلماً جديداً استنرت به في هذا الطريق إذا اعتبرته نسخة ثانية للمخطوط.

■ وصف النسخة «أ»

النسخة الوحيدة التي علمت بوجودها لهذا المخطوط توجد بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع رقم 131 ك وتبتدئ من صفحة 83 إلى 169 أي 86 صفحة، وهو من الحجم الصغير كتب بخط نسخي دقيق، عدد أسطر الصفحة 21، ومعدل كلمات كل سطر، أربعة عشر كلمة.

والنسخة مبتورة من آخرها، حيث ينتهي كلام المؤلف بها عند ذكر مناسبة سورة القمر لسورة النجم بها خروم غير ضارة تسببت فيها الأرضة، وهي جيدة الخط، واضحة القراءة في عمومها، قليلة الأخطاء ملونة العناوين بالأحمر، وقد رمزت إليها بحرف «أ».

■ وصف النسخة «ب»

اعتمدت في تصحيح وتحقيق النسخة المذكورة، على تفسير البقاعي الآنف الذكر، الذي التزم فيه بالنقل الحرفي لنصوص كتاب ابن الزبير هذا، وذلك في معرض بيانه لمناسبة السور، وقد صرح باطلاعه على كتاب ابن الزبير ونقله عنه فقال:

« طالعت على ذلك كتاب العلامة أبي جعفر بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الأندلسي المعلم ب «البرهان في ترتيب سور القرآن» وهو لبيان تعقيب السورة والسورة فقط لا يتعرض فيه للآيات، وسأذكر في أول كل سورة ما قال بلفظه كما ستراه إن شاء الله تعالى»²¹.

19. تنتهي هذه النسخة عند ذكر مناسبة سورة القمر لسورة النجم.

20. منهم الأستاذ الجليل محمد المنوني، والأستاذ المشرف د. الهراس.

21. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (3/1).

واستنادا إلى ما ذكر، اعتبرت هذا النقل الملتزم به من طرف البقاعي الذي لم يتخلف في الكتاب كله²² بقوله في بداية كل نقل: «قال ابن الزبير» وبقوله «انتهى» عند نهاية النقل، اعتبرت ذلك نسخة ثانية ورمزت لها بحرف «ب».

ومما اطلعت عليه من نسخ كتاب البقاعي المخطوطة: نسخة بالخزانة الملكية تحمل رقم: 2695 في ثماني مجلدات جيدة النسخ والخط، وهي التي اعتمدت عليها في تصحيح وتتميم نص النسخة «أ» وثانية بالخزانة العامة تحمل رقم 181 ق في خمس مجلدات كثيرة الأخطاء رديئة الخط، لم استفد منها، وثالثة تحمل رقم: 1896 ك في مجلد ضخمة، تبتدئ من قوله تعالى «من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله أنني لكم منه نذير وبشير» من سورة هود، الآية (1-2) وتنتهي بقوله سبحانه: «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك» من سورة الإسراء الآية (110) وهي جيدة النسخ ملونة العناوين جميلة الخط، لكنها مبتورة الأول والآخر، وقد أغتنتي عنها نسخة الخزانة الملكية.

قيمة المخطوطتين

إذا كانت النسخة «أ» قد أسندها صاحبها إلى الإمام أبي جعفر بن الزبير حيث ابتدأت بالنص التالي: «قال الشيخ الفقيه الإمام المحدث المقرئ الأستاذ العلامة أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي رضي الله عنه وأرضاه: الحمد لله الحكيم العليم... إلخ فإننا - بسبب البتر الحاصل في آخرها- لم نتمكن من معرفة كاتبها ولا المصدر المنقول منه، ولا تاريخ كتابتها.

إلا أنها رغم ذلك فهي نسخة قيمة وهامة، كتبت بخط مشرق متأنق، أخطاؤها بسيرة محتملة نبهت عليا في مكانها وعليها بعض التصحيحات التي تدل على اهتمام كاتبها بها، وحرصه على سلامة نصها.

ومما أكد قيمتها وسلامتها موافقة النسخة «ب» لها في جملتها وتفصيلها، فليس بين النسختين إلا اختلافات طفيفة، باستثناء بعض ما أكلته الأرضة في النسخة «أ» وتمم أو صحح من نسخة «ب».

وإذا كان تاريخ نسخ المخطوطة «أ» مجهولا فإن النسخة «ب» التي اعتمدها البقاعي تعتبر نسخة قريبة من عهد المؤلف إذ أن البقاعي المولود سنة 809هـ لا يفصله عن تاريخ وفاة ابن الزبير إلا قرن من الزمان تقريبا.

22. إلا أنه تصرف في نص ابن الزبير أربع مرات، حيث جزأ النص واختصره في سورة البقرة وآل عمران، والمائدة والأنعام.

منهج التحقيق

لقد اتبعت في تحقيق نص كتاب البرهان المنهجية التالية:

- اعتمدت في التحقيق على نسختين وقابلت بينهما كلمة كلمة.
- ما وجدت من اختلاف بين النسختين ذكرته وبينت ما كان منها على صواب وما كان منها على خطأ.
- حصرت ما نقص من نسخة من النسخ بين قوسين وأشارت بالهامش إلى النسخة المنقوص منها. وأما ما اختلفا فيه فقد وضعته بين قوسين كذلك، وعلقت عليه بالهامش.
- قمت بتخريج الآيات بذكر سورها وأرقامها ووضعتهما بين قوسين وأثبتتهما مع النص لكثرتهم لأن كتاب «البرهان» قائم على جمع الآيات المتناسبة وربطها بما تقدمها من الآيات وما يتلوها معا.
- قمت بتصحيح بعض الآيات القرآنية التي وقع فيها الخطأ بالزيادة أو النقصان، أو لاشتباهاها بآية أخرى تقاربها في التركيب وأشارت إلى ذلك بالهامش.
- اعتمدت في تخريج الآيات على المصحف المطبوع بدار المصحف شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد برواية الإمام ورش.
- خرجت الأحاديث والآثار بإرجاعها إلى مصادرها مع ذكر المواضيع التي تندرج تحتها ورقم ترتيبها إن كان، كما علقت على بعض الأحاديث بما رأيته مفيدا.
- ترجمت للاعلام الغير المشهورين أو من رأيته أنه بحاجة إلى ترجمة، وأحلت على مصادر الترجمة مع ذكر الجزء والصفحة.
- شرحت بعض الألفاظ الصعبة بالرجوع إلى معاجم اللغة، وعلقت على ما رأيته التعليق عليه مفيدا للنص أو للقارئ.

دليل الإشارات والرموز

هذا وقد استعملت في التحقيق بعض الإشارات والرموز، اختصارا لبعض الكلمات التي تتردد كثيرا أثناء التحقيق أو لغرض اقتضاه التحقيق وهي كما يلي:

«أ» رمزت به لمخطوطة الخزانة العامة رقم 131 ك.

«ب» رمزت به لمخطوطة الخزانة الملكية المضمنة في تفسير البقاعي.

() حصرت بهما ما سقط من إحدى النسختين أو خالفت فيه إحداهما الأخرى، كما حصرت بهما اسم السورة ورقم الآية عقب كل آية.

إشارة إلى بداية صفحة جديدة من المخطوطة «أ» يقابلها في الهامش رقمها، كما استعملتها أيضا للفصل بين الرقم المشير إلى جزء الكتاب، والرقم المشير إلى صفحته وكذا للفصل بين التاريخين الهجري والميلادي.

س. اختصار كلمة «سفر».

ق. اختصار كلمة «قسم».

ج. اختصار كلمة «جزء».

ص. اختصار كلمة «صفحة».

ط. اختصار كلمة «طبعة».

ت. اختصار كلمة «المتوفى».

الجزء الثاني : تحقيق النص

مقدمة المؤلف :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

قال الشيخ الفقيه الإمام المحدث المقرئ الأستاذ العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي رضي الله عنه وأرضاه.

الحمد لله الحكيم العليم، العلي العظيم، ذي الفضل العميم، والجود القديم، الذي ابتداء الإنسان بالنعم فرادى ومثنى، وخلق في أحسن تقويم بعد كونه نقطة من مني تمنى، وخصه بمزيد التشريف والتكريم، وأهله لتلقي خطابه، وهياً لتحمل فرقانه العزيز وكتابه، وقد قال سبحانه فيه:

«وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم (الزخرف 4)، والصلاة والسلام على محمد نبيه المعظم، ورسوله المصطفى المكرم، المخصوص بالكتاب، والفتاح لأولي البصائر الباصرة، بما أيد به من الاعلام الباهرة، والحجج القاطعة القاهرة، مستغلق ذلك الباب، فأوضح السبيل للسالك، فلن يهلك على الله بعد بيانه إلا هالك، وأنى بسلوك ذلك الباب لمن حقت عليه كلمة العذاب، وقد قال سبحانه: «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم» (يس: 11).

وبعد، فإني اعتبرت قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)¹.

وتأمل ما أيد به صلى الله عليه وسلم من المعجزات سوى القرآن، فإذا بضروب لا يحصيها العد ولا تكاد تنحصر بالحد²، وقد قال عليه السلام: (وإنما كان الذي أوتيت

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم الحديث: 4981، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونسخ الملل بملته، رقم الحديث: 152.

2. وقد ألف أئمة الإسلام نوعاً من التأليف سموه الدلائل، جمعوا فيه المعجزات التي ظهرت على يديه صلى الله عليه وسلم مما يدل على نبوته وهذه المؤلفات كثيرة جداً منها:

دلائل النبوة للحري ت: 255هـ، دلائل النبوة لبي زرة الرازي ت: 264هـ وهو كتاب جليل، ودلائل النبوة لبي داود السجستاني ت: 274هـ ودلائل النبوة للطبراني ت: 360هـ، ودلائل النبوة لجعفر المستغفري ت: 432هـ.

ومن الكتب المطبوعة في الموضوع: دلائل النبوة لأبي نعيم الاصفهاني ت: 430هـ وأعلام النبوة للموردي ت: 450هـ، ودلائل النبوة للبيهقي ت: 458هـ. أنظر مصادر السيرة وتقويمها، فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، ص: 44.

وحيا) يشير إلى دليل القرآن وما خص به صلى الله عليه وسلم من ساطع ذلك البرهان، وما ذاك إلا لكون معجزته أوضح وأعظم وأهدى وأقوم، فإنها ضمت إلى الدلالة والشهادة إيضاح الطريق، وأعلمت بمآل كل فريق، ثم زادت ببقائها للمعتبر وشهادتها للمذكر، وقد اضطر من تأخر فيما سواها للخبر، وليس الخبر كالعيان³، فله ما أعظمها معجزة باقية مدى الدهور والأزمان، وللمشاهدة حال لا ينكر وفرق بين ما عرف بالمشاهدة وبين ما علم بالدليل، وحسبك سؤال نبي الله الخليل⁴، فالحمد لله الذي جمع لهذه الأمة الأمرين، وخصها بالاعتبارين، فمن معجزات نبينا عليه السلام المستوضح اعتبارا بالبيان، والمشاهد حسا للعيان.

وكما أن من تعامى في حياته صلى الله عليه وسلم عن نبع الماء من بين أصابعه⁵، وغير ذلك من معجزاته ملوم مدحور، ومأزور غير مأجور، فكذلك من تعامى عن آيات الكتاب وكأن لم يقرع أذنه قارع من هذا الباب، ولهذا نه تعالى بقوله: « أفلا يتدبرون القرآن » (النساء 82 ومحمد: 24) وبقوله تعالى: « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » (ص: 29) وجهات اعتباره كثيرة.

ولسلف هذه الأمة وخلفها مسالك في ذلك شهيرة، وإني تأملت منها بفضل الله وجوه ارتباطاته، وتلاحم سوره وآياته، إلى ما يلتحم مع هذا القبيل من عجائب شواهد التنزيل فعلقت في ذلك ما قدر، ثم قطعت بي قواطع الأيام عن تتميم رومي من ذلك وعملي، فاقصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على توجيه ترتيب السور، وإن لم أر في هذا الضرب شيئاً لمن تقدم وغبر، وإنما نذر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات، وذلك في الباب أوضح، ومجال الكلام فيه أفسح وأسرح⁶.

3. جاء في الحديث النبوي بلفظ: (ليس الخبر كالمعاينة) أخرجه أحمد والطبراني وابن منيع، وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، كما أخرجه غيرهم وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ولكن للعيان لطيف معنى *** من أجله سأل المعاينة الكليم

أنظر المقاصد الحسنة للإمام السخاوي ص: 351 والدرر المنترة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ص: 154.

4. إشارة إلى قوله تبارك وتعالى: (رب أرني كيف تحيي الموتى) الآية، البقرة: 259.

5. أخبار نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم متواترة، قال القرطبي، (تكررت منه صلى الله عليه وسلم في عدة مواطن في مشاهد عظيمة وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي)، وقال عياض في الشفا: (قصة نبع الماء وتكثير الطعام رواها الثقة والعدد الكثير عن الجمع الغفير عن العدد الكثير من الصحابة)، أنظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص: 136، والشفا: (285/1).

6. شهد بالسبق للمصنف في هذا الباب الإمام بدر الدين الزركشي ت: 764هـ. ثم قال: “ ومن أكثر منه (أي من ارتباط الآيات والسور ببعضها) الإمام فخر الدين الرازي، ت: 606هـ. وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط “. أنظر: البرهان في علوم القرآن 1 35.

أما تعلق السور على ما ترتب في الإمام⁷، واتفق عليه الصحابة الأعلام فمما لم يتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم، فإن صلى أحد بعد هذه الإقامة، أو ائتم فمرتبط حتما بهذه الإمامة، فإن انصف فلا بد أن ينشد إذعانا للحق وإنابة⁸.

فلو قبل مبكاها بكيت صباية

ولما كمل لي بفضل الله الأمل من جليل هذا العمل، غريبا في بابه، رفيعا في نصابه، موفى التحرير، معلوم النظر، تحصل بمطالعة العلم اليقين، ويفصح بشهادته أن العاقبة للمتقين، والله ينفع فيه بالنية من مرضاته الأمنية بمنه ويمنه.

7. أي المصحف الإمام الذي أجمع عليه الصحابة وكتب في عهد عثمان رضي الله عنه، ووزعت نسخ منه على الأمصار، واعتمدته الأمة الإسلامية جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا.

8. هذا الشطر لعدي بن الرقاع العاملي الذي عاش في العصر الإسلامي وهو شاعر محسن مجيد، كان ينزل الشام توفي سنة 95هـ.

وتمة لمعنى هذا الشطر يقول:

.....***يسعدي شفيت النفس قبل التندم.

ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا***بكاه فقلت الفضل للمتقدم.

أنظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص: 622.

باب التعريف بترتيب السور

وهل ذلك بتوقيف من الشارع صلى الله عليه وسلم أم هو من فعل الصحابة؟

اعلم أولاً أن ترتيب الآيات في سورها وقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين⁹، وإنما اختلف في ترتيب السور على ما هي عليه وكما ثبت في الإمام مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي بعث بنسخة إلى الآفاق¹⁰، وأطبقت الصحابة على موافقة عثمان في ترتيب سور وعمله فيه، فذهب مالك¹¹، والقاضي أبو بكر بن الطيب¹². فيما اعتمده واستقر عليه مذهبه من قوله، والجمهور من العلماء، إلى أن ترتيب السور إنما وقع باجتهاد الصحابة، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوض ذلك إلى أمته بعده، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن ذلك إنما وقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره، ولكل من الطائفتين جهات تعلق، وكلا القولين والحمد لله لا يقدح في الدين، ولا يثمر إلا اليقين، فأقول مستعيناً بالله سبحانه:

اعلم أن الأمر في ذلك كيفما قدر فلا بد من رعي التناسب، والتفات التواصل والتجاذب، فإن كان بتوقيف منه صلى الله عليه وسلم، فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم، وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده فقد أعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه وفهمه، والعارفون بأسباب نزول

9. ما ذهب إليه المؤلف لم يخالفه فيه أحد بل كان قبله وبعده موضع تسليم واتفق وذلك لأمرين اثنين:

أ. لأنه نقل الكافة عن الكافة إلى عهد نزول الوحي، فلم يحدث أي خلاف في هذا.

ب. النصوص الواردة عن الصحابة الذين شاهدوا الوحي والتنزيل وعاصروه، تدعم هذا وتؤيده، وفي هذا يقول مكِّي بن أبي طالب: "ترتيب الآيات في السور هو من النبي صلى الله عليه وسلم"، وقال الباقلاني: "ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم"، وقال الزركشي: "فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكسها".

والنصوص الواردة في هذا الباب مترادفة كما قال السيوطي وساق طائفة منها أنظر: البرهان: (256/1)، الاتقان: (63/1)، والمدخل لعلوم القرآن والتفسير: ص: 107.

10. أما عدد المصاحف التي نسخت في عهد عثمان وأرسل بها على الآفاق فيرى أكثر العلماء أنها أربعة، بعث واحداً إلى الكوفة وواحداً إلى البصرة، وواحداً إلى الشام وأبقى في المدينة واحداً.

ويرى أبو حاتم السجستاني أن عثمان كتب سبع نسخ وانفذها إلى مكة والبصرة والكوفة والشام واليمن والبحرين وترك عند أهل المدينة واحدة. أنظر فضائل القرآن لابن كثير الملحق بتفسيره: 445/7 والاتقان: 60/1.

11. مالك بن أنس صاحب الموطأ، وله كتاب: "التفسير لغريب القرآن"، ت: 179هـ أنظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، ص: 27 وترتيب المدارك: 104/1.

12. هو أبو بكر بن الطيب المعروف بالباقلاني صاحب إمعاز القرآن، ونكت الانتصار لنقل القرآن ت: 403هـ أنظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: 269/4، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: 168.

الآيات، ومواقع الكلمات، وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا قول مالك رضي الله عنه في حكاية بعضهم عنه، ومالك أحد القائلين بأن ترتيب السر اجتهاد من المسلمين كما تقدم عنه، فكيف ما دار الأمر، فمنه صلى الله عليه وسلم عرف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر، فإذا إنما الخلاف هل ذلك بتوقيف قولي أو بمجرد استناد فعلي بحيث بقي لهم فيه مجال للنظر؟ فهذا موضع الخلاف؟¹³

فإن قيل إذا كانوا قد سمعوا منه كما استقر عليه ترتيبه ففيم إذا عملوا الأنظار، وأي حال بقي لهم بعد الاختيار؟ فالجواب أنا قد روينا في صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح بالبقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران.... الحديث»¹⁴.

فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم ربما فعل هذا إرادة التوسعة على الأمة، وبياناً لجليل تلك النعمة، كان محلاً للتوقف حتى استقر النظر على رعي من كان من فعله الأكثر فهذا محل اجتهادهم في المسألة والله أعلم.

ثم يشهد لما بنينا كتابنا هذا عليه ما روينا في مصنف ابن أبي شيبة عن أناس من أهل المدينة قال الحكم: أرى منهم أبا جعفر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، فأما سورة الجمعة فيبشر بها المؤمنين ويحرضهم، وأما سورة المنافقين فيؤيس بها المنافقون ويوبخهم¹⁵.

وحكى الخطابي¹⁶ أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن، وضعوا سورة القدر عقيب العلق، واستدلوا بذلك على أن المراد بها الكتابة في قوله: «إنا أنزلناه في ليلة القدر» (القدر: 1)

13. سبق تفصيل ذلك في المبحث الثاني من هذا الكتاب ص: 43 وما بعدها.

14. أخرجه أحمد في مسنده 397/5 وقارن ب: 384، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم الحديث: 772.

15. أما قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، فقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما.

أنظر: صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في يوم الجمعة، رقم الحديث: 879. وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وأما بسياقة ابن أبي شيبة التي ذكرها المصنف فأخرجه سعيد بن منصور، والطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة قال: كان صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين، كما أخرج هذا الحديث غير المذكورين أنظر الدر المنثور: 215/6 و 222.

16. هو الإمام العلامة أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستي أبو سليمان فقيه محدث لغوي مصنف كبير، له كتب كثيرة وآراء سديدة، من آثاره المطبوعة: معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، إصلاح غلط المحدثين، غريب الحديث. وله شرح على البخاري وكتب أخرى توفي سنة: 388هـ. قال الذهبي: (كان ثقة مثبته من أوعية العلم)، أنظر: تذكرة الحفاظ (1018/3).

إشارة إلى قوله: اقرأ، قال القاضي أبو بكر بن العربي¹⁷: «وهذا بديع جدا»، قلت: ومن ظن ممن اعتمد القول بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة أنهم لم يراعوا في ذلك التناسب والاشتباه فقد سقطت مخاطبته، وإلا فما المرامي وترتيب النزول غير ملحوظ في ذلك بالقطع؟ بل هذا معلوم في ترتيب أي القرآن، الواقع ترتيبها بأمره عليه السلام وتوقيفه بغير خلاف، ألا ترى أن سورة البقرة من المدني وقد تقدمت سور القرآن بتوقيفه عليه السلام في الصحيح المقطوع به، وتقدم المدني على المكي في ترتيب السور والآي كثير جدا، فإذا سقط تعلق الضمان بترتيب النزول لم يبق إلا رعي التناسب والاشتباه، وارتباط النظائر والأشباه.

وتدبر بعقلك وضوح ذلك في عدة سور كالأنفال وبراءة، والطلاق والتحريم، والتكوير والانفطار، والضحي وألم نشرح، والفيل وقريش، والمعوذتين إلى غير هذه السور مما لا يتوقف في وضوحه من له أدنى نظر.

وقد (مال)¹⁸ القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية¹⁹ رحمه الله في ترتيب السور إلى القول بالتفصيل²⁰، وهو أن كثيرا من سور القرآن قد كان علم ترتيبها في أيامه صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصل، وأشار كلامه إلى أن ما سوى ذلك يمكن أن يكون عليه السلام فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، ولم يقطع القاضي أبو محمد في هذا القسم الثاني بشيء²¹.

17. هو محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي المعافري الإشبيلي المالكي ولد في إشبيلية ورحل إلى المشرق وعاد بعلم كثير وتفنن في علوم كثيرة وتولى القضاء. قال ابن بشكوال: «ختم علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها» ترك ثروة علمية كبيرة في مصنفات جليلة تدل على بلوغه رتبة الاجتهاد منها: أحكام القرآن، وعارضة الأحوذ في شرح الترمذي، والعواصم من القواصم، والقبس شرح موطأ مالك بن أنس، ومسائل الخلاف في عشرين مجلدا، وقانون التأويل وغيرها من الكتب، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وحسن العهد وثبات الود، توفي سنة 543هـ خارج فاس ونقل إليها ودفن خارج باب المحروق. أنظر وفيات الأعيان: 296/4. وتاريخ قضاة الأندلس: ص: 105، نفح الطيب 25/2 والصلة: 590/2. الاعلام 230/6. ازدهار الرياض للمقري: 62/3، فهرسة ابن خير ص: 54. أحكام صنعة الكلام للكلاعي ص: 191. مطمح الأنفس للضببي: 369. الغنية القاضي عياض ص: 133، الخريدة للعماد الأصفاني: 296/2.

18. في النسختين قال: (والسياق يقتضي ما أثبتناه).

19. هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي أبو محمد القاضي من بيت علم وفضل وكرم ونبل، كان فقيها نبيها مفسرا أدبيا شاعرا لغويا أثنى عليه المصنف في كتابه الصلة وقال مولده 481هـ. وتوفي في 25 رمضان 341هـ بمدينة لورقة، ومن أشهر مصنفاته المحرر الوجيز وهو جليل الفائدة عظيم العائدة أنظر في ترجمته: تاريخ قضاة الأندلس: ص: 109، المعجم في أصحاب الصدي في ص: 269، والاعلام: 282/3.

20. مابن القوسين زيادة ليلتئم الكلام.

21. أنظر: المحرر الوجيز: 35/1.

وظواهر الآثار شاهدة بصحة ما ذهب إليه في أكثر ما نُص عليه، ثم يبقى بعد قليل من السور يمكن فيها جري الخلاف أو يكون وقع، وإذا كان مستند المسألة النقل لم يصعب خلاف غير أهله، على أن ما مهدناه من المراعاة في الترتيب حاصل لا محالة على كل قول، ولنورد هنا بعض ما يشهد بظاهره من الآثار لما قاله القاضي أبو محمد على ما نطنا به فمن ذلك:

قوله صلى الله عليه وسلم: (اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران)²². في حديث أخرجه مسلم وغيره، وأخرج أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران)²³.

وفي مصنف ابن أبي شيبة عن معبد بن خالد²⁴. قال: (صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبع الطوال في ركعة)²⁵، وفيه أنه عليه السلام (كان يجمع المفصل في ركعة)²⁶.

وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن زيد قال سمعت عبد الله بن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: (إنهم من العتاق الأولى، وهن من تلادى)²⁷، فذكرنا نسقا كما استقر ترتيبها.

22. أخرجه مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي ونصه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما... الحديث) أنظر: 553/1 كما أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن وأحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي في سننه أنظر الدر المنثور: 18/1.

23. أخرجه مسلم: 554/1 والترمذي: الحديث رقم: 3045 المجلد الرابع من حديث النواس بن سمعان ولفظه (يأتي القرآن وأهله الذين يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران قال نواس: (و ضرب لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال يأتیان كأنهما غيايتان وبينهما شرق أو كأنهما غمامتان سوداوان، أو كأنهما ظلة من طير صواف تجادلان عن صاحبهما) كما أخرجه أحمد وغيرهم. أنظر الدر المنثور: 18/1.

24. معبد بن خالد الجهنني أبو زرعة قديم الإسلام كان من الذين حملوا ألوية جهينة يوم الفتح توفي سنة 72هـ، وله رواية أنظر: تجريد أساء الصحابة 84/2 والاصابة: 439/3.

25. وفيه حدثنا علي بن هشام ووکیع ابن أبي لیلی عن عبد الكريم عن معبد بن خالد قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبع الطوال في ركعة، إلا أن وكيعا قال: قرأ. وأنظر أيضا في مصنف عبد الرزاق عن ابن جريج عن عبد الكريم عن رجل قال: (أخبرني بعض أهل النبي صلى الله عليه وسلم...) فساق الحديث وفيه قرأ بالسبع الطوال في ركعة 147/2.

26. ولفظه عن عبد الله بن شفيق العقيلي قال: قلت لعائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع بين السور في ركعة قالت: نعم المفصل، المصنف: 368/1، كما أخرجه الإمام أحمد: 204/5.

والمفصل هو أواخر القرآن الكريم سمي بذلك لكثرة الفصول بين السور بالبسملة وقيل لقلة المنسوخ منه ولهذا سمي بالمحكم أيضا وفي تحديد أوله أقوال صحح أن أوله سورة الحجرات وذكر السيوطي الخلاف في أوله على إثني عشر قولاً. الالتقان: 180/1.

27. أنظر البخاري 388/8 و 435 و 39/9، والعتاق جمع عتيق وهو القديم أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة والالتقان، وقوله هن من تلادى أي مما حفظ قديما، والتلاد: قديم الملك وهو بخلاف الطارف ولفظ البخاري في المواضع الثلاثة المشار غليها (من العتاق الأول)، ولا يخفى أن السبع الطوال هي البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، والسابعة أما الأنفال وبراءة، لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وأما يونس، وأما الكهف. أنظر الالتقان ج: 1 ص: 179.

وفي صحيح البخاري أيضا عن عائشة (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس... الحديث)²⁸.

وفي المصنف²⁹ عن عمر أنه قرأ في ركعة واحدة ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ولإيلاف قريش، وروي أنهما في مصحف أبي³⁰ غير مفصول بينهما بالبسملة³¹.

قلت والوارد من هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن كبار الصحابة قبل كتب المصحف كثير ومروي من طرق شتى، وفي أحوال مختلفة، فإن قيل فقد كان يجب على ما أشرت إليه أن يكون القول بالتوقيف أكثر وأشهر، والأمر على خلاف ذلك، فإن مالكا رحمه الله، والقاضي أبا بكر من المتكلمين وأكثر أهل العلم قائلون بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة وقد مر³².

فالجواب أن الآثار المستفيضة والمقطوع به منها، إنما ورد ذلك في الأكثر ولم يرد فيما بين كل سورتين، ولا شك أنه إذا بقي بعض ذلك لاجتهادهم ولو فيما بين سورتين³³، جرى المقول المشهور عليه وصح اعتماده، ثم أن الآثار إنما وقعت بفعل، لا بقول وأمر يحصل منه التوقيف. فإذا قد آل الأمر إلى أن تلك الآثار هي مستند اجتهادهم وأصل اتفاقهم، وهذا أراد مالك رحمه الله بقوله: وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا القدر كاف في المقصود، والحمد لله رب العالمين.

28. أخرجه الإمام أحمد في مسنده: 116/6 و 154 والبخاري في صحيحه 62/9، وأبو داود في سننه رقم 5056 والترمذي في جامعه: 231/4 والنسائي في اليوم والليلة رقم: 788، وابن ماجه رقم: 3875، وله طرق لكن مداره على ابن شهاب الزهري عن عروة عن عائشة، وهو في مسلم من طريق مالك عن ابن شهاب بأطول من سياقه في الكتب المتقدمة.

29. يقصد مصنف ابن أبي شيبة.

30. أبي بن كعب ابن قيس بن عبيد أبو المنذر الأنصاري رضي الله عنه أقرأ الأمة عرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ النبي عليه خاصة بأمر من الله سبحانه وتعالى وتلقى عنه القراءة عدد من الصحابة وجمع من التابعين، شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا وما بعدها كلها ومناقبه كثيرة وكان يحتم القرآن في ثمان، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (ليهلك العلم أب المنذر) وهو أحد أربعة أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلقوا عنهم القرآن قال الذهبي: (وهو أقرأ من أبي بكر وعمر وفضله في هذا الباب شهير كثير) انظر: معرفة القراء الكبار للذهبي 32/1.

31. قال القرطبي في تفسيره: 200/10 قيل أن هذه السورة (لإيلاف قريش) متصلة بالتي قبلها في المعنى يقول أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش أي لتألف أو لتتفق أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتها، وعن عد السورتين واحدة أبي بن كعب ولا فصل بينهما في مصحفه وقال سفيان بن عيينة: (كان لنا إمام لا يفصل بينهما ويقرأهما معا)، وقال عمر بن ميمون الاودي: (صلينا المغرب خلف عمر رضي الله عنه فقرأ في الأولى والثين والزيتون وفي الثانية ألم تر كيف فعل ربك ولإيلاف قريش، وقال القراء هذه السورة (لإيلاف قريش) متصلة بالسورة الأولى (ألم تر)).

32. نقل السيوطي في الاتقان وقال كل مذهب واختار ما ذهب إليه البيهقي من أن ترتيب جميع سور القرآن توقفي إلا الأنفال وبراءة. الاتقان: 179/1.

33. وهو مذهب البيهقي والسيوطي اللذين يريان بأن ترتيب السور كلها توقفي إلا سورتي الأنفال وبراءة. الاتقان: 179/1.

سورة أم القرآن³⁴

قد ذكر الناس كيفية تضمينها مجملًا لما تفصل في الكتاب العزيز بجملته³⁵. وهو أوضح وجه في تقدمها سوره الكريمة. ثم هي مما يلزم المسلمين حفظه، ولا بد للمصلين من

34. سأقتصر في تعليقي على هذه السورة على توضيح أوجه التناسب التالية:

أ. تسمية السورة: تسمى هذه السورة بأم القرآن، وهذا الاسم من أبرز أسماؤها وقد وردت أحاديث كثيرة في شأنها منها: - ما أخرجه الترمذي في جامعه (132/4) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، وقال عنه: حسن صحيح: - ما أخرجه مالك في الموطأ 106/1 ومسلم في صحيحه 9/2، وأحمد في مسنده 250/2 وغيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج». أنظر تخريج الحديث في فضائل القرآن للنسائي ص: 74. - ومنها قول أبي هريرة في البخاري 251/2 «إن لم تزد على أم القرآن أجزاء». ولهذا جوز العلماء تسميتها بأم القرآن، وقد كرهه أنس بن مالك وابن سيرين، والأحاديث الثابتة ترد قولهما. أنظر المحرر الوجيز 62/1، وتفسير القرطبي 111/1.

وتسميتها بأم القرآن لأن أم الشيء ابتداءه وأصله، ومنه سميت مكة أم القرى، وقيل سميت أم القرآن لاشتغالها عن المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى والتعبد بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وعلى ما فيها من ذكر الذات والصفات والفعل واشتغالها على ذكر المبدأ والمعاد والمعاش.

وللسورة أساء أخرى منها: أم الكتاب، السبع المثاني، والكنز، والشافية، والكافية، والحمد، والحمد لله، والأساس، والشكر، وغيرها، وقد وردت في هذه الأسماء أحاديث أو آثار. أنظر البخاري: 155/8، 156 وتفسير القرطبي 111/1.

ب. فضلها: وردت أحاديث كثيرة تبين فضلها وتعلي شأنها وتحض على التحصن بها، وقد وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها أعظم سورة في القرآن كما جاء في حديث أبي سعيد بن الملقى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال ألم يقل الله «استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» ثم قال لي لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، أخرجه الشيخان وأحمد وغيرهم.

ج. مناسبتها: جاءت هذه السورة على قصرها متصدرة للكتاب العزيز، وقد راح العلماء والمفسرون يتلمسون سر افتتاح القرآن بها حتى صارت كالعنوان له. قال الحسن البصري: إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة وبني الإمام فخر الرازي على ذلك رأيه - عند تفسيره لسورة الفاتحة - فقال: المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات وإثبات القضاء والقدر. فقله: «الحمد لله رب العالمين» يدل على الإلهيات. وقوله «مالك يوم الدين» يدل على نفى الجبر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره، وقوله «إهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة، يدل على قضاء الله وعلى النبوات.

ومع اشتغال هذه السورة على المطالب الأربعة التي هي المقصد الأعظم من القرآن، فقد اشتملت على الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال.

يقول السيوطي: أحسن البلاغة عند البيانين هو أن يتأنق في أول الكلام لأنه ما يقرع السمع، فإن كان محرراً قبل السامع قبل الكلام ووعاه، وإلا أعرض وإن كان في نهاية الحسن. ثم قال: ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله، والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن. معترك الأقربان 74/1، 75.

35. يشير المؤلف إلى أن المفسرين تعرضوا لبيان مدلول سورة الفاتحة، وتضمنها لمقاصد القرآن الكريم، وقلما تجد تفسيراً يخلو من ذلك، وقد فصل هذه المقاصد بكلام نفيس الإمام الغزالي في كتابه جواهر البيان ص: 38. كما أفاض ابن القيم في كتابه القيم "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" في تجلية أسرار هذه السورة التي جعلها أساس كتابه هذا الذي يقع في ثلاث مجلدات.

قراءتها³⁶، ثم افتتاحها بحمد الله³⁷ سبحانه. وقد شرع في ابتداءات الأمور، وأوضح الشرع فضل ذلك³⁸ وأخذ به كل خطيب ومتكلم، وفيها تعقيب الحمد له سبحانه بذكر صفاته الحسنی والإشارة إلى إرسال الرسل في قوله «إهدنا» وقوله «صراط الذين أنعمت عليهم»، وقد قال تعالى: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» (الأنعام: 90) وذكر افتراق الخلق بذكر المهتدين، وذكر المغضوب عليهم ولا الضالين، وأن ملاك الهدى بيده، «وإياك نستعين» وهذا كله أشفى شيء في بيان التقديم.

36. للحديث الذي أخرجه الشيخان وأصحاب السنن من حديث عبادة ابن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» أنظر فيض القدير: 429/6.

37. لقد تساءل المؤلف - رحمه الله - عن وجه افتتاح السور الخمس وهي سورة أم القرآن وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر، بقوله: «الحمد لله» واختصاصها بذلك مع تساوي السور كلها في استقلالها بأنفسها وامتياز بعضها من بعض. فأجاب بقوله: (أما أم القرآن فهي أول السور ومطلع القرآن العظيم بالترتيب الثابت، فافتتاحه بحمده تعالى بين، وأما سورة الأنعام فمشيرة إلى إبطال مذهب الثنوية ومن قال بمثل قولهم ممن جعل الأفعال بين فاعلين... وإذ كانت هذه السور مشيرة إلى ما ذكر وانفردت بذلك فافتتاحه بحمده تعالى بين،... وأما سورة الكهف فكذلك لبنائها على قصة أصحاب الكهف وذكر ذي القرنين حسبما ألفت يهود لسائلهم من كفار قريش وذلك مما لم يتكرر في القرآن فافتتحت بحمده تعالى وذلك بين. وأما سورة سبأ فإن قصة سبأ لم يرد فيها أيضاً في غير هذه السور إلا الإيماء الوارد في سورة النمل. «وجئتك من سبأ بنو يقين» (21)، فلما تضمنت سورة سبأ من هذا ما تضمنت ومن قصص داود وسليمان عليهما السلام وما منحهما الله سبحانه وتعالى من تسخير الجبال والطير والجن والإلانة الحديد، ولم يجتمع مثل هذا التعريف في سواها، افتتحتها سبحانه بحمده وانفراده بملك السموات والأرض وما فيها، وأنه أهل الحمد في الدنيا والآخرة. وأما سورة فاطر ففيها التعريف بخلق الملائكة عليهم السلام وبجعلهم رسلاً أولي أجنحة: إلى خلق السموات والأرض وإمساكهما أن تزولا وانفراده بذلك، ولم يقع هذا التعريف في غيرها من سور القرآن فناسب هذه المقاصد التي لم ترد في غير هذه السور، فناسب ما افتتحت به ولا يلزم على هذا اطراد ذلك في كل سورة انفردت بحكم أو تعريف ليس في غيرها، بل جواز ذلك منسحب على الجميع، واختصاص هذه السور بذلك واضح لانفرادها بها ذكرناه. أنظر ملاك التأويل: 150/1 و 154 وما بعدها.

38. لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع» أنظر طرق تخريج الحديث والكلام عليه في «عمل اليوم والليلة» ص: 494.

سورة البقرة³⁹

لما قال العبد بتوفيق ربه «إهدنا الصراط المستقيم» قيل له: «ذلك الكتاب لا ريب فيه» (آية: 2) هو مطلوبك وفيه أربك، وهو الصراط المستقيم «هدى للمتقين» (آية: 2) القائلين اهدنا الصراط المستقيم والخائفين من حال الفريقين المغضوب عليهم والضالين، فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربهم وتقواه بامثال أمره ونهيه، ثم أشير من الأعمال إلى ما يستحق سائرهما من قبلي البدنيات والماليات بيانا للصراط المستقيم فقليل في وصف المتقين أنهم «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» (البقرة: آية: 3) وحصل من هذا حصر الفعل وترك الضابطين لجميع الأعمال كيف ما تشعبت كما في مهد التفسير عند ضم ما ورد هنا إلى قوله: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» (العنكبوت: 45) ووقع الفعل صريحا والترك إيحاءا للتناسب المبين حيث ذكر، ثم بين لهم قدر النعمة عليهم في طلب الهدى من الله في قولهم «اهدنا» قيل: «إن الذين كفروا...» الآية (البقرة: آية: 6) ليعلموا أن الهدى من عنده فيلحوا في الطلب ويتبرؤوا من ادعاء حول أو قوة.

ثم نبهوا على الإخلاص، وأن يكون قولهم «اهدنا الصراط» صادرا عن يقين وإخلاص حتى لا يشبهوا من يقول: «أما بالله وباليوم الآخر وما هو بمؤمنين» (البقرة: آية: 8)، وبسط لهم حال هؤلاء في ثلاث عشرة آية ما يوضح لهم طريق الهدى الواضح، إذ حذروا من شكك هؤلاء وحيرتهم فقالوا: اهدنا عن يقين وإخلاص، ثم أعقب ذلك الدلائل

39. هذه السورة مدنية وهي أول ما نزل بالمدينة وآياتها مائتان وسبع وثمانون آية وقيل ست وثمانون وقيل خمس وثمانون. وهي من أعظم السور القرآنية وأطولها، نزلت في أزمان متباعدة، فقد صح أن قوله تعالى: "واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله" مع آيات الربا من آخر القرآن نزولا. أنظر: الفتح الباري: 205/8. وهي مليئة بآيات الأحكام والتشريع، ولعظيم فقهها أقام عبد الله بن عمر ثمانين سنين في تعلمها، ولهذا سميت قسطا القرآن، ووصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها سنام القرآن. أنظر موارد الظمان على صحيح ابن حبان الحديث رقم: 1727.

ومما يمكن تأكيده وإبرازه في الربط بين هذه السورة وسورة الفاتحة هو أن فاتحة الكتاب لما علمت المؤمنين أن يسألوا الله عز وجل سلوك الطريق المستقيم ويجنبهم طريق المغضوب عليهم والضالين، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى كما جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه الترمذي في جامعه 76/4 عن عدي بن حاتم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالال، جاءت هذه السورة مفصلة لحال وتعتت المغضوب عليهم، وكان أكثر الحديث فيها عن اليهود- الذين ذكروا في سورة الفاتحة قبل النصارى الضلال- معالجة كبريات القضايا التي عرضت لأنبيا بني إسرائيل، وأبانت عن مستوى تفكير هؤلاء القول وقصور نظرهم، ولهذا سميت باسم حدث بارز من أحداثهم، وفندت دعواهم الصلة بإبراهيم أبي الأنبياء وصاحب الحنيفية السمحة، لتبين الطريق المستقيم الذي سلكه هو ومن جاء به من المؤمنين، وليكون جليا للساثرين عليه الذين وصفهم الله عز وجل بقوله "صراط الذين أنعمت عليهم" ومن أخص خصائصهم الإيمان بالغيب والتماس الهداية من الله تعالى. وهذا كله بيان وتفصيل لذلك الإجمال الوارد في سورة الفاتحة وتنبه على خط الانحراف الذي ألحق غضب الله ببني إسرائيل والله أعلم.

المشاهدة من جعل الأرض فراشا والسماء بناء وإنزال الماء وإخراج النبات، وذلك كله أمر مشاهد يصل إليه كل عاقل بأول وهلة.

ثم أعقب بابتداء الخلق وهو قوله تعالى: « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » (البقرة: آية: 30) وذلك كله مبين لقوله « رب العالمين ملك يوم الدين » إذ من البداية تعلم العودة لمن تدبر، وقد نبه تعالى بتكرار النبات.

ثم ذكر أحوال بني إسرائيل وإمهالهم على مرتكباتهم ومعاملتهم بالعفو والإقالة وذلك مبين سعة رحمته، وأعلم تعالى أن أفعالهم تلك مما أعقبهم أن « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » (البقرة: آية: 61) تحذيرا لمن طلب سلوك الطريق المستقيم من حالهم، وإعلاما لعباده أن المتقين المستجاب لهم عند قولهم « اهدنا » ليسوا في شيء من ذلك لأنهم قالوا اهدنا عن يقين وإخلاص متبرين من المساويء.

ثم أعقب تعالى تفصيل أحوال هؤلاء بقوله: « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » (البقرة: آية: 124) ليبين أحوال المصطفى من أهل الصراط المستقيم فأنبأ تعالى بحال إبراهيم، وإتمام ما ابتلاه به من غير توقف ولا بحث عن علة، وهي أسنى أحوال العباد، وفي طرف من حال من قدم من بين إسرائيل وهذا الموضع مما يعضد ما ظهر في قصة أمر بني إسرائيل في ذبح البقرة من وجوه الحكمة، فتوقفوا وشددوا بعد إسائتهم الأدب مع نبيهم فأورثهم ذلك نكالا وبعدا.

فالصراط المستقيم حال إبراهيم عليه السلام ومن ذكر من الأنبياء والرسل « أولئك الذين هدى الله » (الأنعام: آية: 90) وهم المنعم عليهم.

ثم أعقب ذلك بما نسبوا لإبراهيم وبنيه المصطفين بعد أن بين حاله فقال: « أم يقولون إن إبراهيم... الآية (البقرة: آية: 140) وبين فساد اليهودية والنصرانية وبرأ نبيه إبراهيم والأنبياء عن ذلك، وأوضح أن الصراط المستقيم هو ما كانوا عليه لا اليهودية ولا النصرانية.

ثم ذكرهم بوحدانيته تعالى « وإلهكم إله واحد » (البقرة: آية: 163) ثم نبه على الاعتبار ودلائل التوحيد، وبين حال من اعتمد سواه جل وتعالى فقال: « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا » (البقرة: آية: 166) وبين سوء حال المشركين وأنهم لا حقون باليهود والنصارى في انحرافهم عن الصراط المستقيم وحيدتهم عن الجادة، ووقع تنبيه هؤلاء بدون ما تضمنه تنبيه بني إسرائيل من التفرع والتوبيخ لفرقان ما بينهم لأن كفر هؤلاء تعنيت بعد مشاهدة الآيات « وجعلنا قلوبهم قاسية » (المائدة: آية: 13).

ومتى بين شيء في الكتاب العزيز من أحوال النصارى فليس على ما ورد مثله في (بني إسرائيل)⁴⁰ لما ذكر، وخطاب مشركي العرب فيما أشير إليه دون خطاب الفريقين إذ قد تقدم لهم (ذكر)⁴¹ ما لم يتقدم للعرب، وبشروا في كتبهم وليس لمشركي العرب (مثل ذلك)⁴²، والزيغ عن الهدى شامل للكل، وليسوا في شيء من الصراط المستقيم، مع أن أسوأ الأحوال حال من أضله الله (على علم)⁴³... (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) (البقرة: آية: 176).

وهنا انتهى ذكر ما حذر منه ونهى عنه من أراد سلوك الصراط المستقيم، وبيان حال من حاد عنه وتنكبه، وظن أنه على شيء، وضم مفترق أصناف الزائغين في أصناف ثلاثة وهم: اليهود، والنصارى، وأهل الشرك، وبهم يلحق سائر من تنكب فيلحق باليهود منافقو أمتنا ممن ارتاب بعد إظهار إيمانه وفعل أفاعيلهم من المكر والخديعة والاستهزاء، ويلحق بالنصارى من اتصف بأحوالهم، وبالمشركين من جعل لله ندا (أو اعتقد)⁴⁴. فعلا لغيره تعالى⁴⁵ على غير طريقة الكسب، والمجوس لاحقون بأهل⁴⁶ الشرك، والشرك أكثر هذه الطرق السيئة تشعبا، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «الشرك في أمتي أخفى من ذبيب النمل»⁴⁷، ومن فعل أفعال من ذكر ولم ينته به الأمر إلى مفارقة دينه والخروج في شيء من اعتقاده خفي عليه أن يكون ذلك وسيلة إلى اللحق بمن تشبه وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا»⁴⁸. إلى أشباه هذا من الأحاديث.

ثم ذكر تعالى من أول آية: «ليس البر» (البقرة: آية: 177) ما لزم المتقين لما بين لهم ما هو خروج عن الصراط المستقيم، وحذروا منها عقب ذكر ما يلزمهم، فابتدئ من هناك بذكر الأحكام إلى قوله: «آمن الرسول» خاتمة السور، وفصل لهم كثيرا مما كلفوه، فذكر الإيثار

40. ب: اليهود أي أن كفرهم تعنت.

41. ساقطة من: ب

42. ساقطة من: أ

43. ب: بعد العلم، وسقطت الآية "وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد".

44. ب: واعتقد

45. ب: ساقطة

46. ب: لأهل

47. الترمذي وأبو يعلى وابن عدي وابن حبان والطبراني والبخاري وأبو نعيم في الحلية وقال الحاكم صحيح وضعفه الذهبي وغيره، أنظر فيض القدير 172/4

48. تمام الحديث (ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)، أخرجه أحمد في مسنده والبخاري في صحيحه 89/1. ومسلم في صحيحه 78/1. وأصحاب السنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وفصل تفصيلاً لم يتقدم، وأعقب بذكر الصدقة وموقعها على التفصيل، وفي ذكر إتيان المال عقب الإيمان إشعاراً بما فيه السلامة من فتنة المال «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» (التغابن: آية: 15) وإشارة من الآية إلى أنه يبعد حب المال بل يستحيل وجوده ممن أحب الله سبحانه، وأن محبة الله تعالى تهون عليه كل شيء «لا تمدن عينيك... إلى لا نسألك رزقا» (طه: 131-132)، ثم ذكر الزكاة والصيام والحج والجهاد إلى غير ذلك من الأحكام كالنكاح والطلاق والعدد والحيض والرضاع والحدود والربا والبيع إلى ما تخلل هذه الآيات من تفاصيل الأحكام ومجملها، وقدم منها الوفاء بالعهد والصبر، لأن ذلك يحتاج غليه في كل الأعمال، وما تخلل هذه الآيات من لدن قوله: «ليس البر» إلى قوله «آمن الرسول» (آيات: 177-285) مما ليس من قبيل الإلزام والتكليف فلسبب أوجب ذكره ولتعلق أو نسق استدعاه.

لما بين سبحانه أن الكتاب هو الصراط المستقيم، وذكر افتراق الأمم كما شاء، وأحوال الزائغين والمتنكبين تحذيراً من حالهم ونها عن مرتكبهم وحصل قبيل التروك بجملته وانحصار التاركين، وأعقب بذكر ملتزمات المتقين وما ينبغي لهم امتثاله والأخذ به من الأوامر والأحكام والحدود، أعقب⁴⁹ ذلك بأن المرء يجب أن ينطوي على ذلك ويسلم⁵⁰ الأمر لمالكه فقال تعالى: «آمن الرسول» (آية: 285) فاعلم أن هذا إيمان الرسول ومن كان معه على إيمانه وأنهم قالوا: «سمعنا وأطعنا» (البقرة: 325) لا كقول بني إسرائيل «سمعنا وعصينا» (البقرة: آية: 93) وأنه أثابهم على إيمانهم برفع الإصر والمشقة والمؤاخذه بالخطأ والنسيان عنهم⁵¹ فقال: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» (البقرة: آية: 286) فحصل من هذه السورة⁵² بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذاً وتركاً، وبيان شرف من أخذه به، وسوء حال من تنكب عنه، وكأن العباد لما علموا (أن يقولوا)⁵³ «اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة قيل لهم عليكم بالكتاب إجابة لسؤالهم، ثم بين لهم حال من سلك ما طلبوه، فكان قد قيل لهم أهل⁵⁴ الصراط المستقيم وسالكوه هم الذين من شأنهم وأمرهم، والمغضوب عليهم من المتنكبين هم اليهود الذين من أمرهم وشأنهم، والضالون هم النصارى الذين من شأنهم وأمرهم.

49. ب: وأعقب

50. أ: وأن يسلم

51. ب: ساقطة

52. أ: ساقطة

53. ب: ساقطة

54. أ: أصل

فيجب على من رغب في سلوك الصراط المستقيم أن يحذر ما أصاب هؤلاء مما نُبه عليه وأن يأخذ نفسه بكذا وكذا، وأن (ينسحب إيمانه)⁵⁵ على كل ذلك وأن يسلم الأمر لله الذي يطلب⁵⁶ منه الهداية ويتضرع إليه بأن لا يواخذه لما⁵⁷ يثمره الخطأ والنسيان وألا يُحمّله ما ليس في وسعه وأن يعفو عنه إلى آخر السؤال.

55. أ: يستحب بإيمانه

56. ب: تطلب

57. ب: بها يثمر

سورة آل عمران⁵⁸

اتصالها بسورة البقرة والله أعلم من جهات:

إحداهما⁵⁹ ما تبين في صدر السورة مما هو إجابة على ما ضمن في سورة البقرة بأسرها.
ثانيها⁶⁰ الإشارة في صدر السورة أيضا إلى أن الصراط المستقيم قد بين شأنه لمن تقدم في كتبهم، وأن هذا (الكتاب)⁶¹ جاء مصدقا لها «نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس» (آل عمران: 3-4) ليبين لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن من تقدمهم قد بين لهم «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»⁶² (الإسراء: آية: 15).

والثالثة⁶³ قصة عيسى عليه السلام، وابتداء أمره من غير أب والاعتبار به نظير الاعتبار بآدم عليه السلام، ولهذا أشار قوله تعالى: «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم» (آل عمران:

58. هذه السورة مدنية بالإجماع نزلت في النصف الأخير من السنة الثانية أو السنة الثالثة للهجرة، والذي يرجح ذلك كون صدرها عالج قضايا أهل الكتاب وخاصة النصارى الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران في وفد من ستين راكبا ولم يكونوا ليقدموا على من لا شأن له. بل كان قدومهم إثر غزوة بدر وإحراز المسلمين على النصر فيها كما ورد ذلك في أسباب نزول السورة. وأيضا فقد عالج الشطر الثاني منها "أحد" الذي كانت فيه الدائرة على المسلمين وكانت أحد بالاتفاق في السنة الثالثة، وعلى هذا فيكون نزول هذه السورة في فترة زمنية متقاربة، أنظر في تفصيل وفد نجران ابن هشام 175/2 وتفسير القرطبي 111/3.

- سميت سورتا البقرة وآل عمران بالزهرابين أي النيرتان، وقد وردت آثار في فضل السورتين وجليل مكانتهما عند الله، ففي الحديث أن اسم الله الأعظم يوجد فيها في قوله تعالى في البقرة "ولهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم" وفي آل عمران في قوله تعالى "الله لا إله إلا هو الحي القيوم". أنظر في فضل هذه السورة تفسير القرطبي 2/4.

- أما في مناسبة هذه السورة لما قبلها فقد أبدى صاحب المنار أوجها في ارتباطها بها منها: أن كلا من السورتين بدء بذكر الكتاب وشأن الناس في الاهتداء به ففي الأولى ذكر أصناف الناس من يؤمن به ومن لا يؤمن والمناسب في ذلك التقديم لأنه كلام في أصل الدعوة وفي الثانية ذكر الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله والراسخين في العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه، والمتناسب فيه التأخير.

ومنها: الدعاء في آخر كل منهما، فالدعاء في الأولى يناسب بدء الدين لأن معظمه فيما يتعلق بالتكليف وطلب النصر على جاحدي الدعوة ومحاربي أهلها، وفي الثانية يناسب ما بعد ذلك لأنه يتضمن الكلام في قبول الدعوة وطلب الجزاء عليه في الآخرة.

ومنها: ما قاله بعضهم من ختم الثانية بما يناسب بدء الأولى كأنها متممة لها، ذلك أنه بدأ الأولى بإثبات الفلاح للمتقين، وختم الثانية بقوله «واتقوا الله لعلكم تفلحون» تفسير القرآن الحكيم، ج: 153/3.

59. ب: أحدها

60. أ: ثم

61. أ: ساقطة

62. ب: سقط من قوله وأنزل التوراة إلى قوله رسولا، ولعل هذا من تصرف البقاعي، لأنه أشعر بهذا في بداية كلامه عن هذه السورة بقوله، قال ابن الزبير ما حاصله، وهذا يعني أنه اختصر النص وتصرف فيه على غير عادته ومنهجه.

63. ب: والثالث

آية: 59) كما اتبعت قصة آدم بذكر بني إسرائيل لوقوفهم من تلك القصة⁶⁴. على ما لم تكن العرب تعرفه، وانذروا وحذروا، واتبعت (أيضا)⁶⁵ قصة عيسى عليه السلام⁶⁶ بذكر الحواريين وأمر النصارى إلى آية المباهلة حسبما نسط بعد، ولنبين وجه الانفصال من صدر السورة فأقول مستعينا بالله: إن قوله سبحانه: «نزل عليك الكتاب» بيان لحال الكتاب الذي هو هدى للمتقين ولما⁶⁷ بين افتراق الأمم بحسب السابقة إلى أصناف ثلاثة، وذكر من تعنيت بني إسرائيل وتوقفهم ما تقدم، أخبر تعالى هنا أنه أنزل عليهم التوراة وأنزل بعده⁶⁸ الإنجيل وأن كل ذلك هدى لمن وفق.

ثم أشار قوله تعالى: «إن الله لا يخفى عليه شيء» (آل عمران: 5) إلى ما تقدم⁶⁹ من تفصيل أخبارهم، فكان الكلام في قوة أن لو قيل أتخفى⁷⁰ عليه مرتكبات العباد وهو مصورهم في الأرحام والمطلع عليهم حيث لا يطلع عليهم غيره؟

ثم لما بلغ الكلام هنا، كأن قد قيل فكيف طراً عليهم مع وجود الكتاب؟ فأخبر تعالى بشأن الكتاب، وأنه محكم ومتشابه⁷¹، وكذا غيره من الكتب والله أعلم.

64. ب: القصص

65. ب: ساقطة

66. ب: زيادة "يعني هنا" بين كلمتي "السلام" و "بذكر"

67. أ: لما

68. ب: بعدها

69. ب: (أي البقرة) زيدت للتوضيح بين كلمتي "تقدم" و "من تفصيل".

70. ب: أخفى

71. لا بد من الإشارة هنا إلى المحكم والمتشابه في النص القرآني لأن قوله تعالى في الآية (7) من سورة آل عمران "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات... الآية" هي أم هذا الباب وأصله، وقد وقع في تحديد الآيات المحكمات والآيات المتشابهات التي بين الله عز وجل أنها موجودة في النص المنزل خلاف بين العلماء تشعبت فيه آراؤهم وتعددت أقوالهم كثيرا وحاصلها أن المحكمات ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابهات ما لم يكن لأحد إلى علمها سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج ياجوج وماجوج، والدجال، وعيسى ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور، وهذا أحسن ما قيل في المتشابه، كما قال القرطبي. وقال النحاس: أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات أن المحكمات ما كان قائما بنفسه ولا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره، نحو: "لم يكن له كفوا أحد" "وإني لغفار لمن تاب"، والمتشابهات نحو: "إن الله يغفر الذنوب جميعا" يرجع فيها إلى قوله جل وعلا: "وإني غفار لمن تاب" وقوله عز وجل: "إن الله لا يغفر أن يشرك به".

واستحسن ابن عطية قول محمد بن جعفر بن الزبير إذ قال: المحكمات هي التي فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريح ولا تحريف عما وضعن عليه، والمتشابهات هن تصريح وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد، وهذا ما ارتآه مجاهد وابن إسحاق. أنظر لباب هذا الموضوع في: المحرر الوجيز لابن عطية 15/3 وتفسير القرطبي: 10/2.2 والبرهان في علوم القرآن: 112/1 والاتقان في علوم القرآن: 2/2.

وأشير إلى أبرز مؤلفين في المتشابه وهما: "درة التنزيل وغرة التأويل" للخطيب الإسكافي ت: 385 هـ وملوك التأويل لابن الزبير صاحب هذا الكتاب ت: 708 هـ.

وللسيوطي أيضا كتاب في المتشابه سماه "البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان" حققه الأستاذ عبد القادر أحمد عطا ووضع له عنوانا مختصرا هو: "أسرار التكرار في القرآن".

فحال أهل التوفيق تحكيم المحكم، وحال أهل الزيغ المتشابه والتعلق به، وهذا بيان قوله: « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا » (البقرة: آية: 26) وكل هذا بيان لكون الكتاب العزيز أعظم فرقا وأوضح بيانا، إذ قد أوضح أحوال المختلفين، ومن أين أتى عليهم مع وجود الكتب، وفي أثناء ذلك تنبيه العباد على عجزهم، وعدم استبدادهم لئلا يغتر الغافل مع هذا البيان ووضوح الأمر/ لا طريق إلى تنكب الصراط، فنهوا حين علموا الدعاء من قوله « وإياك نستعين ».

ثم كرر تنبيههم لشدة الحاجة لذكر هذا أبدا ففيه معظم البيان، ومنه ينشأ الشرك الأكبر، إذ اعتقاد الاستبداد بالأفعال إخراج لنصف الموجودات عن يد بارئها « والله خلقكم وما تعملون » (الصفات: 96)، فمن التنبيه « إن الذين كفروا » (البقرة: آية: 6) ومنه « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا » (البقرة: آية: 26) ومنه « آمن الرسول إلى خاتمتها » (البقرة: الآيتان: 285 و286).

هذا من جلي التنبيه ومحكمه، ومما يرجع إليه ويحز معناه بعد اعتباره « وإلهم إله واحد » (البقرة: آية: 255)، فمن رأى الفعل أو بعضه لغيره تعالى حقيقة فقد قال بإلهية غيره، ثم حذروا أشد التحذير لما بين لهم فقال تعالى: « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد » (آل عمران: آية: 4) ثم ارتبطت الآيات إلى آخرها.

سورة النساء⁷²

لما تضمنت سورة البقرة ابتداء الخلق وإيجاد آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وأعقبَت سورة آل عمران لتضمنها - مع ما ذكر في صدرها - أمر عيسى عليه السلام، وأنه كمثّل آدم في (عدم)⁷³ الافتقار إلى أب، وعلم الموقنون من ذلك أنه تعالى لو شاء لكانت سنة فيمن بعد آدم عليه السلام، (فكان سائر الحيوان لا يتوقف على أبوين، أو كان يكون)⁷⁴ عيسى عليه السلام لا يتوقف إلا على أم فقط، أعلم سبحانه أن من عدا المذكورين عليهم السلام من (ذرية)⁷⁵ آدم سبيلهم سبيل الأبوين⁷⁶ فقال تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم» إلى قوله: «وبث منها رجالا كثيرا ونساء» (آية: 1).

ثم أعلم⁷⁷ تعالى بكيفية⁷⁸ النكاح المجعول سببا في التناسل وما يتعلق به، وبين حكم الأرحام والموارث⁷⁹، وتضمنت⁸⁰ السورة ابتداء الأمر وانتهاءه فاعلمنا بكيفية التناكح، وصورة الاعتصام واحترام بعضنا لبعض وكيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق، وبين لنا ما ينكح (وما لا ينكح)⁸¹ وما أبيح من العدد، وحكم من لم يجد

72. هذه السورة الكريمة مدنية لما أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله (ﷺ). ومعلوم أن الرسول عليه السلام لم يبن بعائشة إلا بعد الهجرة، وزعم النحاس أنها مكية وهم بعيد واستدلال باطل. المنار: 320/4، 321.

وسميت السورة بالنساء لأنها افتتحت بذكر النساء وبعض الأحكام المتعلقة بهن. ومن وجوه اتصالها بالتي قبلها - كما يرى ذلك الشيخ رشيد رضا - أن هذه افتتحت بمثل ما اختتمت به تلك من الأمر بالتقوى وهو ما يسمى في البديع بتشابه الأطراف، وهو وجه من أكد وجوه المناسبات في ترتيب السور.

ومنها: محاجة أهل الكتاب اليهود والنصارى، وذكر شيء عن المنافقين في كليهما. ومنها: ذكر أحكام القتال في كل منهما، وأن في هذه شيئا يتعلق بغزوة أحد التي فصلت وقائعها وحكمها وأحكامها في آل عمران وهو قوله تعالى في هذه السورة "فما لكم في المنافقين فئتين... الآية" وكذا ذكر شيء يتعلق بغزو حراء الأسد التي كانت بعد أحد وسبق ذكرها في آل عمران، وذلك قوله تعالى في هذه السورة "ولا تمهوا في ابتغاء القوم". المنار: 321/4، 322.

73. ب: ذلك

74. ب: ساقطة

75. النسختين: ذريته ولعل ذرية آدم أوضح في فهم المعنى.

76. في أ: أبوين

77. ب: أعلى

78. ب: كيفية

79. أ: تسببا

80. ب: فتضمنته

81. ب: ساقطة

الطول وما يتعلق بهذا إلى المواريث، فصل ذلك كله، إلا⁸² الطلاق لأن أحكامه (قد تقدمت، ولأن بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف ورعي حقوق ذوي الأرحام)⁸³ وحفظ ذلك كله إلى حالة الموت المكتوب علينا وناسب هذا المقصود (من)⁸⁴ التواصل والألفة ما افتتحت به السورة من قوله تعالى: «اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة»⁸⁵ وخلق منها زوجها» (آية: 1) بالائتام الوصلة، ولهذا خصت حكم تشاجر الزوجين بالإعلام بصورة الإصلاح والعدل إبقاء لذلك التواصل)⁸⁶، فلم يكن الطلاق ليناسب هذا فلم يقع له هنا ذكر ولا إيماء⁸⁷ «وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته» (النساء: 136) ولكثرة ما يعرض من رعي حظوظ النفوس عند الزوجية ومع القرابة ويدق ذلك⁸⁸ ويغمض، لذلك (ما)⁸⁹ تكرر كثيرا في هذه السورة الأمر بالاتقاء، وبه افتتحت «اتقوا ربكم» (آية: 1) «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام» (آية: 1) «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» (آية: 131) ثم حذروا من حال من صمم على الكفر، وحال اليهود والنصارى والمنافقين وذوي القلب في الأديان (بعدا عن)⁹⁰ اليقين، وكل ذلك تأكيد لما أمروا به من الاتقاء، والتحمت الآيات على الختم بالكلالة من المواريث المتقدمة.

82. ب: إلى

83. ب: ساقطة

84. ب: ساقطة

85. ب: واحدة الآية

86. ساقطة من ب

87. ب: الإيماء

88. أ: لذلك

89. يستقيم المعنى بدونها ولعلها مقحمة في النص.

90. ب: بعد إذن

سورة المائدة⁹¹

لما بين تعالى حالة أهل الصراط المستقيم ومن تنكب عن نهجهم، ومآل الفريقين من المغضوب عليهم والضالين، وبين لعباده المتقين ما فيه هداهم وبه خلاصهم أخذا وتركاً، وحصل طي ذلك الأسهم الثمانية الواردة في حديث حذيفة⁹² من قوله: (الإسلام ثمانية أسهم: الشهادة سهم، والصلاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، وقد خاب من لا سهم له)⁹³ وقال صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس)⁹⁴، وقد تحصلت⁹⁵ وتحصل مما تقدم أيضاً أن أسوأ حال المخالفين حال من غضب الله عليه ولعنه، وإن ذلك ببيغهم وعدوانهم ونقضهم العهود، «فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم» (آية: 13) وكان النقض كل مخالفة، قال الله تعالى: لعباده المؤمنين: «يا أيها الذين آمنوا أوفوا

91. وتسمى أيضاً سورة العقود لما اشتملت عليه من الفروع الحكيمة المتصلة بالحياة الاجتماعية نزلت في أوقات متفرقة كما تفيد ذلك نصوصها، وطابعها العام تفصيل الأحكام العملية والمعاملات الاجتماعية وما يحتاجه الناس من ذلك في سفرهم وحضرهم، ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها تحض على قراءتها وتوصي بالعمل بأحكامها، فعن جابر بن نفيّر قال: (حججت فدخلت على عائشة فقالت يا جابر تقرأ المائدة؟ فقلت نعم، فقالت إما أنها آخر سورة نزلت فما وجدت فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم من حرام فحرموه). أنظر: مستدرک الحاكم: 311/2.

ووجه تقدم سورة النساء على المائدة أن الأحكام التي في سورة النساء وخاصة ما يتعلق بالمرأة والمرأة أهم في الحياة العملية وأولى بالتقديم من الأحكام المذكورة في هذه السورة، ثم إن اتحاد وتلازم السورتين شبيه بتلازم البقرة وآل عمران، فتلك اتحدتا في تقرير الأصول من الوحدانية والنبوة ونحوهما، وهاتان في تقرير الفروع الحكيمة.

وقد أبدى بعض العلماء وجهاً قوياً لتناسب السور الأربع الطوال المتقدمة مع سورة الفاتحة خلاصته أن الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والاعتصام بدين الإسلام ومخالفة اليهودية والنصرانية، ثم جاءت البقرة فتضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملتها لذلك المقصود، وكانت البقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة دفع شبهات الخصوم، ولهذا ورد فيها ذكر المحكم والمتشابه، ثم إن ذكر اليهود ورد كثيراً في سورة البقرة وورد ذكر النصارى كثيراً في سورة آل عمران، وغير خاف أن التوراة أصل والإنجيل فرع، ولهذا قدم خطاب اليهود على النصارى.

ثم جاءت سورة النساء فتضمنت أسباب الأحكام التي بين الناس وأكملتها سورة المائدة، وبالكمال يكون تمام الدين والشرع، ولهذا ذكر في هذه السورة ما يختص بالشرعة المحمدية كالوضوء والتميم وغيرها من الفروع، وعليه فهذه السورة تعتبر سورة التكميل لما قبلها، وفيها جاء قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» وتكرر فيها ذكر التمام والكمال لأن الشريعة المحمدية بها ختمت الشرائع وتمت، فكان التناسب بين هذه السور الأربع المدنيات في غاية الأحكام والالتزام. أنظر: تفسير المنار 117/6 وجواهر البيان ص: 25.

92. هو حذيفة بن اليمان واسم اليمان حسيل ويقال حسيل العبيسي حليف الأنصار صحابي جليل من السابقين الأولين للإسلام، أخرج عنه مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بما كان وما يكون إلى قيام الساعة، ولهذا يقال له صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبوه صحابي استشهد بأحد، مات حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة 36هـ. (أنظر: الإصابة: 317/1، تهذيب الأسماء: 153/1 والاستيعاب 227/1، وحلية الأولياء: 270/1).

93. أنظر مسند الطيالسي حديث رقم 413.

94. وتما الحديث (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث ابن عمر وقد جاء من حديث غير واحد من الصحابة، وأنظر في تحريجه والكلام عليه: جامع العلوم والحكم، ص: 40.

95. زيد في (ب) للتوضيح: أي الأسهم الثمانية والدعائم الخمس فيما مضى "بين كلمتي" "تحصلت" و"تحصل"

بالعقود» (آية:1) لأن اليهود والنصارى إنما أتى عليهم من عدم الوفاء ونقض العهود فحذر المؤمنين.

ولهذا الغرض والله أعلم⁹⁶ ذكر هنا العهد المشار إليه في قوله تعالى: «وأوفوا بعهدي» (البقرة:40) فقال تعالى: «ولقد أخذ⁹⁷ الله ميثاق بني إسرائيل» إلى «قوله:» «فقد ضل سواء السبيل» (المائدة: آية:12).

ثم بين نقضهم وبني اللعنة وكل محنة ابتلوا بها عليه، فقال: «فبما نقضهم ميثاقهم» (آية:13) وذكر تعالى عهد الآخرين: فقال: «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم...» الآية (آية:14)، ثم فصل تعالى للمؤمنين أفعال الفريقين ليتبين لهم فيما نقضوا فيه من ادعائهم في المسيح ما ادعوا، وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، وكفهم عن فتح الأرض المقدسة، وإسرافهم في القتل وغيره، وتغييرهم أحكام التوراة إلى غير ذلك مما ذكره في أحكام هذه السورة⁹⁸، ثم بين تفاوتهم في البعد عن الاستجابة فقال تعالى: «لتجدن أشد الناس عداوة... الآية» (آية:82) ثم نصح عباده وبين لهم أبوابا منها دخول الامتحان، وهي سبب في كل ابتلاء فقال تعالى: «لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا» (آية:89).

وأعقب ذلك بقوله: «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام... الآية» (آية:90) ثم قال تعالى: «جعل الله الكعبة البيت الحرام... الآية» (آية:97) فنبه على سوء العاقبة في تتبع البحث عن التعليل، وطلب الوقوف على ما لعله استأثر الله بعلمه، ومن هذا الباب أتى على بني إسرائيل في أمر البقرة وغير ذلك، وجعل هذا التنبيه إيحاء، ثم أعقبه بما يفسره «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» (آية:101) ووعظهم بحال غيرهم في هذا، وأنهم سألوا فخيروا ثم امتحنوا، وقد كان التسليم أولى لهم فقال تعالى: «قد سأله قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين» (آية:102) ثم عرف عباده أنهم إذا استقاموا فلن يضرهم خذلان غيرهم «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» (آية:105) فلما طالب تعالى المؤمنين بالوفاء فيما نقض فيه غيرهم وذكرهم ببعض ما وقع فيه النقص، وما أعقب ذلك فاعله، وأعلمهم بثمرة التزام التسليم والامثال أراهم جل وتعالى ثمرة الوفاء عاقبته فقال تعالى: «وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس» إلى قوله تعالى «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» إلى آخر السورة (الآيات: 116-120).

96. ب: زيادة «أي غرض التحذير من نقض العهد» بين كلمتي «أعلم» و «ذكر».

97. أ: «وإذ أخذ» وهو خطأ.

98. ساقطة من أ.

فحصل من جملتها الأمر بالوفاء فيما تقدمها وحال من حاد ونقض، وعاقبة من وفي وأنهم الصادقون، وقد أمرنا أن تكون معهم «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» (التوبة: آية: 119).

سورة الأنعام⁹⁹

لما بين سبحانه وتعالى لعباده حال المتقين وهو الصراط المستقيم وأوضح تعالى ما يحذرون من جانبي الأخذ والترك، وبين حال من تنكب عنه ممن كان قد يلمحه وهم اليهود والنصارى وكونهم لم يلتزموا الوفاء، وحادوا¹⁰⁰ عما أنهج لهم، وانقضى أمر الفريقين ذما لحالمهم وبياناً لنقضهم وتحذيراً للمتقين أن يصيبهم ما أصابهم، وختم ذلك ببيان حال الموقنين في القيامة «يوم ينفع الصادقين صدقهم» (المائدة: آية: 119).

وقد كان انجر مع ذلك ذكر مشركي العرب وصممهم عن الداعي، وعماهم عن الآيات فكانوا أشبه بالبهائم منهم بالأناسي، أعقب ذلك تعالى بالإشارة إلى طائفة أومأت إلى النظر والاعتبار، فلم توفق لإصابة الحق، وقصرت عن الاستضاءة بأنوار الهدى وليسوا ممن يرجع إلى شريعة قد حرفت وغيّرت، بل هم في صورة من هم أن يهتدي بهدى الفطرة، ويستدل بما بسط الله تعالى في المخلوقات، فلم يمعن النظر ولم يوفق فضل، وهم المجوس وسائر الثنوية¹⁰¹ ممن كان قصارى أمره نسبة الفعل إلى النور والظلام ولم يكن تقدم لهؤلاء

99. هذه السورة في جملتها مكية وهي أول سورة على هذا الترتيب في القرآن المكي إذا ما استثنينا الفاتحة، وقد جاء في الحديث من عدة طرق أنها نزلت دفعة واحدة شيعها موكب من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد. (أنظر: الدر المنثور 2/3، وتفسير المنار: 283/7-287).

ومن أوجه التناسب بين هذه السورة وسابقتها ما أشار إليه السيد رشيد رضا في تفسيره إذ يقول: لما كان أمر العقائد هو الأهم المقدم في الدين، وكان شأن أهل الكتاب فيه أعظم من شأن المشركين، قدمت السور المشتملة على محاجتهم بالتفصيل (وهي البقرة، آل عمران، النساء، المائدة)، وناسب أن يجيء بعدها ما فيه حاجة للمشركين بالتفصيل وتلك سورة الأنعام لم تستوف سورة مثلها لشرح ما في سورة البقرة، ما يتعلق بالعقائد وجاءت سورة الأعراف بعدها متممة لما فيها ومبينة لسنن الله تعالى في الأنبياء المرسلين وشؤون أممهم معهم وهي حجة على المشركين وأهل الكتاب جميعاً، ولكن سورة الأنعام فصلت الكلام في إبراهيم الذي ينتمي إليه العرب وأهل الكتاب في النسب والدين وسورة الأعراف فصلت الكلام في موسى الذي ينتمي إليه أهل الكتاب ويتبع شريعته حتى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

ولما تم هذه الصورة تفصيل ما أجل في سورة البقرة من العقائد في الإلهيات والنبوات والبحث ناسب أن يذكر بعدها ما يتم ما أجل فيها من الأحكام ولاسيما أحكام القتال والمنافقين- وكان قد فصل بعض التفصيل في سورة النساء- فكانت سورة الأنفال والتوبة هما المفصلتين لذلك وبهما يتم ثلث القرآن.

كما أوضح السيد رشيد رضا بأن ركن المناسبة الأعظم بين سورتي المائدة والأنعام أن المائدة معظمها في محاجة أهل الكتاب، والأنعام معظمها بل كلها في محاجة المشركين، ومن التناسب بينهما في الأحكام أن سورة الأنعام قد ذكرت أحكام الأطعمة المحرمة في دين الله والذبائح بالإجمال وسورة المائدة ذكرت ذلك بالتفصيل، وهي قد نزلت أخيراً كما هو معلوم، ومن التفصيل في هذه المسألة ما في سورة الأنعام من الكلام على محرمات الطعام عند المشركين وما في المائدة من الكلام على طعام أهل الكتاب. تفسير المنار: (288/7، 289).

100. أ: وجادلوا.

101. الثنوية أخص من المجوسية وهي شعبة منها وسموا ثنوية لأنهم أثبتوا أصليين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصالح والفساد يسمون أحدهما النور والآخر الظلمة وبالفارسية يزدن وأهرمن.

وسائر المجوس زعموا أن الأصليين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين بل النور أزلي والظلمة محدثة، ويزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، وبعامتهم ينتسبون إلى الديانة الزرادشتية، وقد انتهت المجوسية ظاهراً بعد أن تم فتح بلاد

ذكر ولا أخبار بحال فقال تعالى: « الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور » (آية:1). فبدأ تعالى بذكر خلق السماوات والأرض التي عنها أوجد¹⁰² النور والظلمة، إذ الظلمة ظلال هذه الأجرام، والنور عن أجرام نيرة محمولة فيها (وهي الشمس)¹⁰³، والقمر والنجوم، فكأن الكلام في قوة: الحمد لله الذي أوضح الأمر لمن اعتبر واستبصر فعلم أن وجود النور والظلمة متوقف بحكم السببية التي شاءها تعالى على وجود أجرام السماوات والأرض وما أودع فيها، ومع بيان الأمر في ذلك حاد عنه من عمي عن الاستبصار «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» (آية:1) وقوله تعالى: « هو الذي خلقكم من طين » (آية:2) مما يزيد هذا المعنى وضوحاً فإنه تعالى ذكر أصلنا والمادة التي عنها أوجدنا، كما ذكر للنور والظلمة ما هو كالمادة: وهو وجود السماوات والأرض، وأشعر لفظ «جعل» بتوقف الوجود بحسب المشيئة على ما ذكر فكأن¹⁰⁴ قد قيل: أي فرق (بين)¹⁰⁵ وجود النور والظلمة عن¹⁰⁶ وجود السماوات والأرض وبين وجودكم عن الطين حتى يقع امتراء فتدعى نسبة الإيجاد إلى النور والظلمة؟ وهما لم يوجد إلا بعد مادة أو سبب كما طراً في إيجادكم، فالأمر في ذلك أوضح شيء ثم أنتم تمترون.

ثم مرت السورة من أولها إلى آخرها منبهة على بسط الدلالات في الموجودات مع التنبيه على أن ذلك لا يصل إلى استثمار فائدته إلا من هيء بحسب السابقة. فقال «إنما يستجيب الذين يسمعون» (آية:36) ثم قال تعالى¹⁰⁷ «والموتى يبعثهم الله» (آية:36) وهو - والله أعلم - من نمط: «أو من كان ميتاً فأحييناه» (آية:122) أجمل هنا، ثم فسر¹⁰⁸ بعد في السورة بعينها، والمراد أن من الخلق من جعله الله سامعاً مستيقظاً معتبراً بأول وهلة، وقد أرى المثل سبحانه وتعالى من ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام في قوله «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض» (آية:75) فكأنه يقول لعباده المتقين تعالوا فانهجوا طريق الاعتبار ملة أبيكم إبراهيم، كيف نظر عليه السلام نظر السامع المتيقظ، فلم يعرج في أول

فارس ولكنها اتخذت أشكالا سرية وأثرت إلى حد ما في الفكر الإسلامي في العصر العباسي.

وتجدر الإشارة إلى أن الصحابة سنوا بهم في أخذ الجزية سنة أهل الكتاب (أنظر: الملل والنحل للشهرستاني: (70/2) وما بعدها، والنهاية في غريب الحديث: (299/4).

102. ب: وجد

103. ب: ساقطة

104. ب: وكان

105. ب: ساقطة

106. ب: ممن

107. ساقطة من: ب

108. ب: نشر

نظرة على ما سبب وجوده بين فيحتاج فيه إلى الأرض (ما فرض) ¹⁰⁹ في الكوكب والقمر والشمس، بل نظر فيما عنده صدور النور لا في النور « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا » (آية: 76) فتأمل كونه عليه السلام لم يطول النظر بالتفات النور، ثم كان يرجع إلى اعتبار الجرم الذي عنه النور ¹¹⁰، بل لما رأى النور أجرام سماوية تأمل تلك ¹¹¹ الأجرام وما قام بها من الصفات فرأى الأفول والطلوع والانتقال فقال هذا لا يليق بالربوبية لأنها صفات حدوث، ثم رقى ¹¹² النظر إلى القمر والشمس فرأى ذلك الحكم جاريا فيهما، فحكم بأن وراءها مدبرا لها يتنزه عن الانتقال والغيبة والأفول فقال: «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض» (آية: 79) وخص عليه السلام ذكر هذين لحملهما أجرام النور وسببتهما في وجود الظلمة، ثم تأمل هذا النظر منه عليه السلام، وكيف خص بالاعتبار أشرف/ الوجودين وأعلاهما، في ذلك وجهان من الحكمة:

أحدهما: علو النظر ونفوذ البصيرة في اعتبار الأشرف الذي إذا بان فيه ¹¹³ الأمر فهو فيما سواه أبين، فجمع بين قرب التناول وعلو التهدي.

والوجه الثاني: التناسب بين حال الناظر والمنظور فيه، والتفاوت ¹¹⁴ والجري على الفطرة العلية، وهو من قبيل أخذ نبينا عليه السلام ¹¹⁵ اللبن حين عرض عليه اللبن والخمر، فاختر اللبن فليل له اخترت الفطرة، فكان قد قيل: هذا النظر والاعتبار بالهام لا نظر من أخذ إلى الأرض فعبد الضياء والظلام.

وينبغي أن يعتمد في قصة إبراهيم عليه السلام في هذا الاعتبار أنه صلى الله عليه وسلم في قوله: «هذا ربي» (آية: 78) إنما (قصد) ¹¹⁶ قطع حجة من عبد شيئا من ذلك، إذ كان دين قومه، فبسط لهم الاعتبار والدلالة، وأخذ بعرض ما قد تنزه ¹¹⁷ قدره عن الميل إليهن فهو كما يقول المناظر لمن يناظره: هب أن هذا على ما تقول، يريد بذلك إذعان خصمه واستدناؤه ¹¹⁸

109. ب: ساقطة

110. ب: عند

111. أ: ذلك

112. أ: رمى

113. ب: منه

114. ب: والتناول

115. ب: صلى الله عليه وسلم

116. ب: ساقطة

117. ب: نزّه

118. ب: استدعاءه

للاعتبار حتى يكون غير (منافر له) ¹¹⁹ فيسلم له ما لا يعتقده ليني على ذلك مقصوده، ليقع خصمه وهو على يقين من أمره. فهذا ما ينبغي أن يعتمد هنا لقول يوسف عليه السلام: «ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء» (يوسف: 38) فالعصمة قد اكتنفتهم عما يتوهمه المبطلون ويتقوله المفترون ¹²⁰، ويشهد لما قلناه قوله تعالى: «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه» (آية: 83)، فهذه حال من علت درجته من الذين يسمعون، فمن الخلق من جعله الله سامعا بأول وهلة، وهذا مثال شاف في ذلك، ومنهم الميت، والموتى على ضربين ¹²¹: منهم من يزاح ضربين ¹²² عمهه، ومنهم من يبقى في ظلماته ميتا لا حراك به، يبين ذلك قوله تعالى: «أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» ¹²³ (آية: 123).

ولما كانت السورة مضمنة جهات الاعتبار، ومحركة إلى النظر، ومعلنة من مجموع آياتها أن الاعتبار والتأمل وإن لم يكن متيقظا بأول وهلة، ولا سامعا أول محرك ولا مستجيبا لأول سامع ¹²⁴ قد تنقل حاله عن جموده وغفلته إلى أن يسمع ويلحق بمن كان تيقظ ¹²⁵ في أول وهلة، ناسب تحريك العباد وأمرهم بالنظر إلى أن تقع الإشارة في صدر السورة إلى حالتين: حالة السامعين لأول وهلة، وحالة السامعين في ثاني حال؛ فقل: «إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله» (آية: 36).

ولم تقع هنا إشارة إلى قسم الثالث مع العلم به وهو الباقي على هموده وموته ممن لم يحركه زاجر ولا واعظ ولا اعتبار، وكان هذا الضرب لو ذكر هنا لكان فيه ما يكسل من ضعف

119. ب: مناظر له

120. العصمة للرسول: قال أبو منصور عبد القاهر البغدادي: (أجمع أصحابنا على وجوب كون الأنبياء معصومين بعد النبوة عن الذنوب كلها وأما السهو والخطأ فليس من الذنوب، فلذلك ساغ وقوعها منهم، وقد سها نبينا عليه الصلاة والسلام في صلاته)، (أنظر: أصول الدين: ص: 168).

وقال القاضي عياض في الشفا: (117/2): (واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان وكفائته منه لا في جسمه بأنواع الأذى ولا على خاطره بالوسواس). قال في ص: 147: (وقد اختلف في عصمتهم من المعاصي قبل النبوة فمنعها قوم وأجازها آخرون. والصحيح إن شاء الله تنزيههم من كل عيب وعصمتهم من كل ما يوجب الرب). وقال ابن حزم في الفصل: 2/4، (وذهب جميع فرق أهل الإسلام من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من النبي أصلا معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة، وهذا الذي ندين الله تعالى به ولا يحل لأحد أن يدين بسواه).

121. ب: جزأين

122. ب: ساقطة

123. أ: أو من كان ميتا فأحييناه "إلى قوله" في الظلمات ليس بخارج منها.

124. ب: ينتقل

125. ب: يتيقظ

همته ورجعت حاله ابتدائية، فقليل «والموتى يبعثهم الله» وأطلق القول ليعمل الكل على هذا البعث من الجهل والتيقظ من سنة الغفلة، كما دعي الكل إلى الله دعاء واحدا فقليل: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» (البقرة: آية: 21) ثم اختلفوا في إجابة الداعي بحسب السوابق، هكذا ورد في هذا «والموتى يبعثهم الله» إسماعا للكل، وفي صورة التساوي مناسبة للدعاء لتقوم الحجة على العباد، حتى إذا انبسطت الدلائل وانشرت الصدور لتلقيها، وتشبثت النفوس وتعلقت بحسب ما قدر، وفاز بالخير أهله، قال تعالى بعد آي: «أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس» (آية: 122) وكان قد قيل (لمن)¹²⁶ انتقل عن حالة الموت فرأى قدر نعمة الله عليه بإحيائه هل تشبه الآن حالك النيرة¹²⁷ بما منحت حين اعتبرت (بحالك)¹²⁸ الجمادية، فاشكر ربك، واضرع إليه في طلب الزيادة، (واتعظ)¹²⁹ بحال من لزم حال موته، فلم تغن عنه الآيات، وهو المشار إليه بقوله: «كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» (آية: 122) «إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه» (الكهف: 57) «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله» (الأنعام: آية: 111) «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم» (البقرة: آية: 6)، وكان القسم المتقدم الذي سمع لأول وهلة لم يكن ليقع ذكره هنا من جهة قصد إراءة قدر هذه النعمة، وإنقاذ المتصف بها من حيرة شكه (موقعها)¹³⁰ فيما تقدم من قوله: «إنما يستجيب الذين يسمعون» (آية: 36) فذكر هنا ما هو واقع في إراءة قدر نعمة الإنقاذ والتخليص من عمي الجهل، وهذا حال من انتقل بتوفيق ربه¹³¹ وحال من بقي على موته، أو يكون الضربان/ قد شملها قوله: «أو من كان ميتا فأحييناه» (آية: 122).

وأما الثاني وهو الذي (تبينت)¹³² فيه صورة النقل فأمره صريح من الآية وأما الضرب الأول وهو السامع لأول وهلة المكفي المؤنة (بواقى)¹³³ العصمة من طوارق الجهل والشكوك، فدخوله (تحت)¹³⁴ مقتضى هذا اللفظ من حيث أن وقايته تلك أو سماعه بأول

126. ب: ساقطة

127. ب: التنزه

128. ب: لحالك

129. ب: والنقص

130. في ب: موقفها

131. في ب: الله

132. ب: بينت

133. ب: لواقى

134. ب: ساقطة

وهلة ليس من جهته ولا بما (هو)¹³⁵ إنسان أو مكلف، بل بإسناد الرحمة وتقديم النعمة ولو أبقاء لنفسه (ووكله)¹³⁶ إليها لم يكن كذلك، «وما بكم من نعمة فمن الله» (النحل: آية: 53) فبهذا النظر قد تكون الآية قد شملت الضروب الثلاثة وهو أولى.

أما سقوط الضرب الثالث من قوله: «إنما يستجيب الذين يسمعون» فلما قدم، والله أعلم بما أراد.

ولما تضمنت هذه السورة الكريمة من بسط الاعتبار، وإبداء جهات النظر، ما إذا تأمله المتأمل علم أن حجة الله قائمة على العباد، وأن إرساله الرسل رحمة ونعمة وفضل وإحسان، وإذا كانت الدلالات مبسطة والموجودات شاهدة مفصحة، ودلالة النظر من سمع وإبصار وأفئدة، فكيف يتوقف عاقل في عظيم رحمته تعالى بإرسال الرسل، فتأكدت الحجة وتعاضدت البراهين.

فلما عرف الخلق (بقيام)¹³⁷ الحجة عليهم بطريقي الإصغاء إلى الداعي والإعتبار بالصنعة قال (الله)¹³⁸ تعالى: «قل فله الحجة البالغة» (آية: 149) «فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة» (آية: 157) (فما)¹³⁹ عذر المعتذر بعد هذا؟ أتريدون كشف الغطاء ورؤية الأمر عياناً، لو استبصرتم لحصل لكم ما منحتهم «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك» (الآية: 158). ثم ختمت السورة من التسليم والتفويض بما يجدي مع قوله: «فلو شاء لهداكم أجمعين» (آية: 149)، وحصل من السور الأربع بيان أهل الصراط المستقيم وطبقاتهم في سلوكهم، وما ينبغي لهم التزامه أو تركه، وبيان حال المتنكبين عن سلوكه من اليهود والنصارى وعبد الأوثان والمجوس.

135. ب: ساقطة

136. ب: وكله

137. ب: لقيام

138. ب: ساقطة

139. ب: فيا

سورة الأعراف¹⁴⁰

لما قال تعالى ابتداء بالاعتبار: «ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض / ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين» (الأنعام: آية: 6) ثم قال تعالى: «ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون» (الأنعام: آية: 10) ثم قال تعالى: «قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين» (الأنعام: آية: 11) ثم قال تعالى: «ولقد كذب رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا... الآية» (الأنعام: آية: 36) وقال تعالى: «ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء... الآية» (الأنعام: آية: 42) وقال تعالى: «يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي» (الأنعام: آية: 130) فوَقَّعت الإحالة في هذه الآية على الاعتبار بالأمم السالفة وما كان منهم حين كذبوا أنبياءهم (وهلاك تلك)¹⁴¹ القرون بتكذيبهم وعثوهم وتسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى له (لمن)¹⁴² تقدمه من الرسل «قد نعلم أنه (ليحزنك) الذي يقولون» (الأنعام: آية: 33) فاستدعت الإحالة والتسليية بسط أخبار الأمم السالفة وهلاك تلك القرون الماضية، والإعلام بصبر الرسل عليهم السلام وتلطفهم في دعائهم، ولم يقع في السور الأربع قبل سورة الأنعام مثل هذه الإحالة والتسليية، وقد تكررت في سورة الأنعام كما تبين بعد انقضاء ما قصد من بيان طريق المتقين أخذا وتركاً، وحال من حاد عن سننهم ممن رامه أو قصده فلم يوفق له، ولا تم له أمل من (الفريقين)¹⁴⁴ المستندين

140. سورة الأعراف مكية بالإجماع وهي أطول من سورة الأنعام، فلو كان ترتيب السبع الطوال مراعى فيه تقديم الأطول فالأطول مطلقاً لقدمت الأعراف على الأنعام، على أنه وقد روى أنها نزلت قبلها والظاهر أنها نزلت دفعة واحدة مثلها، فلم يبق وجه لتقديم الأنعام إلا أنها أجمع لما تشترك السورتان فيه وهو أصول العقائد وكمالات الدين كما سبقت الإشارة إلى ذلك في السورة السابقة.

وإذا كانت سورة الأنعام لبيان الخلق وفيها «هو الذي خلقكم من طين» وقال في بيان القرون «كم أهلكنا من قبلهم من قرن» وأشير فيها إلى ذكر المرسلين وتعداد كثير منهم وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال لا التفصيل، ذكرت هذه السورة عقبها لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها.

وأيضاً لما قال تعالى في آخر سورة الأنعام «وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه»، ناسب ذلك افتتاح هذه السورة بالحث على إتباع الكتاب بقوله «كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء» (2-3): كما أن السورة ختمت بالأمر بالاستماع إلى القرآن «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» فتناسب المطع والمقطع. (أنظر: تفسير المنار: 294/8، 295 وتناسب الدرر: 101، وجواهر البيان: 32).

141. ب: ساقطة

142. أ: بمن

143. ب: لحزنك

144. ب: الفريقين

للسمع والمعتمدين للنظر، فحاد الأولون بطارئ التغيير والتبديل وتنكب الآخرون سوء (التأويل)¹⁴⁵ وقصور الافهام، وعلة حيد الفريقين السابقة الأزلية¹⁴⁶.

فلما انقضى¹⁴⁷ أمر هؤلاء وصرف الخطاب إلى تسليته عليه السلام وتثبيت فؤاده بذكر (أحوال)¹⁴⁸ الأنبياء مع أمهم، وأمر الخلق بالاعتبار بالأمم السالفة، وقد كان قدم لرسوله عليه السلام¹⁴⁹ عند ذكر الأنبياء «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» (الأنعام: آية: 90) بسط تعالى من وقعت الإحالة عليه واستوفى الكثير من قصصهم إلى آخر سورة هو وإلى قوله سبحانه «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود: آية: 128).

فتأمل بما افتتحت السور المقصود بها قصص الأمم وبما اختتمت يلوح لك ما أشرت إليه والله أعلم مراده، وتأمل¹⁵⁰ افتتاح سورة الأعراف بقوله « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين» (الأعراف: آية: 7) وختم القصص فيها بقوله: « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» (الأعراف: آية: 176) بعد تعقيب قصص بني إسرائيل بقصة بلعام¹⁵¹ «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها...» الآية (الأعراف: آية: 175) ثم قال: « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا» (الأعراف: آية: 176).

145. أ: التناول

146. ب: الأولية

147. أ: انقض

148. ساقطة من : أ

149. ب: لرسول الله صلى الله عليه وسلم

150. أ: فتأمل

151. لقد اختلف المفسرون في تعيين هذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها على أقوال عديدة أرجحها أنه رجل من بني إسرائيل سمته النصوص الواردة "بلعم" أو "بلعام" ابن باعوراء أو ابن آجر، وكان في زمن موسى أو بعده، وقد تفضل الله عليه بإجابة الدعاء، فبعث إلى ملك مدين يدعو إلى الإيمان فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى، فهذا هو الانسلاخ من آيات الله والارتداد إلى الكفر والشرك، ويشبهه في العرب أمية ابن أبي الصلت الثقفي وكان قد قرأ الكتب وساح في الأرض وعلم أن رسولا سيبعثه الله في ذلك الوقت، وتمنى أن يكون ذلك الرسول، فلما اصطفى الله محمدا صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به مع اعترافه لقريش بصدق نبوته ومات على كفره بالطائف، ويشبهه كذلك أبو عامر ابن صيفي وكان يلبس المسوح في الجاهلية فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال: «يا محمد ما هذا الذي جئت به؟ قال جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال: فياني عليها، فقال النبي (ﷺ) لست عليها، لأنك أدخلت عليها ما ليس منها، فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب طريدا وحيدا، فقال له النبي (ﷺ): أمات الله الكاذب كذلك فخرج إلى قيصر واتصل بالمنافقين وعاد بعد بدر في أحد ومات حقيرا ذليلا غير مأسوف عليه وحقق الله الدعوة فيه.

وهذا المثل الذي ضربه الله عز وجل خالد إلى قيام الساعة ينطبق على كل من يعرف الحق وينكص عنه، أو يهتدى إلى الإسلام ثم يتركه إلى متاع من الدنيا زهيدا، فمثله كمثل الكلب دائم اللهاث مستمر التعب وعدم الاستقرار. (أنظر: تفسير ابن كثير: 250/3، الدر المنثور: 145/3، تفسير القرطبي: 319/7).

(وتأمل)¹⁵² هذا الإيحاء بعد ذكر القصص، وكيف ألحق من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب وغيرهم (ممن)¹⁵³ قص ذكره من المكذبين، وتأمل (افتتاح)¹⁵⁴ ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام وكلاهما ممن كفر على علم، وفي ذلك أعظم موعظة، قال الله تعالى إثر ذلك: «من يهد الله فهو المهتدي... الآية» (الأعراف: آية: 178) (فبدأ)¹⁵⁵ الاستجابة لنبيه بذكر ما أنعم به عليه وعلى من استجاب له فقال تعالى: «المص كتاب أنزل إليك» (آية: 2) فأشار إلى نعمته بإنزال الكتاب الذي جعله هدى للمتقين، وأشار هنا إلى ما يحمله (على)¹⁵⁶ التسلية وشرح الصدور بما حوى¹⁵⁷ من العجائب والقصص مع كونه هدى ونورا فقال: «فلا يكن في صدرك حرج منه» أي أنه قد تضمن مما أحلناك عليه ما يرفع الحرج ويسلي النفوس لتنذر به كما أنذر من قبلك ممن نقص خبره من الرسل، ولتستن في إنذارك ودعائك وصبرك بستهم ولتذكر المؤمنين.

ثم أمر عباده بالاتباع لما أنزله فقال: «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم» (آية: 3) فإن هلاك من نقص عليكم خبره من الأمم إنما كان لعدم الإتيان والركون إلى أوليائهم من شياطين الجن والإنس، ثم اتبع (تعالى)¹⁵⁸ ذلك بقصة آدم عليه السلام ليتبين لعباده ما جرت (به)¹⁵⁹ سنته فيهم من تسلط الشيطان وكيدته وأنه عدو لهم «يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة» (آية: 27) ووقع في قصة آدم هنا ما لم يقع في قصة البقرة من بسط ما أجمل هناك، كتصريح اللعين بالحسد، وتصوير خيريته (بخلقه من النار وطلبه)¹⁶⁰ الإنظار والتسلط على ذرية آدم، والأذن له في ذلك، ووعيده ووعيد متبعيه، ثم أخذه في الوسيلة إلى آدم عليه السلام، وحلفه له «وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين» (آية: 20)، وكل هذا مما أجمل في سورة البقرة، ولم تتكرر قصة إلا وهذا شأنها أعني أنها تفيد مهمما¹⁶¹ تكررت ما لم

152. أ: فتأمل

153. ب: بمن

154. ب: ساقطة

155. ب: قيد

156. أ: من

157. ب: جرى

158. ب: ساقطة

159. ب: ساقطة

160. ب: لخلقه من النار وطلبه.

161. ب: فيما

يكن حصل منها أولاً، ثم انجرت الآي إلى ابتداء قصة (نوح عليه السلام)¹⁶²، واستمرت القصص بني إسرائيل، فبسط هنا من حالهم وأخبارهم شبيه ما بسط في قصة آدم وما جرى من محنة إبليس، وفصل هنا الكثير، وذكر ما لم يذكر في (سورة)¹⁶³ البقرة حتى لم يتكرر بالحقيقة ولا التعرض لقصص طائفة معينة فقط.

ومن عجيب الحكمة أن الواقع في السورتين من كلا القصتين مستقل شاف، وإذا ضم بعض ذلك إلى بعض ارتفع إجماله، ووضح كماله، فتبارك من هذا كلامه، ومن جعله حجة قاطعة وآية باهرة.

ولما أعقب تعالى قصصهم في البقرة بأمره نبيه والمؤمنين بالعفو والصفح فقال تعالى: « فاعفوا واصفحوا » (آية: 109) أعقبه تعالى (أيضاً)¹⁶⁴ هنا بقوله لنبيه (عليه الصلاة والسلام)¹⁶⁵: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (آية: 199) وقد خرجنا عن المقصود فلنرجع إليه.

162. ساقطة من : أ

163. ساقطة من : ب

164. ساقطة من : أ

165. ساقطة من : أ

سورة الأنفال¹⁶⁶

لما قص سبحانه على نبيه عليه السلام في سورة الأعراف أخبار الأمم، وقطع المؤمنين من مجموع ذلك بأنه لا يكون الهدى إلا بسابقة السعادة لافتتاح السورة من ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام، وكلاهما كفر على علم، ولم ينفعه ما قد كان حصل عليه، ونبه تعالى عباده على الباب الذي أتى منه على بلعام بقوله سبحانه: «ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه» (الأعراف: آية: 176) فأشار سبحانه إلى أن اتباع الأهواء أصل كل ضلال، نبهوا على ما فيه الحزم من ترك الأهواء جملة فقال تعالى: «يسألونك عن الأنفال

166. سورة الأنفال مدنية كلها كما روى عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله ابن الزبير وزيد بن ثابت، وقال ابن عباس: إنها نزلت في بدر، وفي لفظ: تلك سورة بدر، وقيل إن قوله تعالى "يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين" التي نزلت لما أسلم عمر، وقوله تعالى "وإذ يمكركم الذين كفروا" التي نزلت قبل الهجرة فهما مكتتان. وإذا تخللت السورة بعض آيات عن حال كفار مكة ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك لا يقتضي نزولها في مكة، بل ورود مثل هذه الآيات غايته تذكير رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، ومعلوم أن كل ما نزل بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم مهاجرا فهو مدني. (أنظر الدر المنثور: 158/3، وتفسير المنار: 536/9). ووجه مناسبتها لسورة الأعراف زيادة على ما تقدم أن هذه بينت حال خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم مع قومه، وسورة الأعراف بينت أحوال أشهر الرسل مع أقوالهم كما هو واضح بين.

وهنا لا بد من وقفة حول ترتيب الأنفاق وتناسبها لما قبلها هل كان ذلك بتوقيف أم اجتهد؟

ذكر الجلال السيوطي أن ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو المرجح في سائر السور بل باجتهاد من عثمان رضي الله عنه، وقد استشكل ذلك قديما حبر الأمة رضي الله تعالى عنه فقال لعثمان: «ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثني فقرنتم بينهما ولم تكتبوا السملة بينهما ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا من كان يكتب يقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتهما في السبع الطوال».

وقد تعقب الألوسي الإمام السيوطي فيما ذهب إليه بأن عثمان رضي الله عنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها لكونها مشتملة على السملة كتتمتها وبقيتها ولهذا قال جماعة من السلف أنها سورة واحدة. وأن وضع براءة هنا مناسبة الطول فإنه ليس بعد الست السابقة سورة أطول منها وذلك كاف في المناسبة، وأنه خلل بالسورتين أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الأول للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف. وأنه لو أخرهما وقدم يونس وأتى بعد براءة يهود كما في مصحف أبي لمراعاة مناسبة السبع لفات مع ما أشرنا إليه أمر آخر أكد في المناسبة، فإن الأولى بسورة يونس أن يوتى بالسور الخمس التي بعدها لما اشتركت فيه من المناسبات من القصص والافتتاح "بالر" وبذكر الكتاب ومن كونها مكيات.

إلا أن الشيخ رشيد رضا لم يسلم ما ذهب إليه كل من السيوطي والألوسي، ذاهبا إلى أن ترتيب جميع السور توقيفي عن النبي (ﷺ) وأن مستند السيوطي والبيهقي من قبله هو حديث عثمان المذكور، ورد عليهما بأنه لا يعقل أن يرتب النبي (ﷺ) جميع السور إلا الأنفال وبراءة، وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة كل عام فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته؟ التحقيق أن وضعهما في موضعها توقيفي وأن فات عثمان أو نسيه، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشه فيه عند كتابة القرآن.

ثم قال: وهذا الحديث الذي قال الترمذي حسن، لا نعرفه إلا من حديث عوف بن أبي جميلة عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي هذا غير مشهور، وسئل عنه يحيى بن معين فقال: لم أعرفه، ومثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر. (أنظر: روح المعاني: 140/9، 141، وتفسير المنار: 539/9، 540).

قل الأنفال لله وللرسول»¹⁶⁷ (آية: 1) فكأن قد قيل لهم اتركوا ما ترون أنه حق واجب لكم (وفوضوا)¹⁶⁸ في أمره الله وللرسول فذلك أسلم وأحزم في ردع أغراضكم وقمع شهواتكم، وترك أهوائكم، وقد ألف في هذه الشريعة السمحة البيضاء حسم الذرائع كثيرا، وإقامة مظنة الشيء مقامه كتحريم الجرعة من الخمر، والنظرة، والخطبة في العدة، واعتداد النوم الثقيل ناقضا، فهذه مظان لم يقع الحكم فيها على ما هو لأنفسها، ولا بما هي كذا، بل بما هي مظان وروادع لما منع لعينه، أو استوجب حكما ما لعينه وعلته الخاصة به.

ولما أمر المسلمون بحل أيديهم عن الأنفال يوم بدر، إذ كان المقاتلة قد هموا بأخذها، وحدثوا أنفسهم بالانفراد بها، ورأوا أنها من حقهم، وأن من لم يباشر قتالا من الشيوخ، ومن انحاز فئة لهم فلا حق له فيها، ورأى الآخرون أيضا أن حقهم فيها ثابت لأنهم كانوا فئة للمقاتلين، وعدة وملجأ وراء ظهورهم، كان ما أمرهم الله به من تسليم الحكم في ذلك إلى الله ورسوله من باب حسم الذرائع، لأن تمشية أغراضهم في ذلك - وإن تعلق كل من الفريقين بحجة - مظنة لرياسة النفوس، واستسهال إتباع الأهواء، فأمرهم الله بالتزهد عن ذلك والتفويض فيه لله ولرسوله، فإن ذلك أسلم لهم، وأوفى في إصلاح ذات البين، (وأجدي)¹⁶⁹ في الإتيان (بقوله)¹⁷⁰: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم...» (آية: 1). ثم ذكروا بما ينبغي لهم أن يلتزموا فقال تعالى: «إنما المؤمنون»¹⁷¹ إلى قوله: «زادتهم إيماناً» (آية: 2)، ثم نبهوا على أن أعراض الدنيا من نفل أو غيره لا ينبغي للمؤمن أن يعتمد عليه اعتمادا يدخل عليه ضررا من الشرك، أو التفاتا إلى غير الله سبحانه وتعالى بقوله: «وعلى ربهم يتوكلون» (آية: 2) ثم ذكروا بما وصف به المتقين من الصلاة والإنفاق، ثم قال: «أولئك هم المؤمنون حقا» (آية: 4) تنبيها على أن من قصر عن هذه الأحوال ولم يأت بها على كمالها لم يخرج عن الإيمان، ولكن ينزل¹⁷² (عن) درجة الكمال بحسب تقصيره، وكان هذا إشعار بعذرهم في كلامهم في الأنفال، وأنهم قد كانوا في مطلبهم على حالة من الصواب، وشرب من التمسك والاتباع، لكن أعلى الدرجات ما بين لهم ومُنحوه، وأنه الكمال والفوز.

167. ساقطة من: أ

168. في أ: فوضوا

169. في ب: وأغرى

170. ساقطة من: أ

171. في ب: «إنما المؤمنون إخوة» (الحجرات: 10) وهي ليست مقصودة هنا.

172. في ب: على

ثم نبههم سبحانه بكيفية أمرهم في الخروج إلى بدر، وودهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم، وهو سبحانه يريهم حسن العاقبة فيما (اختار) ¹⁷³ لهم، فقد كانوا تمنوا/ لقاء العير، واختاروا ذلك على (لقاء) ¹⁷⁴ العدو، ولم يعلموا ما وراء: «ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين» (آية: 7) إلى ما قصه تعالى عليهم من اكتنافهم برحمته وشمول ألطافه وآلائه وبسط نفوسهم، ونبههم على ما ثبتت يقينهم ويزيد في إيمانهم.

ثم اعلم أن الخير كله في التقوى، فقال: «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا» (آية: 29)، وهذا هو الذي حرفة إبليس وبلعام فكان منهما ما تقدم من إتباع الأهواء القاطعة لهم عن الرحمة، وقد تضمنت حصول الدنيا والآخرة بنعمة الإتياء، ثم أجمل الخيران معا في قوله: «والله ذو الفضل العظيم» (آية: 29). والفضل العظيم بعد تفضيل ما إليه إسراع المومن من الفرقان والتكفير والغفران، ولم يقع التصريح بخير الدنيا الخاص بها مع اقتضاء الآية إياه تنزيها للمؤمن- في مقام إعطاء الفرقان وتكفير السيئات والغفران- عن ذكر متاع (الدنيا) ¹⁷⁵ التي هي لهو ولعب، فلم يكن ذكر متاعها الفاني ليذكر مفصلا مع ما لا يجانسه ولا يشاكله، «وإن الدار الآخرة هي الحيوان» (العنكبوت: آية: 64)، ثم التحمت الآي. ووجه آخر وهو أنه سبحانه لما قال: «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له» (الأعراف: آية: 204) بين لهم كيفية هذا الاستماع وما الذي يتصف به المؤمن من ضروبه فقال: «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا» ¹⁷⁶ (آية: 2)، فهؤلاء لم يسمعوا بأذانهم فقط، ولا كانت لهم آذان لا يسمعون بها، ولا قلوب لا يفقهون بها، ولو (كانت) ¹⁷⁷ كذا لما وجلت وعمهم الفزع والخشية، وزادتهم الآيات إيمانا، فإذا إنما يكون سماع المؤمن هكذا، «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» (آية: 21).

ولما كان هؤلاء إنما أتى عليهم من اتباع أهوائهم والوقوف مع أغراضهم وشهواتهم يأخذون عرض هذا الأدنى «ولكنه أدخل إلى الأرض واتبع هواه» (الأعراف: آية: 176) وهذه بعينها كانت آفة إبليس، (فإنه) ¹⁷⁸ رأى لنفسه مزية واعتقد لها الحق ثم اتبع هذا الهوى

173. في ب: اختاره

174. في ب: اللقاء

175. في أ: الدين

176. ساقطة من: ب

177. في أ: كانوا

178. ساقطة من: ب

حين قال: «لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون» (الحجر: آية: 33)، فلما كان إتباع الأهواء أصلا في الضلال/ وتنكب الصراط المستقيم، أمر المؤمنون بحسم باب الأهواء والتسليم فيما لهم به تعلق وإن لم يكن هوى مجردا. لكنه مظنة تيسير إتباع الهوى¹⁷⁹، فافتتحت السورة بسؤالهم عن الأنفال، وأخبروا أنها لله ورسوله، يحكم فيها (بها)¹⁸⁰ شاء، فاتقوا الله واحذروا الأهواء التي أهلكت من قص عليكم ذكره، وأصلحوا ذات بينكم برفع التنازع، وسلموا لله ولرسوله، وإلا لم تكونوا سامعين، وقد أمرتم أن تسمعوا السماع الذي عنه ترجى الرحمة، وبيانه في قوله تعالى: «إنما المؤمنون...» (الآية)¹⁸¹ (آية: 2).

ووجه آخر، وهو أن قصص بني إسرائيل عقب بوصاة المؤمنين خصوصا بالتقوى، وعلى حسب ما يكون الغالب فيما يذكر من أمر بني إسرائي، (ففي)¹⁸² البقرة أتبع قصصهم بقوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا» (آية: 104). ولما كان قصصهم مفتتحا بذكر تفصيلهم «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وإني فضلتكم على العالمين» (البقرة: آية: 47) افتتح خطاب هذه الأمة بما يشعر بتفضيلهم، وتأمل ما بين «يا بني إسرائيل» و«يا أيها الذين آمنوا» وأمر أولئك بالإيمان «وآمنوا بما أنزلت» (البقرة: آية: 41) وأمر هؤلاء بتعبد احتياطي فقليل: «وقولوا انظرونا واسمعوا» (آية: 104).

ثم أعقبت البقرة بآل عمران، وافتتحت ببيان المحكم والمتشابه الذي من جهته أتى على بين إسرائيل في كثير من مرتكباتهم.

ولما ضمنت سورة آل عمران من ذكرهم ما ورد فيها أعقب بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين» (آية: 100) ثم أعقبت¹⁸³ السورة بقوله: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» (النساء: آية: 1) وعدل عن الخطاب باسم الإيمان للمناسبة، وذلك أن سورة آل عمران خصت من مرتكبات إسرائيل بجرائم كقولهم في الكفار، «هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا» (النساء: آية: 51)، فهذا (بهت)¹⁸⁴، (ومنها)¹⁸⁵ قولهم: «إن الله فقير ونحن أغنياء»

179. ما بين القوسين غير واضح في (أ) نظرا للخرم الحاصل في المخطوط.

180. في أ: ما

181. في ب: الآيات

182. في أ: يعني

183. في أ: أعقب

184. البهت الكذب والافتراء أو أشده.

185. ب: منها

(آل عمران: آية: 181) إلى ما تخلل هاتين من الآيات المنبئة عن تعمدهم الجرائم، فعدل عن « يا أيها الذين آمنوا » إلى « يا أيها الناس » ليكون أوقع في الترتيب، (وأخوف وأوضح)¹⁸⁶ مناسبة لما ذكر.

ولما ضمنت سورة النساء قوله تعالى: « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » (آية: 160) إلى قوله: « وأكلهم أموال الناس بالباطل » (آية: 161)، اتبعت بقوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » (المائدة: آية: 1)، ثم ذكر لهم ما أحل لهم وحرم عليهم ليحذروا مما وقع فيه أولئك، فعلى هذا لما ضمنت سورة الأعراف من قصصهم جملة، وبين فيها اعتداءهم، وبناءه على إتباع الأهواء والهجوم على الأعراض، طلب هؤلاء باتقاء ذلك والبعد عما يشبهه جملة، فقليل في آخر السورة « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا » (الأعراف: آية: 201).

ثم افتتحت السورة الأخرى بصرفهم عما لهم به تعلق وإليه (تسبب)¹⁸⁷ يقيم عذرهم شرعا فيما كان منهم، فكأن قد قيل لهم ترك هذا أسلم وأبعد عن إتباع الأهواء، فسلموا في ذلك الحكم لله ولرسوله، واتقوا الله. ثم تناسج السياق والتحمت الآي وقد تبين وجه اتصال الأنفال بالأعراف من وجوه، والحمد لله.

186. ساقطة من : ب

187. في ب: تشبث

سورة براءة¹⁸⁸

اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف توجيهه، حتى أن شدة المشابهة والالتزام- مع أن الشارع عليه السلام لم يكن بين انفصالهما- أوجب أن لا يفصل بينهما بسم الله الرحمن الرحيم، وذلك أن الأنفال قد تضمنت الأمر بالقتال «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» (آية: 39) وبين أحكام الفرار من الزحف وحكم النسبة المطلوبة فيها بالثبوت ولحوق التأثيم للفرار، وأنها على الضعف، وحكم الأسرى، وحكم ولاية المؤمنين ومن يدخل تحت هذه الولاية، ومن يخرج عنها، ثم ذكر في السورة الأخرى من عهد إليه من المشركين، والبراءة منهم إذا لم يوفوا، وحكم من استجار منهم إلى ما يتعلق بهذا، وكله باب واحد، وأحكام متواردة على قضية واحدة، وهو تحرير حكم المخالف، فالتحمت السورتان أعظم التحام، ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أسرارهم.

188. هذه السورة مدنية بالاتفاق، وقد نزل أولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك وهو بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرا على الحج تلك السنة، ليقم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس "براءة من الله ورسوله" فلما قفل اتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما بقية السورة فنزلت في مجملها في شأن المنافقين قبيل وأثناء غزوة تبوك التي كانت في السنة التاسعة للهجرة وهي آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان صدر السورة التبري من الشرك والكفر، وسائرهما فضح للمنافقين وبيان لأساليبهم ليحذرهم المسلمون لذلك سهاها الصحابة ب: الفاضحة، والبعض، والمنفرة، والمثيرة، والمبعثرة، المدممة، والمخزية، والمنكدة، والمقشقة، وذلك لتنفيرها وتعبيرها عما في القلوب وبحث ذلك وإثارتها وبعثرتها، وفضح المنافقين وما يترتب على ذلك من الدمدمة عليهم والخزي والنكال والتشريد بهم، وهي تقشقر من النفاق أي تبرئ منه كما قال الزمخشري.

ولم يكن الصحابة ولا من بعدهم يكتبون البسملة في أولها لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور وهذا هو المعتمد المختار في تعليقه، وقيل رعاية لمن كان يقول أنها مع الأنفال سورة واحدة، والمشهور أنه لتزولها بالسيف ونبد العهد وقيل غير ذلك أنظر: (تفسير ابن كثير والمنار: (356/3) و(357 و10/174).

ونحن مع المؤلف في أن اتصال السورتين واضح لا يحتاج إلى تكلف في بيان المناسبة حتى عدما جمع من السلف بأنها سورة واحدة، إلا أننا نزيد الأمر إيضاحا فنقول: إذا كانت سورة الأنفال بينت أن النصر من عند الله ليس بكثرة عدد ولا عدة- وإن كانت العدة مطلوبة- إذ قال تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" وقال أيضا: "وما النصر إلا من عند الله" فإن هذه السورة بينت للمسلمين بأن يلتجئوا إلى الله ويتبرؤا من الشرك وألا يخافوا كثرة عدوهم وعظمة عدته، ويحذروا مكر المنافقين وأساليبهم وخذلانهم حتى لا تؤتى الجماعة المسلمة من داخلها وفي ذلك أعظم البلاء وأشد المصيبة. ولذلك ختمت بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة" ووصفت المنافقين بأنهم لا يفقهون: تثبتا للمؤمنين على الاستمرار في جانب الحق والإيمان والتأسي برسول الله الذي أرشده الله إلى التوكل عليه وبذلك ختمت السورة "فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم".

سورة يونس عليه السلام¹⁸⁹

لما تضمنت سورة براءة قوله تعالى: «إلا تنصروه فقد نصره الله» (آية: 40) وقوله: «عفا الله عنك لم أذنت لهم» (آية: 43) وقوله: «ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يوذون رسول الله لهم عذاب أليم» (آية: 61) وقوله: «لقد جاءكم (رسول)¹⁹⁰ إلى آخر السورة، (الآيتان: 128-129) إلى ما تخلل أثناء آي هذه السورة الكريمة مما شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب، ووصفه بالرفقة والرحمة، هذا مع ما انطوت (عليه هي والأنفال)¹⁹¹ من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه، وعلو دعوته وإعلاء لكلمته إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه، كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك، ومثيرا لتحرك ساكن الحسد من العدو (العظيم)¹⁹² ما منحه عليه السلام، قال تعالى في هذه السورة: «أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس» إلى قوله: «لسحر مبين» (آية: 2)¹⁹³ ثم قال تعالى: «إن ربكم الله» الآيات (آية: 3 وما بعدها) فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبيده؟ وإذا كان الكل ملكه وخلقه فيفعل في ملكه ما يشاء ويحكم في خلقه بما يريد «ذلكم الله ربكم فاعبدوه» (آية: 3) «ما خلق الله ذلك إلا بالحق» (آية: 5)، ثم توعده سبحانه الغافلين عن التفكير في عظيم آياته حتى أدتهم الغفلة إلى مرتكب سلفهم في العجب والإنكار، «وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» (الفرقان: آية: 7) «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا» (الفرقان: آية: 21)، وهذه مقالات الأمم المتقدمة «قالوا ما

189. هذه السورة في مجملها مكية سوى آيات ليست بالكثيرة قيل إنها مدنية ولكن طابعها ومضمونها كشأن سائر السور المكية، ونشير هنا إلى أن سورة يونس نزلت ثم تلتها هود ثم يوسف فوافق ترتيبها في النزول ترتيبها في المصحف، وهذا وجه من وجوه المناسبة بين هذه السور.

وقد أبدى المؤلف وجهاً قوياً في مناسبة مجيئها بعد براءة، وهناك وجه آخر وهو أن جل تلك في بيان أحوال المنافقين ومنه ما كانوا يقولونه ويفعلونه عند نزول القرآن «وإذا ما نزلت سورة فمنهم من يقول أيكّم زادته هذه إيماناً إلى قوله لا يفقهون» (128-125) وهذه في أحوال الكفار ومنها ما كانوا يقولونه في القرآن: «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إيت بقرآن غير هذا أو بدله.. (إلى قوله) عما يشركون» (15-18)، (أنظر: تفسير المنار: 142/11).

190. ساقطة من: ب

191. في ب: هي والأنفال عليه

192. في ب: العظيم

193. وقد روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنه قال لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أنكرت العرب ذلك أو من أنكروا منهم فقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فنزلت «أكان للناس عجباً... الآية» (أنظر: أسباب النزول للواحدي: 199 وتفسير ابن كثير: 482/3).

أنتم إلا بشر مثلنا» (يس: آية: 15)، «ما نراك إلا بشرا مثلنا» (هود: آية: 27)، «قالوا أنؤمن لبشرين مثلنا» (المؤمنون: آية: 48)¹⁹⁴ «(ما) هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم» (سبأ: آية: 43) فقال تعالى متوعدا للغافلين: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم... الآيات» (آية: 9 وما بعدها) وكل هذا بين الإلتحام جليل الإلتئام، ثم تناسجت أي السورة.

194. في الأصل : ان

سورة هود عليه السلام¹⁹⁵

لما¹⁹⁶ كانت سورة يونس عليه السلام قد تضمنت من آي التنبيه والتحريك للنظر، ومن العظات والتخويف والتهديد والترهيب والترغيب/ وتقرير المشركين والجاحدين والقطع بهم، والإعلام بالجريان على حكم السوابق، ووجوب التفويض والتسليم ما لم تشتمل على مثله سورة لتكرر هذه الأغراض فيها، وسبب تكرر ذلك فيها - والله أعلم - أنها (أعقت)¹⁹⁷ بها السبع الطوال، وقد مر التنبيه على أن سورة الأنعام بها وقع استيفاء بيان حال المتنكبين عن الصراط المستقيم على اختلاف أحوالهم، ثم استوفت سورة الأنعام ما وقعت الإحالة عليه من أحوال الأمم السالفة كما تقدم، وبسطت ما أجمل من أمرهم، ثم أتبع ذلك بخطاب المستجيبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحذروا وأذروا وكشف عن حال من تلبس بهم من عدوهم من المنافقين، وتم المقصود من هذا في سورتي (الأنفال وبراءة)¹⁹⁸، ثم عاد الخطاب إلى طريقة الدعاء إلى الله والتحذير من عذابه بعد بسط ما تقدم، فكان مظنة لتأكيد التخويف والترهيب لإتيان ذلك بعد بسط حال وإيضاح أدلة، فلهذا كانت سورة يونس عليه السلام مضمنة من هذا ما لم يضمن غيرها، ألا ترى افتتاحها بقوله: «إن ربكم الله... الآيات» (آية: 3)، ومناسبة هذا الافتتاح دعاء الخلق إلى الله في سورة البقرة بقوله تعالى: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» (آية: 21)، ثم قد نبهوا هناك فقال تعالى: «أم يقولون افتراه، قل

195. هذه السورة كسابقتها مكية وكان لها في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن، فقد أخرج جمع من المحدثين عن عدد كبير من الصحابة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للرسول (ﷺ): «يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب قال: شيبني هود وأخواتها، وفي طريق أخرى: شيبني هود والواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت: أنظر: (تحفة الأخوذ 493 ومستدرك الحاكم: 343/2، وتفسير ابن كثير: 535/3، والدر المنثور: 319/3).

وسبب اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه السورة أنها أبانت عن المثالات والنوازل المريعة التي حلت بالقرون الخوالي والأمم الماضية وكشفت عن القانون الإلهي الصارم الذي يحكم هذا الكون وتسير عليه الإنسانية، فقد استعرضت ستة أمم بارزة في التاريخ الإنساني كان لها شأن وجاه وقوة، وأوضحت السبل التي انحرفت بها عن منهج الرسل ودعوات الأنبياء، وإن كانت السبل مختلفة عن بعضها إلا أنها اشتركت في مجانبة الحق والعدل فكان مصيرها الهلاك. ومن الواضح البين- يقول صاحب المنار- أن المناسبة بين هذه السورة وسابقتها أن في هذه تفصيل لما أجمل في يونس من قصص الرسل عليهم السلام مع أممهم وهي مناسبة لها براءة المطلاع في فاتحتها والمقطع في خاتمتها وتفصيل الدعوة في أثنائها. فقد افتتحنا بذكر القرآن بعد "الر" ومثلها في هذا ما بعدهما من السور الأربع إلا الرعد فأولها "الم"، وذكر رسالة النبي المبلغ له عن الله تعالى، وبيان وظيفته فيها وهو الإنذار والتبشير، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ أمره في الأولى بالصبر حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين، وفي الثانية بالانتظار أي انتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه، وذكر في أثناء كل منهما التحدي بالقرآن ردا على من زعم أن الرسول (ﷺ) قد افتراه، وكذا حاجة المشركين في أصول الدين كلها، فهما باتفاق الموضوع واختلاف النظم والأسلوب آيتان من الإعجاز. (تفسير المنار: 2/12).

196. ب: ولما

197. ب: اعقب

198. أ: الانعام وبراءة

فأتوا بسورة مثله» (يونس: آية: 38) ثم تأكدت المواعظ والزواجر والإشارات إلى أحوال المكذبين والمعاندين، (فمن التنبيه)¹⁹⁹، «إن ربكم الله» (يونس: آية: 35)، «قل انظروا ماذا في السماوات والأرض» (يونس: آية: 101) إلى غير هذا.

وعلى هذا السنن تكررت العظات والأغراض المشار إليها في هذه السورة إلى قوله تعالى: «يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم» (يونس: آية: 108)، فحصل من سورة الأعراف والأنفال وبراءة ويونس تفصيل ما كان أجمل فيما تقدمها، كما حصل مما تقدم تفصيل أحوال السالكين والمتنكبين، فلما تقرر هذا كله، أتبع المجموع بقوله: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» (آية: 1).

وتأمل مناسبة الإتيان بهذين الاسمين الكريمين وهما: الحكيم، الخبير، ثم تأمل تلاؤم صدر السورة لقوله: «(قل) ²⁰⁰يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم» (يونس: آية: 108) وقد كان تقدم قوله تعالى: «قد جاءكم موعظة من ربكم»²⁰¹ (يونس: آية: 57)، فأتبع قوله تعالى: «قد جاءكم الحق من ربكم» بقوله في صدر سورة هود «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت» (آية: 1)، فكأنه في معرض بيان الحق والموعظة، وإذا كانت محكمة مفصلة فحق لها أن تكون شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وحق توبيخهم في قوله تعالى: «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه» (يونس: آية: 39). والعجب في عمههم مع إحكامه وتفصيله، ولكن... «(إن) ²⁰²الذين حققت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون» (يونس: آية: 96).

وتأمل قوله سبحانه آخر هذه السورة «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين» (آية: 119) فكل الكتاب حق وموعظة وذكرى، وإنما الإشارة والله أعلم بما أراد إلى ما تقرر الإيحاء إليه من كمال بيان الصراط المستقيم، وملتزمات متبعيه أخذا وتركاً، وذكر أحوال المتنكبين على شتى طرقهم واختلاف أهوائهم وغاياتهم، وشرهم إبليس فإنه متبعهم والقائل لجميعهم في إخبار الله تعالى (سبحانه)²⁰³ «إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» (إبراهيم: آية: 22)، وقد بسط من أمره وقصته في (البقرة والأعراف)²⁰⁴ ما يسر على المؤمنين الحذر منه وعرفهم

199. في الشبه

200. ساقطة من: ب

201. قد جاءكم موعظة من ربكم ساقطة من ب.

202. ساقطة من: ب

203. ب: ساقطة

204. أ: الأعراف والبقرة

به، وذكر اليهود والنصارى والمشركون والصابئون والمنافقون وغيرهم، وفصل متركب كل فريق منهم، كما استوعب ذكر أهل الصراط المستقيم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وفصل من أحوالهم ابتداء وانتهاء والتزاما وتركاً، ما أوضح طريقهم وعين حزبهم وفريقهم، «أولئك الذين هدى الله» (الأنعام: آية: 90) وذكر أحوال الأمم مع أنبيائهم وأخذ كل من الأمم بذنبه مفصلاً، وذكر ابتداء الخلق في قصة آدم عليه السلام، وحال الملائكة في التسليم والإذعان، وذكر فريقا الجن من مؤمن وكافر، وأمر الآخرة وانتهاء حال الخلائق واستقرارهم الآخروي، وتكرر دعاء الخلق إلى الله تعالى طمعاً (فيه) ²⁰⁵/ورحمة، وإعلام الخلق بما هو عليه سبحانه، وما يجب له من الصفات العلا، والأسماء الحسنى، ونبه العباد على الاعتبار، وعلموا طرق الاستدلال ورغبوا ورهبوا وانذروا واعلموا بافتقار المخلوقات بجملتها إليه سبحانه كما هو المنفرد بخلقهم إلى ما تحلل ذلك مما يعجز الخلائق عن حصره والإحاطة به، والله يقول الحق.

فلما تقدم هذا كله في السبع الطوال وما تلاها، أعقب ذلك بقوله: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» (آية: 1)، ثم أتبع هذا بالإيماء إلى فصول ثلاثة عليها مدار أي (الكتاب) ²⁰⁶، وهي: فصل الإلهية، وفصل الرسالة، وفصل التكليف. أما الأول فأشار إليه قوله: «ألا تعبدوا إلا الله» (آية: 2)، وأما فصل الرسالة فأشار إليه سبحانه: «إنني ²⁰⁷ لكم نذير وبشير» (آية: 2) وأما فصل التكليف فأشار إليه قوله سبحانه: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه» (آية: 3) وهذه الفصول الثلاثة (هي) ²⁰⁸ التي تدور عليها أي القرآن، وعليها مدار السورة الكريمة.

فلما حصل استيفاء ذلك كله فيما تقدم، ولم يبق وجه (شبهة) ²⁰⁹ للمعاند ولا تعلق للجاحد، واتضح الحق وبان، قال سبحانه وتعالى: «وجاءك في هذه الحق» (آية: 120) إشارة إلى كمال المقصود، وبيان المطلوب واستيفاء التعريف (بوضوح) ²¹⁰ الطريق، وقد وضع من هذا تلاؤم هذه السورة الكريمة لما تقدمها، ومما يشهد لهذا -والله أعلم- قوله تعالى: «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه» (آية: 17)، وقوله تعالى: «فاستقم كما

205. أ: منه

206. ب: الكتب

207. في الأصل: إني

208. ساقطة من: ب

209. ساقطة من: ب

210. ب: وضوح

أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا» (آية: 112) فقد وضح طريقك وفاز بالفلاح حزبك وفريقك، «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا» (آية: 113) فقد عرفتم سبيلهم ومصيرهم، فقد بان طريق الحق (وكيف)²¹¹ تنكب من حُرْم سلوكه من الخلق. ونظير قوله سبحانه: «وجاءك في هذه الحق» (آية: 120) عقب ما ذكر سبحانه «لمن الملك اليوم» (غافر: آية: 16) وقوله (تعالى)²¹²: «يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله» (الانفطار: آية: 19)، فتأمل ذلك، والله المستعان.

211. ب: وكيف

212. ب: ساقطة

سورة يوسف عليه السلام²¹³

هذه السورة من جملة ما قص عليه السلام²¹⁴ من أنباء الرسل وأخبار من تقدمه مما فيه التثبيت الممنوح في قوله تعالى: «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود: آية: 120)، وما وقعت الإحالة عليه في سورة الأنعام كما تقدم، وإنما أفردت على حدثها ولم تنسق على قصص الرسل مع (أهمهم)²¹⁵ في سورة واحدة لمفارقة مضمونها تلك القصص، (ألا ترى)²¹⁶ أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام وكيفية تلقي قومهم لهم وإهلاك مكذبيهم، أما هذه القصة فحاصلها فرج بعد شدة، وتعريف بحسن عاقبة الصبر، فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنه وبصره وشتات بيته، وامتحن يوسف عليه السلام بالجلب والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والأخوة والسجن، ثم امتحن جميعهم بشمول الضرر وقلة ذات اليد «مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل» (آية: 88)، ثم تداركهم الله بإلفهم وجمع شملهم ورد بصر أبيهم وائتلاف قلوبهم ورفع ما نزغ به الشيطان، وخلاص يوسف عليه (الصلاة)²¹⁷ والسلام من كيد من كاده، واكتنافه بالعصمة وبرأته عند الملك، وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر، وجلالة اليقين في حسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم على توالي الإمتحان وطول المدة. ثم انجر في أثناء هذه القصة الجليلة إثابة امرأة العزيز ورجوعها إلى الحق، وشهادتها ليوسف عليه السلام بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين، ثم استخلاص العزيز إياه إلى

213. وسبب نزولها ما رواه سعد بن أبي وقاص أنه أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه على أصحابه زمانا فقالوا لو قصصت علينا فنزلت، وقيل هي تسلية عما يفعله به قومه بما فعلت إخوة يوسف عليه السلام، وقيل أن اليهود سألوه صلى الله عليه وسلم أن يحدثهم بأمر يعقوب وولده وشأن يوسف وما انتهى إليه فنزلت. روح المعاني: 152/12. وما أبداه المصنف من ارتباط هذه السورة بسالفتها ظاهر ووجيه، نزيد ذلك إيضاحا فنقول:

لما ذكرت سورة هود النهايات الأليمة والخواتيم السيئة للأمم المكذبة، انفصلت هذه السورة بأن الأمة التي بعث فيها يوسف عليه السلام لم تكن نهايتها كأولئك بل هداها الله عز وجل وأمنت فتمتعت إلى حين، وحياة سيدنا يوسف وما لاقاه تشبه حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحمله وصبره، فكما كانت العاقبة الحسنة والمنزلة الرفيعة لسيدنا يوسف، ففي هذه السورة وعد ضمني من الله عز وجل لمحمد (ﷺ) أنه سينصره وسيجعله بالمقام الأرفع والمحل الأسنى، ولهذا جاءت متميزة عن القصص المذكورة في سورة هود وإن كان الموضوع في حقيقته واحدا، ولكن النتائج مختلفة.

وأشير إلى ملاحظة أبداء القرطبي حيث قال: قال العلماء: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بالفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ولا على معارضة غير المتكرر. أنظر الجامع لأحكام القرآن: 118/9.

214. ب: صلى الله عليه وسلم.

215. أ: أنهم

216. أ: الأخرى

217. ساقطة من: ب

ما أنجز في هذه القصة الجلييلة من العجائب والعبر، «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» (آية: 111). فقد انفردت هذه القصة بنفسها ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، وما جرى من أمهم، فلهذا فصلت عنهم²¹⁸. وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضي وسلم، ليتنبه المؤمنون على ما في طي ذلك، وقد صرح لهم (بها)²¹⁹ أجملت هذه السورة من الإشارة في قوله تعالى: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض» إلى قوله: «أمننا» (النور: آية: 35)، وكانت قصة يوسف (عليه السلام)²²⁰ بجمالها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر وهجرتهم وتشتتهم مع قومهم، وقلة ذات أيديهم إلى أن جمع الله شملهم «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» (آل عمران: آية: 103) وأورثهم الأرض وأيدهم ونصرهم، ذلك بجليل إيمانهم وعظيم صبرهم.

فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص، والله أعلم.

وأما تأخر ذكرها عنها فمناسب لحالها، ولأنها إخبار بعاقبة من آمن واتعظ ووقف عند ما حُد له فلم يضره ما كان، ولم تذكر إثر قصص الأعراف لما بقي من استيفاء تلك القصص الحاصل ذلك في سورة هود، ثم إن ذكر أحوال المؤمنين مع من كان معهم من المنافقين وصبرهم عليهم مما يجب أن يتقدم ويعقب بهذه القصة من حيث عاقبة الصبر والحض عليه كما مر، فأخرت إلى عقب سورة هود عليه السلام لمجموع هذا، والله تعالى أعلم.

ثم ناسب سورة يوسف أيضا أن تذكر إثر قوله تعالى: «إن الحسنات يذهبن السيئات» (هود: آية: 115) وقوله: «واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» (هود: آية: 115) وقوله: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» (الآية: هود: آية: 118) وقوله: «وقل للذين لا

218. يقول الشيخ عبد الله بن الصديق عن سبب ذكر قصة يوسف في سورة مستقلة وعدم تكرارها كسائر القصص القرآني: إن هذه القصة نزلت بسبب سؤال وقع «لقد كان ليوسف وإخوته آيات للسائلين» وذلك يقتضي أن تذكر كلها في موضع واحد ولو آخر شيء منها إلى سورة أخرى كان الجواب غير واف بالسؤال وذلك غير جائز، لأن تأخير الجواب عن وقت الحاجة لا يجوز كما هو مقرر في علم الأصول، ثم إن القصة ذكرت مجملة في قول يوسف لأبيه: «إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» وما حصل بعد ذلك بينه وبين إخوته يعد تفصيلا لهذه الرؤيا وتمهيدا لتفسيرها، ألا ترى إلى يوسف حين تلاقي بأبويه وإخوته وخرأ له سجدا قال: «يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا»، ولا شك أن السامع للرؤيا تطلعت نفسه إلى تأويلها ومعرفة ما المراد بالكوكب وما المراد بالشمس والقمر، وما معنى سجودهم، فكان من مقتضيات البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، تفصيل القصة بعد هذا الإجمال وتفسير الرؤيا بعد ذلك الإجمال، لتهدأ نفس السامع ويطمئن قلبه. (أنظر: جواهر البيان: 39).

219. أ: مما

220. أ: ساقطة

يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون» (هود: آية: 121) فتدبر ذلك. أما نسبتها (للآية) ²²¹ الأولى فإن ندم إخوة يوسف واعترافهم بخطأ فعلهم وفضل يوسف عليهم «لقد آثر الله علينا وإن كنا لخاطئين» (آية: 91) وعفوه عنهم «لا تثرى عليكم اليوم» (آية: 92)، وندم امرأة العزيز وقولها «الآن حصحص الحق...» (آية: 51) كل هذا من باب إذهاب الحسنات السيئة، وكأن ذلك مثال لما عرف المؤمنون من إذهاب الحسنات السيئة، وأما نسبة السورة لقوله تعالى: «واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» (هود: آية: 115) فإن هذا أمر منه سبحانه لنبيه عليه السلام بالصبر على قومه، فاتبع بحال يعقوب يوسف عليهما السلام، وما كان من صبرهما مع طول المدة وتوالي امتحان يوسف عليه السلام بالجلب ومفارقة الأب والسجن حتى خلصه الله أجمل خلاص بعد طول تلك المشقات، ألا ترى قول نبينا (عليه الصلاة والسلام) ²²²، وقد ذكر يوسف عليه السلام فشهد له بجلالة الحال، وعظيم الصبر فقال: «ولو لبثت في السجن ما لبث أخي يوسف لأجبت الداعي» ²²³، فتأمل عذره له عليهما السلام وشهادته بعظيم قدر يوسف، «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (آية: 120) لما قيل له عليه السلام: «واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» (هود: آية: 115) أتبع بحال يعقوب ويوسف من المحسنين، «ووهبنا له إسحاق ويعقوب» إلى قوله: «وكذلك نجزي المحسنين» (الأنعام: آية: 84).

وقد شملت الآية ذكر يعقوب ويوسف (عليهما السلام) ²²⁴، ونبينا عليه (الصلاة) ²²⁵ والسلام قد (أمر) ²²⁶ بالاعتداء في الصبر بهم، وقيل له «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» (الأحقاف: آية: 35) ويوسف عليه السلام من أولي العزم (صلى الله عليهم أجمعين) ²²⁷.

221. أ: ساقطة

222. ب: ساقطة

223. ونص الحديث «يرحم الله لوطا وقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: "رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي"، أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة، وأحمد في مسنده ومسلم في صحيحه، فتح الباري: 410/6 و 366/8 وأنظر الدر المنثور: 23/4، وتفسير ابن كثير: 32/4.

224. أ: ساقطة

225. أ: ساقطة

226. أ: أمرنا

227. ب: ساقطة

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام في صبرهما ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا مع ما أعد الله لهما من عظيم الثواب أنسب شيء لحال²²⁸ نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ومفارقة وطنه، ثم تعقب ذلك بظفره بعدوه، وإعزاز دينه، وإظهار كلمته، ورجوعه إلى بلده على حالة قرت بها عيون المؤمنين وما فتح الله عليه وعلى أصحابه، فتأمل ذلك.

ويوضح ما ذكرناه ختم السورة بقوله تعالى: « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا... » (آية: 110)، فحاصل هذا كله الأمر بالصبر وحسن (عاقبة)²²⁹ أولياء الله فيه. وأما النسبة لقوله «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين» (هود: آية: 118) فلا أنسب لهذا ولا أعجب من حال إخوة فضلاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحى عباده جرى بينهم من التشتت ما جعله الله عبرة لأولى الألباب، وأما النسبة لآية التهديد فيبينة، وكأن الكلام في قوة اعملوا على مكائتكم وانتظروا، (فلن)²³⁰ نصبر عليكم مدة صبر يعقوب ويوسف (عليهما السلام)²³¹، (وقد)²³² وضح بفضل الله وجه ورود هذه السورة عقب سورة هود، والله أعلم.

228. ب: بحال

229. ب: عواقب

230. ب: على

231. ب: عليها الصلاة والسلام

232. ب: فقد

سورة الرعد²³³

هذه السورة تفصيل لمجمل قوله سبحانه في خاتمة سورة يوسف عليه السلام « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (آية: 105) « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (آية: 106) « أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون » (آية: 107) « قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » (آية: 108)، فبيان آي السموات في (قوله)²³⁴: « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » (آية: 2) وبيان آي الأرض في قوله: « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » (آية: 3) فهذه آي السموات والأرض وقد زيدت بيانا في مواضع، ثم في قوله تعالى: « يغشي الليل النهار » (آية: 3) (و)²³⁵ ما (يكون)²³⁶ من الآيات عنهن، لأن الظلمة عن جرم الأرض والضياء عن نور الشمس وهي سماوية، ثم زاد تعالى آيات الأرض بيانا وتفصيلا في قوله: « وفي الأرض قطع متجاورات » إلى قوله « لقوم يعقلون » (آية: 4)، ولما كان إخراج الثمر بالماء النازل من السماء من أعظم آية ودليلا واضحا على صحة المعاد، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: « كذلك نخرج الموتى » (الأعراف: آية: 57)، وكان قد ورد هنا على أعظم جهة في الاعتبار من إخراجها مختلفات في الطعوم والألوان والروائح مع اتحاد المادة، تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الطعوم والألوان والروائح مع اتحاد المادة « تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل » (آية: 4) لذلك²³⁷ أعقب قوله تعالى: « وفي الأرض قطع متجاورات... » الآية بقوله: « وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا إنا لفي خلق جديد » (آية: 5)، ثم بين سبحانه الصنف القائل بهذا وأنهم الكافرون أهل الخلود في النار، ثم أعقب ببيان عظيم حلمه وعفوه فقال: « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة... » (آية: 6)، ثم اتبع ذلك بما يشعر بالجرى على السوابق في قوله: « إنما أنت منذر ولكل

233. هذه السورة الكريمة اختلف فيها هل هي مكية أو مدنية فبعضهم قال مكية وبعضهم قال مدنية وبعضهم قال فيها المدني والمكي، ولكن المتبع لآياتها إذا قارنها بالآيات المكية يجدها بها أشبه، وموضوعها بيان آيات الله عز وجل في السماء والأرض ودلائل عظيمته وقدرته في الخلق والتدبير، ولهذا فقد برع المصنف كعادته في بيان وجه ارتباطها بسورة يوسف من حيث أنها تفصيل لأواخر سورة يوسف، وإقامة البراهين أمام الخلق للاهتمام إلى معرفة الخالق، ومن هذه البراهين برهان القرآن وأنه منزل من عند الله تعالى؛ (قارن بذلك تناسق الدرر: 109، 110، وتفسير المراغي: 60/13).

234. أ: قول

235. زيادة من المحقق لربط الكلام

236. ب: تكون

237. ب: لذلك

قوم هاد» (آية: 7) ثم بين عظيم ملكه وإطلاعه على دقائق ما أوجده من جليل صنعه واقتداره فقال: «الله يعلم ما تحمل كل أنثى...» الآيات إلى قوله: «وما لكم من دونه من وال» (الآيات: 8-11) ثم خوف عباده وأنذرهم ورغبتهم «هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً» الآيات (13 وما بعدها) وكل ذلك راجع إلى ما أودع سبحانه في السماوات والأرض وما بينهما من الآيات، وفي ذلك أكثر آي السورة.

ونبه تعالى على الآية الكبرى والمعجزة العظمى فقال: «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى» (آية: 30) والمراد لكان هذا القرآن²³⁸، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (النساء: آية: 82)، والتنبيه بعظيم هذه الآيات مناسب لمقتضى السورة من التنبيه بما أودع تعالى من الآيات في السماوات والأرض، وكأنه جل وتعالى لما بين لهم عظيم ما أودع في السماوات والأرض وما بينهما من الآيات وبسط ذلك وأوضحه أردف ذلك بآية أخرى جامعة للآيات ومتسعة للاعتبارات فقال تعالى: «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال» فهو من نحو «إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين» (الجن: آية: 2)، «وفي أنفسكم» (الذاريات: آية: 21)، أي لو فكرتم في آيات السماوات والأرض لأقلتكم وكفتمكم في بيان الطريق إليه، ولو فكرتم في أنفسكم وما أودع تعالى فيكم من العجائب لاكتفيتم، (من عرف نفسه عرف ربه)²³⁹.

فمن قبيل هذا الضرب من الاعتبار هو الواقع في سورة الرعد من بسط آيات السماوات والأرض، ثم ذكر القرآن وما يحتمل، فهذه إشارة إلى ما تضمنت هذه السورة الجليلة من بسط الآيات المودعة في الأرضين والسماوات.

وأما قوله تعالى: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (يوسف: آية: 106) فقد أشار إليه قوله تعالى: «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» (الرعد: آية: 1) «إنما يتذكر أولوا

238. يقول الشيخ المراغي تأكيداً لهذا المعنى: «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال» أي ولو ثبت أن كتاباً سيرت بتلاوته الجبال وزعزت من أماكنها كما فعل بالطور لموسى عليه السلام، «أو قطعت به الأرض» أي شققت وجعلت أنهاراً وعيوناً كما حدث للحجر حين ضربه موسى بعصاه، «أو كلم به الموتى» أي أو كلم به أحد الموتى في قبورهم بأن أحياهم بقراءته فتكلم معهم بعد كما وقع لعيسى عليه السلام، لو ثبت هذا الشيء من الكتب لثبت هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله في الأنفس والآفاق... ويجوز أن يكون المعنى لو أن كتاباً فعلت بواسطته هذه الأفاعيل العجيبة لما آمنوا به لفرط عنادهم وغلوهم في مكابرتهم (تفسير المراغي: 104/13، 105).

239. هذا النص قال ابن السمعاني لا يعرف مرفوعاً وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي، قال الإمام النووي: إنه ليس بحديث ثابت. (انظر تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث ص: 165 والدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ص: 148)، قلت: ويحيى بن معاذ الرازي أبو زكريا من كبار الزهاد والوعاظ من أهل الري، مات بنسباً سنة 258هـ. ولم يكن له نظير في وقته في الزهد والورع، وله كلمات سائرة.

الألباب» (الرعد: آية: 19) وقوله: «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم (بذكر) ²⁴⁰ الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (الرعد: آية: 28)، فالذين تطمئن قلوبهم بذكر الله هم أولو الألباب المذكرون التامو الإيمان (وهم) ²⁴¹ القليل المشار إليهم في قوله: «و قليل ما هم» (سورة ص: 24 آية: 1) والمقول فيهم «أولئك هم المؤمنون حقا» (الأنفال: آية: 4) ودون هؤلاء طوائف من المؤمنين ليسوا في درجاتهم ولا بلغوا يقينهم وإليهم الإشارة بقوله: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (يوسف: آية: 106) قال عليه (الصلاة) ²⁴² والسلام: (الشرك في أمتي أخفى من ديب النمل) ²⁴³ فهذا بيان ما أجمل في قوله: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون».

وأما قوله تعالى: «أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله» (يوسف: آية: 107) فما عجل ²⁴⁴ لهم من ذلك في قوله: «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله» (الرعد: آية: 31) القاطع دابرهم والمستأصل لأمرهم، وأما قوله تعالى: «قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة...» الآية (يوسف: آية: 108)، فقد أوضحت أي سورة الرعد سبيله عليه السلام وبيته بما تحمله من عظيم التنبيه الدلائل بما في السماوات والارض وما بينهما، وما في العالم بجملته وما تحمله الكتاب المبين كما تقدم.

ثم قد تعرضت السورة لبيان جلي سالكي تلك السبيل الواضحة المنجية، فقال تعالى: «الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق» (آية: 20) إلى آخر ما حلاهم به أخذوا وتركوا.

ثم عاد الكلام بعد إلى ما فيه من التنبيه والبسط وتقريع الكفار وتوبيخهم وتسليه عليه السلام في أمرهم «إنما أنت منذر» (آية: 7) «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية» (آية: 38) «فإننا عليك البلاغ وعلينا الحساب» (آية: 40) «ويقول الذين كفروا لست مرسلا» (آية: 43) والسورة بجملتها غير حائدة عن تلك الأغراض المجملة في الآيات الأربع المذكورات من آخر سورة يوسف، ومعظم السورة وغالب آيها في التنبيه وبسط الدلالات والتذكير بعظيم ما أودعت من الآيات، ولما كان هذا شأنها أعقبت بمفتتح سورة إبراهيم عليه السلام.

240. في أ: لذكر

241. في أ: وهو

242. أ: ساقطة

243. جاء هذا النص مرفوعا من رواية عدد من الصحابة وبعضها مطولا، فقد أخرجه الإمام أحمد والطبراني والبخاري من حديث أبي موسى الأشعري، وأخرجه أبو يعلى الموصلي، وأبو القاسم البغوي، وابن عدي وابن حبان من حديث أبي بكر الصديق كما أخرجه الحاكم في التفسير والحكيم في نواذر الأصول من حديث عائشة، وطرقه كلها مضعفة. (أنظر: فيض القدير: 172/4، 173. وتفسير ابن كثير: 57/4).

244. أ: فما أعجل

سورة إبراهيم عليه السلام²⁴⁵

لما كانت سورة الرعد على ما تمهّد²⁴⁶ (بأن)²⁴⁷ كانت تلك الآيات والبراهين (التي سلفت فيها)²⁴⁸ لا يبقى معها شك لمن اعتبر بها لعظيم²⁴⁹ شأنها واتضح²⁵⁰ أمرها، قال تعالى: «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم» (الآيتان: 1-2) أي إذا هم تذكروا به واستبصروا ببراهينه وتدبروا آياته «ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض (أو كلم به الموتى)» (الرعد: آية: 31) (لكان هو)²⁵¹، ولما كان الهدى والضلال كل ذلك موقوف على مشيئة الله سبحانه وسابق إرادته، وقد قال لنبيه عليه السلام: «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد» (الرعد: آية: 8) قال تعالى هنا: «بإذن ربهم» (الآية: 1) «فإنما عليك البلاغ» (الرعد: آية: 40) وكما قال تعالى: «وكأين من آية في السماوات والأرض» (يوسف: آية: 105)، ثم بسطها في سورة الرعد، أعلم هنا أن ذلك كله له وملكه؛ فقال: «الله الذي

²⁴⁵ هذه السورة الكريمة مكية النزول في جملتها، ويظهر لي أن من وجوه ارتباط هذه السورة بما قبلها والله أعلم، أنه لما تقدم في سورة الرعد إقامة الدلائل والبراهين على عظمة الله وقدرته وتدبيره، جاءت هذه السورة لتبين ناموسا من نواميس هذا الكون، وتملي حقيقة من حقائق هذا الوجود، ألا وهي أن الحق يشب ويدوم وينمو مع الأيام ويزداد، وإن الباطل يتضاءل ويتصاغر ويذوب، فبعد أن مهدت السورة بمحاورة الرسل مع أقوامهم وجهدهم في النصيح لهم، جاء قوله تعالى: "مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد" وهذا مثل الباطل الذي يزول سريعا ثم بعد آيات جاء مثل الحق "لم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها".

وبعد هذا التقرير الإلهي تنتقل هذه السورة إلى حقيقة كان العرب يعيشونها ألا وهي حقيقة إبراهيم وإسماعيل، إذ ترك إبراهيم فلذة كبده إسماعيل في الأرض القفر لا ظل ولا ماء ولكنه فرع من الشجرة الطيبة فهياً الله له أسباب النماء والعفاء، وهو أبوكم الذي إليه تنتسبون وبأصله تعتزون يا معشر المخاطبين من العرب، فإذا كان أصلهم بالحق والإيمان لنا فما عليكم إلا سلوك هذا السبيل ليستمر وجودكم ويزداد عزكم وشر فكم، ولا تكونوا كالأمم التي عصت وكذبت وتقدم ذكرها في سورة هود فكان عاقبتها خسرانا، بل اسلكوا سبيل أبيكم إبراهيم، ففي هذا بلاغ وإنذار يهتدي به أولو الألباب "هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنها هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب".

وقد أبدى الشيخ المراغي أوجها لارتباطها بالتي قبلها وهي: أنه قد ذكر سبحانه في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حاكما عربيا ولو يصرح بحكمة ذلك وصرح به هنا. وأنه ذكر في السورة السالفة قوله "وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله" وهنا ذكر أن الرسل قالوا: "وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله". وذكر هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه. وذكر هناك رفع السماوات بغير عمد، ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر، وذكر هنا نحو ذلك. وذكر هناك مكر الكفار وذكر مثله هنا، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك. واشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل، واشتملت هذه على ذلك أيضا (تفسير المراغي: 122/13).

²⁴⁶ أ: أقحم بعد كلمة تمهّد ما يلي: (قال تعالى: كتاب أنزلناه إليك إلى قوله بإذن ربهم) وبدونها يستقيم التركيب.

²⁴⁷ أ: لما

²⁴⁸ ساقطة من: أ

²⁴⁹ ب: لتعظيم

²⁵⁰ ب: وإيضاح

²⁵¹ ب: ساقطة

له ما في السماوات وما في الأرض» (آية: 2)، فالسماوات والأرض بجملتهما وما فيهما (وما بينهما)²⁵² من عظيم ما أوضح لكم الاعتبار به كل ذلك/ له ملكا وخلقنا واختراعنا «وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها» (آل عمران: آية: 83) «وويل للكافرين من عذاب شديد»²⁵³ (إبراهيم: آية: 2) لعنادهم مع وضوح الأمر وبيانه، ويصدون عن سبيل الله مع وضوح السبيل وانتهاج ذلك بالدليل²⁵⁴ (ثم)²⁵⁵ قال تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (آية: 4) وكان هذا من تمام قوله سبحانه: «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية» (الرعد: آية: 38)؛ وذلك أن الكفار لما حملهم الحسد والعناد (وبعد)²⁵⁶ إلفهم بما جبل على قلوبهم وطبع عليها على أن أنكروا كون الرسل من البشر حتى قالوا: «أبشر يهدوننا» (التغابن: آية: 6) «ما أنتم إلا بشر مثلنا» (يس: آية: 15) وحتى قالت قريش: «لولا أنزل (عليه)²⁵⁷ ملك» (الأنعام: آية: 8) «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك...» الآية (الفرقان: آية: 7) «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» (الزخرف: آية: 31) فلما كثر هذا منهم، وتبع خلفهم في هذا سلفهم، رد تعالى (أزعامهم)²⁵⁸ وأبطل توهمهم في آيات وردت على التدرج في هذا الغرض شيئا فشيئا، فأول الوارد من ذلك في معرض السرد عليهم وعلى ترتيب سور الكتاب قوله تعالى: «أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم... الآية» (يونس: آية: 2)، ثم أتبع ذلك بانفراده تعالى بالخلق والاختراع والتدبير والربوبية، وفي طي ذلك أنه يفعل ما يشاء، لأن الكل خلقه وملكه وأنه العليم بوجه الحكمة في إرسال الرسل وكونهم من البشر، فأرغم (الله)²⁵⁹ تعالى بمضمون هذه (الآي) ²⁶⁰ كل جاحد ومعاند، ثم ذكر تعالى في سورة هود قوم نوح: «ما نراك إلا بشرا مثلنا.. الآية» (هود: آية: 27) وجوابه عليه السلام: «أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» (هود: آية: 28) أي وإني وإن كنت في البشرية مثلكم فقد خصني الله من فضله وآتاني رحمة

252. ساقطة

253. هذه الآية ساقطة من: أ

254. ب: الدليل

255. ب: ساقطة

256. ب: بعد

257. أ، ب: إليه وهو خطأ

258. في أ: ازعاما لهم

259. في أ: ساقطة

260. ب: الآية

من عنده وبرهاننا على ما جئكم به عنه، وفي هذه القصة (أوضح) ²⁶¹ عظة. ثم جرى هذا لصالح وشعيب عليهما السلام وديدن الأمم أبدا مع أنبيائهم ارتكاب هذه المقالات، وفيها من الحيد والعجز عن مقاومتهم ما لا يخفى، وما هو شاهد على تعنتهم ²⁶²، ثم زاد تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم تعريفا بأحوال من تقدمه من الأنبياء (عليهم السلام) ²⁶³ ليسمع ذلك من جرى (له) ²⁶⁴ مثل ما جرى لهم فقال مثل مقالته؛ فقال تعالى: «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية» (الرعد: آية: 39) وأعلم سبحانه أن هذا لا يحيط شيئا من مناصبهم بل هو أوقع في قيام الحجة على العباد، ثم تلى ذلك بقوله: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (إبراهيم: آية: 4) أي ليكون أبلغ في الحجة وأقطع للعدر ²⁶⁵، فربما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة لا نفهم عنهم، إذ (قد) ²⁶⁶ قالوا ذلك مع اتفاق اللغات، فقد قال قوم شعيب عليه السلام: «(ما) ²⁶⁷ نفقه كثيرا مما تقول» (هود: آية: 91) هذا وهو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم، فكيف لو كان على خلاف ذلك، بل لو خالفت الرسل عليهم السلام الأمم في التبتل وعدم اتخاذ الزوجات والأولاد، واستعمال الأغذية وغير ذلك من مألوفات ²⁶⁸ البشر لكان ذلك منفرا ²⁶⁹، فقد بان وجه الحكمة في كونهم من البشر، ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار والشرود لافتراق الجنسية وإليه الإشارة بقوله تعالى: «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون» (الأنعام: آية: 9) أي ليكون أقرب إليهم لئلا يقع تنافر؛ فكونهم من البشر أقرب وأقوم للحجة.

ولما كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عامة ²⁷⁰ كان عليه الصلاة ²⁷¹ والسلام يخاطب كل طائفة من طوائف العرب بلسانها ويكلمها بما تفهم ²⁷² وتأمل (كم) ²⁷³ بين

261. في ب: أعظم

262. في أ: تعبتهم

263. ساقطة من: أ

264. ب: لهم

265. ب: في العذر

266. ب: ساقطة

267. ب: لا

268. في ب: مما لو لوفات

269. أ: مقصرا، والصواب منفرا.

270. أ: تامة

271. أ: ساقطة

272. أنظر الهامش: 275

273. أ: ساقطة

كتابه صلى الله عليه وسلم لأنس (رضي الله عنه)²⁷⁴ في الصدقة، وكتابه إلى وائل بن حجر مع اتحاد الغرض، وللكتابين نظائر يوقف عليها في مظانها²⁷⁵ وكل ذلك لتقوم²⁷⁶ الحجة على الجميع. واستمر باقي سورة إبراهيم عليه السلام على التعريف بحال مكذبي الرسل ووعيد من خالفهم وبيان أحوال الآخرة وعذابها.

274. أ: ساقطة

275. أما كتابه لوائيل بن حجر فإنه لما أراد الشخوص إلى بلاده بعد أن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله اكتب لي إلى قومي كتابا، فقال رسول الله (ﷺ) اكتب له يا معاوية إلى الأفيال العباهلة ليقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، والصدقة على النعمة السائمة لصاحبها التهمة لا خلاط ولا وراط، ولا شعار، ولا جلب ولا جنب ولا شناق وعليهم العون لسرايا المسلمين، وعلى كل عثرة ما تحمل العراب من أجبا فقد أربي. (أنظر نص الكتاب في طبقات ابن سعد الكبرى: 287/1، وأنظر نهاذج كتبه صلى الله عليه وسلم إلى قبائل العرب بلهجاتها المختلفة في نفس المصدر).

أما كتاب أنس فقد كتبه النبي صلى الله عليه وسلم وختمه ليوجهه عاملا إلى البحرين لكن المنية عاجلته فوجهه أبو بكر، وقد أخرجه البخاري في صحيحه مطولا ومفرقا في مواضع في كتاب الزكاة من صحيحه، كما أخرجه أحمد والشافعي والبيهقي والحاكم والدارقطني (أنظر: صحيح البخاري مع الفتح: 317/3 ونيل الأوطار: 143/4).

276. ب: يقوم

سورة الحجر²⁷⁷

لما تقدم من وعيد الكفار ما تضمنته الآي المختتم بها سورة إبراهيم عليه السلام من لدن قوله سبحانه: « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » إلى خاتمتها (الآيات: 42-52) أعقب ذلك بقوله: « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » (آية: 2) أي²⁷⁸ عند مشاهدة تلك الأحوال الجلائل²⁷⁹، ثم قال تعالى تأكيداً لذلك الوعيد: « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » (آية: 3) ثم أعقب تعالى²⁸⁰ هذا بيان ما جعله سنة في عباده من ارتباط الثواب والعقاب معجلة ومؤجلة بأوقات وأحيان لا انفكاك لهما²⁸¹ عنها، ولا تقدم ولا تأخر إذ استعجال البطش في الغالب إنما يكون ممن يخاف الفوت، والعالم بجملتهم لله تعالى وفي قبضته لا يفوته أحد منهم ولا يعجزه؛ قال تعالى: « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » (آية: 4) وكأن هذا يزيده²⁸² إيضاحاً قوله عز وجل: « إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » (إبراهيم: 42) وقوله: « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب » (إبراهيم: آية: 44) وقوله: « يوم تبدل الأرض غير الأرض ... الآية » (إبراهيم: آية: 48).

277. هذه السورة مكية كما أخرج ذلك النحاس وابن مردويه، وجريا على قاعدتنا في بيان بعض أوجه الارتباط بين السور فأقول:

إن ارتباط سورة الحجر بسورة إبراهيم له متعلقات عديدة منها ما أبداه المصنف وما أبداه غيره، ومن هذه المتعلقات: لما كانت سورة إبراهيم قبلها تذكرة بفضل الله على إبراهيم وإسماعيل أبي العرب ونبههم الوحيد قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وتبياناً بالطفاف الله عز وجل بعباده المخلصين، وكانت خاتمة هذه السورة « هذا بلاغ » للناس ولينذروا به وليعلموا أنها هو إله واحد، وليذكر أولو الألباب « وأن الإله الواحد هو الذي أكرمهم بهذا الرسول وهذا الكتاب الذي جاء به، بينت سورة الحجر مصير قوم من جلدتهم عاشوا في هذه الديار أو قريباً منها، فلما عتوا عن أمر الله أصبحوا أثراً بعد عين، وفي ذلك عدوة لهم ليتأملوا بعقولهم وألبابهم. فقد قال صلى الله عليه وسلم مستثيراً عقول أصحابه عندما مروا معه على الحجر لاجتناب سبيل المجرمين: (لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم يصيبكم ما أصابهم). (أخرجه أحمد والبخاري من حديث ابن عمر، أنظر: فتح الباري: 381/8).

وقبل أن يقص الحق تبارك وتعالى خبر أصحاب الحجر ذكر المنشأة الأولى للإنسانية، وتسليط إبليس من تلك اللحظات ليغوي هذا المخلوق، واستمراره في هذا الخط، ثم ذكرت قصة إبراهيم مع الملائكة ومع قوم لوط ودمارهم، تنبيهاً لكل ذي لب أن قدرة الله تبارك وتعالى لا يحجزها حاجز ولا يدافعها مدافع وذكرتهم بمنة الله عليهم إن الله أتى نبيه سبعا من المثاني والقرآن العظيم تشريفاً وتكريماً له ولهم، ثم جاءت بعد ذلك سورة النحل لتعدد لهم نعم الله عليهم كما سنين ذلك في سورة النحل.

278. أ: ساقطة

279. أ: الجذائل

280. أ: ذلك

281. ب: لها

282. ب: يزيد

وتأمل نزول قوله تعالى: «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» (آية: 2) على هذا، وعظيم موقعه في اتصاله به، ووضوح ذلك كله.

وأما افتتاح السورة بقوله: «(الر) ²⁸³ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين» (آية: 1) فإحالة على أمرين واضحين؛ أحدهما: ما نبه به سبحانه من الدلائل والآيات كما يفسر، والثاني: ما بينه القرآن المجيد وأوضحه وانطوى عليه من الدلائل والغيوب والوعد والوعيد وتصديق بعض ذلك بعضاً، فكيف لا يكون المتوعد به في قوة ²⁸⁴ الواقع الشاهد ²⁸⁵ لشدة البيان في صحة الوقوع، فالعجب من التوقف والتكذيب، ثم أعقب هذا بقوله: «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» (آية: 2).

283. ساقطة من: أ

284. أ: به لا يكون في قوة...

285. ب: المشاهد

سورة النحل²⁸⁶

هذه السورة في التحامها بسورة الحجر مثل الحجر بسورة إبراهيم من غير فرق، لما قال تعالى: «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون» (الحجر: الآيتان: 92-93) وقال بعد ذلك في وعيد المستهزين «فسوف يعلمون» (الحجر: آية: 96) أعقب هذا ببيان تعجيل الأمر فقال تعالى: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» (آية: 1) وزاد هذا بيانا قوله سبحانه وتعالى: «عما يشركون» (آية: 1) فنزه سبحانه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم، وأتبع ذلك تنبيها²⁸⁷ وتعظيما فقال: «خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون» (آية: 3) ثم أتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الإنسان وضعف جبلته «خلق الإنسان من نطفة» (آية: 4). ثم أبلغه تعالى حدا يكون منه²⁸⁸ الخصام والمحاجة، كل ذلك ابتلاء منه واختبار ليميز الخبيث من الطيب، وأعقب هذا²⁸⁹ بذكر بعض ألطافه (سبحانه)²⁹⁰ في خلق الأنعام وما جعل فيها من المنافع المختلفة/ وما هو سبحانه عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما أخرج العقوبة عن مستوجبها، وهدى من لم يستحق الهداية بذاته، بل كل هداية فبرأفة الخالق ورحمته، ثم أعقب ما ذكره بعد من خلق الخيل والبغال والحمير وما في ذلك كله قوله: «ولو شاء لهداكم أجمعين» (آية: 9) فبين أن كل الواقع من هداية وضلال، خلقه وفعله، وأنه أوجد الكل من واحد وابتدأهم ابتداء واحدا «خلق الإنسان من نطفة» (آية: 4)، فلا بعد في اختلاف غاياتهم بعد ذلك، فقد أرانا سبحانه مثال هذا الفعل ونظيره في قوله: «هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر» إلى قوله «لآية لقوم يتفكرون» (الآيتان: 10-11).

286. هذه السورة الكريمة مكية النزول خلا آيات ثلاث مدنية بشأن أسف النبي صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة، بعد أن استشهد بوقعة أحد ومُثل به فقال: (لئن أقدرني الله عز وجل لأمثلن بسبعين منهم)، فنزل قوله تعالى بعد ذلك: «وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» إلى قوله: «والذين هم محسنون» الآيات الثلاث الأخيرة من السورة.

وأضيف إلى ما أبداه المؤلف من التناسب بين السورتين بأن سورة الحجر التي ذكرت المخاطبين بالقرآن بمصارع الغابرين وأرشدتهم إلى دار الفاسقين، وأمرت النبي صلى الله عليه وسلم بأن يدوم على عبادته حتى يلقي ربه هو ومن اتبعه بقوله تعالى: «واعبد ربك حتى ياتيك اليقين» وجاءت كلمة رب ذات دلالة خاصة (أي المربي) بالنعم والألطف والعناية فكانت المناسبة قوية في بيان طائفة من هذه النعم وهذا ما جاءت به هذه السورة.

وقد أبدى الشيخ عبد الله بن الصديق أوجها أخرى من التناسب من بينها: ختام السورة السابقة بقوله تعالى: «واعبد ربك حتى ياتيك اليقين» وهو الموت وفتحت هذه بقوله: «أتى أمر الله» يوم القيامة فتناسبت فاتحة هذه وخاتمة تلك في ذكر أمرين واجبي الوقوع، وأيضا فقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة بداية خلق آدم «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون» وذكر في هذه ما خلق من النعم له ولأولاده مثل خلق نعمة الأنعام وإنزال الماء من السماء، إنبات الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ونعم أخرى كاللبن والعسل والأزواج والذرية وغير ذلك، ولهذا قال قتادة: تسمى هذه السورة سورة النعم وهذه مناسبة واضحة. (جواهر البيان: 49-50 وتناسق الدرر: 112).

287. في ب: تنزيها

288. في ب: فيه

289. في ب: ذلك

290. ساقطة من: ب

سورة الإسراء²⁹¹

لما تقدم قوله تعالى: « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا (ولم يكن من المشركين) »²⁹² إلى قوله: « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا... الآية » (النحل: الآيات: 120-123)، كان ظاهر ذلك تفضيل إبراهيم عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء لاسيما مع الأمر بالإتباع، فأعقب ذلك بسورة الإسراء، وقد تضمنت من خصائص نبينا (عليه السلام)²⁹³ وانطوت على ما حصل من المنصوص في الصحيح والمقطوع به والمجمع عليه من أنه صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم²⁹⁴ فاستفتحت السورة بقصة الإسراء، وقد تضمنت حسبما وقع في صحيح مسلم وغيره إمامته بالأنبياء من غير استثناء²⁹⁵، هذه رواية ثابت عن أنس (رضي الله عنه)²⁹⁶ (وهي أنقى رواية عند أهل صناعة الحديث وأجودها)²⁹⁷،

291. هذه السورة الكريمة، والسور الأربع التي تليها- الكهف، ومريم، وطه، والأنبياء- في جملتها سور مكية هكذا ثبتت في المصحف وعرفها الصحابة منذ نزولها بهذه الكيفية كما جاء ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه فيما أخرجه البخاري وغيره. (أنظر فتح الباري: 388/8 و 435) قال: بني إسرائيل ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي. ووجه مناسبتها لما قبلها - والله أعلم- أن «النحل» التي سبقتها هي سورة الامتنان بالنعم على جميع الخلق، وهذه السورة بيان للنعم الخاصة بسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، فابتدأت بذكر إسرائه وجاء فيها بعد تعداد بعض النعم التي خص بها قوله تعالى: « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » (الآية: 79)، وقد جاء أن التهجد وقيام الليل كان مفروضا عليه صلى الله عليه وسلم. ومن الظاهر في هذه السورة أن الله عز وجل ذكر أفضل نعمة على بني آدم وهي نعمة التكريم والتفضيل على سائر المخلوقات في قوله عز وجل « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »، فيها تخصيص بعد أن ذكرت النعم بشكل عام في السورة السابقة. (أنظر: أوجها أخرى في كتاب جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل عبد الله بن الصديق. ص: 50-51).

292. ب: ساقطة.

293. ب: صلى الله عليه وسلم.

294. جاء عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعن جابر قوله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع» أخرجه مسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة، وجاء في رواية أبي سعيد الخدري «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، ويدي لواء الحمد ولا فخر». الحديث أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه، وفي رواية جابر «أنا قائد المرسلين ولا فخر وأنا خاتم النبيين ولا فخر..» الحديث أخرجه الدارمي. (أنظر: فيض القدير: 42/3 وصحيح مسلم: 1782/4).

قال القاضي في الشفا: 165/1 « لا خلاف أنه أكرم البشر وسيد ولد آدم وأفضل الناس منزلة عند الله وأعلامهم درجة وأقربهم زلفى »، واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدا، وقد ساق طرفا منها، فانظرها هناك.

295. أما الإسراء والمعراج فقد أجمع عليه المسلمون وتواتر فقد روي عن خمسة وأربعين صحابيا وجاء في كتب ودواوين الإسلام ولا ينكره بعد أن ورد به الكتاب ورواه هذا الجمع من الصحابة إلا زنديق معاند أو جاهل جاحد، وصلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء ثابتة في الصحاح.

296. ب: ساقطة.

297. ب: ساقطة. وانظر رواية ثابت البناني عن أنس في صحيح مسلم: 145/1 و 147 وكان المصنف يعرض بالرواية التي جاءت عن شريك ابن أبي نمر وقد قال الأئمة إن فيها اضطرابا ونبه إلى ذلك الإمام مسلم في صحيحه حيث قال عن رواية شريك: «وقدم فيه شيئا وآخر، وزاد ونقص: صحيح مسلم 148/1. وسبب ذلك أن شريكا ساء حفظه ولم يضبط الحديث (أنظر تفسير ابن كثير: 240/4).

وفي²⁹⁸ حديث (أبي هريرة أنه عليه السلام²⁹⁹ أثنى على ربه فقال: (الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين كافة وللناس بشيرا ونذيرا، وأنزل علي القرآن فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة (أخرجت للناس)³⁰⁰، وجعل أمتي وسطا، وجعل أمتي (هم)³⁰¹ الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحا وخاتما فقال إبراهيم (عليه السلام)³⁰² بهذا فضلكم محمد).

وفي رواية أبي هريرة³⁰³ (رضي الله عنه)³⁰⁴ من طريق الربيع بن أنس وذكر صلى الله عليه وسلم سدره المنتهى وأنه تبارك وتعالى قال له: « سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلا وأعطيته ملكا عظيما، وكلمت موسى تكليما، وأعطيته داود ملكا عظيما، وألنت له الحديد وسخرت له الجبال، وأعطيته سليمان ملكا عظيما، وسخرت³⁰⁵ له الجن والإنس والشياطين والرياح وأعطيته ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل وجعلته يري الأكمه والأبرص، وأعدته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل فقال له ربه تعالى: قد اتخذتك حبيبا فهو مكتوب في التوراة (محمد)³⁰⁶ حبيب الرحمن، وأرسلتك إلى الناس كافة، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلتك أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا، وأعطيته سبعا من المثاني ولم أعطها لنبي³⁰⁷ قبلك وأعطيته خواتم البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك، وجعلتك فاتحا وخاتما³⁰⁸».

298. ب: في

299. ب: ساقطة

300. أ: ساقطة

301. ب: ساقطة

302. أ: ساقطة

303. وحديث أبي هريرة - وفيه الثناء على الله - أخرجه مطولا ابن جرير الطبري والبزار وأبو يعلى ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن عدي والبيهقي في الدلائل وابن مردويه. أنظر: تفسير الطبري ج 8/15 والدر المنثور: 144/4. قال الحافظ ابن كثير: وهي رواية مطولة جدا وفيها غرابة انظر التفسير: 266/4. وإسناده عند ابن جرير: حدثني علي بن سهل قال حدثنا حجاج قال أخبرنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحي عن أبي هريرة أو غيره (شك أبو جعفر) الحديث...

304. أ: ساقطة

305. ب: سخرت

306. ب: ساقطة

307. ب: نبيا

308. قال أبو جعفر الرازي رواية عن الربيع ابن أنس خاتم النبوة وفاتح بالشفاعة. وانظر عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة كتاب: نبوة محمد في الكتاب المقدس للدكتور أحمد حجازي السقا، ص: 74 وما بعدها. وهو رسالة دكتوراه قدمت إلى كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سنة 1977 وقد أورد سبع نبوءات من التوراة مطابقة لما ورد في القرآن الكريم عن محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته وأمته.

وفي حديث شريك أنه رأى موسى عليه السلام في السماء السابعة³⁰⁹ قال بتفضيل كلام الله، قال ثم علا به فوق ذلك ما لا يعلمه إلا الله، فقال (موسى) ³¹⁰ لم أظن أن يرفع علي أحد³¹¹.

وفي حديث علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)³¹² أخرجه البزار في ذكر تعليمه عليه (السلام)³¹³ الأذان وخروج الملك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا جبريل من هذا؟ قال: والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكانا وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتني هذه... الحديث³¹⁴، وفيه ثم أخذ الملك بيد محمد صلى الله عليه وسلم فأمر أهل السماء فيهم آدم ونوح.

وفي هذا الحديث قال أبو جعفر محمد بن علي راويه: أكمل الله لمحمد صلى الله عليه وسلم الشرف على أهل السماوات والأرض، قلت: ³¹⁶ (وفي هذا الحديث إشكالات صعبة فلهذا لم نورد منه إلا أطرافا بحسب الحاجات، إذ ليس ما فيه الإشكال من مطلوبنا هنا)³¹⁷.

309. أ: موسى في السابعة.

310. ب: ساقطة.

311. رواية شريك هذه. انظرها بطولها في صحيح البخاري في كتاب التوحيد 478/13.

312. أ: ساقطة.

313. في ب: صلى الله عليه وسلم.

314. قال البزار: حدثنا محمد بن عثمان بن مخلد الواسطي ثنا أبي عن زياد بن المنذر عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي لما أراد الله تبارك أن يعلم رسوله الأذان أتاه جبريل صلى الله عليها بداية يقال لها البراق، فذهب يركبها فاستصعبت فقال لها جبريل: أسكني فوالله ما ركبك عبد أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم قال فركبها حتى انتهى إلى الحجاب الذي يلي الرحمن تبارك وتعالى، قال: فبينما هو كذلك إذ خرج ملك من الحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما هذا؟ فقال: والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكانا وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتني هذه فقال: الله أكبر الله أكبر قال: فقليل له من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال الملك: أشهد أن لا إله إلا الله قال فقليل له من وراء الحجاب صدق عبدي أنا أرسلت محمدا، قال الملك حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، ثم قال الله أكبر الله أكبر، قال فقليل له من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر أنا أكبر ثم قال: لا إله إلا الله قال فقليل له من وراء الحجاب: صدق عبدي لا إله إلا أنا، قال ثم أخذ الملك بيد محمد صلى الله عليه وسلم فقدمه فأمر أهل السماء فيهم آدم ونوح. قال أبو جعفر محمد بن علي: فيومئذ أكمل الله لمحمد صلى الله عليه وسلم الشرف على أهل السماوات والأرض. قال البزار: لا نعلمه يروى عن علي بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وزيد بن المنذر شيعي روى عنه مروان بن معاوية وغيره، (انظر: كشف الأستار: 178/1).

وزيد بن المنذر أبو الجارود الأعمى رافضي خبيث كذبه يحيى بن معين وقال: «عدو الله ليس يسوى فلسا» وقال ابن حبان: «كان رافضيا يضع الحديث في مثالب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروي في فضائل أهل البيت أشياء ما لها أصول، لا يحل كتب حديثه، وهو رأس الفرقة الجارودية المنسوبة إليه. (انظر: تهذيب التهذيب: 386/3، والمغني في الضعفاء: 244/1).

وأقول أثر الصنعة والوضع ظاهر في هذا الحديث.

ب: بأهل.

315. ب: بأهل.

316. ب: قال ابن الزبير.

317. ب: ساقطة.

وقد حصل منه تفضيله صلى الله عليه وسلم بالإسراء وخصوصه بذلك، ثم قد انطوت السورة على ذكر المقام المحمود، وهو مقامه في الشفاعة الكبرى³¹⁸، وذلك مما خص به حسبما ثبت في الصحيح، وانعقد عليه إجماع أهل السنة، ولا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التي³¹⁹ فضل بها³²⁰ كافة الأنبياء مثل ما تضمنت هذه السورة، والحمد لله.

318. أحاديث الشفاعة كثيرة ومتواترة انظرها في الخصائص الكبرى للسيوطي 218/2 وتفسير ابن كثير: 333/4.

319. ب: الذي

320. ب: به

سورة الكهف³²¹

من الثابت المشهور³²² أن قريشا بعثوا إلى يهود بالمدينة يسألونهم في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابتها³²³ يهود بسؤاله عن ثلاثة أشياء قالوا فإن أجابك (بجوابها)³²⁴ فهو نبي، وإن عجز (عن جوابك)³²⁵ فالرجل متقول، فروا فيه³²⁶ رأيكم وهي: الروح، وفتية ذهبوا في الدهر الأول، وهم أهل الكهف، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغربها،

321. هذه السورة مكية النزول على ما أخرجه النحاس وابن عباس وابن الزبير ووافقهم عليه جميع المفسرين كما يقول القرطبي، وموضوعاتها وتوجيهاتها تؤيد ذلك وتؤكد. وقد ورد في فضلها أن في قراءتها وقاية من الفتن المادية والمباهج الدنيوية الأئمة وفي قمتها الدجال الذي يزين الباطل بالحق ويضل الناس وهو أعظم فتنة تواجه المسلمين، فقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف (وفي روايات عديدة من آخرها عصم من فتنة الدجال)، (انظر: عمل اليوم والليلة: 27 والدر المنثور: 209/4).

ووجه ارتباطها بها قبلها - والله أعلم - أنه لما تقدم في سورة الإسراء قوله تعالى: "انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً لا تجعل مع الله إلهاً آخر إلى قوله: "كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً" (21-38) جاء قوله تعالى في نفس السورة: "ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة، ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً" (39)، كما جاء فيها تعاليم علوية المنزع، سماية التوجيه مع ما فيها من خصوصيات للنبي صلى الله عليه وسلم، أعقبتها سورة الكهف وفيها أخبار سبأوي لا يطلع على حقائقها بشر، فقد يعرفون جزءاً منها، ولكنهم لا يدركون أبعادها وتوجيهاتها، وهذه الأخبار التي وردت فيها أربع قصص عجيبة: أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وموسى والخضر، وذو القرنين، وتمثل هذه القصص مواجهة الإيثار في حياة الإنسان مع المادية التي تستولي على بعض بني البشر، فشرحتها هذه القصص بأجلى بيان، وقضى الله فيها أن الغلبة في النهاية للإيمان، وكأن هذه القصص تفصيل لقوله تعالى في سورة الإسراء "من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً" (18-19).

ويمكن القول بإجمال إن الارتباط والتناسب من ثلاثة أوجه:
أولها: بيان غلط تفكير الذين أنكروا الإسراء والمعراج وتعجبوا منه واستغربوه، لأن فيه خرقاً لنواميس المادة، فكشف الله لهم عن حقائق جرت على هذه الأرض وفيها خرق لنواميس المادة وطبيعتها.

ثانيها: إخبارهم بمعلومات سماوية فيها العجب لمن يتعجب منهم، وإيضاح الحقيقة لذوي الأبواب بما يدل على صد محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته.

ثالثها: إنه جاء في السورة السابقة "فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً" (آية: 104) ثم فصل ذلك في هذه السورة بقوله: "فإذا جاء وعد ربك جعله دكا وكان وعد ربك حقاً، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً" (آية: 94-96).

322. قوله من الثابت المشهور فيه تجوز لأن هذا الخبر لم يخرج في الصحيحين ولا في الكتب الستة، بل أخرجه ابن إسحاق في سيرته وابن جرير الطبري في تفسيره، وأبو نعيم في دلائل النبوة، وكذلك البيهقي في سننه وابن المنذر في تفسيره. (انظر: الدر المنثور: 210/4). وهذه الكتب لا تلتزم الصحة، ولهذا فتعييره هذا فيه تجاوز وتسامح.

323. أ: فأجابته.

324. ب: ساقطة

325. ب: ساقطة

326. أ: فيكم

فأنزل الله عليه (سبحانه) ³²⁷ جواب ما سأله وبعضه في سورة الإسراء «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي» ³²⁸ (آية: 85) واستفتح تعالى سورة الكهف بحمده، وذكر نعمة الكتاب، وما أنزل بقريش وكفار العرب من البأس يوم بدر وعام الفتح وبشارة المؤمنين بذلك وما منحهم الله من النعيم الدائم وإنذار القائلين بالولد من النصارى وعظيم مرتكبهم وشناعة قولهم: «إن يقولون إلا كذبا» (آية: 5) وتسليية نبي الله صلى الله عليه وسلم في أمر جمعهم «فلعلك باخع نفسك.. الآية» (آية: 6) والتحمت الآي أعظم التحام وأحسن التئام إلى ذكر ما سأل عنه الكفار من أمر الفتية «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» (آية: 9) ثم بسطت الآي قصتهم وأوضحت أمرهم واستوفت خبرهم، ثم ذكر سبحانه أمر ذي القرنين وطوافه وانتهاء أمره فقال: «ويسألونك عن ذي القرنين... الآيات» (آيات : 83-94)، وقد فصلت بين القصتين مواعظ وآيات مستجدة على أتم ارتباط وأجل اتساق ³²⁹ ومن جملتها قصة الرجلين وجنتي أحدهما وحسن الجنيتين وما بينهما وكفر صاحبهما واغتراره وهما من بني إسرائيل ولهما قصة، وقد أفصحت هذه الآي منها ³³⁰ باغترار أحدهما بما لديه وركونه إلى توهم البقاء، وتعويل صاحبه على ما عند ربه ورجوعه إليه، وانتهاء أمره بعد المحاورة الواقعة في الآيات بينهما إلى إزالة ما تخيل المفتون بقاءه، ورجع ذلك كأنه ³³¹ لم يكن ولم يبق بيده إلا الندم، ولا صح له من جنتيه بعد عظيم تلك البهجة سوى التلاشي والعدم. (وهذه حال من) ³³² ركن إلى ما سوى المالك، وكل شيء إلا وجهه سبحانه وتعالى فإنه فان وهالك، «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو» (محمد: آية: 36) «ففرؤا إلى الله» (الذاريات: آية: 50).

ثم أعقب ذلك بضرب مثل الحياة الدنيا لمن اعتبر واستبصر، وأعقب تلك الآيات بقصة موسى والخضر عليهما السلام إلى تمامها وفي كل ذلك من تأديب بني إسرائيل وتقريعهم وتوبيخ مرتكبهم في توقفهم عن الإيمان وتعنيفهم في توهمهم عند فتواهم لكفار قريش بسؤاله عليه السلام عن القصص الثلاث، أن قد حازوا العلم وانفروا بالوقوف على ما

327. ب: ساقطة

328. في ب: ويسألونك عن الروح الآية.

329. في ب: أنساق.

330. في ب: منها.

331. في أ: كان

332. في أ: غير مقروءة بسبب الخرم.

لا يعلمه غيرهم، فجاء جواب قريش بما يرغب الجميع ويقطع³³³ دابرهم، وفي ذكر قصة موسى والخضر إشارة³³⁴ لهم لو عقلوا وتحريك لمن سبقت له منهم السعادة، وتنبيه لكل موفق في تسليم الإحاطة لمن هو العليم الخبير. وبعد تقريرهم وتوبيخهم بما أشير إليه، عاد الكلام إلى بقية سؤا لهم فقال: «يسألونك عن ذي القرنين» إلى آخر القصة (آية: 83) وليس بسط هذه القصص من مقصودنا وقد حصل ما أردناه ولم يبق إلا السؤال عن وجه انفصال جوابهم ووقوعه في السورتين مع أن السؤال واحد وهذا ليس من شرطنا فلننساه بحول الله إلى³³⁵ موضعه إن قدر به³³⁶.

333. في أ: ويقطع.

334. في ب: بشارة

335. في أ: في

336. والسر في ذلك - والله أعلم - أنه لما لم يقع الجواب عند السؤال الأول «يسألونك عن الروح» فصل عن بقية الأسئلة التي جاء جوابها شافيا كافيا، مع بيان المولى عز وجل ليهود وغيرهم أنهم لم يؤتوا إلا قليلا من أجوبة هذه الأسئلة وغيرها ثم جاء التفصيل في السورة اللاحقة - الكهف - لما أقرؤا بصدق هذا الكلام وعجزوا عن الرد عليه.

سورة مريم³³⁷

لما قال تعالى: «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا» (الكهف: آية: 9) ثم أورد خبرهم وخبر الرجلين موسى والخضر (عليهما السلام)³³⁸، وقصة ذي القرنين، أتبع سبحانه ذلك³³⁹ بقصص تضمنت من العجائب ما هو أشد عجا وأخفى سببا فافتتح سورة مريم بيحيى بن زكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وقطع الرجاء وعقر الزوج حتى سأل زكريا مستفهما ومتعجبا «أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا» (آية: 8) فأجابه (الله)³⁴⁰ تعالى بأن ذلك عليه هين وأنه يجعل ذلك آية للناس وأمر هذا أعجب من القصص المتقدمة فكأن قد قيل: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا؟ نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية وهو قصة (زكريا في ابنه يحيى)³⁴¹ عليهما/السلام، وقصة عيسى (عليه السلام) في كينونته بغير أب ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله، وإنما الفعل له سبحانه لا لمسبب³⁴² وإلى هذا أشار قوله تعالى لزكريا عليه السلام «وقد خلقتك من قبل ولم تكن شيئا» (آية: 9). ثم أتبع سبحانه بشارة زكريا بيحيى بإتيانه الحكم صبيا ثم بذكر مريم وابنها عليهما السلام، وتعلقت الآي بعد إلى انقضاء السورة.

337. وهي مكية بإجماع، وقد قرأ جعفر بن أبي طالب طرفا منها في حضرة النجاشي عندما تابعهم القرشيون إلى الحبشة وأرادوا إيذاءهم بعد غزوة بدر والانتقام منهم فبكى النجاشي ومن معه من الأساقفة حتى اخضلوا لحاهم وقال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة (انظر: سيرة ابن هشام: 1).

ووجه مناسبتها لسورة الكهف اشتغالها على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص كقصة ولادة يحيى وقصة ولادة عيسى عليهما السلام وهو ما بينه المؤلف أوضح بيان.

338. أ: ساقطة

339. ب: ذلك سبحانه.

340. ب: ساقطة.

341. ب: يحيى في ابنه زكريا.

342. أ: غير مقروءة بسبب الخرم.

سورة طه³⁴³

لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم وما منحه وأعطاه وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به، وأعقب ذلك بقوله تعالى: «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم» (مريم: آية: 58) وكان ظاهر (هذا)³⁴⁴ الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العالية والدرجات المنيفة الجليلة لاسيما وقد أتبع ذلك بقوله «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا» (مريم: آية: 59) كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه تعالى بملاطفة نبيه (محمد)³⁴⁵ صلى الله عليه وسلم ملاطفة المحبوب المقرب المجتبي فقال: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» (آية: 2) وأيضا فقد ختمت سورة مريم بقوله تعالى: «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (آية: 98) بعد قوله: «وتنذر به قوما لذا» (آية: 97) وقد رأى عليه السلام من تأخر قریش عن الإسلام ولردها ما أوجب إشفاقه وخوفه عليهم ولا شك انه عليه السلام يحزنه تأخر إيمانهم ولذلك قيل له: «فلا تحزن عليهم»³⁴⁶.

فكأنه، عليه (الصلاة)³⁴⁷ والسلام ظن أنه (يستصعب)³⁴⁸ المقصود من استجابتهم أو ينقطع الرجاء من (إنابتهم)³⁴⁹ فيطول العناء والمشقة فبشره سبحانه بقوله: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» (آية: 2) فلا عليك من لدن هؤلاء وتوقفهم فسيستجيب من انطوى على

343. هذه السورة مكية بالإجماع، وهي من قديم ما نزل، وكان ذلك قبل إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أخرج الدارقطني في سننه وابن إسحاق في سيرته قصة إسلام عمر بن الخطاب وأنه خرج شاهرا سيفه يريد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ذهب على أخته فاطمة وزوجها خباب بن الأرت فوجد عندها سورة طه مكتوبة فكانت سبب إسلامه، (انظر: سيرة ابن إسحاق 297/1، تلخيص الخبير 132/1، عيون الأثر 122/1).

ومن أوجه تناسب هذه السورة بالتي قبلها أيضا أنها نزلت بعدها كما روى ذلك عن ابن عباس، وأن أول هذه متصل بآخر تلك ومناسب له في المعنى حيث جاء في آخر سورة مريم قوله تعالى: «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لذا» وجاء في مطلع هذه السورة قوله تعالى: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى» وأنه تعالى لما ذكر في سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين بعضها بطريق البسط والإطناب كقصص زكريا ويحيى عليهم السلام وبعضها بين البسط والإيجاز كقصص إبراهيم عليه السلام وبعضها موجز بجمل كقصص موسى عليه السلام، ذكر هنا قصة موسى التي أجملت فيها سلف، واستوعبها غاية الاستيعاب، ثم فصل قصة آدم عليه السلام، ولم يذكر في سورة مريم إلا اسمه. (انظر: تفسير المراغي: 939/17).

344. أ: ساقطة.

345. ب: ساقطة.

346. إشارة إلى قوله تعالى: «ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون» (النحل: 127).

347. أ: ساقطة.

348. أ: سيستضعف. ب: يستصعب.

349. أ: إذابتهم.

الخشية إذا ذكر وحرك إلى النظر في آيات الله كما قيل له في موضع آخر «فلا يحزنك قولهم» (يس: آية: 76).

ثم أتبع (سبحانه)³⁵⁰ ذلك تعريفا وتأسيسا بقوله: «الرحمن على العرش استوى» (آية: 5) إلى أول قصص موسى عليه السلام (الرحمن: آية: 1)، فأعلم سبحانه أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره وقبضته لا يشذ شيء عن ملكه، فإذا شاء هداية من وفقه لم يصعب أمره ثم أتبع ذلك بقصة³⁵¹ موسى عليه السلام وما كان منه في إلقائه صغيرا في اليم، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع وهلاك فرعون وظهور بني إسرائيل، وكل هذا مما يؤكد القصد المتقدم، وهذا الوجه الثاني أولى من الأول، والله أعلم.

350. ب: ساقطة

351. أ: بقتصص

سورة الأنبياء³⁵²

لما تقدم قوله سبحانه «ولا تمدن عينيك» إلى قوله «فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى» (طه: الآيات: 131-135) قال تعالى: «اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون» (آية: 1) أي لا تمدن عينيك إلى ذلك فإني جعلته فتنة لمن ناله بغير حق ويسأل عن قليل ذلك وكثيره «لتسألن يومئذ عن النعيم» (التكاثر: آية: 8) والأمر قريب «اقترب للناس حسابهم» وأيضا فإنه تعالى لما قال: «وتنذر به قوما لذا» (مريم: آية: 97) وهم الشديدي الخصومة في الباطل (المرتكبو للجح) ³⁵³ ثم قال (تعالى) ³⁵⁴ «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» ³⁵⁵ (مريم: آية: 98) استدعت هذه الجملة بسط حال ابتدأت بتأنيسه عليه السلام وتسليته (حتى لا) ³⁵⁶ يشق عليه لردهم، فتضمنت سورة طه من هذا الغرض بشارته بقوله: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» (طه: آية: 2) وتأنيسه بقصة موسى عليه السلام وما كان من حال بين إسرائيل وانتهاء أمر فرعون ومكابدة موسى عليه السلام لد ³⁵⁷ فرعون ومرتكبه، إلى أن وقصه الله وأهلكه وأورث عباده أرضهم وديارهم. ثم أتبع بقصة آدم عليه السلام ليرى نبيه (صلى الله عليه وسلم) ³⁵⁸ سننه في عباده حتى أن آدم عليه السلام وإن لم يكن امتحانه بذريته ولا مكابدته من أبناء جنسه فقد كابد من إبليس ما قصه ³⁵⁹ الله في كتابه، وكل هذا تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه إذا تقرر لديه أنها سنة الله تعالى في عباده هان عليه لدد قريش ومكابدتهم ثم

352. هذه السورة مكية بإجماع، أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال: «بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي». وعن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه، وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله وأديا ما في ديار العرب واد أفضل، وقد أردت أن أقطع إليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر: لا حاجة لي في قطعك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا، يعني سورة الأنبياء. (انظر: تفسير المراغي: 3/17).

ومن مناسبة هذه السورة لما بعدها أن تلك ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الحياة الدنيا، وأن الله نهى نبيه أن يتطلع إليها، وأمره بالصلاة والصبر عليها، وأن العاقبة للمتقين، وبدئت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة من أن الناس غافلون عن الساعة والحساب، وأنهم لا يستمعون للقرآن إلا وهم لاعبون، لاهية قلوبهم عنه. (انظر المصدر السابق).

353. أ.ب. ألم يكفوا انجح، والصواب ما أثبتته.

354. ب: ساقطة

355. ب: وكم أهلكنا قبلهم من قرن إلى آخرها.

356. أ: على ما

357. ب: لرد

358. أ: ساقطة

359. أ: ما نصه

ابتدأت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس فبين اقتراب الحساب ووقوع يوم الفصل المحمود فيه تمره ما كوبد في ذات الله والمتمنى فيه أن لو كان ذلك أكثر والمشقة أصعب لجليل الثمرة وجليل الجزاء، ثم أتبع سبحانه ذلك بعظات/ودلائل (ومواعظ)³⁶⁰ وبسط آيات، وأعلم أنه سبحانه قد سبقت سنته فأهلك³⁶¹ من لم يكن منه الإيمان من متقدمي القرون وسالفي الأمم « ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها » (آية: 6) وفي قوله: « أفهم يؤمنون » (آية: 6) تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر قريش ومن³⁶² قبيل ما الكلام بسبيله³⁶³.

وقد تضمنت هذه السورة إلى ابتداء قصة إبراهيم عليه السلام من المواعظ والتنبيه على الدلالات وتحريك العباد إلى الاعتبار بها ما يعقب لمن اعتبر به التسليم والتفويض لله سبحانه والصبر على الابتلاء وهو من مقصود السورة في قوله تعالى: « ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين » (آية: 9) إجمال لما فسرهُ النصف الأخير من هذه السورة من تخليص الرسل عليهم السلام من قومهم وإهلاك من أسرف وأفك ولم يؤمن، وفي ذكر تخليص الرسل وتأييدهم الذي تضمنه النصف الأخير من لدن قوله: « ولقد آتينا إبراهيم رشده » (آية: 51) إلى (آخر)³⁶⁴ السورة (آية: 112) كمال الغرض المتقدم من التأسيس وملاءمته ما تضمنته سورة طه وتفصيل المجمل « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » (مريم: آية: 99).

360. ساقطة من : ب

361. ب: بأهلك

362. أ: من

363. ب: سبيله

364. ب: ساقطة

سورة الحج³⁶⁵

لما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى: « اقرب للناس حسابهم » (الأنبياء: آية: 1) وكان³⁶⁶ واردا في معرض التهديد، وتكرر في مواضع منها كقوله تعالى: « وإلينا يرجعون » (آية: 35) « سأوريكم آياتي فلا تستعجلون »، « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين »³⁶⁷ « لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار » (الآيات: 37-39) « ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك » (آية: 46) « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » (آية: 47) « وهم من الساعة مشفقون » (آية: 49) « كل إلينا راجعون » (آية: 93) « واقرب الوعد الحق » (آية: 97) « إنكم تعبدون من دون الله حصب جهنم » (أنتم لها واردون)³⁶⁸ (آية: 98) « يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب » (آية: 104) إلى ما تحلل هذه الآي من التهديد وتشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بها في الساعة وما بعدها وما بين يديها في نظائر هذه السورة، وقد ختمت من ذلك بمثل ما به ابتدئت، اتصل بذلك ما يناسبه من الإعلام بهول الساعة وعظيم أمرها فقال تعالى: « يا أيها الناس اتقوا ربكم » إلى قوله (تعالى)³⁶⁹ « ولكن عذاب الله شديد » (آية: 1-2) ثم أتبع هذا ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث » (آية: 5) ثم قال: « ذلك بأن الله هو الحق » (آية: 6) أي اطردها هذا الحكم العجيب ووضح من تقلبكم من حالة إلى حالة في الأرحام وبعد خروجكم إلى الدنيا وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم وتشاهدون الأرض على صفة من الهمود والموت إلى حين نزول الماء فتحيا وتخرج أنواع النبات وضروب الثمرات تسقى بهاء واحد « ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى » (آية: 6) كما أحياكم أولا وأخرجكم من العدم إلى الوجود وأحيى الأرض بعد موتها وهمودها (كذلك)³⁷⁰ تأتي الساعة من غير ريب ولا شك ويبعثكم لما وعدتم من حسابكم جزائكم « فريق في الجنة وفريق في السعير » (الشورى: آية: 7).

365. اختلف فيها هل هي مكة أم مدنية، والصحيح الذي عليه الجمهور أنها مختلطة، منها المكي ومنها المدني قيل هي من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا سفرا وحضرا، مكيا، ومدنيا، سلميا، وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها (أنظر القرطبي: 1/12).

366. أ: كان

367. ب: ساقطة

368. ب: ساقطة

369. أ: الآيات

370. ب: ساقطة

سورة المؤمنين³⁷¹

فُصِّلَ في افتتاحها ما أجمل³⁷² في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون» (الحج: 75)، وأعلم بما ينبغي للراكع والساجد التزامه من الخشوع، ولالتحام الكلامين أورد³⁷³ الأول أمرا والثاني مدحة وتعريفا بما به كمال الحال، وكأنه لما أمر المؤمنين وأطمع بالفلاح³⁷⁴ جزاء لامثاله كان مظنة لسؤاله عن تفضيل ما أمر به من العبادة وفعل الخير الذي به يكمل فلاحه ف قيل له (المفلح من التزم كذا وكذا وذكر سبعة أضرب من العبادة وفعل الخير الذي يكمل به فلاحه، ف قيل له)³⁷⁵ هي أصول لما وراءها ومستتبعة سائر التكاليف، وقد بسط حكم كل عبادة منها وما يتعلق بها في الكتاب والسنة.

ولما كانت المحافظة على الصلاة منافرة إتيان المأثم جملة: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» (العنكبوت: آية: 45) لذلك اختتمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادات³⁷⁶ بذكر (التنبيه على الخشوع³⁷⁷ فيها أولا، وأتبع هذه الضروب السبعة بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الإنسان قبل خروجه إلى الدنيا/ فقال تعالى: «ولقد خلقنا

371. وهي مكة النزول في قول الجميع كما يقول القرطبي، وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها في صلاة الصبح بمكة كما أخرجه أحمد ومسلم وغيرهما، لكن يحتمل ذلك أنه كان بعد الهجرة في حجة الوداع أو عمرة القضاء، بل في أحد طرق الحديث أنه كان يوم الفتح.

وجاء في فضلها في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وصححه الحاكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحي لُيَسْمَعُ عند وجهه كدوي النحل، وأنزل عليه يوما فمكثنا عنده ساعة فسري عنه، فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضنا وارضى عنا»، ثم قال: «لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة». ثم قرأ: «قد أفلح المومنون حتى ختم العشر». (أنظر الدر المنثور: 2/5، والقرطبي: 102/12).

وأضيف بأن ارتباط هذه السورة بسابقتها يتضح من خلال تشابه وتكامل موضوعات السورتين، فقد جاء في نهاية السورة السابقة أمر المؤمنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات لعلهم يفلحون وافتتحت هذه السورة ببيان الخير المحقق لذلك الفلاح والموصل إلى جنات الفردوس (الآيات: من 1-11). وأيضا ففي السورتين الحديث عن النشأة الأولى واعتبار ذلك دليلا على البعث والنشور، واشتغالها على قصص الأنبياء الماضين وأهمهم للعظة والاعتبار، مع ذكر الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته.

372. أ: جل

373. أ: أورد ما

374. أ: الفلاح

375. أ: ساقطة

376. في الأصل: لذلك ما ختمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادات.

377. ب: ساقطة

الإنسان من سلالة من طين» إلى قوله: « (ثم) ³⁷⁸ أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» ³⁷⁹ (الآيات: 12-14) (وكان) ³⁸⁰ قد قيل له غنما كمل خلقك وخروجك إلى الدنيا بعد هذه التقلبات السبعة، وإنما تتخلص من دنياك بالتزام هذه العبادات السبع، وقد وقع عقب هذه الآيات قوله تعالى: « ولقد خلقنا فوقك سبع طرائق» (اية: 17) ولعل ذلك مما يقرر هذا الاعتبار، ووارد لمناسبته، والله أعلم. وكان صدر هذه السورة مفسرا لما أجمل في الآيات قبلها فكذا الآيات بعد مفصلة لمجمل ما تقدم في قوله تعالى: « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ...» الآية (الحج: آية: 5) وهذا كاف في التحام السورتين، والله سبحانه المستعان.

378. أ: ساقطة.

379. الأطوار السبعة هي:

1. الطين.
2. النطفة.
3. العلقة.
4. المضغة.
5. خلق العظام.
6. كسوة العظام باللحم.
7. نفخ الروح وبها تمام الخلق، فتبارك الله أحسن الخالقين.

380. ب: وكأنه.

سورة النور³⁸¹

لما قال تعالى: « والذين هم لفروجهم حافظون... » الآية (المؤمنون: آية: 5) ثم قال (تعالى)³⁸² « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » (المؤمنون: آية: 7) استدعى الكلام بيان حكم العادين³⁸³ في ذلك، ولم يبين فيها، فأوضحه في سورة النور فقال تعالى: « الزانية والزاني... » الآية (آية: 2)، ثم أتبع ذلك بحكم الألسنة رجما بالغيب « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » (آية: 15)، وأتبع ذلك بوعيد محبي³⁸⁴ شياع الفاحشة في المؤمنين بقوله تعالى: « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات... » الآيات (آية: 23) ثم بالتحذير من دخول البيوت إلا بعد الاستئذان المشروع، ثم بالأمر بغض البصر للرجال والنساء، ونهي النساء عن إبداء الزينة إلا لمن سمى الله سبحانه في الآية، وتكررت هذه المقاصد في هذه السورة إلى ذكر حكم العورات الثلاث، ودخول بيوت الأقارب وذوي الأرحام، وكل هذا مما يبرئ ذمة المؤمن بالتزام ما أمر الله به من ذلك والوقوف عند ما حده تعالى من أن يكون من العادين المذمومين في قوله تعالى: « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » (المؤمنون: آية: 7) وما تخلل الآي المذكورات ونسق عليها مما ليس من الحكم المذكور فلاستعجار الآي إياه واستدعائه، ومظنة استيفاء ذلك وبيان ارتباط³⁸⁵ التفسير، وليس من شرطنا هنا/ والله سبحانه يوفقنا لفهم كتابه.

381. هذه السورة مدنية، روى مجاهد أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور"، وعن حارث بن مضرب رضي الله عنه قال: "كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور". (أنظر: الدر المنثور: 18/5، والمراغي: 66/18).

وأضيف إلى ما أبداه المؤلف من وجه الارتباط وجهها آخر، وهو أن السورة السابقة لما ختمت بقوله تعالى: "أفحسبتم أنها خلقتناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون" جاءت هذه السورة لتبين جملة من الأوامر والنواهي، وتحمل الإنسان مسؤولية فعله وقوله وما يترتب على ذلك من الجزاء العاجل بالقصاص في الدنيا والآجل بالعذاب الأليم في الآخرة.

382. أ: ساقطة. وفي ب: العادة

383. أ: ساقطة

384. ب: محبي، أ: فجيء

385. أ: ارتباطه.

سورة الفرقان³⁸⁶

لما تضمنت سورة النور بيان كثير من الأحكام كحكم الزنا ورمي الزوجات به والقذف والاستئذان والحجاب، وإسعاف الفقير والكتابة وغير ذلك، والكشف عن مغيبات من تغاير³⁸⁷ حالات تبين بمعرفتها والاطلاع عليها الخبيث من الطيب- كإطلاعه سبحانه نبيه والمؤمنين على ما تقوله أهل الإفك وبيان حالهم واضمحلال محالهم- (ثم)³⁸⁸ في قصة المنافقين (في إظهارهم)³⁸⁹ ضد ما يضمرون، ثم كريم وعده للخلفاء الراشدين «وعد الله الذين آمنوا منكم (وعملوا الصالحات)»³⁹⁰ (النور: آية: 55)، ثم ما فضح (به)³⁹¹ تعالى منافقي الخندق «قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا» إلى آخر الآية، (النور: آية: 63) كان (في)³⁹² مجموع هذا فرقانا يعتضد به الإيمان ولا ينكره مقر بالرحمن، يشهد³⁹³ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة رسالته، ويوضح مضمون³⁹⁴ قوله تعالى: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم (كدعاء بعضكم بعضا)»³⁹⁵ (النور: آية: 63) من عظيم قدره صلى الله عليه وسلم، وعلي جلالته، أتبعه سبحانه بقوله: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده» (آية: 1)

386. هذه السورة مكية في جملتها، وبينها وبين السورة السابقة من التناسب أكثر من وجه: منها اختتام السورة السابقة بوصفه تعالى مالكا لما في السماوات والأرض مصرفا لما على ما تقتضيه المصلحة والحكمة من النظام البديع، وافتتاح هذه بما يدل على تعاليه في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى حبه لخير عباده بإنزال القرآن لهم هاديا وسراجا منيرا.

ومنها اختتام السورة السابقة بوجوب متابعة المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم مع مدحهم على ذلك وتحذيرهم من مخالفة أمره خوفاً للفتنة والعذاب الأليم، وافتتاح هذه بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأنزلنا الكتاب عليه لإرشادهم إلى سبيل الرشاد وذم الجاحدين لنبوته بقولهم: «إنه رجل مسحور وأنه يأكل الطعام... إلخ».

ومنها وصف السحاب وإنزال الأمطار فيهما معا ففي السورة السابقة قال تعالى: «ألم تر أن الله يزجي سحابا... إلخ» وفي هذه قال: «وهو الذي أرسل الرياح بشرا».

ومنها وصف أعمال الكافرين فيها معا يوم القيامة وأنها لا تحديهم فتिला فقال في الأولى «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة» إلخ وقال في هذه «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا».

ومنها وصف النشأة الأولى للإنسان في إثنائها فقال في الأولى «والله خلق كل دابة من ماء» وفي الثانية «وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا». (انظر: تفسير المراغي: 145/18).

387. ب: تغير

388. ب: ساقطة

389. غير واضحة في «أ» بسبب خرم في المخطوطة.

390. ب: ساقطة

391. أ: ساقطة وفي مكانها بياض.

392. أ: ساقطة

393. ب: الرحمن يشهد.

394. ب: تضمن

395. أ: ساقطة

وهو القرآن الفارق بين الحق والباطل، والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر³⁹⁶، والكفر ليكون للعالمين نذيراً، فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه³⁹⁷ بهم، ثم تناسج الكلام والتحم جليل المقصود³⁹⁸ من ذلك النظام.

(وقد)³⁹⁹ تضمنت هذه السورة من النعي على الكفار والتعريف ببهتهم وسوء مرتكبهم ما لم يتضمن كثير من نظائرها كقولهم: ⁴⁰⁰ « ما لهذا الرسول يأكل الطعام... » الآيات (آية: 7) وقولهم: « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » (آية: 21) وقولهم: « لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة » (آية: 32)، وقولهم: « وما الرحمن » (آية: 60) إلى ما عضد هذه وتخللها، ولهذا ختمت بقواطع الوعيد، وأشد التهديد وهو قوله سبحانه: « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » (آية: 77).

396. أ: الذكر

397. ب: والتشبيه

398. ب: تناسخ الكلام والنجم جليل العهد.

399. ب: ساقطة

400. أ: كقوله.

سورة الشعراء⁴⁰¹

لما عَرَفَتْ سورة الفرقان (بشنيع)⁴⁰² مرتكب الكفرة المعاندين، وختمت بما ذكر في الوعيد، كان ذلك مظنة لإشفاقه عليه السلام وتأسفه على فوت إيمانهم لما جبل عليه من الرحمة والإشفاق، فافتتحت السورة الأخرى بتسليته عليه السلام وأنه سبحانه/ لو شاء لأنزل عليهم آية تبهرهم وتذل جبابرتهم فقال سبحانه: «لعلك باخع نفسك⁴⁰³ ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم آية من السماء فضلت أعناقهم لها خاضعين»⁴⁰⁴ (الآيتان: 3-4) وقد تكرر هذا المعنى عند إرادته⁴⁰⁵ تسليته عليه السلام كقوله تعالى: «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» (الأنعام: آية: 35)، «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة: آية: 13) «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا» (يونس: آية: 99) «ولو شاء الله ما فعلوه» (الأنعام: 138).

ثم أعقب سبحانه بالتنبيه والتذكير «أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم» (الشعراء: آية: 7) «وإذ نادى ربك موسى» (الشعراء: آية: 10)، «وقل ما تجد في الكتاب العزيز ورود تسليته عليه السلام إلا معقبة بقصص موسى عليه السلام وما كابد من بني إسرائيل وفرعون، وفي كل قصة منها إحراز ما لم تحرزه الأخرى من الفوائد والمعاني

401. هذه السورة مكية كما هو ظاهر من جوها العام وآياتها لا يستثنى من ذلك شيء، ووجه اتصالها بما قبلها واضح كل الوضوح بحمد الله، فالفرقان عالج موضوع تثبيت نبوة محمد «البشر» صلى الله عليه وسلم الذي لا يملك مالا ولا ذهباً ولا فضة، فخصت هذه السورة لبيان الحجّة التي جاء بها محمد رسول الله (ﷺ) وتقدمته دعواه بأنه رسول الله وهي هذا الكتاب المبين، فافتتحت السورة بذلك «طسم تلك آيات الكتاب المبين» ثم قص الله عز وجل فيها حجة طائفة من الأنبياء السالفين على قومهم، فذكر حجة موسى: عصاه ويده، وإبطال سحر السحرة ثم نجاته ونجاه المؤمنين.

كما ذكر حجة إبراهيم على قومه ومحاوّلته لهم بأن الأصنام لا تضر ولا تنفع وهم يرون ذلك رأي العين، ثم ذكر حجة نوح ونجاته بالسفينة التي هزّوا بها بادئ الأمر، ثم حجة هود على قومه الذين اعتصموا بأبنيتهم الشاخصة وعدم غنائها عنهم شيئاً.

ثم حجة صالح وناقته وتدمير قومه، وهكذا لوط وشعيب ثم ختمت حجج الأنبياء السابقين بقوله تعالى: «وأنه- أي هذا القرآن الكريم- لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين».

ولما كانت صناعة الشعر عند العرب منتشرة، وأقدار الشعراء المفلّحين عالية ميز الله عز وجل هذا الكلام عن الشعر ونزه قدر رسوله أن يدانيه الشعر، ولا يجهل أحد أن الشاعر يقول السفه بل أكثر كلامه السفه، وهذا الكلام الذي جاء محمد منزّه عن السفه والضلالة لأنه من الحق ويهدي إلى الحق، والسورة كلها في آياتها التي يأخذ بعضها برقاب بعض لا يشد منها شيء، وهذا التلاحم مع السورة السابقة ظاهر والله الحمد والمنة.

402. أ: شنيع

403. أ: غير واضحة بسبب خرم في المخطوطة.

404. ب: لعلك باخع نفسك الآيتين.

405. ب: رادة.

والأخبار حتى لا تجد قصة تتكرر، وإنه ظنَّ ذلك من لم يمعن النظر، فما من قصة من القصص المتكرر في الظاهر إلا ولو سقطت أو قدر إزالتها لنقص من الفائدة ما لا يحصل من غيرها وسنوضح هذا في التفسير⁴⁰⁶ بحول الله (تعالى)⁴⁰⁷.

ثم أتبع جل تعالى قصة موسى بقصص غيره من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)⁴⁰⁸ مع أهمهم على الطريقة المذكورة وتأنيسا له عليه السلام حتى لا يهلك نفسه أسفا على فوت إيمان قومه، ثم أتبع سبحانه ذلك بذكر الكتاب وعظيم النعمة به؛ فقال: «وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك» (الآيات: 192-194) فيها كرامة تقصر الألسنة عن شكرها، وتعجز العقول عن تقريرها، ثم أخيرا أخبر تعالى أنه بلسان عربي مبين، ثم أخبر سبحانه (بعلي أمر هذا الكتاب)⁴⁰⁹ وشائع ذكره على السنة الرسل والأنبياء عليهم السلام، فقال: «وإنه لفي زبر الأولين» (آية: 196)، وأخبر أن علم بني إسرائيل من أعظم آية وأوضح برهان وبينه، وإن تأمل ذلك كاف، واعتباره شاف، فقال: «أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل» (آية: 197) كعبد الله بن سلام⁴¹⁰ وأشباهه، ثم وبخ تعالى متوقفي العرب فقال: «ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين» (الآيتان: 198-199)، ثم أتبع ذلك بما يتعظ به المؤمن الخائف من أن الكتاب مع أنه هدى ونور قد يكون/محنة في حق طائفة كما قال تعالى: «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا» (البقرة: آية: 26) «وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم» (التوبة: آية: 125)، وقال تعالى: في هذا المعنى: «كذلك سلكناه»⁴¹¹ في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب

406. جاء فيه: "أن قصص الرسل عليهم السلام مع أهمهم لم تأت في القرآن العظيم على نهج واحد في الدعاء والجواب والمراجعة والمحاورة، ولا يمكن ذلك لاختلاف طبائع الأمم وأغراضهم واختلاف الحالات، ولكل مقام مقال، فمرة ترد القصة على الدعاء وإبداء الحجة والتوبيخ من غير ذكر شيء من جواب المدعوين سوى الأخبار بتكذيبهم، ومرة يورد من مقالات الأمم لرسولهم اليسير، ومرة يمد أطناب الكلام في المحاورات بين الرسل والأمم"، وقد مثل المؤلف لكل ضرب من هذه الأضراب. (أنظر: ملاك التأويل: 892/2، 893).

407. أ: ساقطة

408. أ: ساقطة

409. أ: تعالى الكتاب. وأشار إلى لحق بالهامش لم يتضح لي رسمه ولا معناه.

410. عبد الله بن سلام بن الحارث، أبو يوسف الإسرائيلي، ومن ذرية النبي يوسف عليه السلام من بني قينقاع، وكان اسمه الحصين فغيره النبي صلى الله عليه وسلم وسماه عبد الله ولما دخل رسول الله صلوات الله عليه وسلم المدينة جاءه وكان حبرا من أحبار يهود قرأ الكتب، وعرف الأخبار، فسمع النبي (ﷺ) يقول: (أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام). وسأل النبي عن ثلاث خصال لا يعلمها إلا نبي ثم آمن في قصة طويلة هامة تبين إخلاصه للحق ومعرفته بنفسية اليهود الخبيثة وهو يقول للنبي (ﷺ): "إن اليهود قوم بهت"، توفي رضي الله عنه سنة ثلاث وأربعين بالمدينة المنورة وفضائله جمة. (أنظر: ترجمته في الإصابة: 321/2، الاستيعاب: 382/2).

411. في الأصل "نسلكه" وهو التباس مع قوله تعالى: "كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين" (الحجر: 12).

الأليم...» (الشعراء: الآيات: 200 وما بعدها)، ثم عاد الكلام إلى تنزيه الكتاب وإجلاله على أن تتصور⁴¹² الشياطين على شيء منه أو تصل إليه؛ فقال سبحانه: «وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم» (الآيتان: 210-211) أي ليسوا (أهلين)⁴¹³ له ولا يقدرّون على استراق سمعه بل هم معزولون عن السمع مرجومون بالشهب، ثم وصى تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمراد المؤمنين فقال: «فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين» (آية: 213) ثم أمره بالإنذار ووصاه بالصبر، فقال: «وأندر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» (الآيتان: 214-215)، ثم اعلم تعالى بموقع ما توهّموه وأهلية ما تخيلوه فقال: «هل أنبؤكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم» (الآيتان: 221-222)، ثم وصفهم، وكل هذا تنزيه لنبيه عليه السلام على ما (تقولوه)⁴¹⁴، ثم هددهم وتوعدهم، فقال «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» (آية: 226).

412. أ: تصور

413. ب: أهلا

414. ب: يقولون

سورة النمل⁴¹⁵

لما أوضح في سورة الشعراء عظيم رحمته بالكتاب وبيان ما تضمنه مما فضح به الأعداء أو رحم به الأولياء وبراءته من أن (تتسور)⁴¹⁶ الشياطين عليه، وباهر آياته الداعية من اهتدى بها إليه، فتميز بعظيم آياته كونه فرقانا قاطعا ونورا ساطعا، أتبع سبحانه ذلك مدحة وثناء، وذكر من شملته رحمته به تخصيصا واعتناء، فقال: «تلك آيات القرآن» (آية: 1) أي الحاصل عنها مجموع تلك الأنوار، «آيات القرآن (وكتاب مبین)»⁴¹⁷ هدى وبشرى للمؤمنين» (الآيتان: 1-2)، ثم وصفهم ليحصل للتابع قسطه من بركة التبعية، وليقوى رجاءه في النجاة مما أشار إليه، وسيعلم الذين ظلموا من عظيم ذلك المطلع، ثم أتبع ذلك بالتنبيه على صفة الأهلين لما تقدم من القول والافتراء (تنزيها لعباده المتقين وأوليائه المخلصين عن دنس الشكوك والافتراء)⁴¹⁸ فقال: «إن الذين لا يؤمنون (بالآخرة)»⁴¹⁹ زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون» (آية: 4) أي يتحIRON (فلا)⁴²⁰ يفرقون بين النور والإظلام (لارتياب)⁴²¹ الخواطر والأفهام، ثم أتبع ذلك بتسليته عليه السلام بالقصص الواقعة بعد تنشيطا له وتعريفا (بعلو)⁴²² منصبه، وإطلاعه له على عجيب صنعه تعالى فيمن تقدم، (ثم)⁴²³ ختمت السورة بذكر أهل القيامة وبعض ما بين يديها والإشارة إلى الجزاء ونجاة المؤمنين، وتهديد من تنكب عن سبيله عليه السلام.

415. هذه السورة مكية في قول الجميع وهي في مضمونها لا تخرج عن تأكيد السورة السابقة إلا وهي بيان حجة الرسول وأنه علوي المصدر فوق مستوى البشر، ولهذا فقد بدئت بذكر الكتاب العزيز - كسابقتها - وأنه هدى وبشرى للمؤمنين "طس تلك آيات الكتاب وقرآن مبين هدى وبشرى للمؤمنين" (آية: 1-2)، وفي أثنائها أكد ذلك بقوله: "وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون" (الآيتان: 77-78) ثم ختمت السورة بهذا التأكيد "إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن" (الآيتان: 93-94)، والقصص التي سبقت في ثنايا هذه السورة فيها بسط وتأکید لما جاء في السورة السابقة، فقد جاءت بمعلومات هي فوق مستوى أمم في دقتها وتنوعها وتباعدتها. ففيها خبر موسى، وسليمان وداود، وملكة سبأ، وصالح مع قومه ثمود، ولوط مع قومه عاد، وهي ترشد كلها إلى وقائع العلم الذي يشترك فيه محمد صلى الله عليه وسلم مع إخوانه الأنبياء في تلقيه من الله سبحانه وتعالى ويعجز عن إدراكه البشر، الذين يرون آثاره حقيقة ماثلة، ولكنهم لا يلمسون مصدره، ولهذا فكثير منهم لا يوقن بذلك.

416. أ: يتصور

417. ب: ساقطة

418. أ: ساقطة

419. أ: ساقطة

420. ب: ولا

421. ب: لارتباك

422. ب: بعلي

423. ب: ساقطة

سورة القصص⁴²⁴

لما تضمن قوله سبحانه: «إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء» إلى آخر السورة (النمل: الآيات: 91-93) من التخويف والترهيب والإنذار والتهديد ما انجر معه الإشعار بأنه عليه السلام سيملك مكة ويفتحها تعالى عليه، ويذل عتاة قريش ومتمرديهم، ويعز أتباع رسوله عليه السلام ومن استضعفته قريش من المؤمنين، أتبع سبحانه ذلك بما قصه على نبيه من نظير ما أشار إليه في قصة بني إسرائيل وابتداء امتحانهم بفرعون واستيلائه عليهم وفتكه بهم إلى أن أعيهم الله وأظهرهم على عدوهم وأورثهم⁴²⁵ أرضهم وديارهم. ولهذا أشار تعالى في كلا القصتين بقوله في الأولى: «سيركم آياته فتعرفونها» (النمل: آية: 93) وبقوله في الثانية: «ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» (آية: 6).

ثم قص ابتداء أمر فرعون واستعصامه⁴²⁷ بقتل ذكور الأولاد، ثم لم يغن ذلك عنه من قدر الله شيئاً، ففي حاله عبرة لمن وفق للاعتبار، ودليل أنه سبحانه أنه المنفرد بملكه يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء لا ينازعه نازع⁴²⁸ ولا يمنعه عما يشاء مانع: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء»⁴²⁹ (آل عمران: آية: 26)، وقد أفصح قوله تعالى: «وعد

424. هذه السورة مكية في جملتها وقيل أن بعضها نزل وقت الهجرة والنبي صلى الله عليه وسلم متوجه إلى المدينة، وهي خاتمة الطواسين، وموضوع الطواسين التي سبقتها هي بشكل عام إقامة الحجّة على رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق نبوته، وفي هذه السورة أمران رئيسيان: أولاً

1. تفصيل قصة موسى عليه السلام التي ذكرت مجملّة في السورتين، فذكرت ولادته في فترة حاول فرعون (رمز الظلم) أن يذبح كل مولود ذكر قصداً منه إطفاء جذوة الحق التي تحرق الباطل وأشياعه، ثم شباب موسى وخروجه من قومه في بلاد الله الواسعة، ثم عودته رسولاً نبياً مبلغاً ووقوفه في وجه الباطل بهيله وهيلمانه وانتصاره في النهاية ونجاته وغرق عدوه.

2. قصة قارون وغروره بالمال، وطغيان أصحابه، وميل النفوس إلى زخارفه وكيف كانت نتيجة ذلك وهي تفصيل لقوله تعالى في السورة السابق: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين».

ومضمون هذين الموضوعين هنا سبب انحراف العرب عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فهم أصحاب سطوة وصولية في الجزيرة، وهم ذوو مال ورياش أكثر من صاحب هذه الرسالة، فبعد أن قامت الحجج عليه في السور السابقة، ختمت الطواسين هذين النموذجين وأبانت عن نهاية أصحابها، وأعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم وهو يغادر مكة كما غادر موسى موطنه من قبل بأنه عائد كما عاد سلفه موسى عليه السلام «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (القصص: 85)، وهذا مما يرجح لدي أن هذه السورة أو بعضها نزلت، بين مكة والمدينة أثناء الهجرة.

425. ب: فأورثهم

426. أ: كقوله

427. ب: وفي الثانية بقوله

428. ب: واستعصائه

429. ب: لا يزرعه وازع

الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم... الآية⁴³⁰ (النور: آية: 55) بما أشار إليه مجملًا⁴³¹ ما أوضحنا اتصاله من خاتمة النمل وفاتحة القصص ونحن نزيده بيانا بذكر لمع من تفسير ما قصد التحامه فنقول: إن قوله تعالى (معلما)⁴³² لنبيه صلى الله عليه وسلم وأمرًا: «إنما أمرت أن أعبد رب هذه (البلدة الذي حرمها)⁴³³ إلى قوله: «وقل الحمد لله سيريكم آياته»⁴³⁴ (النمل: الآيات: 91-93) لا خفاء⁴³⁵ بما تضمن ذلك من التهديد وشديد الوعيد. ثم في قوله: «رب هذه البلدة» أشار أنه عليه السلام سيفتحها ويملكها (لأنها بلدة ربه)⁴³⁶ وهو عبده ورسوله، وقد اختصه⁴³⁷ برسالته وله كل شيء، فالعباد والبلاد ملكه، ففي هذا من الإشارة مثل ما في قوله تعالى: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (آية: 85) وقوله: «وأن اتلوا القرآن» (النمل: آية: 92) أي (ليسمعوه)⁴³⁸ فيتذكر من سبقت له السعادة ويلحظ سنة الله في العباد والبلاد، ويسمع ما جرى لمن عاند وعتا، وكذب واستكبر، وكيف وقصه⁴³⁹ الله وأخذه ولم يغن عنه حذره، وأورث مستضعف عباده أرضه ودياره، ومكن لهم⁴⁴⁰ في الأرض، وأعز رسله وأتباعهم، «نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون» (آية: 3) أي يصدقون ويعتبرون ويستدلون فيستوضحون وقوله: «سيريكم آياته» (النمل: آية: 93) يشير إلى ما حل بهم يوم بدر، وبعد ذلك إلى يوم فتح مكة، وإذعان من لم يكن يظن انقياده، وإهلاك من (ظن)⁴⁴¹ تمرده وعناده وانقياد العرب بجملتها بعد فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجا، وعزة أقوام وذلة آخرين بحاكم: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات: آية: 13)

430. أ: ساقطة

431. «منكم» ساقطة من: أو «كما استخلف الذين قبلهم» ساقطة من: ب

432. ب: مجمل

433. أ: ساقطة

434. من ربه: «وقل الحمد لله» ساقطة من الآية في: ب

435. أ: لاحقا

436. أ: لأنه رب بلد.

437. أ: خصه والمعنى واحد، يقال: خصه خصا خصوصا وخصصه، واختصه أفرد به دون غيره. (أنظر: لسان العرب: 841/1).

438. في ب: لتسمعوه

439. الوقص بالتحريك: قصر العتق، يقال وقص عتقه يقصها وقصا، كسرها ودقها، ووقص البعير فهو موقوف إذا أصبح داؤه في ظهره لا حراك به (أنظر: لسان العرب: 965/3).

440. أ: مكن له

441. في ب: طال

إلى فتح الله على الصحابة (رضوان الله عليهم)⁴⁴² ما وعدهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم⁴⁴³، فكان كما وعد.

فلما تضمنت (هذه)⁴⁴⁴ الآي ما أشير إليه أعقب بما هو في قوة أن لو قيل ليس عتوكم بأعظم من عتو فرعون وآله، ولا حال مستضعفي المؤمنين بمكة ممن (قصدتم)⁴⁴⁵ فتنته في دينه، بدون حال بين إسرائيل حين كان فرعون يمتحنهم بذبح آبائهم، فهلا تأملتم عاقبة الفريقين وسلكتهم أنهج الطريقين «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم» إلى قوله: «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» (غافر: آية: 82)، فلو تأملتم ذلك لعلمتم أن العاقبة للتقوى فقال سبحانه بعد افتتاح السورة: «إن فرعون علا في الأرض» (آية: 4)، ثم ذكر من خبره ما فيه عبرة، وذكر سبحانه آياته الباهرة في أمر موسى عليه السلام عليه السلام وحفظه ورعايته وأخذ أم عدوه إياه «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» (آية: 9) فلم يذبح الأبناء خيفة من مولود يهتك ملكه حتى إذا كان ذلك المولود تولى بنفسه تربيته وحفظه وخدمته ليعلم لمن⁴⁴⁶ (التدبير)⁴⁴⁷ والإمضاء، وكيف يقود سابق الحكم والقضاء فهلا سألت قريش وسمعت وفكرت واعتبرت «أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى» (طه: آية: 133).

ثم أتبع سبحانه ذلك بخروج موسى عليه السلام من أرضه «فخرج منها خائفا يترقب» (آية: 21) وما ناله عليه السلام في ذلك الخروج من عظيم السعادة، وفي ذلك منبهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على خروجه من مكة وتعزية له، وإعلام بأنه تعالى سيعيده إلى بلده ويفتحه عليه، وبهذا المستشعر من هنا صرح آخر السورة في قوله تعالى: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (آية: 85) وهذا كاف فيما قصد.

442. زيادة من : ب

443. زيادة من : ب

444. أ: ساقطة

445. ب: قصدهم.

446. أ: من

447. في ب: التدبر.

سورة العنكبوت⁴⁴⁸

افتتحت سورة القصص بذكر امتحان بني إسرائيل بفرعون وابتلائهم بذبح أبنائهم وصبرهم على عظيم تلك المحنة، ثم ذكر تعالى حسن عاقبتهم وثمره صبرهم، وانجر مع ذلك مما هو منه، لكن انفصل عن عمومه (بالقضية امتحان أم موسى بفراقه حال الطفولية وابتداء الرضاع، وصبرها على أليم ذلك المذاق)⁴⁴⁹ حتى رده تعالى إليها أجمل رد وأحسنه، ثم ذكر ابتلاء موسى عليه السلام بأمر القبطي وخروجه خائفا يترقب، وحسن عاقبته وعظيم رحمته، وكل هذا ابتلاء أعقب خيرا، وختم رحمة، ثم بضرب آخر من الابتلاء، أعقب محنة وأورث شرا وسوء فتنة، وهو ابتلاء قارون بهاله وافتتانه به «فخسفنا به وبداره الأرض» (القصص: آية: 81) فحصل من هذا أن الابتلاء في غالب الأمر سنة، وجرت منه (سبحانه)⁴⁵⁰ في عباده ليميز الخبيث من الطيب، وهو المنزه عن الافتقار إلى تعرف أحوال العباد بما يتليهم به، إذ قد علم كون ذلك منهم قبل كونه، إذ هو موجوده وخالقه كان خيرا أو شرا، فكيف يغيب عنه أو يفتقر تعالى إلى ما به يتعرف⁴⁵¹ أحوال العباد، أو يتوقف علمه على سبب «ألا يعلم من خلق» (الملك: آية: 14) ولكن هي سنة في عباده ليظهر لبعضهم من بعض عند الفتنة والابتلاء ما لم يكن ليظهر قبل ذلك حتى يشهدوا على أنفسهم وتقوم الحجة عليهم باعترافهم ولا افتقار به تعالى إلى شيء من ذلك.

448. مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس في أحد قوليه، ومثله قتادة هي مدنية ولها قول آخر أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، وقال علي بن أبي طالب نزلت بين مكة والمدينة. (أنظر: القرطبي: المجلد 323/7 والدر المنثور: 141/5).

ويدوي أن القولين الأولين لا يتعارضان بل هما يتفقان مع قول سيدنا علي رضي الله عنه ونزولها هذا ومضمونها يؤكد ذلك، فهي في الواقع امتداد لسورة القصص وهي -أي سورة القصص- من آخر ما نزل بمكة، فكانت هذه السورة امتداد لها، ولهذا جاءت عقبها وابتدأت بذكر سنة من سنن الله في خلقه ألا وهو الامتحان والابتلاء وخاصة لأصحاب المبادئ والمذاهب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعيش أخطر ابتلاء في حياته. ألا وهو الهجرة وهي من أشد أنواع الابتلاء، فابتدأت بقوله تعالى: "ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون".

ولما كانت السورة السابقة فصلت في قصة فرعون واستعلائه وجبروته، وجعله الناس شيعا افتتحت هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم المشركون وعذبوهم على الإيذان دون ما عذب به فرعون بني إسرائيل تسليية لهم، وتهوينا لما أصابهم، وحثا لهم على تحمل الأذى والصبر عليه.

وأيا لما ذكر في السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عوده إلى مصر رسولا نبيا، ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزرا، ذكر هنا نجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة وإغراق من كذبه من قومه.

وإذا كانت السورة السابقة قد ألمحت إلى هجرته صلى الله عليه وسلم وظفره على قومه "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" فقد جاء في خاتمة هذه السورة الإشارة كذلك إلى هجرة المؤمنين "يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة".

449. ب: ساقطة.

450. ب: ساقطة.

451. ب: بيانه بتعرف

فلما تضمنت سورة القصص هذا الابتلاء في الخير والشر، وبه وقع افتتاحها واختتامها هذا، وقد انجر بحكم الإشارة أولاً خروج نبينا صلى الله عليه وسلم من بلده ومنشئه ليأخذه عليه السلام بأوفر حظ مما ابتلى به الرسل والأنبياء من مفارقة الوطن وما يحرز لهم الأجر المناسب لعلي درجاتهم عليهم السلام، ثم بشارته صلى الله عليه وسلم آخر بالعودة والظفر «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (القصص: آية: 85)، فأعقب سبحانه هذا بقوله معلماً للعباد ومنبها أنها سنته⁴⁵² فيهم فقال: «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» (آية: 2) أي أحسبوا أن يقع الاكتفاء بمجرد استجابتهم وظاهر إنابتهم ولما يقع امتحانهم بالشدائد والمشقات وضروب الاختبارات: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات» (البقرة: آية: 155) فإذا وقع الابتلاء فمن فريق يتلقون ذلك تلقى العليم، إن ذلك من عند الله ابتلاء واختباراً فيكون تسخييراً لهم وتخليصاً، ومن فريق يقابلون ذلك بمرضاة الشيطان والمسارة إلى الكفر والخذلان «ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه» (آية: 6).

ثم أتبع سبحانه هذا بذكر حال بعض الناس ممن يدعي الإيمان، فإذا أصابه أدنى أذى من الكفار (صرفه)⁴⁵³ ذلك عن إيمانه، وكان عنده مقاوما لعذاب الله الصارف لمن عرفه عن الكفر والمخالفة، فقال تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله» (آية: 10) فكيف حال هؤلاء في تلقي ما هو أعظم من الفتنة وأشد في المحنة.

ثم أتبع سبحانه ذلك بما به يتأسى الموقف من صبر الأنبياء عليهم السلام وطول مكابدتهم من قومهم، فذكر نوحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً، وخص هؤلاء عليهم السلام بالذكر⁴⁵⁴ لأنهم من أعظم الرسل مكابدة وأشدهم ابتلاء، أما نوح عليه السلام، فلبث في قومه⁴⁵⁵ كما أخبر الله سبحانه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما آمن معه إلا قليل، وأما إبراهيم عليه السلام فرمي بالمنجنيق في النار فكانت عليه برداً وسلاماً، وقد نطق الكتاب العزيز بخصوص المذكورين (صلى الله عليهما وسلم وعلى الرسل والأنبياء أجمعين)⁴⁵⁶ بضروب

452. ب: سنه.

453. ب: عرفه.

454. ب: وشعيباً عليهم السلام وخص هؤلاء بالذكر.

455. أ: فلبث فيهم في قومه.

456. ب: عليهم السلام

من الابتلاءات حصلوا على ثوابها وفازوا من عظيم الرتبة النبوية العليا بأسنى نصابها، ثم ذكر تعالى أخذ المكذبين من أهمهم فقال: «فكلاً أخذنا بذنبه» (آية: 40) ثم وصى نبيه عليه السلام⁴⁵⁷ وأوضح⁴⁵⁸ حجته وتتابع اتساق الكلام (إلى)⁴⁵⁹ آخر السورة.

457. ب: صلى الله عليه وسلم.

458. ب: في أوضح.

459. ب: ساقطة.

سورة الروم⁴⁶⁰

لما أعقب⁴⁶¹ سبحانه أهل مكة ونعى عليهم قبح صنيعهم في التغافل عن الاعتبار بحالهم وكونهم مع قلة عددهم قد منع الله بلدهم عن قاصد نهبه، وكف أيدي العتاة والمتمردين عنهم مع تعاور أيدي المنتهين من حولهم، وتكرر ذلك وإطراده صونا لحرمة وبيته، فق ال تعالى: «أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم» (العنكبوت: آية: 67) أي أولم يكفهم هذا في الاعتبار ويتبينوا أن ذلك ليس عن قوة منهم ولا حسن دفاع، وإنما هو بصون الله إياهم بمجاورة بيته وملازمة أمنه مع أنهم أقل العرب، أفلا يرون هذه النعمة ويقابلونها بالشكر والاستجابة قبل أن يحل بهم نقمه ويسلبهم نعمه، فلما قدم تذكارهم⁴⁶² بهذا أعقبه⁴⁶³ بذكر طائفة هم أكثر منهم وأشد قوة وأوسع بلادا وقد أيد غيرهم ولم يغن عنهم انتشارهم وكثرتهم فقال: «ألم غلبت الروم في أدنى الأرض» (الآيات 1 وما بعدها) فذكر تعالى (غلبة)⁴⁶⁴ غيرهم لهم، وأنهم ستكون لهم كرة ثم يغلبون، وما ذلك إلا بنصر الله من شاء من عبده، ينصر من يشاء، فلو كشف عن أبصار من كان بمكة من الكفار لرأوا⁴⁶⁵ أن اعتصام بلادهم وسلامة ذرياتهم وأولادهم مما يتكرر⁴⁶⁶ على من حولهم من الانتهاب والقتل وسبي الذراري والحرم، إنما هو بمنع الله تعالى وكريم صونه لمن جاور حرمة وبيته، وإلا فالروم أكثر عددا وأطول مددا ومع ذلك تتكرر عليهم الفتكات⁴⁶⁷ والغارات وتتوالى

460. سورة الروم مكية بلا خلاف. وقد ذكر في مطلعها ظهور الروم على فارس بعد هزيمتهم التي أسى لها المسلمون وبطر بها المشركون، وقد تردد كثيرا في هذه السورة الإشارة إلى قدرة الله عز وجل وتصرفه في ملكوته، ويظهر لي أن وجه تعلقها بسابقتها هو أن ما ورد فيها من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس والأمر بالسير في فجاج الأرض، والتفكر في عواقب السالفين "أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها..." (9-10) "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل" (42). وما ورد فيها من ذكر آيات الله والتنبيه إليها كخلق السماوات والأرض، وإحياء الموتى وتعدد الألسنة والألوان، وتصريف الرياح، وتعاقب الليل والنهار وإنزال المطر وإحياء الأرض به، وغير ذلك من الآيات كل ذلك جاء بيانا وتفصيلا لقوله تعالى في السورة السابقة: "أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" (19-20).

461. في ب: عتب، وفي أ: أعقب، واثبت أعتب لأنها المناسبة للسياق، ومعناها إزال شكواهم وعتابهم، وهذا ما تعالجه أواخر سورة العنكبوت (الآية: 50 على آخر السورة).

462. ب: تذاكرهم

463. أ: أعقب

464. ب: ساقطة

465. أ، ب: لروا

466. ب: ساقطة

467. ب: النكبات

عليهم الغلبات أفلا يشكر أهل مكة من/ أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. (وأيضا)⁴⁶⁸ فإنه سبحانه لما قال: «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان» (العنكبوت: آية: 64)، أتبع سبحانه بذكر تقلب حالها وتبين⁴⁶⁹ اضمحلالها ومحالها، وأنها تصفو ولا تتم وإنما حالها أبدا التقلب وعدم الثبات، فأخبر بأمر⁴⁷⁰ هذه الطائفة التي هي من أكثر (أهل) الأرض وأمكنهم وهم الروم، وأنهم لا يزالون مرة عليهم وأخرى لهم، فأشبهت حالهم هذه حال اللهو واللعب فوجب اعتبار العاقل بذلك وطلبته الحصول على تنعم دار لا يتقلب⁴⁷² حالها، ولا يتوقع انقلابها وزوالها، «وإن الدار الآخرة هي الحيوان» (العنكبوت: آية: 64) ومما (يقوي هذا)⁴⁷³ المأخذ قوله تعالى: «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» (الروم: آية: 7) أي لو علموا باطنها لتحققوا أنها لهو ولعب ولعرفوا أمر الآخرة «من عرف نفسه عرف ربه»⁴⁷⁴ ومما يشهد لكل من القصدين ويعضد كلا الأمرين، قوله سبحانه: «أو لم يسيروا في الأرض...» الآيات (9 وما بعدها) أي لو فعلوا هذا وتأملوا لشاهدوا من تقلب أحوال الأمم وتغير الأزمنة والقرون ما بين⁴⁷⁵ لهم عدم بقائها⁴⁷⁶ على أحد، فتحققوا لهوها ولعبها، وعلموا أن حالهم ستؤول إلى حال من ارتكب في العناد والتكذيب وسوء التبار والهلاك.

468. ب: ساقطة

469. ب: وتبين

470. ب: عن

471. ب: ساقطة

472. ب: يتقلب

473. ب: يقوى على هذا.

474. ب: قال النووي: غير ثابت، وقال السمعاني: هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه. (انظر: الدرر المنتشرة، ص: 167).

475. في ب: يبين

476. في ب: ايفائها.

سورة لقمان⁴⁷⁷

لما تكرر الأمر بالاعتبار والحض عليه والتنبيه بعجائب المخلوقات في سورة الروم بقوله: «أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق» (آية: 8) وقوله: «أو لم يسيروا في الأرض» (آية: 9) وقوله: «الله يبدأ الخلق ثم يعيده» (آية: 11) وقوله: «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي» إلى قوله: «كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون» (الآيات: 19-28) وهي عشر آيات تحملت من جليل الاعتبار والتنبيه ما لا تبقى⁴⁷⁸ معه شبهة ولا توقف لمن وفق إلى ما بعد هذا من آيات التنبيه وبسط الدلائل، وذكر ما فطر عليه العباد وضرب الأمثال الموضحة سواء السبيل لمن عقل معانيها وتدبر حكمها إلى قوله: «ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل» (آية: 58) وهي إشارة إلى ما أودع الله كتابه المبين من مختلف الأمثال سني العظات، وما تحملت هذه السورة من ذلك، أتبع سبحانه ذلك بقوله الحق: «ألم تلك آيات الكتاب الحكيم» (آيتان: 1-2) أي دلائله وبراهينه لمن وفق وسبقت له الحسنى وهم المحسنون الذين ذكرهم بعد، ووصف الكتاب بالحكيم يشهد لما مهدناه، ثم أشار سبحانه إلى من حرم منفعة والاعتبار به واستبدل الضلالة بالهدى، وتنكب عن (سنن)⁴⁷⁹ فطرة الله التي فطر الناس عليها، فقال: «ومن الناس من يشترى لهُ الحديث...» الآيات (6 وما بعدها)، ثم أتبع ذلك بما يبيك كل معاند ويقطع بكل جاحد، فذكر خلق السماوات بغير مرئية مشاهدة لا يمكن في أمرها امتراء، ثم ذكر خلق الأرض وما أودع فيها ثم قال سبحانه: «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه» (آية: 11)، ثم أتبع ذلك بذكر من هداه سبيل الفطرة فلم تزغ به الشبه ولا تنكب سواء السبيل؛ فقال: «ولقد آتينا لقمان الحكمة...» (آية: 12) (ليبين لنا سنن)⁴⁸⁰ من أتبع فطرة الله التي تقدم ذكرها في سورة الروم ثم تناسق الكلام وتناسج.

477. سورة لقمان مكية في جملتها، وأضيف أن وجه اتصالها بسابقتها أنه لما ختمت الروم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر حتى يتحقق وعد الله، وكان فيها الأمر بإقامة وجهه للدين جاءت سورة لقمان لتبين أن التزام آيات الله والعمل بها يورث الحكمة وينتج الهداية وينزل الرحمة. وفي عرض هذه السورة لقصة لقمان وهو يعظ ابنه، وينهاه عن الشرك والظغيان والبطر والأشر، تأكيد لذلك وتعريض بكفار قريش، وتعليم للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يحافوا هذه الأخلاق الذميمة، ويتذكروا نعم الله عليهم الظاهرة منها والباطنة ثم ختمت بالذكر بخشية الله وتقواه وهو القادر على أن ينتقم من الكفار، وقد ضربت لهم الأمثال بذلك في هذه السورة، وهي (أي الأمثال) بيان وتفصيل لقوله تعالى في السورة السابقة "لقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل".

478. ب: يبقى.

479. ب: ساقطة.

480. أ: وليس لتأسيس. ب: لتأسيس، والصواب ما أثبتته... للسياق.

سورة السجدة⁴⁸¹

لما انطوت سورة الروم على ما قد أشير إليه من التنبيه بعجائب ما أودعه سبحانه في عالم السماوات والارض على⁴⁸² ذكر الفطرة، ثم أتبت بسورة⁴⁸³ لقمان تعريفاً بأن مجموع تلك الشواهد من آيات الكتاب وشواهد ودلائله، وأنه قد هدى به من شاء⁴⁸⁴ إلى سبيل الفطرة، وإن لم يمتحنه بما أمتحن به كثيراً ممن ذكر فلم يغن عنه، ودُعي فلم يجب، وتكررت الإنذارات فلم يُصغ لها، إن كل ذلك من الهدى والضلال واقع بمشيئته وسابق إرادته، وأتبع سبحانه ذلك بما ينبه المعتبر على صحته فقال: «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» (لقمان: آية: 22) فأعلم سبحانه أن الخلاص والسعادة في الاستسلام (له ولما يقع)⁴⁸⁵ من أحكامه، وعزى نبيه، وصبره بقوله: «ومن كفر فلا يحزنك كفره» (لقمان: آية: 23) ثم ذكر تعالى لجأ الكل قهراً ورجوعاً بحكم اضطرارهم⁴⁸⁶ - لوضوح الأمر - إلى الله تعالى فقال: «ولئن سألتهم من خلق السماوات

481. سورة السجدة مكية في جملتها وكانت مخصوصة بفضل عظيم وهو قراءة النبي صلى الله عليهم وسلم لها في صلاة صبح يوم الجمعة في الركعة الأولى كما أخرج ذلك البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة. (انظر: الدر المنثور: 170/5 والقرطبي المجلد السابع: 83/2) سهاها أحد التابعين وهو خالد بن معدان الكلاعي بالمنجية كما أخرج ذلك عنه الدرامي في سننه. (انظر: الحديث رقم: 3411) حيث يقول: «اقرأوا المنجية وهي "الم تنزيل" فإنه بلغني أن رجلاً كان يقرأها ما يقرأ شيئاً غيرها وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه وقالت رب اغفر له فإنه كان يكثر قراءتي فشفعها الرب فيه وقال اكتبوا له خطيئته حسنة وارفعوا له درجة».

وهذا الحديث وإن كان مرسلًا ولم يبين هذا التابعي مصدره إلا أنه معضد بأحاديث صحيحة متصلة منها ما أخرجه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه الدرامي وغيرهم عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ «الم تنزيل» و«تبارك» (انظر: سنن الدرامي حديث رقم: 3414. وعمل اليوم واللييلة حديث 706 وما بعده مع ملاحظة تحريجه هناك).

أما صلتها بسابقتها فقد أشار السيوطي على وجه قوي في ذلك حيث قال: «وجه اتصالها بما قبلها أنها شرحت مفاتيح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة لقمان: فقلوله في هذه السورة "ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون" (5) شرح لقلوله في لقمان "إن الله عنده علم الساعة" (34) ولذلك عقب هنا بقلوله "عالم الغيب والشهادة" (6) وقلوله في هذه السورة "أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز" (27) شرح لقلوله في لقمان "وينزل الغيث" (34) وقلوله في هذه السورة "الذي أحسن كل شيء خلقه" (7) شرح لقلوله في لقمان "ويعلم ما في الأرحام" (34) وقلوله هنا "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض" (5) "ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها" (13) شرح لقلوله في لقمان: "وما تدري نفس ماذا تكسب غدا" (34)، وقلوله "أنذا ضللنا في الأرض" إلى قوله: "قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون" (11) شرح لقلوله تعالى في لقمان "وما تدري نفس بأي أرض تموت" (34). (انظر: تناسق الدرر ص: 125).

482. ب: وعلى.

483. ب: سورة.

484. ب: سلك.

485. ب: لما يقع.

486. أ: اضرار.

والأرض ليقولن الله» (لقمان: آية: 25) ثم وعظ تعالى الكل بقوله: «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» (لقمان: آية: 27) أي أن ذلك لا يشق عليه تعالى ولا يصعب، والقليل والكثير سواء، ثم نبه بما يبين ذلك من إيلاج الليل في النهار وجريان الفلك بنعمته «ذلك بأن الله هو الحق» (لقمان: آية: 30) ثم أكد ما تقدم من رجوعهم في الشدائد إليه فقال: «وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين» (لقمان: آية: 32) فلما⁴⁸⁷ خلصهم سبحانه ونجاهم عادوا إلى سيء أحوالهم هذا، وقد عاينوا رفقة بهم، وأخذهم عند الشدائد بأيديهم، وقد اعترفوا بأنه خلق السماوات وسخر⁴⁸⁸ الشمس والأرض والقمر، وذلك شاهد من حالهم بجريانهم على ما قدر لهم ووقفهم عند حدود السوابق «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» (لقمان: آية: 22) ثم عطف سبحانه على الجميع فدعاهم إلى تقواه وحذرهم يوم المعاد وشدته، وحذرهم من الاغترار وأعلمهم أنه المنفرد بعلم الساعة وإنزال الغيث وعلم ما في الأرحام وما يقع من المكتسبات وحيث يموت⁴⁸⁹ كل المخلوقات.

ولما⁴⁹⁰ كانت سورة لقمان بما بين من مضمونها محتوية من⁴⁹¹ التنبيه والتحريك على ما ذكر، ومعلمة بانفراده سبحانه بخلق الكل وملكهم، أتبعها تعالى بما يحكم بتسجيل صحة الكتاب وأنه من عنده وأن ما انطوى عليه من الدلائل والبراهين يرفع كل ريب ويزيل كل شك فقال: «ألم، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين، أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك» (الآيتان: 1 و 3) أي أيقع منهم هذا بعد وضوحه وجلاء شواهد. ثم أتبع ذلك بقوله: «ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع» (آية: 3) وهو تمام لقوله: «ومن يسلم وجهه إلى الله» (لقمان: آية: 21) ولقوله: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله» (لقمان: آية: 24) ولقوله: «وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين»⁴⁹² (لقمان: آية: 32) ولقوله: «ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون» (السجدة: آية: 4) بما ذكرتم، ألا ترون أمر لقمان وهدايته بمجرد دليل/ فطرته فما لكم بعد التذكير وتقريع الزواجر وترادف الدلائل وتعاقب الآيات متوقفون⁴⁹³ عن السلوك إلى ربكم وقد أقررتم بأنه خالقكم ولجأتكم إليه عند احتياجكم.

487. ب: فإذا

488. في أ: ومسخر.

489. في أ: يفوت.

490. ب: فلما

491. ب: على

492. مخلصين: ساقطة من: أ

493. ب: تتوقفون.

ثم أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم⁴⁹⁴ برجوع من عاند وإجابته حين لا ينفعه رجوع ولا يغني عنه إجابة فقال: «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم» (آية: 12) ثم أعلم سبحانه أن الواقع منهم إنما هو بإرادته وسابق من حكمه ليأخذ الموفق الموقن نفسه بالتسليم، فقال: «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (آية: 13) كما فعلنا بلقمان ومن أردنا توفيقه، ثم ذكر انقسامهم بحسب السوابق فقال: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون» (آية: 18)، ثم ذكر مصير الفريقين ومآل الحزبين، ثم أتبع ذلك بسوء حال من ذكر فأعرض فقال: «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها» (آية: 22)، وتعلق الكلام إلى آخر السورة.

سورة الأحزاب⁴⁹⁵

افتتحها سبحانه بأمر نبيه باتقائه ونهيه عن الصغور إلى الكافرين والمنافقين، واتباعه ما⁴⁹⁶ يوحى الله إليه تنزيها لقدره عن محنة من سبق له الإمتحان ممن قدم ذكره في سورة السجدة، وأمره له بالتسليم لخالفه والتوكل عليه «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» (آية: 4) ولما تحصل من السورتين قبل (ما يعقب العالم من الخوف أشده)⁴⁹⁷ لغيبة العلم بالخواتم، وما جرى في السورتين من الإشارة إلى السوابق «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة: آية: 13) كان ذلك مظنة لتيئيس نبي الله صلى الله عليه وسلم وصاحبي أتباعه، فلهذا أعقب سورة السجدة بهذه السورة المضمنة من التأنيس والبشارة ما⁴⁹⁸ يجرى على المعهود من لطفه تعالى وسعة رحمته، فافتتح سبحانه السورة بخطاب نبيه بالتقوى وإعلامه بما قد أعطاه قبْل من سلوك (سبيل)⁴⁹⁹ النجاة، وإن ورد على طريقة الأمر ليشعره⁵⁰⁰ باستقامة سبيله وإيضاح دليله، وخاطبه بلفظ النبوة لأنه أمر ورد عقب تخويف وإنذار، وإن كان عليه السلام قد نزه الله قدره عن أن يكون منه خلاف/التقوى وعصمه من كل (ما ينافر)⁵⁰¹ نزاهة حاله وعلي منصبه، ولكن طريقة خطابه تعالى للعباد أنه تعالى متى جرد ذكرهم للمدح من غير أمر ولا نهى فهو موضع ذكرهم بالأخص، إلا مدح من محمود صفاتهم ومنه: «محمد رسول

495. هذه السورة مدنية في قول جميع الأئمة، وقد عاجلت موضوع غزوة الأحزاب والبيت النبوي في طاعته لله وللرسول وحق حرمة وعدم إيذائه وختمت بالتأكيد بعدم إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والحث على طاعته وهذا كله داخل في الاستسلام لله عز وجل وهو الموضوع الذي عاجلته سورة السجدة قبلها، فكأن هذه السورة تأكيد لمعنى الاستسلام والخضوع والسجود الوارد في السورة السابقة مع بيان نتيجة الخاضعين لأمر الله من نصر كالذي حدث في غزوة الأحزاب وتكريم كما في الصلاة على النبي وآل بيته، وهذا وجه في ترابط السورتين.

وأشير إلى وجه آخر يبين الصلة بين هذه السورة وسابقتها أبداه الشيخ عبد الله بن الصديق إذ قال: مناسبتها لما قبلها أن الله تعالى توعّد الكفار في السورة السابقة بأن يذيقهم من العذاب الأدنى في الدنيا بالقتل والأسر قبل العذاب الأكبر وهو عذاب الآخرة «ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون». فأخبر هنا بتحقيق الوعيد المذكور «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا... ورد الله الذين كفروا بغيضهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المومنين القتال وكان الله قويا عزيزا، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا». (انظر: جواهر البيان: 81) وهو وجه جيد ظاهر.

496. ب: لما

497. ب: ان ما يعقب العالم من الخوف أشد.

498. أ: بها

499. أ: ساقطة

500. ب: ليشعر

501. ب: منافر

الله والذين معه...» الآيات⁵⁰² (الفتح: آية: 29) فذكره صلى الله عليه وسلم الرسالة، ومهما كان الأمر أو النهي⁵⁰³ عدل في الغالب إلى الأعم ومنه «يا أيها النبي اتق الله» (الأحزاب: آية: 1) «يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال» (الأنفال: 65) «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء» (الطلاق: آية: 1) «يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك» (التحریم: آية: 1) «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات» (الممتحنة: آية: 12)، وقد بين في غير هذا، وأن ما ورد على خلاف هذا القانون فلسبب خاص استدعى العدول عن المطرد، كقوله: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» (المائدة: آية: 67)، فوجه هذا أن قوله سبحانه: «وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته» (المائدة: آية: 67) موقعه شديد فعدل⁵⁰⁴ بذكره عليه السلام⁵⁰⁵ باسم الرسالة لضرب من التلطف فهو من باب «عفا الله عنك لم أذنت لهم» (التوبة: آية: 43) وفيه بعض غموض.

وأيضاً فإنه لما قيل له: «بلغ» طابق هذا ذكره بالرسالة، فإن المبلغ رسول والرسول مبلغ ولا يلزم النبي أن يبلغ إلا أن يرسل، وأما قوله تعالى: «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» (المائدة: آية: 41) فأمره وإن كان نهياً أوضح من الأول، لأنه تسلية له عليه السلام وتأنيس⁵⁰⁶، وأمر بالصبر والرفق بنفسه، فمآله⁵⁰⁷ راجع إلى ما يرد مدحاً مجرداً عن الطلب؛ وعلى ما أشير إليه يخرج ما ورد من هذا.

ولما افتتحت هذه السورة بما حاصله ما قدمناه من إعلامه عليه السلام من هذا الأمر بعلي حاله ومزية قدره، ناسب ذلك ما احتوت عليه السورة من باب التنزيه في مواضع: منها: إعلامه تعالى بأن أزواج نبيه أمهات للمؤمنين⁵⁰⁸ فنزههن عن أن يكون حكمهن حكم غيرهن من النساء مزية لهن وتخصيصاً وإجلالاً لنبهه صلى الله عليه وسلم.

ومنها قوله تعالى: «ولما رأى المؤمنون الأحزاب...» (آية: 22) فنزههم/عن تطرق سوء أو دخول ارتياب على مصون معتقداتهم وجيل إيمانهم «قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله،

502. محمد رسول الله إلى آخر سورة الفتح آية واحدة.

503. ب: والنهي

504. ب: فعودل

505. ب: صلى الله عليه وسلم.

506. ب: وتأنيس

507. أ: فبابه

508. ب: المؤمنين

وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما» (آية: 22) والآية بعد كذلك وهي قوله تعالى: «من المؤمنين رجال صدقوا... الآية» (آية: 23)، ومنها «يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن» (آية: 32) فنزههن تعالى وبين شرفهن على من عداهن، ومنها تنزيه أهل البيت وتكريمهم «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم⁵⁰⁹...» (آية: 33)، ومنها الأمر بالحجاب «يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن» (آية: 59) فنزه المؤمنات عن حالة الجاهلية من التبرج وعدم الحجاب، وصانهن عن التبذل والامتهان، ومنها قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى» (آية: 69) فوصاهم جل وتعالى ونزههم بما نهاهم عنه أن يتشبهوا بمن استحق اللعن والغضب في سوء أديهم وعظيم مرتكبهم، إلى ما تضمنت السورة من هذا القبيل، ثم أتبع سبحانه ما تقدم بالبشارة⁵¹⁰ العامة واللفظ الشامل، كقوله تعالى: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا» (آيتان: 45-46)، ثم قال تعالى: «وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا» (آية: 47) وقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا» إلى قوله: «أجرا كريما» (الآيات: 41-44) وقوله تعالى: «إن المسلمين والمسلمات إلى قوله أجرا عظيما» (آية: 35) وقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح ... الآية»⁵¹¹ إلى قوله «عظيما» (آية: 70) وقوله: «ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما» (آية: 73) وقوله سبحانه مثنيا على المؤمنين بوفائهم وصدقهم «ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله» إلى قوله: «وما بدلوا تبديلا» (الآيات: 22-23) وقوله سبحانه تعظيما لحرمة نبيه صلى الله عليه وسلم⁵¹² والمؤمنين «إن الذين يؤذون الله ورسوله» إلى قوله «وإثما مبينا» (الآيتان: 57-58).

وفي هذه الآيات من تأنيس المؤمنين وبشارتهم وتعظيم حرمتهم ما يكسر سورة الخوف الحاصل في سورتي لقمان والسجدة ويسكن روعهم تأنيسا/لا رفعا، ومن هذا القبيل أيضا ما تضمنت السورة من تعداد نعمه تعالى عليهم وتحسين خلاصهم، كقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فارس فأرسلنا عليهم...» إلى قوله- هنالك ابتلى

509. ويطهركم ساقطة من: ب

510. في أ: بالبشارة.

511. ساقطة من: ب.

512. أ: ساقطة

513. أ: وهي

المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا» (الآيات: 9-11) وقوله (تعالى)⁵¹⁴: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال» إلى قوله: «وكان الله على كل شيء قديرا» (الآيات: 25-27) وختم السورة بذكر التوبة والمغفرة، أوضح شاهد لما تمهد من دليل قصدتها وبيانها على ما وضع والحمد لله، ولما كان حاصلها رحمة ولطفا ونعمة لا يقدر عظيم قدرها وينقطع العالم دون الوفاء بشركها أعقب بما ينبغي من الحمد (يعني أول سبأ)⁵¹⁵.

514. أ: ساقطة

515. أ: ساقطة

سورة سبا⁵¹⁶

افتتحت بالحمد لله سبحانه⁵¹⁷ لما أعقب بها ما انطوت عليه سورة الأحزاب من عظيم الآلاء وجلي النعماء حسبما أبين آنفا⁵¹⁸ فكان مظنة الحمد على ما منح عباده المؤمنين وأعطاهم، فقال تعالى: « الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » (آية: 1) ملكا واختراعا، وقد أشار هذا إلى إرغام من توقف منقطعاً عن فهم تصرفه سبحانه في عباده بما تقدم، وتقرّيعهم⁵¹⁹ بحسب ما شاء، فكأن قد قيل إذا كانوا له ملكا وعبيدا أفلا يتوقف في فعله بهم ما فعل من تيسير للحسنى أو لغير ذلك مما شاء بهم على فهم علته أو استطلاع سببه⁵²⁰، بل يفعل بهم ما شاء وأراد من غير حرج ولا منع وهو الحكيم الخبير وجه الحكمة في ذلك التي خفيت عنكم، وأشار قوله: «وله الحمد في الآخرة» (آية: 1) إلى أنه سيطلع عباده المؤمنين من موجبات حمده ما يمنحهم أو يضاعف لهم من الجزاء وعظيم الثواب في الآخرة على ما لم تبلغه عقولهم في الدنيا، ولا وفت به أفكارهم « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قوة أعين ».

ثم أتبع سبحانه ما تقدم من حمده على ما هو أهله ببسط شواهد حكمته وعلمه، فقال تعالى: «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها» إلى قوله⁵²¹ «وهو الرحيم (الغفور)»⁵²² (آية: 2)، فبرحمته وغفرانه أنال عباده المؤمنين/ ما

516. هذه السورة مكية بإجماع، وقال ابن عطية مكية إلا قوله: «ويرى الذين أوتوا العلم» فقالت فرقة مدنية فيمن أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأشباهه. (البحر المحيط: 257/7).

قال الألوسي في مناسبتها «وجه اتصالها بما قبلها أن الصفات التي أجريت على الله تعالى في مفتتحها مما يناسب الحكم التي في مختتم ما قبل في قوله تعالى: «ليعذب الله المنافقين والمنافقات...» إلخ، وأيضاً قد أشير فيما تقدم إلى سؤال الكفار عن الساعة على جهة الاستهزاء، وههنا قد حكى عنهم إنكارها صريحا والطعن بمن يقول بالمعاد على أتم وجه، وذكر مما يتعلق بذلك ما لم يذكر هناك.

وفي «البحر المحيط» أن سبب نزول هذه السورة أن أبا سفيان قال لكفار مكة لما سمعوا: «ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات» إن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت ويخوفنا بالبعث، واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نبعث، فقال الله قل يا محمد: (بلى وربى لتبعثن)، قاله مقاتل وباقي السورة تهديد لهم وتخويف، ومن ذكر هذا السبب ظهرت المناسبة بين هذه السورة واتي قبلها، انظر: الألوسي 95/22 والبحر المحيط: 257/7.

517. ب: ساقطة

518. ب: زيادة «يعني في آخر كلامه على سورة الأحزاب» بين كلمتي «آنفا» و«فكان».

519. ب: وتعريفهم

520. أ: استطاع سبب

521. زائدة لأن الآية متصلة وليس فيها حذف.

522. أ: ساقطة

خصهم به وأعطاهم، فله الحمد الذي هو أهله، ثم أتبع هذا بذكر إمهاله من كذب وكفر مع عظيم اجترائهم لتبين سعة رحمته ومغفرته فقال تعالى: « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة » (إلى قوله: « إن في ذلك لآية لكل عبد منيب » (الآيات: 3-9) أي أن في إمهاله سبحانه لهؤلاء بعد عتوهم واستهزائهم في قوله: ⁵²³ « لا تأتينا الساعة » وقوله: « هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد » (آية: 7) وإغصائهم عن الاعتبار بما بين أيديهم من السماء والأرض وأمنهم أخذهم من أي الجهات، ففي إمهالهم وإدراار أرزاقهم مع عظيم مرتكبهم آيات لمن أناب (واعبر) ⁵²⁴، ثم بسط لعباده المؤمنين من ذكر آلائه ونعمه وتصريفه في مخلوقاته ما يوضح استيلاء قهره وملكه، ويشير إلى عظيم ملكه، كما أعلم في قوله سبحانه: « الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » (آية: 1) فقال سبحانه: « ولقد آتينا داوود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد » (آية: 10) (ثم قال) ⁵²⁵ « ولسليمان الريح » إلى قوله « اعملوا آل داود شكراً » (الآيتان: 12-13)، ثم أتبع ذلك بذكر حال من لم يشكر فذكر قصة سباً إلى آخرها، ثم وبخ (تعالى) ⁵²⁶ من عبد غيره (معه) ⁵²⁷ بعد وضوح الأمر وبيانه فقال: « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله » (آية: 22) إلى وصفه حالهم الأخروي ومراجعة متكبريهم ضعفائهم ⁵²⁸، وضعفائهم متكبريهم « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب »، ثم التجمت الآي جارية على ما تقدم من لدن افتتاح السورة إلى ختمها.

523. ب: قوله

524. ب: ساقطة

525. ب: ساقطة

526. ب: ساقطة

527. ب: ساقطة

528. ب: ضعفاؤهم، أ: ضعفاهم

سورة فاطر⁵²⁹

لما أوضحت سورة سبأ أنه سبحانه مالك السماوات والأرض ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة، أوضحت هذه السورة أن ذلك خلقه كما هو ملكه، وأنه الأهل للحمد والمستحق، إذ الكل خلقه وملكه، لأن⁵³⁰ السورة الأولى تجرد لتعريف العباد بأن الكل ملكه وخلقه، دارت أمها⁵³¹ على تعريف عظيم ملكه، فقد⁵³² أعطي داود وسليمان عليهما السلام ما هو كالنقطة في البحار الزاخرة⁵³³ فلأن الحديد وانقادات الرياح والوحوش والطير والجن والانس مذلة خاضعة « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير » (سبأ: آية : 22) تعالى ربنا عن الظهير والشريك والند، وتقدس ملكه عن أن تحصره العقول أو تحيط به الأفهام، فتجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه، وتجردت هذه الأخرى للتعريف بالإختراع والخلق، وشهد لهذا استمرار أي سورة فاطر على هذا الغرض من التعريف وتنبئها⁵³⁴ على الابتداءات كقوله تعالى: « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة... الآية » (آية : 1) وقوله: « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها... هل من خالق غير الله يرزقكم » (آية : 2) وقوله: « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا... الآية » (آية : 8) وقوله: « الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا.... الآية » (آية : 9) « والله خلقكم من تراب » (آية : 11) « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » (آية : 13)، « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » (آية : 27) « وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض » (آية : 39) « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا » (آية : 41).

529. وتسمى سورة الملائكة وهي مكية كما روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما، وقيل مكية إلا قوله تعالى: "إن الذين يتلون كتاب الله" الآية وقوله تعالى "ثم أورثنا الكتاب... الآية".

وفي مناسبتها قال ابن حيان "لما ذكر تعالى في السورة التي قبلها هلاك المشركين أعداء المؤمنين وأنزلهم منازل العذاب تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره لنعائه ووصفه بعظيم آلائه كما في قوله: "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" (البحر المحيط: 297/7).

ولا تخفى كذلك مناسبة السورتين في افتتاحهما بالحمد وتقاربهما في المقدار.

530. أ: وكأن

531. ب: ساقطة

532. أ: فقد

533. أ: إلى آخره

534. ب: وتنبئها.

فهذه عدة آيات معرفة الخلق والاختراع أو مشيرة، ولم يقع من ذلك في سورة⁵³⁵ سبأ آية واحدة، ثم إن سورة سبأ جرت أيها على نهج تعريف الملك والتصرف والاستبداد بذلك والإبداء به، وتأمل افتتاحها وقصة داود وسليمان وقوله سبحانه: « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة... الآيات » (سبأ: آية: 22) يتضح لك ما ذكرناه وما أنجر⁵³⁶ في السورتين مما ظاهره الخروج عن هذين الغرضين فملتحم⁵³⁷ ومستدعى بحكم الانجرار بحسب استدعاء مقاصد الآي، رزقنا الله الفهم عنه بمنه.

535. أ: من سورة

536. أ: نحن

537. ب: ملتحم

سورة يس⁵³⁸

لما أوضحت سورة سبأ وسورة فاطر من عظيم ملكه تعالى وتوحده بذلك وانفراد به بالملك والخلق والاختراع ما تنقطع العقول دون تصور⁵³⁹ أدناه، ولا تحيط من ذلك إلا بما شاء، وأشارت من البراهين والآيات على ما يرفع الشكوك ويوضح السلوك مما⁵⁴⁰ كانت الأفكار قد خمدت عن إدراكها واستولت عليها الغفلة، فكأن قد خمدت عن معهود حراكها، ذكر سبحانه بنعمة التحريك إلى اعتبارها بشأنه⁵⁴¹ على من اختاره لبيان تلك الآيات واصطفاه بإيضاح تلك البينات فقال تعالى: «يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم» (الآيات: 1-4) ثم قال: «لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون» (آية: 6) فأشار سبحانه إلى ما تثمر نعمة الإنذار ويبعثه التيقظ بالتذكير، ثم ذكر علة من عمي بعد تحريكه، وإن كان مسببا⁵⁴² عن الطبع وشر السابقة «لقد حق القول على أكثرهم... الآيات» (آية: 7 وما بعدها)، ثم أشار بعد إلى بعض من عمي عن عظيم تلك البراهين لأول وهلة قد يهتز عن تحريكه لسابق⁵⁴³ سعاداته، فقال تعالى: «إنا نحن نحیی الموتی» (آية: 12) فكذا نفعل بهؤلاء إذا شئنا هدايتهم «أو من كان ميتا فأحييناه» (الأنعام: آية: 122) ثم ذكر دأب المعاندين وسبيل المكذبين مع بيان الأمر فقال: «واضرب لهم مثلا أصحاب القرية... الآيات» (آية: 13 وما بعدها)، وأتبع ذلك سبحانه بما أودع في الوجود من الدلائل

538. هذه السورة مكية على ما روي عن ابن عباس. وقد ورد في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والطبراني غيرهم من معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يس قلب القرآن» وبين حجة الإسلام الغزالي وجه إطلاق ذلك عليها بأن المدار على الإيمان وصحته بالاعتراف بالحشر والنشر وهو مقرر فيها على أبلغ وجه وأحسنه. ولذا شبهت بالقلب الذي به صحة البدن وقوامه.

وعد «قلب القرآن» من أسماء هذه السورة، كما تسمى أيضا «العظيمة عند الله» لما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في القرآن سورة تدعى العظيمة عند الله تعالى، ويدعى صاحبنا الشريف عند الله تعالى يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس» وتسمى أيضا المعجمة، والمدافعة القاضية. وقد ورد في شأنها عدة أخبار وآثار تشهد بفضلها وعلو شأنها وذلك لاشتغالها على أمهات علم الأصول وتقريرها إياها بأبلغ وجه وأتمه ولعل هذا هو السر - يقول الألويسي - في الأمر الوارد في صحيح الأخبار بقراءتها على الموتى أي المختصرين. (أنظر: روح المعاني 192/22، 193). ومن أوجه ارتباطها بما قبلها ما أبداه السيوطي حيث قال: «إنه لما ذكر في سورة فاطر قوله: «وجاءكم النذير»، وقوله: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكون أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير» والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أعرضوا عنه وكذبوه، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم (تناسق الدرر: 127)

539. أ: تطور

540. ب: بها

541. ب: بثباته

542. أ: مسبب

543. ب: بسابق

الواضحة والبراهين فقال: « ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون... » الآية (آية: 31) ثم قال: « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها إلى قوله أفلا يشكرون » (آية: 33) ثم قال: « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » (إلى قوله) ⁵⁴⁴ و« كل في فلك يسبحون » (الآيات: 37-40) ثم قال: « وآية لهم أننا حملنا ذرياتهم » (إلى قوله): « إلى حين » (الآيات: 41-44) ثم ذكروا إعراضهم مع عظيم هذه البراهين وتكذيبهم وسوء حالهم عند بعثهم وندمهم وتوبيخهم وشهادة أعضائهم بأعمالهم، ثم تناسجت ⁵⁴⁵ الآي جارية على ما يلائم ما تقدم إلى آخر السورة.

544. أضفناها لاقتضاء السياق لها.

545. ب: تناسخت.

سورة الصافات⁵⁴⁶

لما تضمنت سورة يس من جليل التنبيه وعظيم الإرشاد ما يهتدي الموقف باعتبار بعضه، ويشغل الاعتبار به في تحصيل مطلوبه وفرضه، ويشهد بأن الملك بجملة⁵⁴⁷ لواحد وإن رغم أنف المعاند والجاحد، أتبعها تعالى بالقسم على وحدانيته، فقال تعالى: «والصافات صفا، فالزاجرات زجرا، فالتاليات ذكرا، إن إلهكم لواحد» (إلى قوله): «رب المشارق» (الآيات: 1-5) ثم عاد الكلام إلى التنبيه لعجيب مصنوعاته، فقال تعالى: «إنا زينا السماء بزينة الكواكب» إلى قوله: «شهاب ثاقب» (الآيات: 7-10)، ثم أتبع بذكر عناد من جحد مع بيان الأمر ووضوحه وضعف ما خلقوا/ منه «إنا خلقناهم من طين لازب» (آية: 11) ثم ذكر استبعادهم العودة الأخروية وعظيم حيرتهم وندمهم إذا شاهدوا ما به كذبوا، والتحمت الآي إلى ذكر الرسل مع أهمهم وجريهم في العناد والتوقف والتكذيب على سنن متقارب، أخذ كل بذنبه، وتخلص رسل الله وحزبه، وإبقاء جميل ذكرهم باصطفائه وقربه، ثم عاد الكلام إلى تعنيف المشركين وبيان إفك المعاندين إلى ختم السورة.

546. هذه السورة مكية في قول جميع أهل العلم، ووجه ترابطها بما قبلها وهي مكية مثلها أنها تفصيل لمضمون السورة السابقة.

أما الوجه الأول فإن سورة يس قد عاجلت البعث بعد الموت وهو من الأمور التي أنكرها العرب أشد الإنكار. جاءت هذه السورة لتقلب هم الأمر على وجوهه بدءا ونهاية إذ بينت لهم أنهم خلقوا من تراب ومن طين لازب، وليسوا هم بأعظم خلق الله فيتأملوا على السماء فوقهم وإلى الأرض حوهم، فمن أنشأهم قادر على إعادتهم، من خلق ما حوهم قادر على خلقهم خلقا جديدا. فهذه السورة "يس" يقول السيوطي: «كالأعراف بعد الأنعام وكالشعراء بعد الفرقان في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم». (تناسق الدرر: 128).

وقال أبو حيان في مناسبة أول هذه السورة لأواخر سابقتها: "إنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته على إحياء الموتى وأنه هو منشئهم، وإذا تعلقت إرادته بشيء كان، ذكر تعالى وحدانيته إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة وجودا وعدما إلا بكون المريد واحدا (البحر المحيط: 351/7).

547. أ: بجملة

سورة ص 548

لما ذكر تعالى حال الأمم السالفة مع أنبيائهم في العتو والتكذيب، وأن ذلك أعقبهم الأخذ الوبيل والطويل، وكان هذا مظنة لتذكير حال مشركي العرب وبيان (سوء مرتكبهم، وأنهم قد سبقوا إلى ذلك الارتكاب، فحل بالمعاند سوء العذاب) ⁵⁴⁹، فبسط حال هؤلاء وسوء مقالهم أنه لا فرق بينهم وبين مكذبي الأمم السالفة في استحقاق العذاب وسوء الانقلاب، وقد وقع التصريح بذلك في قوله تعالى: «كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد» (إلى قوله): «إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب» (الآيات: 12-14).

ولما أتبع سبحانه هذا بذكر استعجالهم في قولهم: «عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب» (آية: 16) أتبع ذلك بأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر فقال: «اصبر على ما يقولون» (آية: 17) ثم أنسه ⁵⁵⁰ بذكر الأنبياء وحال المقربين الأصفياء «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود: آية: 120).

548. هذه السورة مكية في قول جميع أهل العلم، ووجه ارتباطها بسالفتها أنه لما أمر الله سبحانه رسوله الكريم في السورة السابقة بأن يصبر عليهم ويتنظر مصيرهم بعد وعده بالنصر جاءت لتؤكد على رسوله بالصبر وتضرب له الأمثال من أنبياء الله السابقين الذين لم تذكرهم السورة السالفة، فذكرت داود وسليمان وأيوب، وقصصهم الواردة في هذه السورة من عجيب القصص أسلوباً ومعنى بما يأخذ بالألباب ويحير الأفكار، واستهلكت هذه السورة بذكر عنجهيتهم وشقاقهم استكبارهم على الحق وختمت باستكبار إبليس وإبائه الذي أورده موارد الهلاك وأتبعه اللعنة إلى يوم الدين. فكانها تنبههم إلى أن هذا الاستعلاء على الحق سيوردهم موارد إبليس مع تأكيد السورة للرسول صلى الله عليه وسلم بأن جمعهم متفرق وشملهم مشتت (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) فالصبر عاقبته خير وهذا أمر عليه الصلاة والسلام.

قال الألوسي في مناسبة هذه السورة لما قبلها: "وهي كالتممة لما قبلها من حيث أنه ذكر فيها ما لم يذكر في تكل من الأنبياء عليهم السلام كداود وسليمان. ولما ذكر سبحانه فيما قبل عن الكفار أنهم قالوا: "لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكننا عباد الله المخلصين" وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم، بدأ عز وجل في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر وفصل ما أجهل هناك من كفرهم وفي ذلك من المناسبة ما فيه" (روح المعاني: 146/23).

549. ب: ساقطة

550. ب: أتبعه

سورة الزمر⁵⁵¹

لما بُيِّنَتْ سورة (الزمر) على ذكر المشركين وعنادهم وسوء ارتكابهم واتخاذهم الأنداد والشركاء، ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزمر من الأمر بالإخلاص الذي هو نقيض حال من تقدم، وذكر ما عنه يكون وهو الكتاب، فقال تعالى: «تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا الله الدين الخالص» (الآيتان: 1-2) وجاء قوله تعالى: «والذين اتخذوا من دونه أولياء... الآية» (آية: 3) في معرض أن لو قيل: عليك بالإخلاص ودع من أشرك ولم يخلص فسترى حاله، وهل ينفعهم اعتذارهم بقولهم: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (آية: 3) وهؤلاء هم الذين بنيت سورة «ص» على ذكرهم، ثم وبخهم الله تعالى وقرعهم⁵⁵² فقال: «لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى... الآية» (آية: 4) فنزه نفسه عن عظيم مرتكبهم بقوله سبحانه: «وهو الواحد القهار» (آية: 4)، ثم ذكر بما فيه أعظم شاهد من خلق السماوات والأرض وتكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل وذكر آيتي النهار والليل ثم خلق الكل من البشر من نفس واحدة وهي نفس آدم عليه السلام، ولما حرك تعالى إلى الاعتبار بعظيم هذه الآيات وكانت أوضح شيء وأدل شاهد، عقب ذلك بما يشير إلى معنى التعجب من توقفهم بعد وضوح الدلائل، ثم بين تعالى أنه غني عن الكل بقوله: «إن تكفروا فإن الله غني عنكم» ثم قال: «ولا يرضى لعباده الكفر» (آية: 7) فبين أن من اصطفاه وقربه واجتباها من العباد لا يرضى بالكفر، وحصل من ذلك بمفهوم الكلام أن الواقع من الكفر إنما وقع

551. هذه السورة في جملتها مكية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخصصها بالقراءة قبل النوم كما جاء ذلك عن السيدة عائشة فيما أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة حديث رقم: 718 والترمذي في جامعه (65/4، 232) وأحمد والحاكم وغيرهم قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل الزمر».

ومن أوجه ارتباط هذه السورة بسابقتها أن السورة السابقة قد أمرت بالصبر كما قدمنا وهذه بينت قضاء الله في خلقه، فهم مخلوقون من نفس واحدة لكن بعضهم اصطفاهم الله عز وجل كما جاء في السورة السابقة فكان من السعداء، وبعضهم أغواه إبليس فسلك سبيله فأقسم الله عز وجل في سورة «ص» أن يملأ جهنم منهم فكانت سورة الزمر مبينة لهذه الحقيقة كي لا يأسى صلى الله عليه وسلم ولا يهلك نفسه حسرات عليهم وعلى عنادهم، وأمرته أن يعلن بالإخلاص في دينه لله رب العالمين وختمت هذه السورة ببيان نهاية فصل القضاء الذي علمه الله عز وجل قبل أن يخلق الخلق فتحقق علمه فيهم «فريق في الجنة وفريق في السعير» سبق الذين كفروا إلى جهنم زمراً... وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً» (71-73) وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين.

قال السيوطي في: تناسب الدرر ص: 128: «لا يخفى وجه الاتصال أولها بآخر «ص» قال في «ص» إن هو إلا ذكر للعالمين» ثم قال هنا: «تنزيل الكتاب من الله» فكأنه قيل: هذا الذكر تنزيل، وهذا تلاؤم شديد، بحيث أنه لو اسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كآلية الواحدة».

552. ب: وفزعهم.

بإرادته ورضاه لمن ابتلاه به، ثم آنس من آمن ولم يتبع (سبيل أبيه وقبيلته)⁵⁵³ من المشار إليهم في السورة قبل فقال تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (الإسراء: آية: 15)، «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم» (الإسراء: آية: 7) «ولا تكسب كل نفس إلا عليها» (الأنعام: آية: 164) ثم تناسخت الآي والتحمت الجمل إلى خاتمة السورة.

553. ب: سبيل الشيطان.

سورة المؤمن 554

لما افتتح سبحانه سورة الزمر (بالأمر)⁵⁵⁵ بالإخلاص وذكر سببه والحامل بإذن الله عليه وهو الكتاب، وأعقب ذلك بالتعريض بذكر من بنيت على وصفهم سورة «ص»، تتابعت الآي في ذلك الغرض إلى توبيخهم بما ضربه سبحانه من المثل الموضح في قوله: «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل» (الزمر: آية: 29) ووصف الشركاء بالمشاكسة إذ بذلك الغرض يتضح عدم استمرار المراد⁵⁵⁶ لأحدهم وذكر قبيح اعتذارهم بقولهم⁵⁵⁷: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (الزمر: آية: 3)، ثم أعقب تعالى بالإعلام بقهرة وعزته حتى لا يتخيل مخذول شذوذ أمر عن يده وقهره؛ فقال تعالى: «أليس الله بكاف عبده» (إلى قوله): «أليس الله بعزيز ذي انتقام» (الزمر: آيتان: 36-37)، ثم أتبع ذلك بحال أندادهم في أنها لا تضر ولا تنفع فقال: «قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته» (الزمر: آية: 38) ثم أتبع هذا بما يناسبه من شواهد عزته فقال: «قل لله الشفاعة جميعا» (الزمر: آية: 44) «قل اللهم فاطر السماوات والأرض» (الزمر: آية: 46) «أو لم يعلموا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء

554. هذه السورة أول سورة من سبع سور متتابعة افتتحها الله عز وجل بالحروف المقطعة «حم» وكما هو الشأن في جميع السور المبتدأة بالأحرف المقطعة لا بد أن تعرض لذكر القرآن وتنزيهه والإشادة به، ولم تتخلف هذه السورة عن هذه القاعدة. وقد جاءت روايات تؤكد أن هذه السور «الحواميم» نزلت متتالية كترتيبها في المصحف الكريم في مكة المكرمة، وقد خصها النبي صلى الله عليه وسلم بتنويه كريم حيث قال فيما أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم والدليمي عن أنس: «الحواميم ديباج القرآن»، وجاء هذا الحديث عن ابن مسعود من قوله أخرجه أبو عبيد والحاكم والبيهقي وغيرهم. (انظر: الدر المنثور: 344/5).

أخرج أبو عبيد في الفضائل عن ابن عباس قال: «إن لكل شيء لبابا وأن لباب القرآن حم أو قال: الحواميم». وكان السلف يسميهم العرائس، أو عرائس القرآن لجمالهن وتناسقهن وما فيهن من حجة بالغة على الناس وخاصة كفار قريش، وأشهر أسماؤها «غافر».

وقد سميت هذه السورة بالمؤمن لأنه ورد فيها ذكر مؤمن آل فرعون وقيامه بالحق في موقف قد كثر الطغيان عن أنيابه وتصاغر الحق فيها يبدو لكثير من الناس أمام سطوته وإرهابه، فانبعث صوت هذا المؤمن ليرد القول إلى نصابه بحجة هادئة، وهو موقف يتكرر ويتردد ما تعاقب الملوان فجعله خالدا في كتابه نبراسا أمام أوليائه وأحبابه. هذا الموقف يحتاج للشجاعة والصبر، وقد جاء الخض على الصبر في السورة السالفة، وهذا موقف من مواقفه ووجه من وجوه تعلق هذه السورة بسابقتها والله أعلم.

وقد أبدى الإمام السيوطي وجها آخر في مناسبة هذه السورة لما قبلها وما بعدها إذ قال: «وجه إيلاء الحواميم السبع سورة الزمر تأخي المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب، وفي مصحف أبي بن كعب: أول الزمر «حم» وذلك مناسبة جليلة». (أنظر: تناسق الدرر: 129).

555. ساقطة من : ب

556. أ: مداد

557. أ: بقوله

ويقدر» (الزمر: آية: 52) «الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له مقاليد السماوات والأرض»⁵⁵⁸ (الزمر: آية: 59) ثم عنفهم وقرعهم فقال تعالى: «أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون» (الزمر: آية: 64) ثم قال تعالى: «وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه» (الزمر: آية: 67)، ثم أتبع (تعالى)⁵⁵⁹ بذكر آثار العزة والقهر فذكر النفخ في الصور للصعق، ثم نفخة القيام والجزاء ومصير الفريقين، فتبارك المنفرد بالعزة والقهر.

فلما انطوت هذه الآي من آثار عزته وقهره على ما أشير إلى بعضه، أعقب ذلك بقوله: «حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم» (آيتان: 1-2)، فذكر من أسمائه سبحانه هذين الاسمين العظيمين تنبيها على انفراده بموجبهما⁵⁶⁰ وأنه العزيز الحق القاهر للخلق لعلمه تعالى بأوجه الحكمة التي خفيت عن الخلق (فآخر الجزاء الختم للدار)⁵⁶¹ الآخرة، وجعل الدنيا دار ابتلاء واختبار مع قهره لكل في الدارين معا وكونهم غير خارجين عن ملكه قهره ثم قال تعالى: «غافر الذنب وقابل التوب» (آية: 3)⁵⁶² تأنيبا لمن استجاب بحمده وأتاب بلطفه، وجريا على حكم سبقية الرحمة وتقليبها قم قال: «شديد العقاب ذي الطول» (آية: 3) ليأخذ المؤمن بلازم عبوديته من الخوف والرجاء، واكتنف قوله شديد العقاب بقوله غافر الذنب وقابل التوب وقوله ذي الطول، وأشار سبحانه بقوله: «فلا يغررك تقلبهم في البلاد» (آية: 4) إلى قوله قبل: «وأورثنا الأرض» (الزمر: آية: 74) وكأنه في تقدير إذا كانت العاقبة لك ولأتباعك فلا عليك من تقلبهم في البلاد، ثم بين تعالى أن حالهم في هذا كحال الأمم، قبلهم، وجداهم في الآيات كجداهم، وأن ذلك لما حق عليهم من كلمة العذاب سبق لهم في أم الكتاب.

558. ب: ساقطة

559. ب: ذلك

560. أ: بموجبهما

561. أ: ما آخر... وفي ب: قاضي الجزاء الختم بالدار.

562. ب: تأسيسا.

سورة حم السجدة⁵⁶³

لما تضمنت سورة غافر بيان حال المعاندين وجاحدي الآيات وأن ذلك ثمرة تكذيبهم وجدلهم وكان بناء السورة على هذا الغرض بدليل افتتاحها وختمها ألا ترى/ قوله تعالى: «ما يجادل في آيات الله⁵⁶⁴ إلا الذين كفروا» (غافر: آية: 4)، وتأنيس نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: «فلا يغررك تقلبهم في البلاد» (غافر: آية: 4)، فقد تقدم ذلك من غيرهم فأعقبهم سوء العاقبة والأخذ الويل «كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه» (غافر: آية: 5) فصمتهم واقية: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا»⁵⁶⁵ (غافر: آية: 51) وقال تعالى: «وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف⁵⁶⁶ كان عقاب» (غافر: آية: 5) أي فكيف رأيت ما حل بهم وقد بلغت خبرهم فهلا اعتبر هؤلاء بهم «أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق» (غافر: آية: 21) وإنما أخذهم بتكذيبهم الآيات «ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله» (غافر: آية: 22)، ثم ذكر تعالى من حزب المكذبين فرعون وهامان وقارون وبسط القصة تنبيها على سوء عاقبة من عاند وجادل بالباطل وكذب الآيات ثم قال تعالى بعد آيات: «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه» (غافر: آية: 56) إذ الحول والقوة ليست لهم فاستعد بالله من شرهم، فخلق غيرهم لو استبصروا أعظم من خلقهم «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» (غافر: آية: 57) وهم غير آمنين من الأخذ من كلا الخلقين⁵⁶⁷ «إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا

563. هذه السورة مكية في قول الجميع، وتسمى «السجدة» و«حم السجدة» و«المصاييح» و«الأقوات» وأشهر أسماؤها «فصلت». أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الخليل بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ «تبارك» و«حم السجدة». أنظر: روح المعاني: (84/24).

قال السيوطي في تناسق الدرر ص 130: «روينا عن جابر بن زيد وابن عباس في ترتيب نزول السور: أن الخواميم نزلت عقب الزمر، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف: المؤمن، ثم السجدة، ثم الشورى، ثم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ولم يتخللها نزول غيرها، وتلك مناسبة جليلة واضحة في وضعها هكذا».

ثم قال: «قال الكرمانى في العجائب (لباب التفسير وعجائب التأويل): «ترتيب السبع لما بينها من التشاكل الذي خصت به، هو أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب أو وصفه مع تفاوت المقدار في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظام».

564. أ: «ما يجادل في آياتنا» غير واضحة بسبب الخرم.

565. «والذين آمنوا» زيادة من ب.

566. فكيف ساقطة من ب.

567. ب: الخلفين.

من السماء» (سبأ: آية: 9) ثم قال تعالى بعد هذا: «ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون» (غافر: آية: 69) أي أن أمرهم لعجيب في صرفهم عن استيضاح الآيات بعد بيانها، ثم ذكر تعالى سوء حالهم في العذاب الأخروي وواهي اعتذارهم بقولهم: «ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً» (غافر: آية: 74) ثم صبر تعالى نبيه عليه السلام⁵⁶⁸ بقوله: «فاصبر إن وعد الله حق» (غافر: آية: 77) ثم أعاد تنبيههم فقال تعالى: «أفلم⁵⁶⁹ يسيروا في الأرض» إلى ختم السورة (غافر: الآيات: 82-85) ولم يقع من⁵⁷⁰ هذا التنبيه الذي دارت عليه آي هذه السورة في سورة الزمر شيء ولا من تكرار التحذير من تكذيب الآيات.

فلما بنيت على هذا الغرض، أعقبت بذكر الآية العظيمة التي تحدت بها العرب وقامت بها حجة الله سبحانه على الحق، وكان قد قيل لهم احذروا ما قدم لكم فقد جاءكم محمد صلى الله عليه وسلم بأوضح وأعظم برهان «تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا» (الآيتان: 3-4) وتضمنت هذه السورة العظيمة من بيان عظيم الكتاب وجلالة قدره وكبير الرحمة به ما لا يوجد في غيرها من أقرانها كما أنها في الفصاحة تبهر العقول بأول وهلة فلا يكن للعربي الفصيح في شاهد برهانها أدنى⁵⁷¹ توقف ولا يحول في وهمه على معارضة بعض آياتها أدنى تشوف، «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (آيتان: 41-42) «ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أَعْجَمِي وَعَرَبِي» (آية: 44) فوبخهم تعالى وادحض حججتهم وأرغم باطلهم، وبكت دعاوهم ثم قال: «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد» (آية: 44)، «إنما يستجيب الذين يسمعون» (الأنعام: آية: 36)، وقرعهم⁵⁷² تعالى في ركيك جوابهم عن واضح حجته بقولهم: «قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر» (آية: 5)، وقولهم «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» (آية: 26) وهذه شهادة منهم على أنفسهم بالانقطاع عن معارضته وتسليمهم⁵⁷³ بقوة عارضته، ثم فضحهم بقوله: «قل أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به... الآية» (آية: 52).

568. بك صلى الله عليه وسلم.

569. أ: أولم، ولعله استبه على الناسخ بالآية 21 من نفس السورة التي نصها: «أولم يسيروا في الأرض» الآية.

570. ب: في.

571. أ: اذما.

572. أ: وأقرعهم.

573. أ: وتسجيلهم.

وتحملت السورة مع هذا بيان هلاك من عاند وكذب ممن كان قبلهم وأشد قوة منهم وهم الذين قدم⁵⁷⁴ ذكرهم مجملا في سورة غافر في آيتي «أو لم يسيروا في الأرض»⁵⁷⁵ (آية: 21)، «أفلم يسيروا» (آية: 82) فقال تعالى مفصلا لبعض ذلك الإجمال: «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» (آية: 13) ثم قال: «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة» (آية: 15) ثم قال: «فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا.. الآية» (آية: 16) ثم قال: «وأما ثمود فهديناهم⁵⁷⁶» (آية: 17) فبين تعالى حالهم وأخذهم فاعتضد التحام السورتين واتصال المقصدين، والله أعلم.

574. أ: قد.

575. الأرض ساقطة من: أ

576. فهديناهم ساقطة من: أ

سورة الشورى⁵⁷⁷

لما (تضمنت سورة غافر ما تقدم من بيان)⁵⁷⁸ حال المعاندين والجاحدين وأعقبت بسورة السجدة بيانا أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمهم، وإيضاحا لآيات⁵⁷⁹ الكتاب العزيز وعظيم⁵⁸⁰ برهانه، ومع ذلك فلم تجد على من قضى عليه تعالى بالكفر، اتبعت السورتان لما اشتملت عليه سورة الشورى من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم المشيئة الأزلية «فريق في الجنة وفريق في السعير» (آية: 7) «وما أنت عليهم بوكيل» (آية: 6)، «ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة» (آية: 8) «ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم» (آية: 14) «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» (آية: 15) «ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم» (آية: 21) «وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» (آية: 29) «وما أنتم بمعجزين في الأرض» (آية: 31) «ومن يضل الله فما له من سبيل» (آية: 46) «إن عليك إلا البلاغ» (آية: 48) «نهيدي به من نشاء من عبادنا» (آية: 52).

فتأمل هذه الآي وما التحم (بها)⁵⁸¹ مما لم يجر في السورة المتقدمة منه إلا النادر (ومحكم ما استجره وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها) (*)، يلح لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها.

577. هذه السورة مكية كلها إلا أربع آيات منها في قول ابن عباس وقتادة بدء من قوله تعالى "قل لا أسألكم عليه أجرا إلى المودة في القربى" الآيات... فقد قالوا إنها نزلت بالمدينة. ولكن سياقها ومضمونها ظاهر في أنها مكية إذ أن قرابته عليه الصلاة والسلام وأهله وعشيرته هم بمكة وليسوا بالمدينة فخطابها لأهل مكة أقرب وبهذا نرجح أن تكون كلها مكية.

أما علاقتها بسابقتها فما أبداه المصنف من ذلك واضح جدا يؤكد ما جاء في غير موضع من كتب السير والحديث من أن الملائكة القرشي اجتمعوا يوما وتشاوروا بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم واتفقوا على أن يساومه عتبة بن ربيعة فعرض عليه كل المغريات وأبان له عن استكبارهم وإعراضهم وما هم عليه من عدم الإذعان لهذا القرآن. فلما انتهى عتبة من عروضه ومساوماته قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا الوليد اسمع. فقرأ عليه صدرا من سورة فصلت إلى قوله تعالى فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة عاد وثمود، فقام إليه الوليد بن عقبة وقال له يا محمد أناشدك الله والرحم أن تكف عن القراءة ثم رجع إلى قومه بغير الوجه الذي جاء به وقال لهم خلوا بينكم وبين هذا الرجل، فما زادهم إلا طغيانا واستكبارا. (أنظر: الدر المنثور: 358/5).

قال أبو حيان في البحر المحيط في مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها: "أنه قال: "قل أرأيتم إن كان من عند الله... الآية" وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به، قال هنا: "كذلك" أي مثل الإيحاء السابق في القرآن الذي كفر به هؤلاء "يوحي إليك" أي أن وحيه تعالى متصل غير مقطوع بتمهيدك وقتا بعد وقت. (507/7)

578. أ: غير واضحة بسبب الخرم.

579. أ: غير واضحة بسبب الخرم وفي ب: "لأنه"، واثبت ما يناسب السياق.

580. ب: ولعظيم.

581. أ: ساقطة. (*) تركيب مضطرب لا يستقيم معناه.

ولما اختتمت سورة السجدة بقوله تعالى: «ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم» (فصلت: آية: 54) أعقبها سبحانه بتنزيهه وتعالیه عن ريبهم وشكهم⁵⁸² فقال تعالى: «يكاد السماوات يتفطرن من فوقهن» (آية: 5) كما أعقب بمثله في قوله: «وقالوا اتخذ الرحمان ولدا لقد جئتم شيئا إدا» (مريم: آيتان: 88-89) فقال: «يكاد السماوات يتفطرن منه» (الآية: 90).

ولما تكرر في حم السجدة ذكر تكبر المشركين وبعد انقيادهم في قوله: «فأعرض أكثرهم» (آية: 4) «وقالوا قلوبنا في أكنة» (آية: 5) إلى ما ذكر تعالى من حالهم المنبئة عن بعد استجابتهم، فقال تعالى في سورة الشورى: «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» (آية: 13).

582. أ: غير واضحة بسبب الخرم.

سورة الزخرف⁵⁸³

لما أخبر سبحانه بامتحان خلف بني إسرائيل في شكهم في كتابهم بقولهم: «وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب» (الشورى: آية: 14) ووصى نبيه صلى الله عليه وسلم بالتبري من سيء حالهم، والتنزه عن سوء محالهم، فقال تعالى⁵⁸⁴ «ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب... الآية»⁵⁸⁵ (الشورى: آية: 15) وتكرر الشناء على الكتاب العزيز؛ كقوله: «وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا» (آية: 7) وقوله: «الله⁵⁸⁶ الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» (الشورى: 17) وقوله: «وكذلك أوحينا إليه روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا... الآية» إلى آخر السورة (الشورى: آيتان: 52-53)، أعقب ذلك بالقسم به، وعضد الشناء عليه فقال: «حم، والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون، وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» (الآيات: 1-4)، ولما أوضح عظيم حال الكتاب وجليل نعمته به أردف ذلك بذكر سعة عفوه وجميل إحسانه إلى عباده، ورحمتهم بكتابه مع إسرافهم وقبيح مرتكبهم، فقال: «أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين» (آية: 5).

ولما قدم في الشورى قوله: «لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما» (آيتان: 49-50) فأعلم أن ذلك يكون بقدرته وإرادته، والجاري على هذا أن يسلم الواقع من ذلك ويرضى بما قسم

⁵⁸³ هذه السورة مكية بإجماع كسابقته، ووجه تعلقها بالشورى واضح في أمرين اثنين: الأول: أن الشورى ختمت بذكر النور الذي أوحاه الله عز وجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن غير سابق معرفة به ولا علم بمضمونه، فجاء صدر سورة الزخرف لتشيد بهذا الكتاب وتعظم مكانته وتبين أنه شرف لهذا الرسول ولقومه، لا يسمو فوقه شرف، ولا يدانيه فخر، وهم مسؤولون عن القيام بحقه "وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون" (44). الثاني: لما تقدم في سورة الشورى قوله تعالى: «فيا أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا على ربهم يتوكلون» (36) كشفت هذه السورة طرفا من زخارف هذه الحياة الدنيا واغترار الكافرين بهذه الزخارف، وأن الله عز وجل سيبتليهم بها ولكنها إلى زوال ويفقدونها بغتة وهم لا يشعرون، وعندئذ يخلد المومنون في نعيم غير نافذ، وينقلبون فيما تشتهيهم الأنفس وتلد الأعين ويبقى هؤلاء المغترون في عذاب لا يفترون عنهم وهم فيه مبلسون، فإذا جادلوكم وحاجوكم فاصفح عنهم وقل سلام فسوف تعلمون، وهذان الأمران في الارتباط ظاهران والحمد لله.

⁵⁸⁴ أ: ساقطة

⁵⁸⁵ أ، ب: "ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون وقل آمنت إخ" وهو تداخل آيتين: الآية 17 من سورة الجاثية وهي قوله تعالى: "ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا" وبين الآية 13 من سورة الشورى المشار إليها أعلاه والتي يقتضيها السياق.

⁵⁸⁶ أ: "إن الذي... إلخ وهو خطأ.

واختار، عنف تعالى في هذه السورة⁵⁸⁷، من اعتدى وزاغ فقال: «وإذا بشر أحدهم⁵⁸⁸ بما ضرب للرحمان مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم» (آية: 17) فأكمل الواقع هنا بما تعلق به، وكذلك قوله تعالى: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» (الشورى: آية: 27) وقوله في الزخرف: «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفاً من فضة» (آية: 33).

587. أ: زيادة الأخرى بين كلمتي السورة ومن اعتدى ولا معنى لها.

588. أ: أقحمت كلمة بالأنثى في الآية بين قوله تعالى أحدهم وبها ضرب.

سورة الدخان⁵⁸⁹

لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطوي سورة غافر على شيء منه، وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآنا عربيا إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله: « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (الزخرف: آية: 44)، وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، استفتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال: « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » (آية: 3) ثم ذكر من فضلها فقال: « كل أمر حكيم » (آية: 4) فحصل وصف الكتاب بخصائصه والتعريف بوقت إنزاله إلى السماء الدنيا، وتقدم الأهم في ذلك في السورتين قبل، وتأخر التعريف بوقت نزوله إذ

589. هذه السورة مكية كذلك بالاتفاق وقد خصها النبي (ﷺ) بأن تقرأ ليلا وخاصة في ليلة الجمعة، أخرج الترمذي والدارمي والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال: « من قرأ الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفورا (أنظر: الدر المنثور: 24/6).

ووجه ارتباطها بما قبلها أنه لما ختمت سورة الزخرف بقوله تعالى: "فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون" (89) جاءت هذه السورة تبين لرسول الله (ﷺ) بعض ما سيعلمونه من دخان يغشى الناس في طيه عذاب أليم وبطشة كبرى، انتقاما منهم مع التقريب والتمثيل بعبر السابقين وخاصة فرعون وقومه، لأن الكفار قرئش سلكوا طريقهم في العناد واللجاج، وباء بالكبر في هذه الغواية وقيادتهم إلى السفه أبو جهل إذ قال لرسول الله (ﷺ) وقد لقيه في أحد طرق مكة يا أبا جهل إن الله أمرني أن أقول لك: (أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى) فرد أبو جهل بقوله: (وما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء، وأنا ذكر فرعون الذي ادعى أكثر مما ادعاه أبو جهل حين ادعى الألوهية "ذق إنك أنت العزيز الكريم" بعد أن يلقي في سواء الجحيم ويصب فوق رأسه من الحميم" (أنظر تفسير الطبري: مجلد 2/9، الدر المنثور: 33/6).

وغير خاف أن هذه الإنذارات قد وقعت بمكة والمؤمنون معه في حالة ضعف، ولهذا ختمت السورة بالتأكيد على الانتظار والصبر في قوله: "فارتقب أنهم مرتقبون" (59) وكما جاء الدخان ومرت البطشة فلا شك أن وعيد الله لأبي جهل وأمثاله واقع لا ريب فيه. ففي قوله تعالى "يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس" أخرج البخاري في صحيحه 571/8 عن عبد الله بن مسعود قال إنما هذا لأن قرئشا لما استعصوا على النبي (ﷺ) دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فينظر بينه وبينه كهينة الدخان من الجهد فأنزل الله عز وجل "فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم" (9-10) قال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو سفيان قيل له رسول الله استسقى الله لمضر فإنها قد هلك، قال لمضر؟ إنك لجريء فاستسقى فسقوا فنزلت "إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون" (14) فلما أصابهم الرفاهية عادوا فأنزل عز وجل "يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون" (15) قال: يعني يوم بدر.

قال أبو حيان: "ومناسبة هذه السورة أنه ذكر في أواخر ما قبلها" فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون" فذكر يوما غير معين ولا موصوفا، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم بوصف وصفه فقال: "فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين وإن العذاب ياتيهم من قبلك ويحلبهم من الجذب القحط ويكون العذاب في الدنيا، وإن كان العذاب في الآخرة فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة" البحر المحيط: 32/8.

وقال الألوسي في مناسبتها: "إنه تعالى ختم ما قبل بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه بشيء من الإنذار الشديدي، وذكر سبحانه هناك قول الرسول (ﷺ) "يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون" وهنا نظيره فيها حكى عن أخيه موسى عليهم الصلاة والسلام بقوله تعالى: "فدع ربه أن هؤلاء قوم مجرمون" وأيضا ذكر فيها تقدم "فاصفح عنهم وقل سلام" وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام. "إني عدت بري وربكم أن ترجون وإن لم تومنوا لي فاعتزلون" هو قريب. (روح المعاني: 101/25).

ليس في التأكيد كالمقدم، ثم إثر هذا تفصيل⁵⁹⁰ وعيد قد أجمل في قوله تعالى: « فأصفيح عنهم وقل سلام فسوف تعلمون » (الزخرف: آية: 89) وما تقدمه من قوله (تعالى)⁵⁹¹: «أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون» (الزخرف: آية: 79) وقوله سبحانه: «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم» (الزخرف: آية: 80) وتنزيهه تعالى نفسه عن عظيم افتراءهم في جعلهم (الشريك)⁵⁹² والولد إلى آخر السورة، ففصل بعض⁵⁹³ ما أجملته هذه الآي في قوله تعالى في صدر سورة الدخان « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » (آية: 10) وقوله: «يوم نبطش البطشة الكبرى... الآية» (آية: 16) والإشارة إلى يوم بدر، ثم ذكر شأن غيرهم في هذا وهلاكهم بسوء ما ارتكبوا ليشعروا أن لا فارق إن هم⁵⁹⁴ عقلوا واعتبروا، ثم عرض بفرعونهم في مقالته، «ما بين لابتيتها أعز مني ولا أكرم»⁵⁹⁵ فذكر تعالى شجرة الزقوم إلى قوله: « ذق إنك أنت العزيز الحكيم »⁵⁹⁶ (الآيات: 43-49) والتحم هذا كله التحاما يبهر العقول، ثم أتبع بذكر حال المتقين جريا على الطرد من شفع (آية)⁵⁹⁷ الترهيب بالترغيب لبيان حال الفريقين، وينهج على الواضح من الطريقين، ثم قال لنبيه عليه السلام⁵⁹⁸ «فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون» (آية: 58) وقد أخبره مع بيان الأمر ووضوحه أنه إنما يتذكر من يخشى، ثم قال: فارتقب وعدك ووعيدهم إنهم مرتقبون.

590. أ: التفصيل.

591. ب: ساقطة.

592. أ: ساقطة.

593. أ: لبعض.

594. أ: لبعض

595. أ: أنظر هذا النص في التعليق على السورة ص: 123، 301.

596. في أ: الحكيم

597. ساقطة من : ب

598. ب: صلى الله عليه وسلم

سورة الشريعة⁵⁹⁹

لما تضمنت السور الثلاث المتقدمة إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه وأنه شاف كاف هدى ونور، وكان أمر من كفر من العرب أعظم شيء لانقطاعهم وعجزهم وقيام الحجة عليهم حتى رضوا بالقتل والخزي العاجل وما فاهوا بادعاء معارضة ولا تشوفوا إلا لاسناد إلى عظيم تلك المعارضة، أتبع ذلك تعالى تنبيه⁶⁰⁰ نبيه والمؤمنين إلى ما قد نصبه من لدلائل، سواء مما صد المعرض عن الاعتبار بها أو ببعضها مجرد هواه، «ومن أضل ممن اتبع مواه بغير هدى من الله» فقال تعالى بعد القسم بالكتاب المبين: «إن في السماوات والأرض آيات للمؤمنين» (آية: 3) أي لو لم تحيثهم يا محمد بعظيم آية الكتاب فقد كان لهم فيما نصبنا من الأدلة برهان وأعظم تبيان «أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى» (الروم: آية: 8).

فلما نبه بخلق السماوات والأرض أتبع بذكر ما بث في الأرض فقال: «وفي خلقكم وما بيث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار» (الآيتان: 4-5) أي في دخول حدهما على الآخر بالطف اتصال وأربط انفصال، «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا ليل سابق النهار» (يس: آية: 40) ثم نبه على الاعتبار بإنزال الماء من السماء وسماه رزقا⁶⁰¹ فقال: «وما أنزل الله من رزق فأحيى به الأرض بعد موتها» (آية: 5) ثم قال: «وتصريف لرياح آيات لقوم يعقلون» (آية: 5) والاستدلال بهذه الآي يستدعي بسطا يطول، ثم قال: «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق» (آية: 6) أي علاماته ودلائله «وإن من شيء إلا يسبح

599. أشهر أسماء هذه السورة «الجاثية»، وتسمى أيضا «الشريعة» و«الدهر» كما حكاه الكرمانى في العجائب، وهي تابعة في مضمونها للحواميم قبلها وهي مكية مثلها وأنظر روح المعاني: (126/25). ووجه اتصالها بسورة الدخان إنه لما ختمت «الدخان» بقوله تعالى «فإننا يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب إنهم مرتقبون» افتتحت هذه السورة بذكر الكتاب لتعزيز وتفصيل بعض الآيات الدالة على الله وبيان تصرف أولئك الكفار من استهزاء بآيات الله، وإصرار واستكبار، وإعراض وإدبار وهذا يقتضي من النبي (ﷺ) والتؤدة وعدم الرضوخ لهم، ولهذا جاء الأمر بعد ذلك تنبيها وتأيدا وبيانا لمحق الذي هو عليه مقابل أهوائهم المرتفة التي تشعب بهم في قوله تعالى: «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون» (17).

ولما كان الهوى باعث الكبر والبطر وهو شيء داخلي نفساني عرضت السورة في نصفها الثاني لهاتين الحقيقتين فهم لا يخفون على الله ما أخفوه من نوازع السوء، وأن الكبرياء الحق لله وحده، «وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم» (26) وهم أذلاء في ساحة محكمته لا يظلمون بل سينالون جزاء ما كانوا يعملون «وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون» (27)، وهكذا كانت السورة تفصيلا لهذا الأمر وبيانا لعقابة هؤلاء، وهذا يتناسب وسورة الدخان التي تحدثت عن فرعونهم وحده في هذا المقال، أي مقام الحساب بينها هذه السورة فصلت وأبانت عن نهاية القوم بجملتهم، وهذا تعلق واضح كما يبدو لي والله أعلم.

600. أ: بتسبب

601. كلمتان غير واضحتين في النسختين

بحمده» (الإسراء: آية: 44) ثم قال : « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » (آية: 6) بعدم شاهده من شاهد الكتاب وما تضمنه خلق السماوات والأرض وما فيها وما بينهن من عجائب الدلائل الواضحة الألباب، فإذا لم يعتبروا بشيء من ذلك بماذا⁶⁰² يعتبر، ثم أردف تعالى بتقريعهم وتوبيخهم في تصحيحهم مع وضوح الأمر فقال: «ويل لكل أفاك أثيم...» الآيات الثلاث (7-9) ثم قال: «هذا هدى» (آية: 11) وأشار على الكتاب وجعله نفس الهدى لتحمله كل أسباب الهدى في جميع جهاته ثم توعد من كفر به ثم أردف ذلك بذكر نعمه وآلائه ليكون ذلك زائدا في توبيخهم، والتحمت الآي عاضدة هذا الغرض تقريع وتوبيخا ووعيدا وتهديدا إلى آخر السورة⁶⁰³.

602. أ: فيمن

603. أ: وجميع

سورة الأحقاف⁶⁰⁴

لما قدم ذكر الكتاب وعظيم الرحمة به⁶⁰⁵ وجليل بيانه وأردف ذلك بما تضمنته سورة الشريعة من توبيخ من كتاب به وقطع تعلقهم، وأنه سبحانه قد نصب من دلائل السماوات والأرض ما ذكر في صدر السورة ما كل قسم منها كاف في الدلالة وقائم بالحجة، ومع ذلك/ فلم يجز (عليهم)⁶⁰⁶ (إلا)⁶⁰⁷ التماذي على ضلالهم، والانهماك في سوء حالهم وسيء محالهم، أردفت بسورة الأحقاف تسجيلًا بسوء مرتكبهم وإعلامًا بأليم منقلبهم؛ فقال تعالى: «ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى» (آية: 3)، ولو اعتبروا⁶⁰⁸ بعظيم ذلك الخلق وإحكامه وإتقانه لعلموا أنه لم يوجد عبثًا ولكنهم عموا عن الآيات، وتنكبوا عن انتهاج الدلالات «والذين كفروا عما أنذروا معرضون» (آية: 3).

ثم أخذ سبحانه في تعنيفهم وتقريعهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع فقال: «قل أرأيتم⁶⁰⁹ ما تدعون من دون الله» إلى قوله: «وكانوا بعبادتهم كافرين» (الآيات: 4-6)، ثم ذكر عنادهم عند سماع الآيات فقال: «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات... الآيات» (آية: 7 وما بعدها)، ثم التحم الكلام وتناسج إلى آخر السورة.

604. الحقف. رمل مستطيل مرتفع فيه اعوجاج واغناء. ومنه احقوق الشيء المعوج. قال امرؤ القيس:

فلما أجرونا ساحة الحي وانتحي بنا بطن حقف ذي ركام عقتل

وتأتي هذه السورة في خاتمة الحواميم، وهي مكية إلا قوله تعالى: «قل أرأيتم إن كان من عند الله» و«فاصبر كما صبر... الآيتين» فمدنيتان في قول ابن عباس وقتادة، وقد سبقت الإشارة إلى أن ترتيب نزول الحواميم جاء كترتيبها في المصحف مما يؤكد الترتيب والتناسب بين هذه السور، وأيضًا لما قال تعالى في آخر السورة السابقة: «ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزؤا» وقلتم أنه عليه الصلاة والسلام اختلقها، افتتح تعالى هذه بقوله: حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم وهاتان الصفتان هما في آخر تلك. (أنظر: البحر المحيط: 54/8 وروح المعاني: 4/26).

605. ب: ساقطة.

606. أ: عليه.

607. ب: ساقطة.

608. ب: تعظيم.

609. أفرأيتم

سورة القتال⁶¹⁰

لما أنبت سورة الأحقاف على ما ذكر من مآل من⁶¹¹ كذب وكفر، وافتتحت السورة بإعراضهم، ختمت بما قد تكرر من تقريرهم وتوبيخهم فقال تعالى: «أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى» (آية: 33) أي لو اعتبروا بالبداة لتيسر عليهم أمر العودة، ثم ذكر عرضهم على النار إلى قوله: «فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» (الآيتان: 34-35) فلما ختم بذكر هلاكهم، افتتح السورة الأخرى بعاجل ذلك اللاحق لهم في دنياهم؛ فقال تعالى: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق... الآية» (آية: 4) بعد ابتداء السورة بقوله تعالى: «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم» (آية: 1) (فنه على أن أصل محتهم إنما هو بما أراده تعالى بهم في سابق علمه ليعلم المؤمنون أن الهدى والضلال بيده، فنه على الطرفين بقوله: «وأضل أعمالهم» (آية: 8)⁶¹² وقوله في الآخر: «كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم» (آية: 2) ثم بين أنه تعالى لو شاء لانتصر منهم ولكن أمر المؤمنين بقتالهم ابتلاء واختباراً ثم حض المؤمنين على ما أمرهم به من ذلك فقال: «إن تنصروا الله ينصركم» (آية: 8)، ثم التحمت الآي.

610. هذه السورة الكريمة مدنية في الأغلب كما جاء ذلك عن الماوردي أنه قول الجميع. (تفسير القرطبي: مجلد 8، ج 2/223). وتسمى سورة محمد لأنه ذكر فيها صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بها نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم» (2) وسميت سورة القتال أيضاً لأن الله عز وجل أمر المؤمنين بقتال الذين كفروا في قوله تعالى: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم» الآية (4) وفي قوله تعالى: «فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم» (20).

والملاحظ أن وجه ارتباط هذه السورة بما قبلها مع ما بينها من تباعد، تلك مكية وهذه مدنية أن سورة الأحقاف عرضت لواقع المشركين والكفار وما يتعلقون به من شبه تدعوهم إلى الإعراض عن الهدى، فأماطت اللثام عن حقيقتها وذكرتهم بالأقوام السابقة ومصائرهم، ثم ختمت بقوله تعالى: «فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلى ساعة من نهار، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» وبعد سنين نزلت هذه السورة وفيها الأمر بالقتال لتتسخ ما جاء في السورة السابقة من الأمر بالصبر والإعراض ولتبين أن جزاء الكافرين القتل وضرب الرقاب وقد قال السيوطي وهو على حق: «إن السورتين لا يخفى وجه ارتباطهما واتصالهما وتلاحمهما بحيث أنه لو أسقطت البسملة من سورة محمد لكانتا متصلتين اتصالاً واحداً لا تنافر فيه كالأية الواحدة أخذاً بعضها بعنق بعض». (أنظر: تناسق الدرر ص: 131).

وسورة محمد كلها توجيهات إلى رفع السيف في وجه الكفار وما تقتضيه الحرب، وذلك لأن الصبر الذي أمر به في السورة المكية قد انتهى في العهد المدني، وأمر المؤمنون بتسخير كل شيء يملكونه لمعركة الإيمان، فكما ابتدأت هذه السورة بالأمر بقتال الكافرين ختمت بالأمر ببذل المال والمتاع ليتحقق النصر، وهو امتحان يعرف به المؤمنون الصادقون من في قلوبهم مرض ولا يصلحون لخوض معارك الجهاد.

611. ب: في

612. ساقطة من: ب

613. ب: الأجر.

سورة الفتح⁶¹⁴

ارتباط هذه السورة بالتي قبلها واضح من جهات، وقد يغمض بعضها منها: أن سورة (القتال) لما أمروا فيها بقتال عدوهم في قوله تعالى: «فإذا لقيتم الذين كفروا... الآية» (آية: 4) واشعروا⁶¹⁵ بالمعونة عند وقوع الصدق في قوله: «إن تنصروا الله ينصركم» (آية: 8)، استدعى ذلك تشويق النفوس إلى حال العاقبة فعرفوا بذلك في هذه السورة فقال (تعالى)⁶¹⁶: «إنا فتحنا لك فتحا مبينا... الآيات» (آية: 1 وما بعدها) فعرف تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بعظيم صنعه له، وأتبع ذلك بشارة المؤمنين العامة؛ فقال تعالى: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين.. الآيات» (آية 4 وما بعدها) والتحمت إلى التعريف بحال من نكث من مبايعته صلى الله عليه وسلم، وحكم المخلفين من الأعراب، والحض على الجهاد، وبيان حال ذوي الأعدار، وعظيم نعمته سبحانه على أهل بيعته⁶¹⁷ «لقد رضي الله عن المؤمنين» (آية: 18) وأثابهم الفتح⁶¹⁸ وأخذ المغانم، وبشارتهم بفتح مكة «لتدخلن المسجد الحرام» (آية: 27) إلى ما ذكر سبحانه من عظيم نعمه⁶¹⁹ عليهم وذكرهم⁶²⁰ في التوراة والإنجيل ما تضمنت هذه السورة الكريمة.

614. هذه السورة مدنية بإجماع وقد نزلت كلها من أولها إلى آخرها في شأن الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم قافل بعد صلح الحديبية، وعلى هذا فقد نزلت بين مكة والمدينة، ومثل ذلك يعد مدنيا على المشهور على اعتبار أن المدني ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أم بمكة بسفر من الأسفار، والمكي ما نزل قبل الهجرة. (أنظر: روح المعاني: 75/26، 76).

ولا يخفى وجه ارتباطها بسورة القتال، فقد جاءت هذه السورة تبشر بالفتح العظيم والنصر المبين الذي أعز الله عز وجل به جنده ونصر به حربه، ونصر الله لا يكون إلا ببذل وتضحية من مال ودماء، وقد جاء الحض عليها في السورة السابقة. فلما ختمت تلك السورة بقوله تعالى: "وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" أي تتولوا عن بذل المهج والأموال، ولم يتول محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام وقدموا هذا وذاك. وبايعوه على الموت في الحديبية بشرهم الله عز وجل بالفتح وأثنى على هذه البيعة "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله" (10).

وأكد لهم دخول المسجد الحرام وهو أعظم فتح في الإسلام "لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين" (27)، وخلدت هذه السورة صفات جيل النصر، وأعلت مكانتهم بما لا يلحقهم به بعدهم "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم" الآية (29)، فالارتباط بين السورتين واضح، فالأولى كانت بمثابة المقدمة والثانية بمثابة النتيجة لأن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال والجهاد في الله. (أنظر: تناسق الدرر ص: 131، وروح المعاني: 76/26).

615. ب: أشعر.

616. ب: ساقطة.

617. أ: بيت

618. ب: فتحا

619. ب: نعمته

620. ب: وذكره

ووجه آخر وهو أنه لما قال تعالى في آخر سورة القتال: « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » (آية: 35) كان هذا إجمالا في عظيم ما منهم وجليل ما أعطاهم، فتضمنت سورة الفتح تفسير هذا الإجمال وبسطه وهذا يستدعي من بسط الكلام ما لم نعتمده في هذا التعليق، وهو بعد مفهوم مما سبق من الإشارات في الوجه الأول.

ووجه آخر مما قد يغمض وهو أن قوله تعالى: « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » (القتال: آية: 38) إشارة إلى من يدخل في ملة الإسلام من الفرس وغيرهم عند تولي العرب، وقد أشار أيضا إلى هذا قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا من يتردد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ⁶²¹ . (الآيات) (المائدة: آية: 54) وأشار إلى (ذلك قوله عليه الصلاة والسلام): ⁶²² « ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذا وعقد السبابة بالإبهام » ⁶²³ ، أشار عليه السلام إلى تولي العرب واستيلاء غيرهم الواقع في الآيتين، وإنما أشار عليه السلام بقوله: « اليوم إلى التقديم (وتأخر وقوع) ⁶²⁴ هذا الأمر إلى أيام أبي جعفر المنصور، فغلبت الفرس والأكراد وأهل جهات الصين وصين الصين وهو ما يلي ياجوج وماجوج، وكان فتحا وعزا وظهورا، لكلمة الإسلام وغلبة ⁶²⁵ هؤلاء في الخطط والتدبير الامارى ⁶²⁶ ، وسادوا غيرهم، ولهذا جعل صلى الله عليه وسلم مجيئهم فتحا فقال: (فتح اليوم)، ولو أراد غير هذا لم يعبر بفتح، ألا ترى قول عمر لحذيفة (رضي الله عنهما) ⁶²⁷ في حديث الفتن ⁶²⁸ حين قال له: « إن بينك

621. "أذلة على المؤمنين" ساقطة من: أ

622. أ: ذلك عليه السلام.

623. وتام الحديث عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من النوم محمرا وجهه وهو يقول: "لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها. قلت: فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون، قال: نعم إذا كثر الخبث" أخرجه البخاري في صحيحه الحديث رقم: 3346 ومسلم في صحيحه الحديث رقم: 2880. كما أخرجه أيضا أحمد في مسنده والترمذي في جامعه، وابن ماجة في سننه، ومالك في موطنه وغيرهم.

624. ب: "والتأخير كذا وفرغ" وفي هذا التركيب اضطراب نخل بالمعنى.

625. أ: وغلب.

626. ب: شطب على كلمة الامارى.

627. أ: ساقطة.

628. ب: الفين.

وبينها بابا مغلقا، فقال عمر: أيفتح ⁶²⁹ ذلك الباب أم يكسر؟ فقال: بل يكسر ⁶³⁰، ففرق بين الفتح والكسر، وإنما أشار إلى قتل عمر (رضي الله عنهما) ⁶³¹، فلذا قال عليه (الصلاة) ⁶³² والسلام: «فتح» وقال: «من ردم ياجوج وماجوج»، وأراد من نحوهم وجهتهم وأقاليهم، لأن الفرس ومن أتى معهم، هم أهل (تلك) ⁶³³ الجهات التي تلي الروم، فعلى تمهيد هذا يكون قوله تعالى: «وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم» (القتال: 38)، إشارة إلى غلبة من ذكرنا وانتشارهم في الولايات والخطط الدينية والمناصب العلمية ⁶³⁴.

ولما كان هذا قبل أن يوضح ⁶³⁵ أمره يوههم نقصا وحطا، بين تعالى ⁶³⁶ أنه تجديد فتح وإعزاز منه تعالى للكلمة ⁶³⁷ الإسلام، فقال: «إنا فتحنا لك فتحا مبينا... الآيات» (آية: 1 وما بعدها).

629. في أ: يفتح.

630. والحديث هو ما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي في السنن الكبرى عن حذيفة قال: «كنا جلوسا عند عمر رضي الله عنه فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة قلت أنا كما قاله، قال أنك عليه - أو عليها - لجرئ قلت: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي، قال ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، قال ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابا مغلقا، قال أيكسر أم يفتح؟ قال يكسر، قال: إذا لا يغلق أبدا، قلنا أكان عمر يعلم الباب قال نعم، كما أن من دون الغد الليلة، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأل حذيفة، فأمرنا مسروقا فسأله فقال: الباب عمر. (أنظر: البخاري 9/2 وفي مواضيع أخرى كثيرة: كتاب المناقب، وكتاب الفتن، وكتاب الصوم، وغيرها. وأنظر: مسلم: 2218/4).

631. زيادة من: ب

632. ساقطة من: أ

633. ساقطة من: ب

634. ما ذهب إليه من أن الفرس ومن أتى معهم من أهل تلك الجهات التي تلي الروم هم المعنيون في خطابه تعالى للعرب بقوله: «وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم» لا يسلم لهم وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الآية وحكى ذلك الألوسي فقال: «والمراد هؤلاء القوم أهل فارس... وقيل أهل اليمن وقيل كندة، والنخع، وقيل العجم، وقيل الملائكة... والخطاب لقريش أو لأهل المدينة قولان، والظاهر أنه للمخاطبين قبل الشرطية غير واقعة، فعن الكلبي: شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل سبحانه قوما غيرهم» (روح المعاني: 74/26، 75).

ومعلوم أن حديث «ويل للعرب من شر قد اقترب» هو للتحذير من الفتن التي ستقدم من المشرق بين يدي ياجوج وماجوج فتكون الفتنة الكبرى والطامة العظمى التي ستأتي على الإسلام، وليس معناه أن الفتح والنصر سيأتي من جهة الشرق كما ذهب إلى ذلك المؤلف رحمه الله، وواقع التاريخ يؤكد لنا أن الإسلام ابتلى ليس بالفتح من قبل المشرق ولكن بعدد من المؤامرات التي حاكها الشعوبيون، والزنادقة، وإخوان الصفا، والباطنية.

ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه مسلم عن سالم بن عبد الله بن عمر قال لأهل العراق: يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا (ثلاثا) وأوماً بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان». وقد ساق مسلم هذا الحديث من طرق عديدة في باب «الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان».

وانظر بسطا لهذا الموضوع في كتاب: «مع الرعيل الأول» لمحج الدين الخطيب ص: 158.

635. أ: توضح.

636. ساقطة من: ب

637. أ: بكلمة.

ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في تخلص التلخيص⁶³⁸ علماء المالكية⁶³⁹ مشيراً إلى تفاوت درجاتهم ثم قال: «وأمضاهم في النظر عزيمة وأقواهم فيه شكيمة أهل خراسان، العجم أنساباً وبلداناً، العرب عقائداً وإيماناً، الذين تنجز فيهم وعد الصادق المصدوق، وملكهم الله (تعالى)⁶⁴⁰ مقاليد التحقيق حين أعرضت العرب⁶⁴¹ عن العلوم وتولت عنها وأقبلت على الدنيا واستوثقت منها. قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله من هؤلاء الذين قال الله فيهم: «وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» (القتال: آية: 38) فأشار عليه السلام إلى سلمان وقال: «لو كان الإيمان في الشرا لناله رجال من هؤلاء»⁶⁴².

638. يقع تصحيف في اسم هذا الكتاب فيقال تلخيص التلخيص، وتخلص التلخيص، أنظر الأحكام 184/1 والناسخ والمنسوخ 119/1 لابن العربي، تحقيق: الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري.

639. أ: ساقطة.

640. أنظر ص 311 من الكتاب

641. ساقطة من : ب

642. والحديث أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» قال: قلت من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفيما سلمان الفارسي، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال: لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء». (أنظر: البخاري رقم الحديث: 4897 ومسلم رقم الحديث: 2546 كما أخرجه النسائي والترمذي وابن حاتم، والطبري من طرق عديدة. أنظر: تفسير ابن كثير 7/7).

سورة الحجرات⁶⁴³

لما وصف سبحانه عباده المصطفين من صحابة نبيه والمخصوصين بفضيلة مشاهدته وكريم عشرته؛ فقال: «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» (الفتح: آية: 29) فأثنى سبحانه/عليهم وذكر وصفه تعالى لهم بذلك في التوراة والإنجيل، وهذه خصيصة انفردوا بمزية تكريمها وجرت على واضح قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» (آل عمران: آية: 110) وشهدت لهم بعظيم المنزلة لديه، ناسب هذا طلبهم بتوفية الشعب الإيمانية (والجري)⁶⁴⁴ قولا وفعلا وعملا ظاهرا وباطنا على أوضح عمل وأخلص نية، وتنزيههم عما وقع من قبلهم في مخاطبات أنبيائهم كقول بني إسرائيل: (يا موسى ادع لنا ربك) (الأعراف: 134) إلى ما شهد من هذا الضرب بسوء حالهم فقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله... الآية» (آية: 1) «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول» إلى قوله «والله غفور رحيم» (الآيات: 2-5) فطولبوا⁶⁴⁵ بأداب تناسب علي إيمانهم وإن اغتفر⁶⁴⁶ بعضه لغيرهم من ليس في درجتهم، وقد قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وكأن قد قيل لا تغفلوا ما منح لكم في التوراة والإنجيل فإنها درجة لم ينلها غيركم من الأمم، فقابلوها بتنزيه أعمالكم عن أن يتوهم في ظواهرها أنها صدرت عن عدم اكتراث في الخطاب وسوء قصد في الجواب، وطابقوا بين بواطنكم وظواهركم، وليكن علنكم⁶⁴⁷ منبئا بسليم سرائركم «إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» (آية: 3)

643: سورة الحجرات مدنية بإجماع، وآياتها من أولها إلى آخرها كلها آداب اجتماعية تخص الفرد والجماعة، وقد نزلت بعد سورة الفتح بالتأكيد.

أما وجه ارتباطها بها قبلها فهو أن النصر والفتح دائما تعقبه نشوة وبطر ويكون مدعاة للتنافس في المراتب والمناصب الأموال فجاءت هذه السورة لتنفي ذميمة الخصال من حياة المسلمين كأمة، ومن صفاتهم كأفراد، وتحفظ للرسول صلى الله عليه وسلم مكانته كقدوة مبلغ، وإمام متبع، له من الحرمة والتشريف ما ليس لغيره، لذلك ذكرت ما يمكن وقوعه من هذه الخصال، السيئة ونهبتهم إليها وحذرهم من ارتكابها، ليبقوا دائما أهلا للفتح والنصر كما وصفهم الله في آخر سورة الفتح قوله «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم.. الآية» (29) وهذا ظاهر بين والحمد لله.

ومن المناسبة أيضا ما لا يخفى من تأخي في السورتين، فهما مدنيتان مشتملتان على أحكام. فتلك فيها قتال الكفار، وهذه فيها قتال البغاة، وتلك ختمت بالذين آمنوا وهذه افتتحت بالذين آمنوا، وتلك تضمنت تشريفا له صلى الله عليه وسلم رخصا في مطلعها، وهذه أيضا في مطلعها أنواع من تشريفه صلى الله عليه وسلم. (أنظر: تناسق الدرر ص: 132).

644: أ: أخرى ب: ساقطة والصواب والجري، وقولا «وبدونها يستقيم الكلام»

645: في ب: فطلب.

646: في ب: اعتبر.

647: ب: عملكم.

ثم عرفوا بسوء حال من عدل به عن هذه الصفة فقال تعالى: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» (آية: 4) ثم أمروا بالتثبت عند نزعة شيطان أو تقول ذى بهتان «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ... الآية» (آية: 6) ثم أمرهم تعالى بصلاح ذات بينهم والتعاون في ذلك بقتال الباغين⁶⁴⁸ وتحسين العشرة والتزام ما يثمر الحب والتودد الإيماني والتواضع، وأن الخير كله في التقوى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (آية: 13) وكل ذلك محذر لعل صفاتهم التي وصفوا بها في خاتمة سورة الفتح.

648. أ: الباغين إلى الفئة وتحسين، وكلمة "إلى الفئة" زائدة يستقيم الكلام بدونها.

سورة ق⁶⁴⁹

لما كانت سورة الحجرات قد انطوت على جملة من الألفاظ التي خص بها تعالى عباده المؤمنين/ كذكره تعالى أخوتهم⁶⁵⁰ وأمرهم بالتثبت عند غائلة معتد فاسق «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق... الآية» (الحجرات: آية: 6) وأمرهم بغض الأصوات عند نبيهم وأن لا يقدموا⁶⁵¹ بين يديه وأن لا يعاملوه في الجهر بالقول كمعاملة بعضهم بعضاً، وأمرهم باجتنب كثير من الظن ونهيهم عن التجسس والغيبة وأمرهم بالتواضع في قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» (الحجرات: آية: 13) وأخبرهم تعالى أن استجابتهم، وامثال هذه الأوامر ليست بحولهم ولكن بفضلله وأنعامه فقال: «ولكن الله حبيب إليكم الإيثار وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان... الآيتان» (7-8) ثم أعقب تعالى بقوله: «يمنون عليك أن أسلموا... الآية» (الحجرات: 17) ليبين أن ذلك كله بيده ومن عنده، أراهم سبحانه حال من قضى عليه الكفر ولم يجب إليه الإيمان ولا زينه في قلبه، بل جعله في طرف⁶⁵² من حال من أمر ونهى في سورة الحجرات، مع المساواة في الخلق وتمثال الذوات⁶⁵³، فقال تعالى: «ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم... الآيات» (ق: 1 وما بعدها) ثم ذكر سبحانه وضوح الأدلة «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم... الآيات» (6-11) ثم ذكر حال غيرهم ممن كان على رأيهم «كذبت قبلهم قوم نوح» (آية: 12) ليتذكر مجموع هذا من قدم ذكر⁶⁵⁴ حاله وأمره ونهيه في سورة الحجرات وليتأدب المؤمن

649. وتسمى هذه السورة أيضاً بسورة الباسقات، وهي مكية النزول، كان صلى الله عليه وسلم يقرؤها في المواقف الحاشدة على رؤوس الأشهاد كخطب الجمعة والعيدين وما شابه ذلك كما جاء في صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة ابن النعمان. 595/2، وانظر في فضلها روح المعاني: 155/26.

ووجه ارتباطها بما قبلها ظاهر، وذلك أن سورة الحجرات لما نهت عن كثير من الخصال الذميمة وهي في جملتها تنطلق مما يكنه القلب تخفيه المشاعر، جاءت هذه السورة لتنبيههم إلى أنهم مهما تصرفوا ومهما عملوا سواء أسروا ذلك أم جهروا به، فإن الله به عليم، "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" (16)، مؤكدة أن الأمة مهما عظم شأنها وامتد سلطانها، إذا لم تسلك طريق الله فإن عاقبتها الزوال والوبار وضرب لهم الأمثال بالأمم السالفة "بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج... الآيات" (5 وما بعدها)، وفي هذا كسر لحدة الأثر والبطر الذي يعقب الفتح والنصر والاستقرار والتحضير، وهو من آفات القلوب، فكأن هذه السورة كلها من أولها إلى آخرها تدور حول تطهير القلب وتذكير الإنسان بالعاقبة، وهذه صلة واضحة بسورة الحجرات، مذكراً بأن وضع هذه السورة المكية بعد سورة الحجرات المدنية المتأخرة نزولاً من أعجب الترتيب في سور القرآن الكريم، وهذا ما يؤكد لنا أن ترتيب سور القرآن توقيفي.

650. ب: آخرتهم.

651. ب: يتقدموا.

652. ب: ظرف.

653. أ: الاذوات.

654. ب: ذكره.

بآداب الله ويعلم أن ما أصابه من الخير فإنما هو من فضل ربه وإحسانه، ثم التحمت الآي
إلى قوله خاتمة السورة « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف
وعيد » (آية: 45).

سورة الذاريات⁶⁵⁵

لما ذكر سبحانه المواعيد⁶⁵⁶ الأخروية في سورة «ق» وعظيم تلك الأحوال من لدن قوله: «وجاءت سكرة الموت بالحق» إلى آخر السورة (الآيات: 19-45)، ثم أتبع سبحانه ذلك بالقسم على صحة وقوعه وصدقه؛ فقال تعالى: «والذاريات ذروا» إلى قوله «إنما نوعدون لصادق وإن الدين لواقع» (الآيات: 1-6) والدين الجزاء، أي أنهم سيجازون على ما كان منهم ويوفون قسط أعمالهم «ولا⁶⁵⁷ تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون» (إبراهيم: آية: 42) «إنما/نملي لهم ليزدادوا إثماً» (آل عمران: آية: 178)، ولما أقسم تعالى على صدق وعده ووقوع الجزاء، أعقب ذلك بتكذيبهم بالجزاء وازدرائهم؛ فقال: «يسألون⁶⁵⁸ أيان يوم الدين» (آية: 12) ثم ذكر تعالى حال الفريقين وانتهاء الطريقين إلى قوله: «وفي الأرض آيات للموقنين» (آية: 20) فوبخ تعالى من لم يعمل فكره ولا بسط نظره فيما أودع سبحانه في العالم من العجائب، وأعقب بذكر إشارات إلى أحوال⁶⁵⁹ الأمم وما أعقبهم تكذيبهم، وكل هذا تنبيه لبسط النظر إلى قوله تعالى: «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» (آية: 49) ثم أنس نبيه عليه (السلام)⁶⁶⁰ بقوله: «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون» (آية: 52) أي أن هذا دأبهم وعادتهم حتى كأنهم تعاهدوا عليه وألقاه بعضهم إلى بعض فقال تعالى: «أتواصوا به بل هم قوم طاغون» (آية: 53) أي عجا لهم في

655. هذه السورة الكريمة مكية في قول جميع الأئمة، ووجه ارتباطها بسالفتها أن سورة «ق» عندما عرضت لعلم الله عز وجل لما تكنه الضمائر وتخفيه السرائر، وأن الله عز وجل سيبعثهم ويحاسبهم بعد أن يكونوا قد صاروا رفاتا وترابا، استهجنوا هذا الأمر واستغربوه، وقضية البعث بعد الموت إحدى القضايا التي نفر منها الكفار نفورا شديدا فجاءت هذه السورة عقب تلك لتقيم الدلائل على قدرة الله عز وجل في خلقهم بما يلمسون ويشاهدونه فابتدأت بقوله تعالى: «والذاريات ذروا» وهي الرياح وهذا قسم «فالحاملات وقرا» وهي السحب، «فالجاريات يسرا» وهي السفن «فالمقسمات أمرا» وهي الملائكة، «إن الدين لواقع»، أي الحساب والجزاء الذي سيكون قطعاً بعد الموت، فمن يسر هذه المخلوقات، - وأنتم ترونها تنتهي ثم تنشأ من جديد- لقادر على إعدادكم أحياء بعد موتكم.

ثم عرضت السورة لمن هم أعتى منهم قوة كأقوام لوط، وموسى، وعاد، وثمود، ولم يستطيعوا أن يردوا عن أنفسهم كلمات الله لما حقت عليهم فدمروا تدميراً، فهي أنشأهم ثم أفناهم، ثم عادت السورة لتلفتهم من جديد إلى قدرة الله «والساء بنيناها بأيد» (الآيات: 47 وما بعدها)، كل ذلك ليؤمنوا بالحساب بعد الموت الذي مر ذكره في سورة «ق» فكانت هذه السورة رهانا على مضمون تلك وهذا واضح جلي والله أعلم.

656. ب: المواعيد.

657. أ: فلا

658. أ: يسألونك.

659. أ: لأحوال.

660. ساقطة من : ب

جريمهم في التكذيب والعناد⁶⁶¹ في مضمار واحد، ثم قال تعالى: «بل هم قوم طاغون» أي أن علة تكذيبهم هي التي اتحدت فاتحد معلولها، والعلة طغيانهم وإظلام قلوبهم بما سبق «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة: 13) ثم زاد نبيه عليه السلام أشياء لما ورد على طريقة تخييره عليه الصلاة والسلام⁶⁶² في أمرهم من قوله تعالى: «فتول عنهم فما أنت بملوم» (آية: 54)، ثم أشار تعالى بقوله: «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» (آية: 55) إلى أن أحراز أجره عليه الصلاة والسلام⁶⁶³ إنما هو التذكار والدعاء إلى الله تعالى، ثم ينفع الله بذلك من سبقت له السعادة «إنما يستجيب الذين يسمعون» (الأنعام: آية: 36) ثم أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام⁶⁶⁴ بأن مكذبيه سينالهم قسط ونصيب⁶⁶⁵ مما⁶⁶⁶ نال غيرهم ممن ارتكب مرتكبهم وسلك مسلكهم؛ فقال تعالى: «فإن⁶⁶⁷ للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم» إلى آخر السورة (الآيتان: 59-60).

661. ب: والفساد.

662. ب: صلى الله عليه وسلم.

663. ب: صلى الله عليه وسلم.

664. ساقطة من: ب

665. ب: تكذيبهم ينالهم قسطا ونصيبا.

666. أ: ممن

667. أ: وإن

سورة الطور⁶⁶⁸

لما توعد تعالى كفار قريش ومن كان على طريقتهم من سائر من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه⁶⁶⁹ سيصيبهم ما أصاب غيرهم من مكذبي الأمم المنبه على ذكرهم في لسورة قبل، ثم أشار سبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الحزي وأليم العذاب بقوله: «فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون»/ (الذاريات: آية: 60) أقسم سبحانه على صحة لك ووقوعه والعياذ بالله سبحانه من سخطه وأليم عذابه؛ فقال تعالى: «والطور» إلى قوله: إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع» (الآيات: 1-7).

ثم أوماً سبحانه إلى مستحقه ومستوجه فقال: «فويل يومئذ للمكذبين» (آية: 11)، ثم ذكر ما يعنفون به ويوبخون على ما سلف منهم من نسبته عليه السلام إلى السحر تكذيبه؛ فقال: «هذه النار التي⁶⁷⁰ كتمت بها تكذبون، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون» (الآيتان: 14-15) ثم أعقب بذكره حال المؤمنين المستجيبين، ثم ذكر إثراء إعلامه الفريقين بحمته على نبيه عليه السلام⁶⁷¹، وعصمته ووقايته مما تقوله المفترون؛ فقال تعالى: «فذكر بما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون» (آية: 29).

ثم جرت الآي على توبيخهم في مقالاتهم ووهن انتقالاتهم، فمرة يقولون كاهن، ومرة يقولون مجنون، ومرة يقولون شاعر نترقب موته، فوبخهم على ذلك كله وبين كذبهم أزعامهم وأسقط ما بأيديهم بقوله: «فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين» (آية: 34)

66. هذه السورة الكريمة مكية في قول جميع العلماء، ووجه ارتباطها بالذاريات قبلها، إن الذاريات أقامت الحجج على قدرة الله عز وجل في بعث الناس بعد الموت، وضربت الأمثال بالأمم السابقة وعجزهم عن دفع مراد الله بهم، ثم جاءت هذه سورة بأقسام جديدة تؤكد نفس المضمون، وتلفتهم إلى عظمة الصانع وقدرة المبدع من خلق الجبال وتعليم الإنسان اللغة الكتابة، ورفع السماء فوقهم، وضخامة البحر المحيط بهم، وأن عذاب الله واقع لا محالة بالكافرين، ثم أفاضت السورة في بان النعيم الذي ينتظر المؤمنين، وعرضت لأقاويلهم وشبههم فردتها وبينت وهنها - كما أشار إلى ذلك المصنف - بأسلوب قمر، وتهكم مشين كان له في قلوبهم أبلغ الأثر، حتى أن جبير بن مطعم بن عدي يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم نرا في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية "أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون من عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون" كاد يطير قلبي. (أنظر: صحيح البخاري: 603/8. كما أخرجه غيره من الأئمة).

وهذا هو المسقط⁶⁷² لما تقولوه⁶⁷³ أولاً وآخراً، وهو الذي لم يجدوا عنه جواباً، ورضو بالسيف والجلاء ولم يتعرضوا لتعاطي معارضته⁶⁷⁴، وهذا هو الوارد في قوله تعالى في سور البقرة: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا... الآيات» (23-24) فما نطقوا في جواب بينت شفة «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله (الإسراء: آية: 88)، فتبارك من جعله آية باهرة وحجة قاهرة.

672. أ: السقط.

673. أ: يقولوه.

674. أ: معارضته.

سورة النجم⁶⁷⁵

لما قطع سبحانه تعلقهم بقولهم شاعر وساحر ومجنون إلى ما هزؤوا به مما علموا أنه لا يقوم على ساق ولكن شأن المنقطع المبهوت أن يستريح⁶⁷⁶ إلى كل ما أمكنه وأن لم يغن عنه أعقب تعالى (ذلك)⁶⁷⁷ بقسمه على تنزيه وصفيه من خلقه عما تقوله وتوهمه ضعفائهم فقال تعالى: «والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى» (الآيتان: 1-2)، ثم أتبع سبحانه هذا القسم ببسط الحال في تقريره عليه السلام وإدناؤه وتلقيه لما يتلقاه من ربه وعظيم منزلته لديه، وفي أثناء⁶⁷⁸ ذلك يحركهم كريم منعم فقال: «أفرأيتم اللات والعزى» (آية: 19) والتحمت الآي على هذه الأغراض إلى الإعلام بانفراده سبحانه بالإيجاد والقهر والإعزاز والانتقام لا يشاركه في شيء من ذلك، فقال تعالى: «وإن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى» (آية: 42) ولما بين كل ذلك⁶⁷⁹ قال: «فبأي آلاء ربك تتمارى» (آية: 55) أي في أي نعمة تشكون أم بأية آية تكذبون، ثم قال: «هذا نذير من النذر الأولى» (آية: 56) وإذا كان عليه (الصلاة)⁶⁸⁰ والسلام (نذير)⁶⁸¹ فشأن مكذبيه شأن مكذبي غيره.

675. هذه السورة مكية كشأن سابقتها، وقد ورد أنها سورة أعلنها النبي صلى الله عليه وسلم على الناس، وأنها أول سورة نزلت فيها سجدة فلما قرأها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس إلا رجلاً أخذ كفاً من تراب فسجد. عليه، يقول عبد الله بن مسعود راوي الحديث، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. (أنظر فتح الباري: 614/8، رروح المعاني: 37/27).

ووجه ارتباطها بما قبلها إلى جانب ما أبداه المصنف من وجوه ظاهرة أنها مكيّتان، ففي سورة الطور تكررت أم لا استفهامية التي أثارت شبههم حول هذا الرسول الكريم وأبانت عن عجزهم وضعفهم على التصرف في هذا الكون فكانت هذه السورة مبيّنة لأعظم خصيصة لهذا النبي الكريم ألا وهي الوحي وتلقيه من الملائكة الأعلى وهم غير قادرين على تحصيله أو دفعه، ثم توجهت آيات السورة إلى بيان متعلقهم بأهله لا تضر ولا تنفع، ثم تسلسلت الآيات بعناية الله بخلقه منذ أن يكون نطفة إلى أن يكون شاباً فكهلاً ثم يدركه الموت بعد ذلك مع ما يتقلب فيه خلال هذه المدة من أطوار، إن الذي نولاه بكل هذا قادر على إعادته نشأة أخرى بعد الموت، وهذه الآيات نذير من نذر الله عز وجل التي قدمها بين يدي حسابته لخلقه، فالأمر أعظم من الضحك واللهو، ومن العجب والغفلة، من تأمله حق التأمل سيؤدي به إلى امتثال قوله تعالى: "ناسجدوا لله واعبدوا".

ومن التناسب بين السورتين أيضاً اختتام الطور بقوله تعالى: "وإدبار النجوم" وافتتاح هذه بقوله: "والنجم إذا هوى".

676. ب: يسر.

677. أ: ساقطة.

678. ب: اثنا.

679. ب: ذلك كله.

680. أ: ساقطة.

681. ب: ساقطة.

سورة القمر⁶⁸²

لما أعلمهم سبحانه بأن إليه المنتهى وأن عليه النشأة الأخرى وأن ذلك يقع جزاء كل نفس بما أسلفت أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه ليزدجر من وفقه للآزدجار؛ فقال تعالى: «اقتربت الساعة وانشق القمر» (آية: 1) ثم أن سورة (سورة القمر) تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم، وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما لا يكاد يوجد في غيرها⁶⁸³ مما تقدمها.

وبعد الشبه في السور قبلها والتحريك بآيات لا يتوقف عنها إلا من أضله الله وخذله انبت⁶⁸⁴ السور بعد على تمهيد ما تضمنته سورة «ص» فلم تخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم كقوله في الزمر «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (آية: 3) وقوله: «لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء» (آية: 4) وقوله: «قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه» (آية: 15) وقوله مثلا لحالهم: «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون... الآية» (آية: 29) إلى ما بعد من التقريع والتوبيخ وقوله في سورة غافر: «ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد» (آية: 12) وقوله: «أولم يسيروا في الأرض... الآية» (آية: 21) وقوله: «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه» (آية: 56) وقوله: «ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبها أرسلنا به رسلا فسوف يعلمون» إلى قوله: «فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون» (الآيات: 69-77) وقوله تعالى: «أولم يسيروا في الأرض» إلى ما تخلل هذه الآي كقوله في السجدة: «فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون»⁶⁸⁵ وقالوا قلوبنا

682. وتسمى أيضا «اقتربت»، وعن ابن عباس أنها تدعى في التوراة المبيضة، لأنها تبيض صاحبها يوم تسود الوجوه، وهي مكية في قول الجمهور، (أنظر روح المعاني: 63/27).

ومن التناسب بين هذه السورة وسابقتها ما أورده السيوطي في تناسق الدرر ص: 133، 134. حيث قال: «لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق في التسمية لما بين النجم والقمر من الملازمة، ونظيره توالي الشمس، والليل والضحى. ثم قال: «إن هذه السورة بعد النجم كالأعراف بعد الأنعام، والصفات بعد يس في أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في قوله هناك: «وأنه أهلك عادا الأولى وثمودا فما أبقي وقوم نوح من قبل إنهم كانوا أضل وأظلم» والمؤتفة أهوى» (49-52).

إلا أن المؤلف - رحمه الله - قد أدى من التناسب بين هذه السورة وما قبلها من السور وما بعدها كذلك ما جعله القرآن سورا وآيات، قصصا وتشريعات، عبادات وتوجيهات «آية باهرة وحجة قاطعة إلى يوم الدين فسبحان من أحكم وهو أحكم الحاكمين.

683. في النسختين: «ما» وأثبتت مما لم ينسبها للسياق.

684. في ب: وافقت.

685. أ: «فهم لا يسمعون» ساقطة.

في أكنة» (فصلت: 4) «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن» (آية: 26) «إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا» إلى قوله: «أولئك ينادون من مكان بعيد» (الآيات: 44-48) وقوله: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» إلى خاتمة السورة (الآيتان: 53-54)، وقوله في الشورى: «والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل» (آية: 6) «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» (آية: 13) «والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم... الآية» (آية: 16) «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله... الآية» (آية: 21) «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا» (آية: 48) وقوله في الزخرف: «أفنضرب عنكم الذكر صفحا... الآية» (آية: 5) «وجعلوا له من عباده جزءا» (آية: 15) إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشد التقريع، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها، وقوله في الدخان: «بل هم في شك يلعبون» إلى قوله: «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» (الآيات: 9-16) وقوله: «إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين» إلى قوله: «إن هذا ما كنتم به تمترون» (الآيات: 40-50) وقوله في الشريعة: «فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون...» الآيات إلى قوله: «والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم» (الآيات: 6-11) وقوله: «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه» إلى آخر السورة (الآيات: 23-37)، وقوله في الأحقاف: «والذين كفروا عما أنذروا معرضون» (آية: 3) ومعظم آي⁶⁸⁶ هذه السورة لم يخرج عن هذا إلى خاتمتها، وكذا سورة القتال ولو لم يتضمن إلا الأمر بقتلهم وأسرهم وتعجيل خزيهم «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب» (آية: 4)، وأما سورة الفتح فما تضمنته من البشارة والفتح أشد على الكفار من كل ما قرعوا به، ولم تخرج⁶⁸⁷ عن الغرض المتقدم وكذا سورة الحجرات لتضمنها من الأمر بتعزيز النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله ما يقر عين المؤمن ويقتل العدو الحاسد، وما فيها أيضا من ائتلاف أمر المؤمنين وجميع كلمتهم وتأخيهم، (وموقع)⁶⁸⁸ هذا من العدو بحيث لا يخفى على أحد، وأما سورة «والذاريات»، «والطور»، «والنجم»، فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء، وبذلك افتتحت كل سورة منها، فتأمل مطالعها، ففي ذلك كفاية في الغرض. فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغت الآي في هذه السور من ذلك أقصى غاية، وتمحض باطلهم وانقطع دابرهم، ولم يجدوا جوابا، عرض عليهم سبحانه

686. ب: آيات.

687. ب: يخرج.

688. أ: غير واضحة بسبب الخرم.

في سورة القمر أحوال الأمم مع أنبيائهم وكان القصد (من ذلك)⁶⁸⁹ - والله أعلم - مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا ليتبين لهؤلاء أن لا فرق بينهم وبين غيرهم، وأن لا يغرمهم عظيم حلمه سبحانه عنهم، فهذه السورة إعدار عند⁶⁹⁰ تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم.

وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر، لهذا⁶⁹¹ افتتح (سبحانه)⁶⁹² هذه السورة بقوله: «ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر» (الآيتان: 4-5) وختمها بقوله: «أكفاركم خير من أولئكم» (آية: 43) وهذا يبين ما قدمناه، وكأن قد قيل: أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى ترتكبوا مرتكبهم⁶⁹³ وتظنون⁶⁹⁴ أنكم ستفوزون بعظيم جرأتكم؟ فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز وأجل (إيراد وأفخم)⁶⁹⁵ عبارة وألطف إشارة، فبدأ بقصة قوم نوح «كذبت قبلهم قوم نوح» إلى قوله: «ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر» (الآيات: 9-16)، ثم استمر في ذكر الأمم مع أنبيائهم حسب ما ذكروا في السور الواردة فيها أخبارهم من ذكر أمة بعد أمة، إلا أن الواقع هنا من قصصهم أوقع في الزجر وأبلغ في الوعظ وأعرف في الإفصاح بسوء منقلبهم وعاقبة تكذيبهم، ثم ختمت كل قصة بقوله: «فكيف كان عذابي ونذر» وتخلل هذه القصص قوله تعالى: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»⁶⁹⁶ وهي إشارة إلى ارتفاع عذر من تعلق باستصعاب الوقوف على زواجره وتنبهاته ومواعظهن ويدعي بعد ذلك/استغلاقه⁶⁹⁷ إنه ميسر قريب المرام⁶⁹⁸، وهذا فيما يحصل منه⁶⁹⁹ التنبه والتذكير لما عنه تكون الاستجابة بإذن الله، وراء ذلك من المشكل والمتشابه ما لا يتوقف عليه ما ذكره، وحسب عموم المؤمنين الإيذان بجميعة،

689. أ: ساقطة.

690. ب: اعتذار عنه.

691. ب: ولما، أ: ولهذا.

692. ب: ساقطة.

693. أ: مركبهم.

694. ب: وتظنوا.

695. ب: إجماع.... وأقحم.

696. تكررت هذه الآية في هذه السورة أربع مرات (آية: 17، 22، 32، 40).

697. أ: أو استغلاقه وفي ب: واستغلاقه، ويظهر لي أن كلا من (أو) والواو مقحمتين لا معنى لها لاتساق الكلام بدونها.

698. أ: التزام

699. ب: عنه

والعمل بمحكمه، ثم يفتح الله تعالى فهم ذلك على من شرفه به وأعلى درجته فيبين له بحسب ما يشرح الله صدره « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة: آية: 11).

ومن تيسير المقصود المتقدم تكرار قصص الأنبياء مع أممهم في عدة سور، أي حفظ منها أطلع على ما هو كاف في الاعتبار بهم، ثم إذا ضم ذلك بعضه إلى بعض اجتمع فيه ما لم يكن ليحصل من بعض تلك السور، فسبحان من حجة باهرة وبرهانا قاطعا على صدق الآتي به، وصراطا مستقيما ونورا مينا.

ولما ذكر سبحانه عواقب الأمم في تكذيبهم قال لمشركي العرب « أكفاركم خير من أولئكم » (آية: 43)، ومن هذا النمط قول شعيب عليه (الصلاة)⁷⁰⁰ والسلام: «ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح... الآية» (هود: آية: 89) ثم قال تعالى: «أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر» (الآيتان: 44-45) أي إنكم إن تعلقتم بتألفكم وجماعتكم فسأفرق ذلك بهزيمتكم يوم بدر، وقتل صناديدكم فما حجتكم بعد هذا (وقد)⁷⁰¹ أنبأ مساق القصص في هذه السور واعتماد التعريف بحال من ذكر في أن كذبوا وعاندوا فأعقب تكذيبهم أخذهم وهلاكهم. ثم تعقب هذا كله بصرف الكلام إلى مشركي العرب في قوله: «أكفاركم خير من أولئكم» (آية: 43)، وليس في شيء من السور المذكور⁷⁰² فيها قصص الأمم على هذا الإستيفاء كالأعراف وهود ونظائرها، ليس في شيء من ذلك تعقيب بذكر مشركي العرب على الصفة الواردة هنا، فأنبأ ذلك بكمال المقصود من الوعظ والتحريك بذكره⁷⁰³، وانقضى⁷⁰⁴ هذا الغرض، وذلك أنهم ذكروا أولا بعرض أحوال الأمم والتعريف بما آل عليه أمرهم، وكان ذلك في صورة عرض من يريد تأذيب طائفة ممن إليه نظرهم قبل أن يظهر منهم تمرد وعناد، فهو يستلطف في دعائهم ولا يكلمهم تكليم الواجد عليهم، بل يفهم من كلامه الإشفاق والاستعطاف وإرادة الخير بهم، ثم يذكرهم بذلك ويكرره عليهم المرة بعد المرة وإن تخلل ذلك ما بين⁷⁰⁵ فظاعة التهديد وشدة الوعيد، فلا يصحبه تعيين المخاطب وصرف الكلام بالكلية

700. أ: ساقطة

701. ساقطة من : ب

702. ب: السور المذكور. أ: السورة المذكورة.

703. أ: بعد بذكره كلمة غير مقروؤة.

704. ب: وانقضاء.

705. ب: يبين

إليه بل يكون ذلك على طريق التعريض والتوبيخ، ثم لو كان لاغتفر بما قبله وما بعده من التلطف حتى إذا تكررت الموعظة فلم تغن⁷⁰⁶، فهنا يحل⁷⁰⁷ الغضب وشدة الوعيد، وعلى هذا وردت السور المذكور فيها حال الأمم⁷⁰⁸ كسورة الأعراف وهود والمؤمنون والظلة والصفات، وما من سورة منها إلا والتي بعدها أشد في التعريف، وأميل إلى الزجر والتعنيف، فتأمل تعقيب القصص في سورة الأعراف بقوله تعالى: « وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون » (آية: 174) وقوله بعد موعظة بالغة بذكر من حرمه بعد إشرافه على الفوز وهو الذي « أدخل إلى الأرض واتبع هواه » (آية: 176) فقال بعد ذلك « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (آية: 176) وتذكيره إياه بمحنة الغفلة، إلى ما ختمت به السورة وذلك غير خاف في التلطف بالموعظة، وقال تعالى بعد قصص سورة هود: « وكذلك أخذ ربك... الآية » (آية: 102) وقال بعد « فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء » إلى قوله: « وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » (آية: 109)، وتكررت آي إلى آخر السورة تجاري ما ذكر، وكم بين هذه وآي الأعراف في⁷⁰⁹ تلطف الاستدعاء. وقال تعالى في آخر قصص سورة المؤمنين: « فذرهم في غمرتهم حتى حين » إلى قوله: « لا يشعرون » (الآيات: 54-56)، ثم قال تعالى بعد: « ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون » (الآيتان: 63-64) استمرت⁷¹⁰ آي على شدة الوعيد يتلو بعضها بعضا إلى قوله: « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا » (آية: 115) وقوله تعالى بعد: « إنه لا يفلح الكافرون » (آية: 117) وكم بين هذه (و) الواقعة عقب قصص سورة هود « وقال في آخر قصص الظلة « وإنه لتنزِيل رب⁷¹¹ » إلى قوله خاتمة السورة « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » (الآيات: 192-227) فوبخهم وعنفهم، ونزه نبيه عليه الصلاة والسلام عن سوء توهمهم وعظيم إفكهم وافترائهم وكل هذا تعنيف وزجر لم يتقدم لهم مثله في السور المذكورة، ثم هو صريح في مشركي العرب معين لهم في غير تلويح ولا تعريض، ثم إنه وقع عقب كل قصة في هذه السورة قوله تعالى: « إن في ذلك لآية » وفيه تهديد ووعيد بين، فقال تعالى في آخر قصص والصفات « فاستفتهم ألبك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم

706. ب: تغن

707. أ: على

708. أ: الأمر

709. ب: من

710. ب: واستمرت.

711. نهاية المخطوط "أ"

شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون» (الآيات: 149-152) وهذا أعظم تقريع وأشد توبيخ، ثم نزه نفسه سبحانه عن بهتان مقالهم وسوء ارتكابهم وقبح فعالهم بقوله سبحانه « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » (الآية: 180)، فلما أخذوا كل مأخذ فما أغنى ذلك عنهم، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « فتول عنهم » وتماها « حتى حين » (الصفات: 174) ولم يقع أمره صلى الله عليه وسلم بتركهم والإعراض عنهم والتولي إلا بعد حصول القصص في السور المذكورة وأخذهم بكل طريق، وأول أمره بذلك صلى الله عليه وسلم في سورة السجدة « فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » (آية: 30) ثم في سورة الذاريات « فتول عنهم فما أنت بملوم » (آية: 54) ثم في قوله هنا « فتول عنهم » (آية: 6)، فتأمل ذلك، ثم ذكر تعالى قصص الأمم إثر قوله تعالى هنا « فتول عنهم » بأشد وعيد وأعظم تهديد يعقب كل قصة بقوله تعالى: « ولقد تركناها آية فهل من مدكر » (آية: 15) وقوله « فكيف عذابي ونذر »، (آية: 16) ثم صرف الكلام إليهم بما تقدم في قوله « أكفاركم خير من أولئكم » (آية: 43)، فبلغ ذلك أعظم مبلغ في البيان والإعذار، ثم قال تعالى « وكل شيء فعلوه في الزبر... » (آية: 52) فعرف سبحانه بسابق حكمته فيهم « إنا كل شيء خلقناه بقدر » (آية: 49) وانقضى ذكر القصص، فلم يتعرض لها مستوفاة على هذا المساق فيما بعد إلى آخر الكتاب. فسبحان من رحم به عباده المتقين وجعله آية باهرة إلى يوم الدين، وقطع به عناد الجاحدين وغائلة المعتدين، وجعله بيانا كافيا ونورا هاديا وواعظا شافيا، جعلنا الله ممن اهتدى واعتلق بسببه، إنه أهل الاستجابة والعفو والمغفرة.

سورة الرحمان⁷¹²

من المعلوم أن الكتاب العزيز وإن كانت آياته كلها معجزة باهرة، وسوره في جليل النظم وبديع التأليف قاطعة بالخصوص قاهرة، فبعضها أوضح من بعض في تبين إعجازها، وتظاهر بلاغتها وإيجازها، ألا ترى تسارع الأفهام إلى الحصول على بلاغة آيات وسور من أول وهلة دون كبير تأمل كقوله تعالى: « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » (هود: آية: 44) وقوله: « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين... الآيات » (الحجر: آية: 94 وما بعدها) لا يتوقف في أمر إعجازها إلا من طبع الله على قلبه، أو صُد عنه باب الفهم جملة، فأني له بولوجه وقرعه؟ وسورة القمر من هذا النمط، ألا ترى اختصار القصص فيه مع حصول أطرافها وتوفية أغراضها وما جرى مع كل قصة من الزجر والوعظ والتنبيه والإعذار، ولولا أني لم أقصد التعليق - إلا ما بنيته عليه من ترتيب السور - لأوضحت⁷¹³ ما أشرت إليه؟ ولعل الله سبحانه ييسر ذلك فيما باليد من التفسير، يفتح الله به ويسر فيه.

فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا، وبأن فيها عظيم الرحمة في ذكر القصص ونفع العظات، وظهرت حجة الله على الخلق، وكان ذلك من أعظم ألطافه تعالى لمن يسره لتدبر الكتاب ووفقه لفهمه واعتباره، أردف ذلك سبحانه بالتنبيه على هذه النعمة، فقال تعالى: «الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان» (الرحمان: آية: 1) وخص من أسمائه الحسنی هذا الاسم إشعاراً برحمته بالكتاب وعظيم إحسانه « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »

712. هذه السورة مكية على القول الصحيح بل من أوائل القرآن المكي قالت أساء بنت أبي بكر الصديق فيها أخرجه أحمد وابن مردويه عنها بسند صحيح "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون "فبأي آلاء ربكما تكذبان" (الدر المنثور: 139/6).

وقد قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال مالي أراكم سكوتاً، لقد قرأتها على الجن ليلة فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» قالوا: ولا بشيء من نعمتك ربنا نكذب فلك الحمد (أخرجه الترمذي والحاكم وصححه وغيرهما بسند صحيح الدر المنثور: 140/6).

ووجه ارتباطها بالسورة التي قبلها أنها تعداد لنعم الله عز وجل على خلقه في هذه الحياة الدنيا وبيان لما هيأه لهم في السماوات والأرض مما يسر عيشهم ويمكن أمرهم وذلك بعد أن أراهم في السورة السابقة مصارع السابقين وأن قدرته تأخذهم بأسرع من لمح البصر وهذا من باب الترغيب بعد التهيب ثم توالى السورة ببيان نعم الله عز وجل على أهل الجنة في الجنان وتعداد ما أعد لهم فيها من خيرات لبيان هذه الآلاء المتواصلة.

وللسبوطي وجه آخر في مناسبتها، وهو أنه تعالى لما قال في آخر السورة السابقة " بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر " (46) ثم وصف عز وجل حال المجرمين في سقر وحال المتقين في جنات ونهر، فصل هذا الاجمال في هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد في الاجمال، فبدأ بوصف مرارة الساعة، والإشارة إلى ادائها، ثم وصف النار وأهلها والجنة وأهلها ولذا قال فيهم: " ولمن خاف مقام ربه جنتان " (45) وذلك هو عين التقوى، ولم يقل لمن آمن وأطاع أو نحوه لتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل. (أنظر: تناسق الدرر ص: 134).

713. ب: ولا أوضحت.

(إبراهيم: آية: 34) ثم قد تمهد أن سورة القمر إعدار، ومن أين للعباد بجميع هذا اللطف وعظيم هذا الحلم حتى يزدادوا إلى بسط الدلالات، وإيضاح البينات إن يعذر إليهم زيادة في الإبلاغ؟ فأنبأ تعالى أن هذا رحمة فقال: «الرحمان علم القرآن» (الرحمان: آية: 1) ثم إذا تأملت سورة القمر وجدت خطابها وإعدارها خاصا ببني آدم، بمشركي العرب منهم فقط⁷¹⁴ (*)، فأتبعت بسورة الرحمان تنبيها للثقلين وإعدارا إليهم، وتقريراً للجنس على ما أودع الله تعالى في العالم من العجائب والبراهين الساطعة فتكرر فيها التقرير والتنبيه بقوله تعالى: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» خطاباً للجنسين وإعدارا للثقلين فبان اتصالها بسورة القمر أشد البيان.

714. (*) عبارات مضطربة في التركيب.

سورة الواقعة⁷¹⁵

لما تقدم الإعذار في السورتين المتقدمتين والتقرير على عظيم البراهين، وأعلم في آخر سورة القمر أن كل واقع في العالم فبقضائه سبحانه وقدره: «إنا كل شيء خلقناه بقدر» (القمر: آية: 45) «وكل شيء فعلوه في الزبر» (القمر: آية: 52)، وأعلمهم سبحانه في الواقعة بانقسامهم الأخروي فافتتح بذكر الساعة «إذا وقعت الواقعة» إلى قوله: «وكنتم أزواجا ثلاثة» (الواقعة: الآيات: 1-7) فتجدت هذه السورة للتعريف بأحوالهم الأخروية وصدرت بذلك عما جرد في السورتين قبل التعريف بحالهم في هذه الدار، وما انجر في السور الثلاث جاريا على غير هذا الأسلوب فبحكم استدعاء الترغيب والترهيب لطفًا بالعباد ورحمة، ومطالعتها مبنية على ما ذكرته تصريحًا لا تلويحًا، وعلى الاستيفاء: لا بالإشارة والإيحاء، ولهذا قال تعالى في آخر قصص افتراق أحوالهم الأخروية في هذه السورة «هذا نزلهم يوم الدين» (الواقعة: آية: 56) فأخبر أن هذا حالهم يوم الجزاء، وقد قدم حالهم الدنيوي في السورتين قبل وتأكد التعريف المتقدم فيما بعد وذلك قوله: «فأما إن كان من المقربين» إلى خاتمتها (الآيات: 88-96).

715. هذه السورة مكية، وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو عبيد في فضائله والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبداً. ولما حضرت ابن مسعود الوفاة قيل له ما تركت لبناتك قال تركت لهن سورة الواقعة، (التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: 87/2، وروح المعاني: 111/27).

ووجه مناسبتها لما قبلها أن سورة الرحمن لما أفاضت في ذكر الجنان وما أعد الله فيها من الخيرات تشوقت النفوس إلى معرفة أهلها الذين يسكنونها كما تشوقت إلى معرفة من يجازون بضدها فجاءت هذه السورة لبيان حال الخلق في الآخرة وكشف درجاتهم التي يستحقونها بعد أن تقع الواقعة وتقوم الساعة فجعلت الخلق ثلاثة أصناف «وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون» (7-10)، ثم تتابعت أي السورة لبيان حال كل زوج من الثلاثة أزواج، وانتهت السورة إلى استشارة عقول الجاحدين من بيان نعم الله عز وجل هذا الحديث الذي أنزله عليهم ألا وهو القرآن الكريم وختمت السورة بالتأكيد على هذه الأصناف الثلاثة وأن ما أعد لهم حق اليقين فنزه ربك أيها المؤمن عما يقوله الجاحدون وينكره المنكرون «فسبح باسم ربك العظيم»، وبهذا يتبين أن هذه السورة الكريمة امتداد لسورة الرحمن في سياق أيها وفي مضمونها. (أنظر: أوجها أخرى لتناسب السورتين في روح المعاني: 111/27. وتناسق الدرر ص: 135).

سورة الحديد 716

لما تقدم قوله تعالى: « نحن خلقناكم فلولا تصدقون » (الواقعة: آية: 57) وفيه من التقرير والتوبيخ لمن قرع به ما لا خفاء به، ثم أتبع بقوله تعالى: « أفرأيتم ما تمنون... الآيات » إلى قوله: « ومتاعا للمقوين » (الواقعة: آية: 73) فندروا ووبخوا على سوء جهلهم وقبح ضلالهم ثم قال بعد ذلك « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون » (الواقعة: آية: 81) واستمر توبيخهم إلى قوله: « إن كنتم صادقين » (الواقعة: آية: 87).

فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائح مرتكباتهم أعقب تعالى ذلك بتنزيهه عز وجل من سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه؛ فقال تعالى: « فسبح باسم ربك العظيم » (الواقعة: آية: 96) أي نزهه عن عظيم ضلالهم وسوء اجترامهم، ثم أعقب ذلك بقوله « سبح لله ما في السماوات والأرض » (الحديد: آية: 1) ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: « له الملك وله الحمد » (التغابن: آية: 1)، فبين تعالى انفراده بالجلال ونعوت الكمال، وأنه المنفرد بالملك والحمد، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن إلى قوله: « وهو عليم بذات الصدور » (الحديد: آية: 6) فتضمنت هذه الآي إرغام من أشير إلى حاله في الآي المتقدمة في سورة الواقعة وقطع ضلالهم والتعريف بما جهلوه من صفاته العلى وأسمائه الحسنى جل وتعالى، والتحمت آي السورتين واتصلت معانيها ثم صرف الخطاب إلى عباده المؤمنين؛ فقال تعالى: « آمنا بالله ورسوله » (الحديد: آية: 7)، واستمرت الآي على خطابهم إلى آخر السورة.

716. (*) هذه السورة مدنية في قول جميع العلماء وهي أول المسبحات وقد خصهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة قبل أن يرقد ويقول: « إن فيهن آية أفضل من ألف آية »، وهذه المسبحات هي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، وكلهن مدنيات (أنظر: روح المعاني: 142/27).

ووجه مناسبة هذه السورة لما قبلها- إضافة لما أبداه المصنف من الأمر بالتسبيح في آخر سورة الواقعة، وافتتاح هذه التسبيح أيضاً، وأن كل شيء في هذا الكون يسبح لله- هو أن هذه السورة جاءت آياتها تؤكد على حقيقة واحدة هي أن الذي يسبح له ما في السماوات والأرض هو وحده المتصرف في هذا الكون، فذكرت طائفة من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا التي تبين هذا الجانب من خلق السماوات والأرض وإيلاج الليل في النهار، وواسع علمه وقدرته، وإحياء الأرض بعد موتها، وأنه ذو الفضل العظيم، وهو الغني الحميد، وختمت السورة بقوله تعالى: « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » مما يؤكد ما بينته وهو ظاهر والحمد لله.

سورة المجادلة⁷¹⁷

لما نزه (سبحانه) ⁷¹⁸ نفسه عن مقول الملحدين وأعلم أن العالم بأسره ينزهه عن ذلك بالسنة أحوالهم لشهادة العوالم على أنفسهم بافتقارها لحكيم أوجدتها لا يمكن أن يشبه شيئا منها بل يتنزه عن أوصافها ويتقدس عن سماتها فقال: «سبح لله ما في السماوات والأرض» (الحديد: آية: 1) ومضت أي تعرف بعظيم سلطانه وعلي ملكه، ثم انصرف الخطاب إلى عباده في قوله: «آمنّا بالله ورسوله» إلى ما بعد ذلك من الآي، وكان ذلك ضرب من الالتفات الواقع منه هنا أشبه شيء بقوله سبحانه في سورة البقرة: «وإذ قال ربك للملائكة» (البقرة: آية: 30)، فإنه بعد تفصيل حال المتقين وحال من جعل في طرف منهم، وحال من تشبه بظاهره بالمتقين وهو معدود في شرار الكافرين، فلما تم هذا النمط عدل بعده إلى دعاء الخلق إلى عبادة الله وتوحيده «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» (البقرة: آية: 21) ثم عدل بالكلام جملة وصرف الخطاب إلى تعريف نبيه عليه الصلاة والسلام ببدء الخلق «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» (البقرة: آية: 30) فجاء ضربا من الالتفات، فكذا الواقع هنا، بين سبحانه حال مشركي العرب وقبح عنادهم وقرعهم ووبخهم في عدة سور غالب أيها جار على ذلك ومجرد له، أولها سورة (سورة الحديد)، كما نبه عليه في سورة القمر إلى غاية التي ذكرت فيها إلى أن وردت سورة القمر منبهة بقطع دابرهم، وانجر فيها الإعذار المنبه عليه، وكذا في سورة الرحمن بعدها. ثم أعقب ذلك بالتعريف بحال النزول الأخروي في سورة الواقعة مع زيادة تقرير وتوبيخ على مرتكبات استدعت تسبيحه تعالى وتقديسه عن شنيع افتراءهم، فاتبعت بسورة الحديد ثم صرف فيها الخطاب إلى المؤمنين، واستمر ذلك إلى آخر السورة، وجرت سورة المجادلة على هذا القصد مصروفا خطابها إلى نازلة يتشوف المؤمنون

717. هذه السورة مدنية في قول الجمهور وآياتها تدل على هذا، ووجه ارتباطها بسالفتها هو أن سورة الحديد افتتحت بالتسبيح وبيان طائفة من الصفات الإلهية «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» (3) وغيرها من الصفات الإلهية، إلا أنها تؤكد على صفة العلم فكانت سورة المجادلة معترضة بين المسبحات بيانا شافيا وبرهانا ساطعا على علم الله تبارك وتعالى وشموليته بحدث قائم وواقعة ظهرت للعيان أمامهم ألا وهي قصة المجادلة ولهذا كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: «تبارك الذي وسع سمعه الأصوات: لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت لا أسمع ما تقول فأنزل الله قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها» ففصلت في مسألة الظهار، ثم عرضت السورة إلى علم الله تعالى الواسع المحيط تأكيد لما في سورة الحديد «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير» (4)، ثم كشفت عن دخائل المنافقين، وهذا أمر لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، ثم عرضت لموالة الكفار، وهو أمر قلبي كذلك، لا يعلمه إلا الله وختمت السورة بالمفاصلة بين المؤمنين والكافرين، ونظرا لأن محل هذه الأمور القلب جاء قوله تعالى «أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه».

فمضمون هذه السورة بيان بالوقائع لمضمون سورة الحديد وتمهيد وضاح بين سورة الحشر.

718. غير واردة في النص وأضيفتها لمناسبتها للسياق، ولعلها سقطت منه.

لى تعرف حكمها وهو الظهار المبين أمره فيها، فلم يعدل بالكلام بعد كما كان قد صرف
ليه في قوله: « آمنوا بالله ورسوله » (الحديد: 7) بأكثر من التعرض لبيان حكم يقع منهم.

ثم إن السور الواردة بعد إلى آخر الكتاب استمر معظمها على هذا الغرض لانقضاء
ما قصد في التعريف بأخبار القرون السالفة والأمم الماضية، وتقريع من عاند وتوبيخه،
وذكر مآل الخلق واستقرارهم الأخروي، وذكر تفاصيل التكليف والجزاء عليها من
لثواب والعقاب، وما به استقامة من استجاب وآمن، وما يجب أن يلتزمه على درجات
لتكاليف وتأكيدها، فلما كمل ذلك صرف الكلام إلى ما يخص المؤمنين في أحكامهم،
وتعريفهم بما فيه خلاصهم ومعظم آي السورة بعد هذا شأنها، وإن انجر غيرها فلا استدعاء
وموجب وهو الأقل كما بينا.

سورة الحشر⁷¹⁹

لا خفاء باتصال آيها بما تأخر من آي سورة المجادلة، ألا ترى أن قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم» (المتحنة: آية: 13) إنما يراد به يهود، فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جرأتهم، ثم قال في آخر السورة: «لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله» (الحشر: آية: 22) فحصل من هذا كله تنفير المؤمنين منهم وإعلامهم بأن بغضهم من الإيمان وودهم من النفاق لقبح ما انطوا عليه وشنيع ما ارتكبوه.

فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر أتبع بالإعلام في أول سورة الحشر بما عجل لهم من هوانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم، وتمكين المسلمين منهم جرى على ما تقدم الإيحاء إليه من سوء مرتكبهم، والتحمت الآي باتحاد المعنى وتناسبه وتناسخ الكلام، وافتتحت السورة بالتنزيه لبنائها على ما أشار إليه غضبه تعالى عليهم، إذ لا يكون إلا على أعظم جريمة وأسوأ مرتكب، وهو اعتداؤهم وعصيانهم المفصل في مواضع من الكتاب، وقد قال تعالى فيهم بعد ذكر غضبه عليهم: «أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل» (المائدة: آية: 60) وقال تعالى: «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (المائدة: آية: 78)، فبين تعالى أن لعنته إياهم إنما ترتبت على عصيانهم واعتدائهم، وقد فصل اعتداؤهم أيضا في مواضع، فلما كان الغضب مشيرا إلى ما ذكر من عظيم الشرك أتبعه سبحانه تنزيه نفسه جل وتعالى فقال: «سبح لله ما في السموات والأرض» (الحديد: آية: 1) وإنما يرد التنزيه في الكتاب إثر جريمة تقع من العباد، وعظيمة يرتكبونها، وتأمل ذلك حيث وقع، ثم عاد إلى الإخبار بما فعل تعالى بأهل المتاب مما يتصل بما تقدم، ثم تناسخت الآي.

719. سورة الحشر مدنية، نزلت في بني النضير وهم إحدى القبائل الثلاثة اليهودية التي كانت تسكن المدينة وبدأوا يتآمرون على المسلمين ويكيدون لهم حتى وصل بهم الأمر إلى محاولة اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجهم الله تبارك وتعالى على يد رسوله والمؤمنين أذلاء صاغرين بعد أن مناهم إخوانهم المنافقون بالنصر والتأييد، ولكن ذلك لم يغن عنهم من قدر الله شيئا، وأخرجوا كما وصف الله تبارك وتعالى حالهم في هذه السورة الكريمة، وكبت المنافقين الذين كانوا يمتنون إليهم بصلة الدس والوقيعة بالمسلمين.

ووجه ارتباط هذه السورة بها قبلها ظاهر، ذلك أن سورة المجادلة حكمت بأنه لا موادة بين مؤمن وكافر، وكان بنو النضير حلفاء الخروج، فلما وقعت غزوة بني النضير تبرأ مؤمنو الخزرج من بني النضير ولم يقف بجانبهم إلا المنافقون، وقد كان بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة ذوي قوة وسطوة في يثرب، يخشاهم العرب لقوتهم المالية والعسكرية فكشفت باقي آيات السورة للمؤمنين أن الله تبارك وتعالى الذي أخرجهم شر إخراج - كما ترون بأم أعينكم - له الصفات العلى، والقدرة المطلقة وأفاضت في التعريف بهذه الأسماء وهذه الصفات "هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس... الآيات".

سورة الممتحنة⁷²⁰

افتتحت هذه السورة بوصية المؤمنين على ترك موالاة أعدائهم ونهيبهم عن ذلك، أمرهم بالتبري منهم وهو المعنى الوارد في قوله خاتمة المجادلة «لا تجد قوما يؤمنون بالله اليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم» إلى آخر السورة (آية: 21)، وقد حصل منها أن أسنى أحوال (أهل) ⁷²¹ الإيمان، وأعلى مناصبهم «أولئك ثبت في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه» (آية: 21) فوصى عباده في افتتاح الممتحنة بالتنزه من موالاة الأعداء، ووعظهم بقصة إبراهيم عليه السلام والذين معه في تبرئهم من قومهم معاداتهم والاتصال في هذا بين، وكأن سورة الحشر وردت مورد الاعتراض المقصود بها بهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليها، واعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم، ثم تبع ذلك ما عجله لهم من النعمة ⁷²² والنكال، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة، ثم لما كان أول سورة الممتحنة إنما نزل في حاطب بن أبي بلتعة ⁷²³ رضي الله عنه وكتابه كفار قريش بمكة، والقصة مشهورة، وكفار مكة ليسوا من يهود، وطلب المعادة للجميع أحد، فلهذا فصل بها هو من تمام الإخبار بمآل يهود، وحينئذ عاد الكلام إلى الوصية عن ظائرهم من الكفار المعاندين، والتحمت السور الثلاث، وكثر في سورة الممتحنة ترداد لوصايا والعهود، وطلب الوفاء بذلك كله، ولهذه المناسبة ذكر فيها الحكم في بيعه النساء، ما يشترط عليهن في ذلك، فبنى السورة على طلب الوفاء افتتاحا واختتاماً حسبما بين في تفسير لينزه المؤمن عن حال من قدم ذكره في سورة الحشر وفي خاتمة سورة المجادلة.

720. هذه السورة مدنية، وتسمى أيضاً سورة المودة، وسورة الامتحان، وقد نزلت في شأن حاطب ابن أبي بلتعة وكتابه إلى ريش يطلعون منه على سر النبي صلى الله عليه وسلم وإرادته فتح مكة كما أخرج ذلك البخاري وغيره. (أنظر: فتح الباري: 633/8، وروح المعاني: 57/28، 58).

721. أضفتها لاقتضاء السياق ذلك.

722. ب: النعمة.

723. صحابي شهد بدرًا والحديبية، توفي سنة 30 هـ، في خلافة عثمان رضي الله عنه. (الإصابة: 300/1).

سورة الصف⁷²⁴

افتتحت بالتسبيح لما ختمت به سورة الممتحنة من قوله: « لا تتولوا قوما غضب الله عليهم » (الممتحنة: 113) وهم اليهود، وقد تقدم الإيحاء ما استوجبوا به هذا، فأتبع بالتنزيه لما تقدم بيانه، فإنه مما يعقب به ذكر جرائم المرتكبات ولا يرد في غير⁷²⁵ ذلك، ثم أتبع ذلك بأمر العباد بالوفاء، وهو الذي حُدَّ لهم في الممتحنة ليتنزهوا عن حال مستوجبي الغضب بنقيض الوفاء والمخالفة بالقلوب والألسنة « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » (آل عمران: آية: 167) « ليا بألسنتهم وطعنا في الدين » (النساء: آية: 45) « من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » (المائدة: آية: 43) « ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ثم يتولوا فريق منهم » (النور: آية: 45)، وبمجموع هذا استجمعوا اللعنة والغضب فليل المؤمنين « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون » (الصف: آية: 2) احذروا أن تشبه أحوالكم حال من استحق المقت واللعنة والغضب، ثم أتبع بحسن الجزاء لمن وفى قولاً وعقداً لساناً وضميراً، وثبت على ما أمر به فقال: « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً... الآية. (الصف: آية: 4) ثم تناسج ما بعد.

ولما كان الوارد من هذا الغرض في سورة الممتحنة قد جاء على طريق الوصية وسبيل النصيح والاشفاق، أتبع في سورة الصف بصريح العتب في ذلك والإنكار ليكون ذكره بعد ما تمهد في السورة قبل أوقع في الزجر، وتأمل كم بين قوله سبحانه: « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء... الآيات » (الممتحنة: آية: 9) وما تضمنت من التلطف وبين قوله: « لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (الصف: آية: 2).

724. هذه السورة مدنية في قول الجمهور إلا ما جاء في رواية عن ابن عباس أنها مكية والصواب أنها مدنية وذلك ظاهر من آياتها، وتسمى أيضاً سورة الخواريين، وسورة عيسى عليه السلام.

وقد جاء أن نفرا من الصحابة قعدوا وتذكروا فيما بينهم فقالوا: « لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" (2-3).

ووجه تعلق هذه السورة بما قبلها أنها بينت فضل الجهاد وأنه التجارة الرباحة في الدنيا والآخرة وحضت المؤمنين علياً وعلى نصرة الرسول كما نصر الخواريون عيسى عليه السلام وذلك بعد أن تقدم في السورة السالفة قطع الموالاتة بينهم وبين الكفار والمنافقين وأهل الكتاب، وقطع الموالاتة هذا يقتضي منهم الجهد والتحمل للمشاق في الأنفس والأموال والديار. فجاءت هذه السورة لتحضهم على هذا التحمل وتعددهم بالنصر والفتح القريب وتبشرهم بعلو دين الإسلام "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" (8-9).

725. ب: غيره.

سورة الجمعة⁷²⁶

لما ختمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم، وقد مر المؤمنين بالتشبه في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارا لله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله... الآية» (الصف: آية: 14) كان ذلك مما يوههم فضل تباع عيسى عليه السلام على أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، فأتبع ذلك هذه الأمة والثناء عليها، فافتتحت السورة بالتنزيه كما أشار إليه قوله: «وكفرت طائفة» (الصف: آية: 14) بأنهم ارتكبوا العظيمة وقالوا بالنبوة، فنزه سبحانه نفسه عن ذلك ثم قال: «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم» إلى قوله: «ذو الفضل العظيم» (الجمعة: آية: 2) ثم أعلم تعالى بحال طائفة لاح لها نور الهدى ووضح لها سبيل الحق فعميت عن ذلك وارتبكت في ظلمات جهلها، ولم تزدد بما حملت إلا حيرة وضلالة؛ فقال تعالى: «مثل الذين حملوا التوراة... الآية» (الجمعة: آية: 5).

وهي في معرض التنبيه لمن تقدم الثناء عليه، ورحمة الله إياه لئلا يكونوا فيما يتلو عليهم بيهم من الآيات، ويعلمهم من الكتاب والحكمة مثل أولئك الممتحنين فإنهم مقتتوا ولعنوا عد حملهم التوراة، وزعموا أنهم التزموا حملة والوفاء به، فوعظ هؤلاء بمثالبهم لطفًا من الله بهذه الأمة «وما يتذكر إلا أولوا الألباب» (البقرة: آية: 269).

726. وجه ارتباط هذه السورة بالتي قبلها وهي مدنية مثلها هو أن تكلفة الجهاد وفريضته مع هذا النبي لتبليغ رسالته وإظهارينه تشريف لهذه الأمة وتكريم لها، "وهو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة إن كانوا من قبل لفني ضلال مبين" (2)، فإن أعرضوا عن هذا الشرف فسيفيض الله تبارك وتعالى له من غيرهم من حملة كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه عندما قرأ قوله تعالى "وآخرين منهم" وضع يده على سلمان وقال: "وكان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء" أخرجه البخاري ومسلم والنسائي. (البخاري مع الفتح 641/8، والدرر لنثور: 215/6). فمن أعرض عن هذا الشرف لوم يتطلع إليه كان كالحمار يحمل أثقالا هذه الحياة ولا يدري ما قيمتها، الموت لا بد نازل في ساحته سواء أكان في الجهاد أو في غيره "قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم" (8).

سورة المنافقون⁷²⁷

لما أعقب حال المؤمنين فخصهم الله به مما انطوت عليه الآيات الثلاث في صدر سور الجمعة إلى قوله: «والله ذو الفضل العظيم» (الجمعة: الآيات: 2-4) بذكر حال من لم ينتفع به حمل حسبها تقدم، وكان في ذلك من المواعظ والتنبية مما ينتفع به من سبقت له السعادة، أتبع بما هو أوقع في الغرض، وأبلغ في المقصود وهو ذكر طائفة بين أظهر من قدم الثناء عليها من أقرانهم وأترابهم وأقاربهم تلبست في الظاهر بالإيمان وأظهرت الانقياد والإذعان وتعرضت فأعرضت وتنصلت فما وصلت، بل عافتها الأقدار فعميت البصائر.

ومن المطرد المعلوم أن اتعاض الإنسان بأقرب الناس إليه وبأهل زمانه أغلب من اتعاض بمن بعد عنه زمانا ونسبا، فأتبعت سورة الجمعة بسورة المنافقين وعظا للمؤمنين بحال النفاق، وبسط من قصصهم ما يلائم ما ذكرناه، وكأن قد قيل لهم ليس من أظهر الانقياد والاستجابة في بني إسرائيل، ثم كان فيما حمل كمثل الحمار يحمل أسفارا بأعجب من حال إخوانكم زمانا وقرابة، وأنتم أعرف الناس بهم، وأنهم كانوا في الجاهلية موصوفين بجود الرأي وحسن النظر « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم » (المنافقون آية: 4) « ولكن المنافقين لا يفقهون » (المنافقون: آية: 7).

727. هذه السورة مدنية، وقد جاء ترتيبها بعد سورة الجمعة التي ذكر فيها المومنون وأمرتهم بالعمل على طلب مرضاة الله وإيثار الدار الآخرة على متاع الدنيا، وحذرتهم من التفریط في فضل صلاة الجمعة بالانشغال بالتجارة واللهو، فجاءت هذه السورة لتبين خصائص المنافقين وصفاتهم، وديدنهم تفريق الجماعة، وتشيت الصفوف وتثبيط العزائم وثني المسلمين عر الجهاد وهو ماض إلى يوم القيامة، وكل ذلك يكون في حالة الأمن والاستقرار وفي حالة الاستعداد والنفا، فحتى يحذرهم المسلمون في كل العصور جاءت خصائصهم دون ذكر الأسماء، وختمت السورة ببدء المومنين ألا تلهيهم الأموال والأولاد وحضتهم على الإنفاق في سبيل الله، وبين الله لهم أنه لن تموت نفس ألا بأجلها سواء كان ذلك في الحرب أو السلم، وفي ذلك من التناسب ما هو بين واضح.

ولقد أبدى السيوطي رحمه الله وجهاً آخر لارتباط هذه السورة بالتي قبلها، وارتباط المسبحات ببعضها رغم الفصل بينهما فقال: «إن سورة الجمعة ذكر فيها المومنون وهذه ذكر فيها أضدادهم وهم المنافقون. ولهذا جاء عن رسول الله صل الله عليه وسلم أنه كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المومنين وبسورة المنافقين يقرع بها المنافقين.

ثم قال: «وتقام المناسبة أن السورة التي بعدها (آي التغابن) فيها ذكر المشركين، والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والتي قبلها وهي الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين، والتي قبلها وهي الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب... وبذلك اتضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الست هكذا لاشتغالها على أصناف الأمم، وفي الفصل بين المسبحات بغيرها، لأن إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من غيره وإيلاء سورة المومنين بسورة المنافقين أنسب من غيره. فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التي هي نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير». (أنظر تناسق الدرر: 138، 139).

قلت: وقد مر في الخطبة ما رويناه في مصنف ابن أبي شيبة من قول أناس من المؤمنين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين فأما سورة الجمعة فيبشر بها المؤمنين ويحرضهم، وأما سورة المنافقين فيؤنس بها المنافقين ويوبخهم⁷²⁸ وهذا نحو ما ذكرناه أولاً.

728. أخرجه الطبراني في الأوسط، وسعيد بن منصور في سننه بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً (انظر: الدر المنثور: 222/6) وأما قراءته صلى الله عليه وسلم بالجمعة والمنافقين في صلاة الجمعة هكذا باطلاً فقد جاءت من حديث عدد من الصحابة منهم أبو هريرة وابن عباس، وأبو عنب الخولاني وغيرهم وهي عند مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والبغوي في معجمه وآخرين. الدر المنثور: 215.

سورة التغابن⁷²⁹

لما بسط في السورتين قبل من حال من حمل التوراة في بني إسرائيل، ثم لم يحملها، وحال المنافقين المتظاهرين بالإسلام وقلوبهم كبرا وعنادا متكاثفة الاظلام وبين خروج الفرقتين عن سواء السبيل المستقيم، وتنكبهم عن هدى الدين القويم، وأوهم ذكر اتصافهم بمحتد أوصافهم خصوصهم في الكفر بوسم الانفراد وسما ينبئ عن عظيم ذلك الإبعاد سوى ما تناول غيرهم من أضراب الكفار، فأنبأ تعالى عن أن الخلق بجملتهم وإن تشعبت الفرق، وافترقت الطرق راجعون بحكم السوابق إلى طريقتين؛ فقال تعالى: «هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» (التغابن: آية: 2) وقد أوضحنا الدلائل أن المؤمنين على درجات وأهل الكفر ذوو طبقات، وأهل النفاق أدونهم حالا وأسوؤهم كفرا وضلالا «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» (النساء: آية: 145) وافتتحت السورة بالتنزيه لعظيم مرتكب المنافقين في جهلهم، ولو لم تنطو سورة المنافقين من عظيم مرتكبهم إلا على ما حكاه تعالى من قولهم «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل» (المنافقون: آية: 8) وقد أشار قوله تعالى: «ويعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور» (التغابن: آية: 4) إلى ما قبله وما بعده من الآيات إلى سوء جهل المنافقين وعظيم حرمانهم في قولهم بالسنتهم ما لم تنطو عليه قلوبهم «والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» (المنافقون: آية: 1) واتخاذهم إيمانهم جنة إلى ما وصفهم سبحانه به، فافتتح تعالى سورة التغابن بتنزيهه عما توهموه من مرتكباتهم التي لا تحفى عليه سبحانه «ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم» (التوبة: آية: 78) ثم قال تعالى: «ويعلم ما تسرون وما تعلنون» (التغابن: آية: 4) فقرع ووبخ في عدة آيات، ثم أشار إلى ما منعهم من تأمل الآيات وصددهم عن اعتبار المعجزات وأنه الكبر المهلك غيرهم، فقال تعالى مخبرا عن سلفهم في هذا المرتكب ممن أعقبه ذلك أليم العذاب وسوء المنقلب «ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا» (التغابن: آية: 6) ثم تناسج الكلام معرفا بمآلهم الأخروي ومآل غيرهم إلى قوله «وبئس المصير» (التغابن: آية: 10) ومناسبة ما بعد يتبين في التفسير بحول الله.

729. هذه السورة مدنية في قول الأكثرين، وقال الضحاك هي مكية، وقيل أنها نزلت بمكة إلا آخرها «يا أيها الذين آمنوا إنما أموالكم وأزواجكم» إلى آخر السورة نزل بالمدينة.

ومن وجوه ارتباطها بسابقتها - على ما أبداه الألوسي - هو أنه سبحانه ذكر هناك حال المنافقين وخاطب بعد المؤمنين، وذكر جل وعلا هنا تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر. وأيضا في آخر تلك «لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم» وفي هذه إنما أموالكم وأولادكم فتنة» وهذه الجملة كالتعليل لتلك، وأيضا في ذكر التغابن نوع حث على الإنفاق قبل الموت المأمور به فيها قبل. أنظر روح المعاني: 104/28، 105.

سورة الطلاق⁷³⁰

لما تقدم قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله» (المنافقون: آية: 9) وقوله في التغابن: «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذورهم» (التغابن: آية: 14) وقوله تعالى: «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» (التغابن: آية: 15)، والمؤمن قد يعرض له ما يضطره إلى فراق من نبه على فتنته وعظيم محتته، وردت هذه السورة منبهة على كيفية الحكم في هذا الافتراق، وموضحة أحكام الطلاق، وأن هذه العداوة وإن استحكمت ونار هذه الفتنة وإن اضطربت، لا توجب التبرء بالجملة وقطع المعروف «لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا» (الطلاق: آية: 1) ووصى سبحانه بالإحسان المجمل في قوله: «أو تسريح بإحسان» (البقرة: آية: 229) وبين تفصيل ذلك وما يتعلق به فهذا الفرق المطلوب بإيقاع الطلاق في أول ما تستعده المطلقة في عدتها وتحسبه من مدتها تحذيرا من وقوع الطلاق في الحيض الموجب طول العدة وتلك المدة، وأكد سبحانه هذا بقوله: «واتقوا الله ربكم» (الطلاق: آية: 1) ثم نبه سبحانه على حقهن أيام العدة من الإبقاء في مستقرهن حين إيقاع الطلاق إلى انقضاء العدة فقال: «لا تخرجوهن من بيوتهن» (الطلاق: آية: 1) إلى ما استمرت عليه السورة من بيان الأحكام المتعلقة بالطلاق وتفصيل ذلك كله، ولما كان الأولاد إذا ظهر منهم ما يوجب فراقهم وإبعادهم غير مفترقين إلى ما سوى الرفض والترك بخلاف المرأة لم يحتج إلى ما احتج إليه في حقهن فقد وضح وجه ورود سورة الطلاق في هذا الموضع والله أعلم.

730. هذه السورة مدنية في قول جميع العلماء، وقد تناولت أحكام العدة والإنفاق وقد أبدى المصنف رحمه الله وجه ارتباطها بسابقتها بما لا يحتاج إلى زيادة بيان.

سورة التحريم⁷³¹

لا خفاء بشدة اتصال هذه السورة بسورة الطلاق لاتحاد مرماهما وتقارب معناهما، وقد ظن أنه صلى الله عليه وسلم طلق نساءه حين اعتزل في المشربة حتى سأله عمر رضي الله عنه، والقصة معروفة⁷³²، وتخييره صلى الله عليه وسلم إياهن أثر ذلك وبعد اعتزالهن شهرا كاملا، وعتب الله تعالى عليهن في قوله: «وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه» (التحريم: آية: 4) وقوله: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن... الآية» (التحريم: آية: 5) فهذه السورة وسورة الطلاق أقرب شيء وأنسبه لسورة الأنفال وبراءة لتقارب المعاني والتحام المقاصد.

731. هذه السورة مدنية في قول جميع العلماء، ويقال لها سورة "المتحرم" وسورة "لم تحرم" وسورة "النبي" صلى الله عليه وسلم ووجه ارتباطها بها قبلها ظاهر كما قال المصنف رحمه الله، خاصة وأن هذه السورة أبانت عن حكم الإيلاء ولم يرد في السورة السابقة، وفي ذلك من المناسبة ما لا يخفى، وزادت أيضا حكيمين اثنين:

الأول: مسؤولية الراعي عمن يرهه "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا". والثاني: أنه لا ينجي الإنسان إلا إيمانه وعمله. فلا تنفعه قربته من النبي إن كان عمله غير صالح ولا يضره نسبه من الكافر عن كان عمله صالحا، وهذان الحكمان مرتبطان ارتباطا شديدا في فاتحة السورة، ومضمون السورة كلها مرتبط ارتباطا شديدا بمضمون السورة السابقة وهما مرتبطتان بمضمون سورة التغابن "إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم" فمضمون هاتين السورتين تفصيل لهذه الآية الكريمة.

732. وهي فيما رواه البخاري عن ابن عباس قال: لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المراتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى "إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما" حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له.

قال فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له، يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه، فقال تلك حفصة وعائشة، قال فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبه لك، قال فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فأسألني، فإن كان لي علم خبرتك به، قال: ثم قال عمر: والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم، قال فبينما أنا في أمر أتامره إذ قالت امرأتي، لو صنعت كذا وكذا، قال فقلت لها: مالك ولما هاهنا، فيما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت لي عجا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، إن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان فقام عمر فأخذ رداه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلت تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم، يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسننها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإياها- يريد عائشة- قال: ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرايتي منها فكلمتها، فقالت أم سلمة، عجا لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه، فأخذتني والله أخذًا كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها، وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتية بالخبر، ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير علينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال: افتح افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال بل أشد من ذلك اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه فقلت رغم أنف حفصة وعائشة، فأخذت ثوبي فخرجت الدرجة فقلت له: قل هذا عمر ابن الخطاب، فأذن لي، قال عمر: فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا الحديث، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لعل حصار ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وأن عند رجله قرضا مصورا وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصار في جنبه فبكيت، فقال ما يبكيك؟ فقلت يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله، فقال: أما ترضي أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ أخرجه أحمد والشيخان. وانظره بهذه السياقة في صحيح البخاري، ج 657/8. وانظرها أيضا في تفسير ابن كثير وغيرها من كتب التفسير والسنة.

سورة الملك 733

ورود ما افتتحت به هذه السورة من التنزيه وصفات التعالي إنما يكون عقب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه كورود قوله تعالى: « فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنون: آية: 14) عقب تفصيل التقلب الإنساني من لدن خلقه من سلالة من طين إلى إنشائه خلقاً آخر، وكذا كل ما ورد من هذا ما لم يرد أثناء آي قد جردت لتنزيه والإعلام بصفات التعالي والجلال.

ولما كان أوقع في سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر، وأعلى آية لمن استبصر من ذكر امرأتين كانتا تحت عبيدين صالحين قد بعثهما الله تعالى رحمة لعباده، واجتهادا في دعاء الخلق فحرم الاستنارة بنورهما، والعياذ بهما من لم يكن أحد من جنسهما أقرب إليهما منه، ولا أكثر مشاهدة بما بدا له من الآيات وعظيم المعجزات، ومع ذلك فلم يغنيا عنهما من الله شيئا، ثم أعقبت هذه العظة بما جعل في طرف منها ونقيض من حالها، وهو ذكر امرأة فرعون الذي لم يضرها مرتكب صاحبها وعظيم جرأته، مع شدة الوصلة واستمرار الألفة لما سبق لها في العلم القديم من السعادة وعظيم الرحمة فقالت: « رب ابن لي عندك بيتا في الجنة » (التحريم: آية: 11) وحصل في هاتين القصتين تقديم سبب رحمة حرم التمسك بها

733. هذه السورة مكية في قول جميع أهل العلم، وهي مخصوصة بمزيد من فضل: فقد ورد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما رواه عنه ابن عباس "وددت أنها في قلب كل مؤمن" يعني تبارك الذي بيده الملك وأخرجه عبد بن حميد في مسنده والحاكم وغيرهما بإسناد صحيح: وأخرج أصحاب السنن والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له: "تبارك الذي بيده الملك".

وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمونها: المانعة، والواقية، والمنجية، لأنها تمنع صاحبها من ولوج النار، وتقيه العذاب، وتنجيه منه وفيها آثار أخرى: أنظر الدر المنثور: 246/6، 247. ومستدرک الحاكم: 298/2، وروح المعاني: 2/29.

ووجه مناسبتها لما قبلها مع ما أبداه المصنف هو ما تقدم في سورة التحريم من شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع أزواجه، وأن الله مولاه والملائكة والمؤمنون، وجاءت الآيات تتلوها بالأمر بالوقاية للنفس والذرية من عذاب الله، والتوبة والنصوح، وأنه لا يغني أحد عن أحد شيئا يوم القيامة، كان مضمون سورة الملك هو الابتلاء في هذه الحياة الدنيا للمكلفين، وفرضية القيام بالعمل الصالح، والاستقامة على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وعددت لهم النعم التي تحيط بهم وبها قوامهم من أسعاع وأبصار وأفئدة، وأرض وساء، وغذاء وماء، وكل ذلك ليعلموا أن المالك الحق المنزه عن كل نقص طلب منهم الاستقامة على الطريق، والنأى بالنفس والذرية عن جهنم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى بقبل سليم. ووجه التناسب أيضا ما أورده الألوسي وهو قريب مما ذهب إليه المؤلف وهو أنه تعالى لما ضرب مثلا للكفار بتينك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة وإن كانتا تحت نبين عظيمين، ومثلا للمؤمنين بأسية ومريم وهما محتوم لهما بالسعادة وأن أكثر قومهما كفار، افتتح هذه بها يدل على إحاطته عز وجل وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه، وقيل أن آخر هذه متصل بقوله تعالى آخر الطلاق "الله الذي خلق سبع سموات" لما فيه من البسط لما يتعلق بذلك، وفصل بسورة التحريم لأنها كالقطعة من سورة الطلاق والتتمة لها. (أنظر روح المعاني: 2/3، 29).

أولى الناس في ظاهر الأمر، وتقديم سبب امتحان عصم منه أقرب الناس إلى التورط فيه، ثم أعقب ذلك بقصة عريت عن مثل هذين السبيين، وانفصلت في مقدماتها عن تينك القصتين وهو ذكر مريم ابنة عمران ليعلم العاقل حيث يضع الأسباب، وأن القلوب بيد العزيز الوهاب، أعقب تعالى ذلك بقوله الحق « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » وإذا كان الملك بيده سبحانه فهو الذي يوتي الملك والفضل من يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، كما صرحت به الآية الأخرى في آل عمران، فقد اتضح اتصال سورة الملك بما قبلها، ثم بنيت سورة الملك على التنبيه والاعتبار ببسط الدلائل ونصب البراهين حسبما يبسطه التفسير⁷³⁴.

734. أنظر ملاك التأويل: 1091/2، 1092.

سورة ن 735

لما تضمنت سورة الملك من عظيم البراهين ما تعجز العقول من استيفاء الاعتبار ببعضه كالاعتبار بخلق السماوات في قوله تعالى: «الذي خلق سبع سماوات طباقا» (آية: 3) أي طباق بعضها بعضا، من طابق النعل إذا خصفها طبقا عن طبق، ويشعر هذا بتساويها في مساحة أقطارها ومقادير أجرامها، والله أعلم⁷³⁶، ووقع الوصف بالمصدر ليشعر باستحكام مطابقة بعضها بعضا من غير زيادة ولا نقص «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» (آية: 3) أي من اختلاف واضطراب في الخلقة أو تناقض، إنما هي مستوية مستقيمة، وجيء بالظاهر في قوله: «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» ولم يقل ما ترى فيه من تفاوت ليشعر أن جميع المخلوقات جار على هذا، كل شكل يناسب شكله لا تفاوت في شيء من ذلك ولا اضطراب، فأعلى الظاهر من التعميم ما لم يكن يعطيه الاضمار، كما أشعر خصوص اسم الرحمن بما في هذه الأدلة المبسوطة من الرحمة للخلائق لمن رزق الاعتبار، ثم نبه تعالى على ما يدفع الريب ويزيح الإشكال فقال: «فارجع البصر» (آية: 3) أي عاود البصر والتأمل لما تشاهده من المخلوقات حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعينة، ولا يبقى معك في ذلك شبهة «هل ترى من فطور» (آية: 3) أي صدوع وشقوق ثم أمر تعالى بتكرير البصر فيهن متصفحاً ومتمتعاً، هل تجد عيباً أو خللاً «ينقلب إليك البصر خاسئاً» (آية: 4) أي إنك إذا نعلت هذا رفع بصرك بعيداً عن إصابة الملمس كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصغار والإعلاء وبالكلال لطول الإجمالة والترديد، وأمر برجوع البصر ليكون في ذلك استجمامه⁷³⁷ واستعداده حتى لا يقع بالرجعة الأولى التي يمكن فيها الغفلة والذهول، إلا أن يحسر

736. هذه السورة الكريمة مكية في جملتها، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم وتسمى أيضاً سورة «القلم» ووجه ارتباطها بسورة الملك هو أنه لما تقدم في سورة الملك من بيان قدرة الله في إذهاب الماء، فصلت هذه السورة ما حدث لأصحاب الجنة الذين أعماهم حب المال فذهب الله به، فأصبحوا يضربون كفا بكف أسفا وندما وعجزاً، وتتابع السورة لكريمة في بيان عجز المخلوقين عن التصرف حتى فيما بأيديهم فكان هذه السورة بجملتها بيان لقوله تبارك وتعالى «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير».

وقال أبو حيان: «إنه ذكر فيما قبل أشياء من أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه تعالى الواسع، وأنه عز وجل لو شاء لحسف بهم الأرض أو لأرسل عليهم حاصبا، وكان ما أخبر به سبحانه هو ما تلقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوحي، وكان الكفار ينسبونه في ذلك مرة إلى الشعر ومرة إلى السحر ومرة إلى الجنون، فبدأ جل شأنه في هذه لسورة الكريمة ببراءته صلى الله عليه وسلم مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون وتعظيم أجره على صبره على أذاهم وبالثناء على خلقه العظيم» البحر المحيط: 307/8.

736. حسب معطيات العلم الحديث فإن الفضاء الكوني ينقسم إلى سبع سماوات وهي: السماء الأرضية، والسماء القمرية، والسماء الشمسية، وسماء النجوم القريبة، وسماء المجرة، وسماء الكون، وهذه السماوات «طباق» إذ تغلف بعضها بعضا كطباق على طبق، وهي أيضاً «طباق» أي متساوية في كيانها. (أنظر: الله العلم، د بشير التركي ص: 113، 115).

737. ب: استجمامة واسعداده.

بصره من طول المعادة إذ معنى التنبيه في قوله : «كرتين» التكرير، كقوله (لييك وسعديك) فيحسر البصر من طول التكرار ولا يعثر على شيء من فطور، فلو لم تنطو السورة على غير ما وقع من أوله إلى هنا لكان ذلك أعظم معتبر وأوضح دليل لمن استبصر، إذ هذا الاعتبار بما ذكر من عمومته جار في كل المخلوقات، ولا يستقل بفهم مجاريه إلا آحاد من العقلاء بعد التحريك والتنبيه، فشهادته بنبوة الآتي به قائمة واضحة، ثم قد تكون في السورة دلالات كقوله: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح» (آية: 5) وقوله: «ألا يعلم من خلق» (آية: 14) إلى آخر السورة، وأدناها كاف في الاعتبار، فأني يصدر نقص عن متصف ببعض ما هزؤوا به في قولهم: مجنون وساحر وشاعر، «بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»⁷³⁸ (المطففين: آية: 14).

فلعظيم ما انطوت عليه سورة الملك من البراهين، أتبع بتنويه الآي به، صلى الله عليه وسلم مما يقوله المبطلون، مقسماً على ذلك زيادة في التعظيم وتأكيذاً في التعزيز والتكريم فقال تعالى «ن، والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون» (الآيتان: 1-2) وأني يصح تصور تلك البراهين وقد انقطعت دونك أنظار العقلاء، فكيف ببسطها وإيضاحها في نسق موجز، ونظم معجز، وتلازم يهد العقول، وعبرة تفوق كل مقول، تعرف، ولا تدرك، ويستوضح سبيلها فلا تسلك «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله» (الإسراء: آية: 88) فقوله سبحانه «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» جواب لقوله تعالى في آخر السورة «ويقولون إنه لمجنون» (آية: 51)، وتقدم الجواب بنفي قولهم والتنزيه عنه على حكاية قولهم ليكون أبلغ في إجلاله صلى الله عليه وسلم، وأخف وقعا عليه وأبسط لحاله في تلقي ذلك منهم، ولهذا قدم مدحه صلى الله عليه وسلم بما خص به من الخلق العظيم، فكان هذا أوقع في الإجلال من تقديم قولهم ثم رده، إذ كسر سورة تلك المقالة الشنعاء بتقديم التنزه عنها أتم في الغرض وأكمل، ولا موضع أليق بذكر تنزيهه عليه الصلاة والسلام ووصفه من الخلق والمنح الكريمة بما وصف مما أعقب به ذلك، إذ بعض ما تضمنته سورة الملك مما تقدم الإيحاء إليه شاهد قاطع لكل عاقل منصف بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم وجيل صدقه، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (النساء: آية: 82) فقد تبين موقع هذه السورة هنا، وتلاؤم ما بعد من أيها يذكر في التفسير⁷³⁹.

738. في الأصل: يستهزؤون وهو خطأ.

739. أنظر ملاك التأويل: 1093/2، 1094.

سورة الحاقة⁷⁴⁰

لما بنيت سورة «ن والقلم» على تقريع مشركي قريش وسائر العرب وتوبيخهم وتنزيه نبي الله صلى الله عليه وسلم عن شنيع قولهم وقبيح بهتهم، وبين حسدهم وعداوتهم «وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم» (5/51) أتبع بسورة الحاقة (وعيدا)⁷⁴¹ لهم وبيانا أن حالهم في سوء ذلك المرتكب قد سبق إليه غيرهم «كذبت ثمود وعاد بالقارعة.. فهل ترى لهم من باقية» (الآيات: 4-8) «ألم يروا كم أهلكنا (من)⁷⁴² قبلهم من قرن» (الأنعام: آية: 6) «فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم» (يونس: آية: 102) «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (مريم: آية: 98).

فسورة الحاقة جارية مجرى هذه الآي المعقب بها ذكر عناد مشركي العرب ليتعظ بها من رزق التوفيق « لنجعلها تذكرة وتعيها أذن واعية» (آية: 12) ولما ذكر حال من هلك من الأمم السالفة بسوء تكذيبهم وقبيح عنادهم، أتبع ذلك بذكر الوعيد الأخروي «يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية» (آية: 18) ثم عاد الكلام إلى ما بنيت عليه سورة «ن والقلم» من تنزيهه صلى الله عليه وسلم مقسما على ذلك «إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن» وانتهى نفي ما يقولونه منصوبا على نزاهته عن كل جملة منها في السورتين «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» (القلم: آية: 2) أي ما الذي جئت به بقول شاعر ولا بقول كاهن بل هو تنزيل من رب العالمين «وإنه لتذكرة للمتقين» (آية: 48) «وإنه لحق اليقين» (آية: 51) فنزهه ربك وقدهه عن عظيم ما ارتكبه.

740. وهي سورة مكية في قول جميع العلماء، ومناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم في سورة القلم والملك عجزهم عن تحصيل ما به قوام حياتهم من الماء والرزق، وعدم قدرتهم على دفع نقم الله بهم جاءت هذه السورة الكريمة التي تسمى الحاقة، وهو اسم من أسماء يوم القيامة، لتؤكد لهم أن عجزهم في اليوم الآخر أكبر، وضعفهم أظهر، وخاصة أولئك الذين يكون مصيرهم إلى النار. هذا من جانب، ومن جانب آخر ردت سورة القلم تهمة الجنون عن النبي صلى الله عليه وسلم وتبعها في هذه السورة رد تهمة قولهم. كاهن، وشاعر، وهذه هي التهمة الثلاثة الكبرى التي كانوا يرمون بها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقممت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال: «فقرأ أنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون». قال: فقلت: كاهن، قال: «ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين، ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين» إلى آخر السورة، قال فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. (أنظره في مسند أحمد 17/1).

741. في الأصل وعدا والصواب ما أثبتته لمناسبته للسياق.

742. ب: ساقطة.

سورة المعارج⁷⁴³

لما انطوت سورة الحاقة على أشد وعيد وأعظمه، اتبعت بجواب من استبطن ذلك واستبعده، إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن فقال تعالى: «سأل سائل بعذاب واقع» إلى قوله «إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا» (الآيات: 1-7)، ثم ذكر حالهم إذاك «يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه... الآية» (آية: 11) ثم أتبع بأن ذلك لا يغني عنه ولا يفيد «إنها لظى» (آية: 15) ثم ختمت السورة بتأكيد الوعيد وأشد التهديد «فذرهم يخوضوا ويلعبوا» إلى قوله: «ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون» (الآيات: 42-44) ذلك يوم الحاقة ويوم القارعة.

سورة نوح (عليه السلام) 744

لما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر في قوله تعالى « فاصبر صبرا جميلا » (المعارج: آية: 5) وجليل الإغضاء في قوله: « فذرهم يخوضوا ويلعبوا » (المعارج: آية: 42) تبع ذلك بذكر قصة نوح عليه السلام وتكرر دعاء قومه إلى الإيمان وخص من خبره حاله في طول مدة التذكار والدعاء لأنه المقصود في الموضع تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ولتأسي به في الصبر والرفق في الدعاء كما قيل له صلى الله عليه وسلم فيغير هذا لموضع: « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » (الأحقاف: آية: 35) « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » (فاطر: آية: 8) فقد دام دعاء نوح قومه أدوم من بدتك ومع ذلك فلم يزدهم إلا فرارا « قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » (الآيات: 5-7) ثم مضت آي السورة على هذا المنهج من تجديد الإخبار بطول مكابדתه عليه السلام وتكرار دعائه، فلم يزدهم ذلك إلا بعدا وتصميما على كفرهم حتى أخذهم الله وأجاب فيهم دعاء نبيه نوح عليه السلام « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » (آية: 26) وذلك ليأسه من فلاحهم، وانجر في هذا حض نبينا صلى الله عليه وسلم على الصبر على قومه والتحمل منهم كما صرح به في قوله: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (الأعراف: آية: 199) وكما قيل له « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت » (القلم: آية: 48) « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » (هود: آية: 120).

744. وهي سورة مكية، ووجه مناسبتها لما قبله، إضافة إلى ما أبداه المصنف من كونها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وحث له بالصبر على قومه كما صبر نوح عليه السلام... فقد تقدم في ختام المعارج « فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين » (40-41)، جاءت هذه السورة لتنبيههم على حقيقة هذا الأمر في أمة قوية كبيرة سلفت قبلهم على هذه الأرض، فدعا عليها نبيه صلى الله عليه وسلم أن تبيد كاملة « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا... » (28) فاستجاب الله دعاءه، وأغرق من عاند من قومه، ولهذا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على قومه بالقضاء والدمار عندما يطلب منه ذلك، بل كان يدعو لهم بالهداية (اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون) وهي مناسبة واضحة.

سورة الجن 745

لما تقدم ذكر حال كفار قريش في تعاميمهم عن النظر وجريهم في اللدد والعناد حسب انطوت عليه سورة «ن والقلم»، ثم أتبع بوعيدهم في الحاقة بتحقيقه وقرب وقوعه في المعارج، ثم تسليته عليه الصلاة والسلام وتأنيسه بقصة نوح مع قومه، أعقب ذلك به يتعظ به الموفق ويعلم أن القلوب بيد الله، فقد كانت استجابة معاندي قريش والعرب أقرب في ظاهر الأمر لنبيء من جنسهم ومن أنفسهم، فقد تقدمت لهم معرفة صدقه وأمانته، ثم جاءهم بكتاب بلسانهم الذي به يتحاورون ولغتهم التي بها يتكلمون فقد بهرت العقول آياته ووضحت لكل قلب سليم براهينه معجزاته، وقد علموا أنهم لا يقدرّون على معارضته إلى ما شاهدوه من عظيم البراهين، ومع ذلك عموا وصموا، وسبق إلى الإيمان من ليس من جنسهم ولا سبقت له مزية تكريمهم وهم الجن ممن سبقت لهم من الله الحسنى فأمنوا وصدقوا، وأمر صلى الله عليه وسلم بالإخبار بذلك فأنزل عليه «قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن» (آية: 1) الآيات إلى قوله إخبارا عن تعريف الجن سائر إخوانهم بما شاهدوه من عناد كفار العرب «وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا» (آية: 19)، ثم استمرت الآي ملتحمة المعاني معتصدة المباني إلى آخر السورة.

745. وهي مكية في قول أهل العلم وتسمى أيضا سورة «قل أوحى» ومن مناسبتها لما قبلها أنها كشفت عن حقائق تتعلق بالسور السابقة منها ما أبداه المصنف من أن طائفة المخلوقين المكلفين ومن غير جنس قومك يا محمد قد اهدت وأمنت بفضل الله ورحمته... ومنها أن عالم الجن فيه مسلمون مصدقون، وفيه كافرون عتوا عن أمر الله تعالى، فلو كان هذا القرآن الذي يأتي محمدا صلى الله عليه وسلم من تعليم الجن لعلّموا غيره من الإنس، ولم يسلم منهم أحد لأن مصدق هذا الوحي معروف لديهم ومن عند بعضهم، فلما أعلنت طائفة منهم أن هذا رشد وحق، وانقسموا كما انقسم الإنس بشأنه «وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون» فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجنهم خطبا» (14-15).

وبينت هذه السورة أن كافري الجن على اتصال بكافري الإنس، وأنهم لو كانوا يستطيعون رد هذه الرسالة والطعن فيها لما قصرُوا، ولهذا فلن يزيّدوا كافري الإنس إلا رهقا، أي إثما وذلا، وهذه كلها حقائق تتعلق بما تقدم من السور المكية قبلها.

ولأبي حيان وجه حسن في مناسبة هذه السورة قريب مما أبداه المصنف وهو أنه تعالى لما حكى تمادي قوم نوح في الكفر والعكوف على عبادة الأصنام وكان أول رسول إلى أهل الأرض، كما أنه محمدا صلى الله عليه وسلم آخر رسول إلى أهل الأرض، والعرب الذين هم منهم كانوا عباد الأصنام كقوم نوح، حتى أنهم عبدوا أصناما مثل أصنام أولئك في الأساء، وكان ما جاء به عليه الصلاة والسلام هاديا إلى الرشد وقد سمعته العرب وتوقف عن الإيمان به أكثرهم أنزل الله تعالى سورة الجن إثر سورة نوح تبكيّا لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان وكانت الجن خيرا منهم إذ أقبل للإيمان من أقبل منهم وهم من غير جنس الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كادوا يكونون عليه لبدا، ومع ذلك التباطؤ فهم مكذبون له ولما جاء به حسدا وبغيا أن ينزل الله من فضله على ما يشاء من عباده» (أنظر البحر المحيط: 348/8).

سورة المزمل⁷⁴⁶

لما كان ذكر إسلام الجن قد أحرز غاية انتهى مرماها، وتم مقصدها ومبناها، وهي الإعلام باستجابة هؤلاء وحرمان من كان أولى بالاستجابة وأقرب في ظاهر الأمر إلى الإنابة بعد تديم وعيدهم وشديد تهديدهم، صرف الكلام إلى أمره صلى الله عليه وسلم بما يلزمه من وظائف عاداته وما يلزمه في أذكاره من ليله ونهاره مفتتحاً ذلك بأجمل مكاملة وألطف خاطبة «يا أيها المزمل» (آية: 1) تسلية له صلى الله عليه وسلم كما ورد «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» (فاطر: آية: 8) وليحصل منه الاكتراث بعناد من قدم عناده وكثر⁷⁴⁷ نجه، وأتبع بما يشهد لهذا الغرض ويعضده وهو قوله تعالى «واصبر على ما يقولون اهجرهم هجرا جميلا، وذربي والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا» (الآيتان: 10-11) هذا عين الوارد في قوله: «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» وفي قوله: «نحن أعلم ما يقولون وما أنت عليهم بجبار» (ق: آية: 45) ثم قال «إن لدينا أنكالا» (آية: 12) فذكر ما أعد لهم، وإذا تأملت هذه الآي وجدتها قاطعة بما قدمناه وبأن لك التحام ما ذكره، ثم جمع الكلام إلى التلطف به صلى الله عليه وسلم وبأصحابه رضي الله عنهم وأجزل جزاءهم مع وقوع التقصير ممن يصح منه تعظيم المعبود الحق جل جلاله «علم أن لن تحصوه فتابع ليحكم» إلى قوله «فاقرأوا ما تيسر منه»⁷⁴⁸ (آية: 18) ثم ختم السورة بالاستغفار من كل ما ندم من عناد الجاحدين المتقدم ذكرهم فيما قبل من السور إلى ما يفني العباد المستجيبون به ما أشار إليه قوله تعالى: «علم أن لن تحصوه» (آية: 18).

74. وهي مكة من أوائل ما نزل، وذلك بعدما فاجأ الوحي محمدا صلى الله عليه وسلم بغار حراء، ورجع عليه الصلاة والسلام ترجف بواده وقال للخدمة عليها السلام زملوني زملوني، والمزمل المتلفف، المتغطي بالثوب، والقصة معروفة شهيرة. (أنظر: روح المعاني: 101/29).

ومن وجوه مناسبتها لما قبلها، أن هذه السورة الكريمة قد أمرت النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ أمر الدعوة لاستعداد لها بغاية الجد، والقيام لذلك، فإذا كان الجن قد أثر فيهم القرآن ونفذ إلى طائفة منهم، فما عليك يا محمد إلا أن وم الليل به أنت وأصحابك وترتله ترتيلا لعلهم يستمعون إليه فينفذ إلى قلوبهم، وتكون قد هيأت أصحابك وعلمتهم استعداداً لتحمل مسؤولية هذه الدعوة «إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً» (4) إذ لا بد من بذل غاية الجهد، وخاصة في بدايات.

وقد كان بين بداية نزول هذه السورة الكريمة ونزول الآية الأخيرة منها نحواً من سنة كما أخرج ذلك أئمة الحديث، كانت الخيرة مبينة للحد الأدنى، وما فوقه ففيه يتنافس المتنافسون.

ومن وجوه المناسبة أيضاً أنه سبحانه لما ختم سورة الجن بذكر الرسل عليهم الصلاة والسلام افتتح عز وجل هذه بها ملق بخاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام.

74. ب: وكثرة.

74. ب: من القرآن.

سورة المدثر⁷⁴⁹

ملاءمتها لسورة المزمل واضحة واستفتاح السورتين من نمط واحد، وما ابتدئت به كل واحدة منهما من جليل خطابه صلى الله عليه وسلم وعظيم تكريمه «يا أيها المزمل» «يا أيها المدثر» والأمر فيهما بما يخصه «قم الليل إلا قليلا نصفه... الآية (الآيات: 2-9) وفي الأخرى «قم فأنذر وربك فكبر» (الآيتان: 2-3) أتبع في الأولى بقوله: «واصبر على ما يقولون» (آية: 10) وفي الثانية بقوله: «ولربك فاصبر» (آية: 7) وكل ذلك قصد واحد وأتبع أمره بالصبر في المزمل بتهديد الكفار ووعدهم «وذرة المكذبين... الآيات» (آية: 11) وكذلك في الأخرى «ذري ومن خلقت وحيدا... الآيات» (آية: 11) فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد.

749. وهي سورة مكية وقد كان نزولها عقب نزول المزمل وذلك بعد أن انقطع الوحي، فقد أخرج أحمد والشيخان وغيره من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سئل عن أول ما نزل من القرآن الكريم فقال: «يا أيها المدثر» فقلت يقولون «آية باسم ربك الذي خلق» فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك فقال: «لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: جاورت بحراء فلما قضيت جوارى فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ونظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجلست. رعبا فرجعت فقال دثروني، دثروني فنزلت «يا أيها المدثر قم فأنذر» فتح الباري: 676/8.

ووجه المناسبة أن سورة المزمل أمرت النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعداد والتهيؤ للدعوة، وسورة المدثر أمر بإعلاء الدعوة وتبليغها الناس، والتنزه عن معبوداتهم وإرجاساتهم «وثيابك فطهر والرجز فاهجر». (4-5)، وفي كلا السورتين أمر بالتحمل والصبر.

سورة القيامة⁷⁵⁰

لما تقدم قوله مخبراً عن أهل الكفر « وكنا نكذب بيوم الدين » (آية: 45) ثم تقدم في صدر السورة قوله تعالى: « فإذا نقر في الناقور » إلى قوله: « غير يسير » (الآيات: 8-10) والمراد به يوم القيام، والوعيد به لمن ذكر بعد في قوله: « ذرني ومن خلقت وحيداً... لايات » (آية: 11) ومن كان على حاله في تكذيب وقوع ذلك اليوم، ثم تكرر ذكره عند جواب من سئل بقوله: « ما سلككم في سقر » (آية: 41) فبسط القول في هذه السورة في بيان ذكر ذلك اليوم وأحواله، وأشير إلى حال من كذب به في قوله تعالى: « يسأل أيان يوم القيامة » (آية: 6) وفي قوله: « يحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه » (آية: 3)، ثم أتبع ذلك ذكر أحوال الخلائق في ذلك اليوم « ينبؤ الإنسان بما قدم وأخر » (آية: 14).

75. وهي مكية في قول جميع العلماء، وجاء عن عمر بن الخطاب من سأل عن يوم القيامة فليقرأ هذه السورة. وجه المناسبة والله أعلم أنه لما تقدم في السورة السابقة "كلا بل لا يخافون الآخرة" (52) جاءت هذه السورة لتبين جانباً من حوالها وأحوال أهلها مؤمنين وعصاة، وتنبيههم إلى أن خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم إلى ذلك اليوم، وابتدئت هذه سورة بذكر إنكارهم وإعادته "يحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه" (3) وختمت ببيان قدرة الله على ذلك "أليس ذلك نادر على أن يحيي الموتى" (39).

في قوله تعالى: "لا تحرك به لسانك لتعجل به" إلى قوله "ثم إن علينا بيانه" (16-18) أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما غيرهما عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل جبريل عليه بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه شفثيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه، فأنزل الله الآية التي في "لا أقسم بيوم القيامة" لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا نعمه وقرآنه قال: علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، فإذا أنزلناه فاستمع، ثم أن علينا بيانه علينا أن ينه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده. أنظر الفتح: 682/8.

وقيل لما نزل أول السورة إلى قوله تعالى: "ولو ألقى معاذيره" (1-15) صادف أنه صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة در إلى حفظ ما نزل عليه فقل لا تحرك به لسانك" الآيات ثم عاد إلى تكملة ما ابتدئ به. (جواهر البيان للشيخ عبد الله بن الصديق: ص: 188).

وقال ابن جزي: فإن قيل ما مناسبة قوله "لا تحرك به لسانك" لما قبلها فالجواب أنه لعله نزل معه في حين واحد فجعل إلى ترتيب النزول. (التسهيل 165/4 وأنظر أيضاً الكشف: 192/4).

سورة الإنسان⁷⁵¹

قوله تعالى: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» (آية: 1) تعريف للإنسان بحاله وابتداء أمره ليعلم أن لا طريق له للكبر واعتقاد السيادة لنفسه وأن لا يغلظه ما اكتنفه من الألفاظ الربانية والاعتناء الإلهي والتكرمة، فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه «وما بكم من نعمة فمن الله» (النحل: آية: 53).

ولما تقدم في القيامة إخباره تعالى عن حال منكري البعث عنادا واستكبارا وتعاميا عن النظر والاعتبار، «أيحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه» (آية: 3) وقوله بعد: «فلا صدق ولا صلي ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى» (الآيات: 30-32) أي يتختر عتو واستكبارا، وفرحا وتجبرا، وتعريفه بحاله التي لو ذكر منها لما كان منه ما وصف، وذلك قوله: «ألم يك نطفة من مني تنمى ثم كان علقة فخلق فسوى» (الآيتان: 36-37)، ثم أتبع ذلك بما هو أعرق في التوبيخ وأوغل في التعريف وهو أنه قد كان لا شيء، فلا نطفة ولا علقة، ثم أنعم عليه بنعمة الإيجاد ونقله تعالى من طور إلى طور فجعله نطفة من ماء مهير في قرار مكين، ثم كان علقة ثم مضغة إلى إخراجهِ وتسويته خلقا آخر فتبارك الله أحسر الخالقين، فمن اعتبر اتصافه بالعدم ثم تقلبه في هذه الأطوار المستنكف حالها، والواضع فناؤها واضمحلالها، وأمدّه الله بتوفيقه، عرف حرمان من وصف في قوله: «ثم ذهب إلى أهله يتمطى» (آية: 32) فسبحان الله ما أعظم حلمه وأكرم رفقه، ثم بين تعالى أن ما جعله للإنسان من السمع والبصر ابتلاء له، ومن أدراكه أدركه الغلط وارتكب الشطط.

751. هذه السورة مكية في جملتها، وفيها بعض آيات مدنية، وفي صحيح مسلم وغيره عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة (ألم تنزل) السجدة، (هل أتى على الإنسان). (أنظر الدرر المنثور: 6/297) ومناسبتها لما قبلها إضافة إلى ما أبداه المصنف من بيان أصل النشأة وأنه لم يكن شيئا مذكورا وبرحة الله وجد وكان، فإذا أفاضت في حال أهل النعيم الذين حظوا بالرضى والقبول من الله تعالى، وتقدم في السورة التي قبلها أن وجوههم ناضرة، ربه ناظرة، فكان وصف حالهم في هذه السورة كشف لجوانب أخرى تشويقا وترغيبا وتثبيتا للساكنين، لذلك ختمت بالآه بالصبر على حكم الله والأعراض عمن تعلق بالعاجل دون الآجل، وتكرر هذا المعنى في السورتين "كلا بل تحبون العاجل وتذرون الآخرة" القيامة (20-21) وهنا "أن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا" (27).

وهناك وجه آخر وهو أنه لما تحدثت هاتان السورتان عن الخلق، وأن أصل الخلق من التراب كما بينته آيات أخرى عديدة، وأن حفنة التراب لها تأثير وجذب للإنسان، اقتضى الحال أن يبسط أمامهم حال الآجل، والنعيم الموعود ليشوف إليه، وتشرب إليه الأعناق وختم بالصبر عن كل ما يلفتهم عنه كما في هذه السورة، وهذا في غاية المناسبة والله أعلم.

سورة المرسلات⁷⁵²

أقسم تعالى بالملائكة المتتابعين في الإرسال والرياح المسخرة، وولايته بالمطر والملائكة لفارقة بما بين الحق والباطل، والملقيات الذكر بالوحي إلى الأنبياء إعدارا من الله وإنذارا: أقسم تعالى بما ذكره من مخلوقاته على صدق الموعد به في قوله: «إنا أعتدنا للكافرين سلاسلًا وأغلالًا وسعيرًا... الآيات» (الإنسان: آية: 4) وقوله: «إنا نخاف من ربنا يوما عبوسًا قمطريرًا» (الإنسان: آية: 10) وقوله: «وجزأؤهم بما صبروا جنة وحريرًا» إلى قوله: «وكان سعيكم مشكورًا» (الإنسان: الآيات: 12-22) وقوله «ويذرون وراءهم يوما ثقيلاً» (الإنسان: آية: 27) وقوله: «يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليماً» (الإنسان: آية: 31)، ولو لم يتقدم إلا هذا الوعد والوعيد المختتم به السورة لطابق افتتاح الأخرى قسما عليه أشد المطابقة، فكيف وسورة «هل أتى على الإنسان» برأسها مواعد أخروية وإخبارات جزائية، فأقسم سبحانه وتعالى على صحة الوقوع وهو المتعالي الحق وكلامه الصدق.

752. وهي مكية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم جملة واحدة في غار بمنى وقيل بحراء، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار إذ نزلت عليه "المرسلات" فتلقيناها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ خرجت حية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم أقتلوها، فابتدرناها فسبقتنا، قال: فقال وقيت شركم كما وقيت شرها. (أنظر: الفتح 686/8).

ووجه المناسبة لما تقدم في سورة الإنسان الاطناب في حال أهل الجنة، وتعلق المعرضين بالعاجل، جاءت سورة المرسلات لتؤكد وقوع اليوم الآخر، فتتابع فيها الأقسام بعدد من ظواهر هذا الكون، أبانت حال الكافرين ومصيرهم، بعد أن خلقهم الله وأنعم عليهم في هذه الحياة الدنيا "انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون" (29) ... وتكرر قوله تعالى: "ويل يومئذ للمكذبين" تهديدا ووعيدا وتخويفا على عكس المؤمنين وما تقدم من حالهم في سورة الإنسان، ولهذا كانت آيات هذه السورة شديدة الوقع ينخلع لها القلب الحي الواعي.

أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه أن أم الفضل - وهي أمه - سمعته يقرأ "المرسلات" فقالت: يا بني لقد ذكرتني بقرائك هذه السورة أنها لآخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في المغرب. (ابن كثير: 188/7، الدر المنثور: 303/8، والقرطبي مجلد: 153/10).

753. ب: الآيات إلى

سورة عم 754

سورة النبأ، أما مطلعها فمرتّب على التساؤل واستفهام وقع منهم، وكأنه وارد هنا في معرض العدول والالتفات، وأما قوله: «كلا سيعلمون» (آية: 4) فمناسب للوعيد المكرر في قوله: «ويل يومئذ للمكذبين»، وكأن قد قيل سيعلمون عاقبة تكذيبهم، ثم أورد تعالى من جميل صنعه وما إذا اعتبره المعبر علم أنه لم يخلق شيء منه عبثاً بل ليعتبر به، ويستوضح وجه الحكمة فيه فيعلم أنه لا بد من وقت ينكشف فيه الغطاء ويجازي الخلائق على نسبة من أحوالهم في الاعتبار والتدبر والخضوع لمن نصب مجموع تلك الدلائل، ويستشعر من تكرار الفصول وتجدد الحالات وإحياء الأرض بعد موتها جري ذلك في البعث واطراد الحكم، وإليه الإشارة بقوله: «كذلك نخرج الموتى» (الأعراف: آية: 57) فقال تعالى منبهاً على ما ذكرناه «ألم نجعل الأرض مهاداً إلى قوله «وجنات ألفافا» (الآيات: 6-16) فهذه المصنوعات المقصودة الاعتبار كما تقدم، ثم قال تعالى «إن يوم الفصل كان ميقاتاً» (آية: 17) أي موعداً لجزائكم لو اعتبرتم بما ذكر لكم لعلمتم منه وقوعه وكونه، ليقع جواؤكم على ما سلف منكم، فويل يومئذ للمكذبين، ويشهد لهذا القصد مما بعد من الآيات قوله تعالى لما ذكر ما أعد للطاغين «إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً، وكل شيء أحصيناه كتاباً» (آية: 27) ثم قال بعد «إن للمتقين مفازاً» (آية: 31) وقوله بعد «ذلك اليوم الحق» (آية: 39).

وأما الحياة الدنيا فلعب وهو «وإن الدار الآخرة لهي الحيوان» (العنكبوت: آية: 64) وقوله بعد: «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً» (آية: 40).

754. وهي مكية في قول جميع أهل العلم، وقد تضمنت ما بينه الله تعالى من خلق المخلوقات تمهيداً وتيسيراً لحياة الإنسان على هذه الأرض، ثم عرضت لليوم الآخر، والجزاء والحساب الذي كان من أشد الأمور بعداً في تصور الكافرين.

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها أبانت للكافرين عن قدرة الله الذي بيده الخلق والأمر: وأنه تعالى لما أقسم لهم - في السورة السابقة - بما حولهم من عظيم المخلوقات وبأن ما يوعدون لواقع، أبانت لهم هذه السورة عن مصائر المكذبين بهذا اليوم وما يلحقهم فيه من العذاب والنكال حتى أن أحجهم يتمنى أن يكون تراباً وأنى له ذلك؟

والملاحظ، أن هذه السور المكية المتتابعة (المدثر، القيامة، الإنسان، المرسلات، النبأ) كانت تعالج موضوع اليوم الآخر، وتعرضه بأساليب مختلفة لأهمية هذا اليوم وموقعه في عقيدة المسلم وأثره في حياة الإنسان، فالتشابه في المضمون، والتقارب في السياق بين سور يجعلها متصلة ببعض مكملات كل واحدة للأخرى.

سورة النازعات⁷⁵⁵

لما أوضحت سورة النبأ حال الكافر في قوله « يا ليتني كنت ترابا » (النبأ: آية: 40) عند ظره ما قدمت يدها، ومعاينته من العذاب عظيم ما يراه، وبعد ذكر تفصيل أحوال وأهوال، تبع ذلك بما قد كان حاله عليه في دنياه من استبعاد عودته في آخره، وذكر قرب ذلك عليه سبحانه كما قال في الموضع الآخر « وهو أهون عليه » (الروم: آية: 27) وذلك بالنظر لنا ولما عهدناه، وإلا فليس عنده سبحانه شيء أهون من شيء «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» (يس: آية: 82) فقال تعالى: «والنازعات غرقا» إلى قوله «يقولون أئنا لردودون في الحافرة إذا كنا عظاما نخرة» (الآيات: 1-11) إذ يستبعدون ذلك ويستدفعونه، «فإنها هي زجرة واحدة» (أي صيحة) «فإذا هم بالساهرة» (الآيتان: 13-14) أي الأرض فيأما ينظرون ما قدمت أيديهم، ويتمنون أن لو كانوا ترابا ولا ينفعهم ذلك، ثم ذكر تعالى من قصة فرعون وطغيانه ما يناسب الحال في قصد الاتعاظ والاعتبار، ولهذا أتبع القصة بقوله سبحانه «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» (آية: 26).

755. وهي مكية بإجماع العلماء، وموضوعها يشبه سابقتها مع تأكيدها على أمرين: أولهما بيان مصير الطاغية الأكبر فرعون «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» (26)، وثانيهما، كثرة سؤاها عن اليوم الآخر وحين وقوعه، وإن الأسلوب الذي جاءت به هذه السورة الكريمة فيما يتعلق باليوم الآخر أشد وقعا، وأقوى تأثيرا «فإذا جاءت الطامة الكبرى» (34) وفي ذلك انتقال في البلاغة الخطاب من حال إلى حال.

سورة عبس

لما قال سبحانه: «إن في ذلك لعدة لمن يخشى» (آية: 26) وقال بعد «إنما أنت منذر من يخشاها» (آية: 45) افتتحت هذه السورة الأخرى بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم وأنهم وإن كانوا في دنياهم ذوي خمول لا يؤبه بهم، فهم عنده سبحانه في عداد من اختاره لعبادته وأهله لطاعته وإجابة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأعلى منزلته لديه (رب أشعث أغبر لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره)⁷⁵⁶ ومنهم ابن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي بسببه نزلت السورة⁷⁵⁷ ووردت بطريق العتب وصاة لنبي الله صلى الله عليه وسلم وتنبها على أن يحمل نفسه الكريمة على مصابرة أمثال ابن أم مكتوم وأن لا يحتقره، وحاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك، ولكن لتحذير من هذا وإن لم يكن يشعر بعظيم الاعتناء بمن حذر، ومنه قوله سبحانه: «لئن اشركت ليحبطن عملك» (الزمر: آية: 65) «ولا تدع مع الله إلها آخر (القصص: آية: 88) «ولا تمش في الأرض مرحا» (الإسراء: آية: 37) وهو كثير، وبسط هذا الضرب لا يلائم مقصودنا في هذا التعليق.

لما دخل عليه الصلاة والسلام ابن أم مكتوم -رضي الله عنه- سائلا ومسترشدا وهو صلى الله عليه وسلم يكلم رجلا من أشراف قريش وقد طمع في إسلامه ورجا إنقاذه من النار وإنقاذ ذويه وأتباعه، فتهاذى على تطلبه هذا الرجل لما كان يرجوه، ووكل ابن أم مكتوم إلى إيمانه، فأغفل فورية مجاوبته، وشق عليه الحاجة خوفا من تفلت الآخرين ومضيه على عقبه وهلاكه، عتب سبحانه عليه فقال: «عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى» (الآيات: 1-3) وهي منه سبحانه واجبة، وقد تقدم في السورة قبل قول موسى عليه الصلاة والسلام «هل لك إلى أن تزكى» (النازعات: آية: 18) فلم يقدر له بذلك ولا انتفع ببعده وصيته في دنياه ولا أغنى عنه ما نال منها، وبارت مواد تدبيره وعميت عليه الأنباء إلى أن قال: «ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعي

756. جاء من طريق عدد من الصحابة، أبي هريرة وابن مسعود، وابن عمر، وغيرهم، وهو من حديث أبي هريرة وعند أحمد ومسلم في صحيحه. أنظر الجامع الصغير مع فيض القدير: 1544/4.

757. أخرجه الترمذي وقال حسن غريب، والحاكم وصححه، وابن المنذر وابن حبان وغيرهم عن عائشة قالت: أنزلت «سورة عبس وتولى» في ابن أم مكتوم، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول: أترى بما أقول بأسا، فيقول: لا، ففي هذا أنزلت. (تحفة الأحوذى مع جامع الترمذي: 209/4، وابن كثير: 212/7، ومستدرك الحاكم: 514/2).

طلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين» (القصص: آية: 38) «وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل» (غافر: 37) فأنى يزكى ولو سبقت له سعادة لأبصر من حال مين اللهو واللعب حين مقالته الشنعاء «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين» الزخرف: 52) ولما سبقت لابن أم مكتوم الحسنى لم يضره الصيت الديوي ولا أخل به عماه ل عظم ربه شأنه لما نزل في حقه « وما يدريك⁷⁵⁸ لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى» (الآيتان: 3-4) فيا له صيتا ما أجله ! بخلاف من قدم ذكره من طرد فلم يتزك ولم ينتفع الذكرى حين قصد بها « إنما أنت منذر من يخشاها» (النازعات: آية: 45) كابن أم مكتوم رضي الله عنه، ومن نمط ما نزل في ابن أم مكتوم رضي الله عنه قوله تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» (الكهف: آية: 28)، فتبارك ربنا ما عظم لطفه بعبده، اللهم لا تؤيسنا من رحمتك، ولا تقطع بنا عنك بمنك وإحسانك.

سورة التكوير⁷⁵⁹

لما قال سبحانه: «فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه...» (الآيات إلى آخر السور (عبس: الآيتان: 33-34) كان مظنة لاستفهام السائل عن الوقوع ومتى يكون فقال تعالى «إذا الشمس كورت» (التكوير: آية: 1) ووقوع تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار كل ذلك متقدم على فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه، إلى ما ذكر إلى آخر السورة لاتصال ما ذكر في مطلع سورة التكوير بقيام الساعة فيصح أن يكون أمار للأول وعلما عليه.

سورة الانفطار⁷⁶⁰

هذه السورة كأنها من تمام سورة التكوير لاتحاد القصد فاتصالها بها واضح وقد مضى نظير هذا.

759. وهي مكية في قول الجميع، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم من حديث ابن عمر: "من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين" فليقرأ "إذا الشمس كورت" و"إذا السماء انفطرت"، و"إذا السماء انشقت" وكفى بذلك مناسبة، (أنظر: جامع الترمذي مع تحفة الأحوذى: 210/4، ومستدرک الحاكم: 515/2، وهو حديث جيد الإسناد).

760. وهي مكية كسابقاتها في قول جميع العلماء.

سورة التطفیف⁷⁶¹

لما قال سبحانه في سورة الانفطار «وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين... الآيتان» (10-11) وكان مقتضى ذلك الإشعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يفوت عمل كما قال تعالى: «وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها» (الأنبياء: آية: 47)، أتبع للمتقدمة بجزاء عمل يتوهم فيه قرب المرتكب وهو من أكبر الجرائم، وذلك التطفیف في المكيال والانحراف عن إقامة القسط في ذلك فقال تعالى: «ويل للمطففين» (آية: 1) ثم أردف تهديدهم وتشديد وعيدهم فقال: «ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم» (الآيتان: 4-5) ثم التحمت الآي مناسبة لما افتتحت به السورة إلى خاتمها.

761. قال بعضهم هي مكية، وقال آخرون هي مدنية، وقد جاء عن ابن عباس فيما أخرجه ابن الضريس آخر ما أنزل بمكة، وأخرج عن البيهقي في الدلائل وابن مردويه في تفسيره أنها أول سورة نزلت في المدينة وتسمى أيضا سورة «المطففين».

قلت، وفي هذه السورة الكريمة ملامح القرآن المكي، وقد يكون مطلعها تأخر نزولا إلى أن وصل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، ويؤيد هذا ما أخرجه النسائي وابن ماجة وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبت الناس كيلا، فأنزل الله «ويل للمطففين» فأحسنوا الكيل بعد ذلك. (أنظر: فتح الباري: 695/8، وتفسير ابن كثير: 236/7، والدر المنثور: 323/6).

وقد أبدى السيوطي رحمه الله وجوها في مناسبتها مع ما قبلها، وفصلها سورة الانشقاق التي بعدها عن قربيتها التكوير والانفطار فقال: فغالب ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار وقع في صدر يوم القيامة، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ومقاساة العرق والأهوال، فذكروا في هذه السورة بقوله «يوم يقوم الناس لرب العالمين» (3) ولهذا ورد في الحديث: (يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه) أخرجه البخاري وغيره ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى، فتشر الكتب فأخذ باليمين وآخر بالشمال، وأخذ من وراء ظهره، ثم بعد ذلك يقع الحساب، هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث، فناسب تأخير سورة الانشقاق التي فيها إتيان الكتب والحساب عن السورة التي قبلها والتي فيها ذكر الموقف عن التي فيها مبادئ يوم القيامة. (أنظر تناسق الدرر ص: 148).

وقال الألوسي: «لما ذكر فيما قبل السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأنه ذكر عز وجل هنا ما أعد جل وعلا لبعض العصاة وذكر سبحانه بأخس ما يقع من المعصية وهو التطفیف الذي لا يكاد يجدي شيئا في تثير المال وتنميته مع اشتغال هذه السورة من شرح حال المكذبين المذكورين هناك على زيادة تفصيل (روح المعاني: 67/30).

سورة الانشقاق⁷⁶²

لما تقدم في الانفطار التعريف بالحفظة وإحصائهم على العباد في كتبهم وعاد الكلاء إلى ذكر ما يكتب على البر والفاجر واستقرار ذلك في قوله تعالى: «إن كتاب الأبرار لفي عليين» (آية: 18) وقوله: «إن كتاب الفجار لفي سجين» (آية: 7) أتبع ذلك بذكر التعريف بأخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض، وأن أخذها بالإيمان عنوان السعادة، وأخذ وراء الظهر عنوان الشقاء، إذ قد تقدم في السورتين قبل ذكر الكتب واستقرارها بحسب اختلاف مضمناها فمنها في عليين ومنها في سجين إلى يوم العرض فيوتى كل كتابه، فأخذ يمينه وهو عنوان سعادته، وأخذ وراء ظهره وهو عنوان هلاكه، فتحصل الإخبار بهذه الكتب ابتداء واستقرارا وتفريقا يوم العرض، وافتتحت السورة بذكر انشقاق السماء ومد الأرض وإلقائها ما فيها وتخليها، تعريفا بهذا اليوم العظيم بما يتذكر به من سبقت سعادته والمناسبة بيته.

سورة البروج⁷⁶³

وردت هذه السورة في قصة أصحاب الأخدود وقد تقدم هذا الضرب في سورة المجادلة وسورة النبأ، وبيننا وقوعه في أنفس السور ومتونها وهو أقرب فيما بين السورتين وأوضح.

762. وهي مكية في قول الجميع وهي متصلة بالتكوير والانفطار اتصال النظر بالنظر، والشبيه بالشبيه كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

763. وهي مكية بالاتفاق، وقد اشتملت كسابقتها على الافتتاح بذكر الساء ووعد المؤمنين ووعد الكافرين، وجزء كل منها. ولما ذكر سبحانه وتعالى في الآية 23 من الانشقاق بأنه أعلم بما يجمعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم من المكر والخداع، وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى وأصناف من العذاب، عقب هنا بذكر قصة أصحاب الأخدود للتأكيد على أن الاضطهاد والتعذيب لا يزيد المؤمنين إلا إيمانا وثباتا سواء وقع ذلك في الأمم السابقة أو حصل بالنسبة لمن عذب المؤمنين بالرسالة المحمدية من كفار قريش وطغاة الجاهلية، وفي ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن معه من أصحابه الكرام عن إيذاء الكفار لهم ووقوفهم في وجه الدعوة وصرفهم عن سبيل الله، وأن ذلك سنة، ولن نجد لسنة الله تبديلا، وهذا أمر مثبت في اللوح المحفوظ وهو ممتنع التغير "بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ" (22-21). وفي البحر المحيط: 453/8 قريب مما أبديته من وجه المناسبة.

سورة الطارق⁷⁶⁴

لما قال تعالى في سورة البروج «والله على كل شيء شهيد» (آية: 9) «والله من ورائهم محيط» (آية: 20) وكان في ذلك تعريف العباد بأنه سبحانه لا يغيب عنه شيء، ولا يفوته هارب، أردف ذلك بتفصيل يزيد إيضاح ذلك التعريف الجملي من شهادته سبحانه على كل شيء وإحاطته به فقال: «إن كل نفس لما عليها حافظ» (آية: 4)، فأعلم سبحانه بخصوص كل نفس ممن يحفظ أنفاسها «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (ق: آية: 18) ليعلم العبد أنه ليس بمهمّل ولا مضيع، وهو سبحانه الغني عن كتب الحفظ وإحصائهم ولكن هي سنة حتى لا يبقى لحد حجة ولا تعلق، وأقسم تعالى على ذلك تحقيقاً وتأكيذاً يناسب القصد المذكور.

764. وهي مكية بالاتفاق، بل أنها من أوائل القرآن نزولاً كما يدل عليه حديث خالد العدواني أنه أبصر النبي صلى الله عليه وسلم بسوق ثقيف وهو قائم على عصا أو قوس فسمعه يقرأ والساء والطارق حتى ختمها. (الدر المنثور: 335/6، وابن كثير: 264/7).

واتصالها بالبروج واضح، وأبدى المصنف فيه وجهاً قوياً، يضاف إليه تأخي السورتين في البدايات بالقسم بالساء، وتأكيدهما على صدق القرآن وما جاء به، ففي الأولى «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ» (21-22)، وفي الثانية «إنه لقول فصل وما هو بالهزل» (13-14).

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده: 326/2-327 من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العشاء الآخرة بالساء يعني ذات البروج، والساء والطارق، وفي رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم أمر أن يقرأ بالساوات في العشاء.

سورة الأعلى⁷⁶⁵

لما قال سبحانه مخبرا عن عمه الكفار في ظلام حيرتهم أنهم يكيدون كيدا، وكان وقوع ذلك من العبيد المحاط بأعمالهم ودقاتق أنفسهم وأحوالهم من أقبح مرتكب وأبعده عن المعرفة بشيء من عظيم أمر الخالق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأن، أتبع سبحانه ذلك بأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتنزيه ربه الأعلى عن بشيع اعتدائهم وإفك افتراءهم فقال: «سبح اسم ربك الأعلى» (آية: 1) أي نزهه عن قبيح مقالهم، وقدم التنبيه على التنزيه في أمثال هذا ونظائره، ووقع لك أثناء السور وفيما⁷⁶⁶ بين سورة وأخرى، وأتبع سبحانه من التعريف بعظيم قدرته وعلي حكمته بما يبين ضلالهم فقال: «الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى» (الآيتان: 2-3) فتبارك الله أحسن الخالقين وتنزه عما يتقوله المفترون.

765. هذه السورة مكية، فقد أخرج أحمد والبزار وابن مردويه عن علي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب هذه السورة ويسميتها: أفضل المسبحات، وفي فضلها وردت آثار وأحاديث كثيرة. (أنظر: الدر المنثور: 337/6، وروح المعاني: 102/30).

ومناسبتها لما قبلها أن سورة الطارق لفتت النظر إلى خلق الإنسان "فليُنظر الإنسان مم خلق" (3) فجاءت هذه السورة لبيان نعم الله على هذا الإنسان وما يحتاج إليه ويقوم به، فاقتضى ذلك تنزيهه وتقديسه تعالى خاصة بعد استكمال الخلق بتعليمه من الله تعالى: "سنقرئك فلا تنسى" (6).

766. ب: فيا.

سورة الغاشية⁷⁶⁷

لما تقدم تنزيهه سبحانه عما توهمه الظالمون، واستمرت آي السورة على ما يوضح (تنزيه)⁷⁶⁸ الخالق جل جلاله عن عظيم مقالهم، أتبع ذلك بذكر الغاشية بعد افتتاح السورة بصورة الاستفهام تعظيماً لأمرها فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: «هل أتاك حديث الغاشية» (آية: 1) وهي القيامة فكأنه سبحانه يقول: في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم ويشتد تحسرهم حين لا يغني عنهم، ثم عرّف بعظيم امتحانهم في قوله: «ليس لهم طعام إلا من ضريع» (آية: 6) مع ما بعد ذلك وما قبله، ثم عرف بذكر حال من كان في نقيض حالهم إذ ذاك أزيد في القرع وأدهى⁷⁶⁹ ثم أردف بذكر ما نصب من الدلائل وكيف لم تغن فقال: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت... الآيات» (آية: 17) أي أفلا يعتبرون بكل ذلك ويستدلون على الصنائع، ثم أمره بالتذكير.

767. هذه السورة مكية بالاتفاق، ووجه مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم قوله في الأعلى «بل توثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى» (16-17) جاءت هذه السورة لتبين مقام كل واحد من الفريقين: أهل الجنة وأهل النار لتثني المغرورين عما هم فيه، وترغب المؤمنين إلى ما هم صائرون إليه مع إقامة الدليل على القدرة الإلهية، من خلال إلفات النظر إلى بعض مخلوقات الله، وفي ذلك تذكير لمن اعتبر.

768. أضفتها لاقتضاء السياق ذلك.

769. أي في اللحوم والتوبيخ.

سورة الفجر⁷⁷⁰

أبدى سبحانه لمن تقدم ذكره وجها آخر من الاعتبار، وهو أن يتذكروا حال من تقدمهم من الأمم وما أعقب تكذيبهم واجترائهم فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد» إلى قوله: «إن ربك لبالمرصاد» (الآيات: 6-14) أي لا يخفى عليه شيء من مرتكبات الخلائق، ولا يغيب عنه ما أكنوه «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به» (الرعد: آية: 10) فهلا اعتبر هؤلاء بما يعانونه ويشاهدونه من خلق الإبل ورفع السماء ونصب الجبال وسطح الأرض وكل ذلك لمصالحهم ومنافعهم، فالإبل لأثقالهم وانتقالهم، والسماء لسقيهم وإظلالهم، والجبال لاختزان مياههم وإقلالهم، والأرض لخلولهم، وارتحالهم، فلا بهذه استبصروا، ولا بمن خلا من القرون اعتبروا «ألم تر كيف فعل ربك بعاد» (آية: 6) على عظيم طغيانها وصميم بهائنها «إن ربك لبالمرصاد» (آية: 14) سيتذكرون حين لا ينفع التذكر «إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى» (الآيات: 21-23).

770. وهي مكية بالاتفاق وما أوضحه المؤلف من ارتباطها ومناسبتها مع ما قبلها واضح جلي: وقد أبدى السيوطي وجها حسنا قال فيه: أن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها من قوله جل وعلا: «إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم» (25-26) وعلى ما تضمنته من الوعد والوعيد، كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما في «ق» وأول المرسلات قسم على تحقيق ما في «عم». (أنظر: تناسق الدرر ص: 150).

سورة البلد⁷⁷¹

لما أوضح سبحانه حال من تقدم ذكره في السورتين في عظيم حيرتهم وسوء غفلتهم وما عقبهم ذلك من التذكر تحسرا حين لا ينفع الندم ولات حين مطمع، أتبع ذلك بتعريف بيه عليه الصلاة والسلام بأن وقوع ذلك منهم إنما جرى على حكم السابقة التي شاءها الحكمة التي قدرها كما جاء في الموضع الآخر «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة: آية: 13) فأشار تعالى إلى هذا بقوله: «لقد خلقنا الإنسان في كبد» (آية: 4) أي إنا خلقناه كذلك ابتلاء ليكون ذلك قاطعا لمن سبق له الشقاء عن التفكير والاعتبار، «وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا» (الكهف: آية: 57) فأعلمهم بما خلقهم فيه من الكبد، وأعقل لموبهم فحسبوا أنهم لا يقدر عليهم أحد، وقد بين سبحانه فعله هذا بهم في قوله لنبيه عليه لصلاة والسلام: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه» (الكهف: آية: 28) «ولو نساء ربك لآمن من في الأرض كلهم» (يونس: آية: 99) فأنت تشاهدهم يا محمد ذوي بصر وآلات يعتبر بها النظر، «ألم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين» (الآيتان: 8-9) فلا أخذ في خلاص نفسه واعتبر بحاله وأمسه «فلا اقتحم العقبة» (آية: 11) ولكن «إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له» (الرعد: آية: 11).

771. وهي مكية، ومناسبتها أنه لما تقدم في الفجر ذكر تدمير عاد ذات العماد، وفرعون بسبب فجورهم وفسادهم في البلاد «أكثرُوا فيها الفساد» (12) زادت هذه السورة القضية إيضاحا بأن الكافر يطغى ويتجبر ويظن أنه لن يقدر عليه أحد، ولا صرف المال في وجوهه من إطعام لل قريب والمسكين، وإنفاقه في المعروف، فكان مصيره مصر عا وثمرود وقوم فرعون أولئك أصحاب المشأمة عليهم نار موصدة» (20).

وأیضا فإنه تعالى ذكر في الغاشية صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ما في سورة الأعلى ثم زاد الأمر تفصيلا في سورة لفجر بذكر أسباب عذاب أهل النار ف ضرب لذلك مثلا بقوم عاد، وقوم فرعون في قوله: «ألم تر كيف فعل ربك بعاد» إلى «إن ربك لبالمرصاد» (6-14) ثم ذكر عناصر طغيانهم في قوله «كلا بل لا تكرمون اليتيم» (17) وما بعدها، فكانت هذه سورة بعد ذلك بمثابة إقامة الحجة عليهم «أنظر: تناسق الدرر للسيوطي تعليق: (1) ص: 150).

سورة الشمس⁷⁷²

لما تقدم في سورة البلد تعريفه تعالى بما خلق فيه الإنسان من الكبد مع ما جعل له سبحانه من آلات النظر وبسط له من الدلائل والعبر، أظهره في صورة من ملك قيادته وميز رشدته وعناده، وهذا بيان النجدين «إنا هديناه السبيل» (الإنسان: آية: 3) وذلك بما جعل له من القدرة الكسبية التي حقيقتها اهتمام أو كد ألم وأتى بالاستبداد والاستقلال (...)⁷⁷³ ثم «والله خلقكم وما تعملون» أقسم سبحانه في هذه السورة على فلاح من اختار رشدته واستعمل جهده، وأنفق وجده «قد أفلح من زكاها» (آية: 9) وخيبة من عاب هداه فاتبع هواه، «وقد خاب من دساها» (آية: 10) فبين حال الفريقين وسلوك الطريقين.

772. وهي مكية بالاتفاق، وما أبداه المصنف من مناسبتها لما قبلها، من حيث هي تفصيل لسورة البلد، وبيان لأصحاب الميمنة وهم الذين يزكون أنفسهم، وأصحاب المشأمة وهم الذين يدسون أنفسهم في الرذائل والمعاصي، واضح جلي.

773. هكذا في الأصل وكتب فوقها: «بياض في بعض النسخ» وهذه عبارات مضطربة المعنى والمبنى لن أتبين وجهها.

سورة الليل⁷⁷⁴

لما بين قبل حالهم في الافتراق، وأقسم سبحانه على ذلك الشأن في الخلائق بحسب تديره أزالا «لنبلوهم أيهم أحسن عملا» (الكهف: آية: 7) فقال تعالى: «إن سعيكم شتى» (آية: 4) فاتصل بقوله تعالى: «قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها» (الشمس: 10-) ثم إن قوله تعالى: «فأما من أعطى واتقى - إلى - العسرى» (الآيات: 5-10) يلائمه مسيرا وتذكيرا- بما الأمر عليه من كون الخير والشر بإرادته وإلهامه وبحسب السوابق- وله: «فألهمها فجورها وتقواها» (الشمس: آية: 8) فهو سبحانه أهلهم للإعطاء وللاتقاء التصديق، والمقدر للبخل والاستغناء والتكذيب، «والله خلقكم وما تعملون» (الصفات: 96) «لا يسأل عما يفعل» (الأنبياء: آية: 23) ثم زاد ذلك إيضاحا بقوله تعالى: «إن علينا لهدى وإن لنا للأخرة والأولى» (الآيتان: 12-13) فتبا للقدرية والمعتزلة⁷⁷⁵ «وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» (يوسف: آية: 105).

77. وهي مكية في الأصل وإن كان عليها طابع السور المكية فقد قال بعضهم بأنها مدنية كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره : 80/20.

وقوله تعالى: «وسيجنبها الأتقى إلى آخر السورة (17-21) نزلت في أبي بكر الصديق، فقد أخرج الحاكم في المستدرک 525/ وقال صحيح على شرط مسلم من حديث عبد الله بن الزبير قال: قال أبو قحافة لأبي بكر: أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو لك فعلت ما فعلت اعتقت رجلا جلدا يمنعونك ويقومون دونك، قال أبو بكر: يا أبت إني أريد ما أريد فنزلت الآيات. ل ابن كثير وكاد أن يجمع المفسرون على هذا.

واتصالها بالشمس واضح فهي تفصيل للتركية بالإعطاء والتقوى، والتصديق بالحسنى وهي لا إله إلا الله وما يستتبعها، تفصيل للتدسية وهي: البخل بنعم الله والكبر والجحود والتكذيب بلا إله إلا الله وما ستتبعها.

77. القدرية فرقة خاضت في مسألة القضاء والقدر في عصر الأمويين قالوا إن كل فعل للإنسان هو إرادته المستقلة عن إرادة له سبحانه وتعالى، فنقوا بذلك «القدر» بمعنى العلم والتقدير عن الله تعالى وقالوا في ذلك «الأمر أنف» وقد تصدى لهذه دعوة: معبد بن خالد الجهني بالعراق، وغيلان الدمشقي بالشام.

وتعبر هذه المسألة أيضا إحدى مسائل المعتزلة بل أصلا من أصولهم الخمسة وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (أنظر: الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي ص: 181، والملل النحل للشهرستاني ج: 47/1، وتاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة ج: 31/1 و 151).

سورة الضحى⁷⁷⁶

لما قال تعالى: فألهمها فجورها وتقواها» (الشمس: آية: 8) ثم اتبعه بقوله: « فسنيسره (الليل: آية: 7) وبقوله: «إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى» (الليل: الآيتان: 12-13) فلزم الخوف، واشتد الفزع وتعين على الموحد الاذعان بالتسليم⁷⁷⁷ والتضرع في التخلص والتجاؤه إلى السميع العليم، آنس تعالى أحب عباده إليه وأعظم منزلة لديه، وذكر له منحه من تقريبه واجتبائه، وجمع خير الدارين له؛ فقال: «والضحى والليل إذا سجى م ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى» (الآيات: 1-4) ثم عدد تعالى عليه نعم بعد وعده الكريم له بقوله: «ولسوف يعطيك ربك فترضى» (آية: 5) وأعقب ذلك بقوله « فأما اليتيم فلا تقهر وأم السائل فلا تنهر» (الآيتان: 9-10) فقد أوتيتك⁷⁷⁸ قبل تعرضك وأعطيتك قبل سؤالك، فلا تقابله بقهر من تعرض ونهر من سأل وقد حاشاه سبحانه عن نهاه عنه، ولكنه تذكير بالنعم، وليستوضح الطريق من وفق من أمته صلى الله عليه وسلم أما هو صلى الله عليه وسلم فحسبك من تعرف رحمته ورفعته قوله: « وكان بالمؤمنين رحيما (الأحزاب: آية: 43) «عزيز عليه ما عنتم - إلى رحيم» (التوبة: آية: 128).

ثم تأمل استفتاح هذه السورة ومناسبة ذلك المقصود، وكذلك السورة قبلها برفع القس في الأولى بقوله: « والليل إذا يغشى» (الليل: آية: 1) تنبيها على إيهام الأمر في السلوك على المكلفين وغيبة حكم العواقب، وليناسب هذا حال المتذكر بالآيات وما يلحقه من الخوف مما أمره غائب عنه من تيسيره ومصيره واستعصاء ما به يحصل اليقين واستصغار درج المتقين، ثم لما لم يكن هذا غائب بالجملة عن آحاد المكلفين أعني ما يثمر العلم اليقين ويعلي من أهل للترقي في درجات المتقين، بل قد يطلع سبحانه خواص عباده بملازمة التقوى والاعتبار على واضحة السبيل ويريهم مشاهدة وعيانا ما قد انتهجوا قبل سبيله بمشقة النظر

776. هذه السورة مكية، وقد جاء في عديد من الروايات أن الوحي أبطأ عن النبي صلى الله عليه وسلم فقبل عن محمدا ق قلاه ربه، وأصبح شيء في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم اشتكى فلم يقيم ليلة أو ليلتين فقالت امرأة: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل «والضحى» إلى قوله «ما ودعك ربك وما قلى» (2) أخرجه أحمد والشيخان وغيرهم (أنظر: فتح الباري: 711/8، وابن كثير: 313/7).

قال السيوطي: لما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه صلى الله عليه وسلم، افتتحت بالضحى الذي هو نور، ولما كانت سور الليل في أبي بكر يعني: ما عدا قصة البخیل، وكانت سورة الضحى سورة محمد، عقب بها ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم إلا واسطة بين محمد وأبي بكر. (أنظر: تناسق الدرر ص: 152).

777. في الأصل: للتسليم.

778. ب: أوتيتك.

في الدليل، قال صلى الله عليه وسلم لحارثة: (عرفت فالزم)⁷⁷⁹ وقال مثله للصديق⁷⁸⁰،
 وقال تعالى: «لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» (يونس: آية: 64) «إن الذين قالوا
 ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم
 نوعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة» (فصلت: الآيتان: 30-31) فلم يبق
 في حق هؤلاء ذلك الإبهام ولا كدر خواطرهم بتكاثف ذلك الإظلام بما منحهم سبحانه
 من نعمة الإحسان بما وعدهم في قوله: «يجعل لكم فرقانا» (الأنفال: آية: 29) «ويجعل
 لكم نورا تمشون به» (الحديد: آية: 28) «أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به
 في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» (الأنعام: آية: 122) فعمل هؤلاء على
 بصيرة، واستدلوا اجتهدا بتوفيق ربهم على أعمال جلييلة خطيرة فقطعوا عن الدنيا الآمال
 وتأهبوا لآخرتهم بأوضح الأعمال «تتجاف جنوبهم عن المضاجع» (السجدة: آية: 16) «فلا
 تعلم نفس ما أخفي لهم من قوة أعين» (السجدة: آية: 17)، فلا ابتداء الأمر وشدة الإبهام
 والإظلام ما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى: «والليل إذا يغشى» (الليل: آية: 1) ولما تؤول إليه
 الحال في حق من كتب في حقه الإيمان وأيده بروح منه أشار قوله سبحانه: «والنهار إذا تجلى»
 (الليل: آية: 2) ولانحصار السبيل وإن تشعبت في طريقين: «فمنكم كافر ومنكم مؤمن»
 (التغابن: آية: 2) «فريق في الجنة وفريق في السعير» (الشورى: آية: 7) أشار قوله تعالى: «وما
 خلق الذكر والأنثى» (الليل: آية: 3) «ومن كل شيء خلقنا زوجين» (الذاريات: آية: 49)،
 ففروا إلى الله الواحد مطلقا، فقد وضح لك إن شاء الله بعض ما ليس من تخصيص هذا
 القسم، والله أعلم.

أما سورة الضحى فلا إشكال في مناسبة استفتاح القسم بالضحى بما يسره له سبحانه لا
 سيما إذا اعتبرت ما ذكر من سبب نزول السورة، وأنه صلى الله عليه وسلم قد فتر عنه الوحي
 حتى قال بعض الكفار: فلا محمدا ربّه، فنزلت السورة مسفرة عن هذه النعمة والبشارة.

779. أخرجه الطبراني في الكبير والبخاري في مسنده من حديث أنس بن مالك، قال في مجمع الزوائد: 57/1 فيها ابن لهيعة،
 وفيها من يحتاج إلى الكشف عنه، ورواية البخاري فيها يوسف بن عطية لا يحتج به (أنظر: المعجم الكبير للطبراني: 302/3
 وجمع الفوائد: 24/1).

780. لم أعثر عليه.

سورة الشرح⁷⁸¹

معنى هذه السورة من معنى السورة التي قبلها، وحاصل السورتين تعداد نعمه عليه سبحانه، فإن قلت: فلم فصلت سورة «ألم نشرح» ولم ينسق ذكر هذه النعم في سور واحدة؟ قلت: من المعهود في البشر فيمن عدد على ولده أو عبده نعماً أن يذكر له أولاً شاهد الحصول عليه منها بكسبه مما يكن أن يتعلق في بعضها بأن ذلك وقع جزاء ابتداء فإذا استوفى له ما قصده من هذا، أتبعه بذكر نعم ابتدائية قد كان ابتداءها قبل وجوده كقول الأب مثلاً لابنه: ألم اختر لأجلك الأم والنفقة، حيث استولدتك وأعددت من مصالحك كذا وكذا؟ ونظير ما أشرنا إليه قوله سبحانه لذكرياء عليه الصلاة والسلام: «ولم تك شيئاً» (مريم: آية: 9) وقد قدم له: «إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى»⁷⁸² (مريم: آية: 7) وتوهم استبداد الكسبية في وجود الولد غير خافية في حق من قصر نظره ولم يوفق، فابتدأ بذكرها، ثم أعقب ما لا يمكن أن يتوهم فيه ذلك وهو قوله: «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً» (مريم: آية: 9) وله نظائر من الكتاب، وعليه جاء ما ورد في هاتين السورتين، والله أعلم.

781. وتسمى أيضاً «ألم نشرح» وهي مكية خلافاً للبقاعي الذي زعم أنها مدنية، وهي كما يقول الألوسي: «شديدة الاتصال بسورة الضحى حتى أنه روى عن طاوس بن عبد العزيز أنها كانا يقولان هما سورة واحدة وكانا يقرأنها في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم وعلى ذلك الشيعة كما حكاه الطبرسي منهم. قال الإمام: والذي دعا إلى ذلك هو أن قوله تعالى: «ألم نشرح» كالعطف على قوله تعالى «ألم يجدك يتيماً» وليس كذلك لأن الأول كان عند اغتنام الرسول صلى الله عليه وسلم من إيداء الكفرة، وكانت الحالة حالة محنة، وضيق صدر، والثاني يقتضي أن يكون النزول منشراح الصدر طيب القلب فأنى يجتمعان، وفيه نظر: والحق مدار مثل ذلك الرواية لا الدراية، والمتواتر كونها سورتين والفصل بينهما بالبسملة، نعم هما متصلتان معنى جداً، ويدل عليه ما في حديث الإسراء الذي أخرجه ابن أبي حاتم أن الله قال له عليه الصلاة والسلام: يا محمد ألم أجذك يتيماً فأويت وضالاً فهديت، وعائلاً فأغنيت، وشرحت لك صدرك وحططت عنك وزرك ورفع لك ذكرك... الحديث» (أنظر روح المعاني: 165/30).

ثم إن هذه السورة شرح لسابقتها، فشرح الصدر هناك مفصل هنا ببيان عناصره وأسبابه التي هي الإيواء بعد اليتيم، والهداية بعد الضلال، والغنى بعد العيلة، فتلك كلها عوامل انشراح الصدر بعد الإيمان لاسيما وقد جاءت بعد وعد بإعطاء حتى يرضى الرسول صلى الله عليه وسلم. (أنظر: تعليق 3 من تناسق الدرر ص: 152).

782. ب: «إنا نبشرك بيحيى».

سورة التين⁷⁸³

هذه سورة موضحة ومتممة للمقصود في السورتين قبلها، فبان لك أن الصور الإنسانية بظواهر الأمر مما هي عليه من الترتيب والاتقان، قد كانت تقتضي الاتفاق بظواهر ارتباط الكمال بها من حيث إنها في أحسن تقويم والافتراق يبعد في الظاهر، فكيف افترق الحكم واختلف السلوك، فمن صاعد بالاستيضاح والامثال، ونازل أسفل سافلين، فضلا عن ترقى درجات الكمال، فإذا لم يرقى من خص بمزية التقرب إلا أنه نودي من قريب فأسرع في إجابة مناديه وأصاخ، وما اعتل بحاديه فسلك من واضحات السبيل ما رسم له وبني على ما كتب له من ذلك عمله، «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة: آية: 13) فعلى العاقل المنصف في نفسه أن يعلم أن كلا ميسر لما خلق له⁷⁸⁴، فيضرع إلى خالقه في طلب الخلاص، من وجد خيرا فليحمد الله.

فأوضحت هذه السورة أن ما أعطى الله نبيه صلى الله عليه وسلم وخصه به من ضروب الكرامات وابتدأه به من عظيم الآلاء مما تضمنت السورتان على ما منحه من خير الدارين، وما تضمن قسمه سبحانه أنه ما ودعه ولا قلاه من الملاطفة والتأنيس ودلائل الحب والتقريب، كل ذلك فضل منه تعالى وإحسان لا لعمل تقدم يستوجب ذلك أو بعضه، ولو تقدم عمل لم يقع إلا بمشيئته وتوفيقه وإرادته ولا يستوجب أحد عليه شيئا وإنما هو فضله يوتي به من يشاء، فقال سبحانه منبها على ما وقع الإيحاء إلى بعضه: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» (آية: 4) ومع ذلك لا ينفعه وقوع صورته الظاهرة في عالم الشهادة على أكمل خلق وأتم وضع، بل إذا لم يصحبه توفيق وسبقية سعادة من خالقه ولم يجعل له نورا يمشي به لم ير غير نفسه، ولا عرف إلا أبناء جنسه فقصر نظره على أول ما شاهد، ووقف عندما عاين من غير اعتبار بجده إلى تحقيق مآله وتبيين حاله أنه لم يكن شيئا مذكورا، فلما قصر وما أبصر اعتقد لنفسه الكمال وعمي عن المبتدأ والمآل، فصار أسفل سافلين حيث لم ينتفع بآلات نظره ولا تعرف حقيقة خبره «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم

783. مكية النزول، ونقل القرطبي عن ابن عباس وقتادة أنها مدنية وهو بعيد لأن البلد المقسم به هو مكة.

ومن مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه تعالى لما ذكر في السورة السابقة حال أكمل النوع الإنساني بالاتفاق بل أكمل خلق الله عز وجل على الإطلاق صلى الله عليه وسلم ذكر تعالى في هذه السورة شرف بلده الأمين، وحال النوع وما ينتهي إليه أمره، وما أعد سبحانه لمن آمن منه به عليه السلام.

784. إشارة إلى الحديث الذي رواه (الشيخان وأبو داود والترمذي) عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: "قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم: فقيم يعمل العاملون؟ قال: كل ميسر لما خلق له. (أنظر: التاج الجامع للأصول: 38/1).

مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه» (يس: الآيتان: 77-78) ثم قال تعالى: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» (آية: 6) فهم الذين هداهم ربهم بإيمانهم فجزوا بسببه من خلقه في أحسن تقويم، واستوضحوا الصراط المستقيم، واستبصروا، فأبصروا ونظروا فاعتبروا، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا، «فلهم أجر غير ممنون» (آية: 6).

سورة العلق⁷⁸⁵

لما قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم «فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين» (التين: الآيتان: 7-8) وكان معنى ذلك على هذا بعد وضوح الأمر لك وبيانه، وقد نزهه تعالى عن التكذيب بالحساب وأعلى قدره عن ذلك، ولكن سبيل هذا إذا ورد كسبيل قوله تعالى: «لئن أشركت ليحبطن عملك» (الزمر: آية: 65) وبيانه، وحكم هذا لقبيل واضح في حق من تعدى إليه الخطاب وقصد بالحقيقة به من أمته صلى الله عليه وسلم من حيث عدم عصمتهم وإمكان تطرق الشكوك والشبهة إليهم فتقدير الكلام: أي شيء يمكن فيه أن يملككم على التوقف والتكذيب بأمر الحساب، وقد وضع لكم ما يرفع الريب ويزيل الإشكال، فلم تعلموا أن ربكم أحكم الحاكمين؟ أفيليق به وهو لعليم الخبير أن يجعل اختلاف أحوالكم في الشكوك بعد خلقكم في أحسن تقويم؟ فيحسن أن يفعل ذلك عبثا وقد قال تعالى: «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا» (ص: آية: 27)؟ فلما قرر سبحانه للعبيد على أنه أحكم الحاكمين مع ما تقدم من موجب في الاسترابة في وقوع الجزاء إذا اعتبر ونظر، وقعت في الترتيب سورة العلق مشيرة إلى ما به يقع الشقاء، ومنه يعلم الابتداء والانتهاء، وهو كتابه المبين الذي جعله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمحسنين، فأمر بقراءته ليتدبروا آياته فقال: «اقرأ باسم ربك» (آية: 1) أي مستعينا به فسوف يتضح سبيلك وينتهج دليلك، «تبارك الذي نزل الفرقان، على عبده ليكون للعالمين نذيراً» (الفرقان: آية: 1) وأيضاً فإنه تعالى أعلم عباده بخلقه الإنسان «في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين» (التين: آية: 5) وحصل منه على ما قدم بيانه افتراق الطرفين وتباين المتقابلين، كل ذلك بسابق حكمته وإرادته «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة: آية: 13).

وقد بين سبحانه أقصر غاية ينالها أكرم خلقه وأجل عباده لديه من الصنف الإنساني وذلك فيما أوضحت السورتان قبل من حال نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم وجليل

785. هذه السورة مكية، وقد اختلف في أنها أول السور نزولاً. قال ابن حجر في الفتح: قال صاحب الكشف ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أنها أول سورة نزلت، وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب. ثم قال: والذي ذهب أكثر الأئمة إليه هو الأول وأما الذي نسبته (أي الزمخشري) إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول. (الفتح: 548/8).

ومن أوجه اتصالها بها قبلها والله أعلم أنها بيان لمن رد إلى أسفل سافلين من البشر وهو من ينهى الناس عن الخير والعبادة والصلاة، وكذب بالقرآن وتولى متكبراً، وأيضاً لما تقدم في سورة التين خلق الإنسان في أحسن تقويم بين هنا أنه تعالى: «خلق الإنسان من علق» (2) وذلك ظاهر الاتصال، فالأول بيان العلة الصورية، والثاني بيان العلة المادية. (أنظر: تناسق الدرر: 154).

وعده الكريم له في قوله: «ولسوف يعطيك ربك فترضى» (الضحى: آية: 5) وفضل حال ابتداء «ألم نشرح» على ما تقدم سؤال «رب اشرح لي صدري» (طه: آية: 25) إلى ما أشارت إليه آي السورتين من خصائصه الجليلة وذلك أعلى مقام يناله أحد ممن ذكر، فوقع تعقيب ذلك بسورة تضمنت الإشارة إلى حال من جعل في الطرف الآخر من الجنس الإنساني، وذلك حال من أشير من لدن قوله تعالى: «أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى» - إلى قوله- «كلا لا تطعه» (الآيات: 9-19) ليظهر تفاوت المنزلتين وتباين ما بين الحاليتين وهي العادة المطردة في الكتب، ولم يقع صريح التعريف هنا كما وقع في الطرف الآخر ليطابق المقصود، ولعل بعض من لم يتفطن، يعترض هنا بأن هذه السورة من أول ما أنزل فكيف يستقيم مرادك من ادعاء ترتيبها على ما تأخر عنها نزولا، فيقال له: وأين غاب اعتراضك في عدة سور مما تقدم بل في معظم ذلك، وإلا فليست سورة البقرة من المدني ومقتضى تأليفها هذا بناء ما بعدها من السور على الترتيب الحاصل في مصحف الجماعة إنما هو عليها وفيما بعد من المكي ما لا يحصى، فإنما غاب عنك نسيان ما قدمناه في الخطبة من أن ترتيب السور على ما هي عليه راجع على فعله عليه الصلاة والسلام كان ذلك بتوقيف منه أو باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم على ما قدمناه، فراجع بصرك وأعد في الخطبة نظرك، والله يوفقنا إلى اعتبار بيناته وتدبر آياته ويحملنا في ذلك ما يقربنا إليه بمنه وفضله.

سورة القدر⁷⁸⁶

وردت تعريفاً بإنزال ما تقدم الأمر بقراءته لما قدمت الإشارة إلى عظيم أمر الكتاب، أن السلوك إليه سبحانه إنما هو من ذلك الباب، أعلم سبحانه بليلة إنزاله وعرفنا بقدرها نعتمدها في مظان دعائنا وتعلق رجائنا ونبحث على الاجتهاد في العمل لعلنا نوافقها وهي الساعة في يوم الجمعة في إبهام أمرها مع جليل قدرها، ومن قبيل الصلاة الوسطى، والله سبحانه في إخفاء ذلك رحمة وكأن في التعريف بعظيم قدر هذه الليلة التعريف بجلالة المنزل بها، فصارت سورة القدر من تمام ما تقدم ووضح اتصالها.

786. قال الألوسي: "ووجه مناسبتها لما قبلها أنها كالتعليل للأمر بقراءة القرآن المتقدم فيه كأنه قيل اقرأ القرآن لأن قدره عظيم شأنه فخيم"، وقال الخطابي: المراد بهاء الكتابة في قوله تعالى: "إنا أنزلناه في ليلة القدر" الإشارة إلى قوله تعالى: 'وارتضاه القاضي أبو بكر بن العربي وقال وهذا بديع جداً' (روح المعاني: 189/30، وتناسق الدرر: 154).

سورة البينة⁷⁸⁷

هي من تمام ما تقدمها لأنه لما أمره عليه الصلاة والسلام بأن هذا الكتاب هو الذي كانت يهود تستفتح به على مشركي العرب وتعظم أمره وأمر الآتي به حتى إذا حصل ذلك مشاهدا لهم كانوا أول كافر به؛ فقال تعالى: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة» إلى قوله «وذلك دين القيمة» (الآيات: 1-5) وفي التعريف بهذا تأكيد ما تقدم بيانه مما يثمر الخوف وينهج بإذن الله التسليم والتبرء من ادعاء حول أو قوة. فإن هؤلاء كانوا قد قدم إليهم في أمر الكتاب والآتي به ما يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، وقد كانوا يؤملون الانتصار به عليه الصلاة والسلام من أعدائهم ويستفتحون بكتابه، فرحم الله من لم يكن عنده علم منه كأبي بكر وعمر وأنظارهما رضي الله عنهما، وحرّم هؤلاء الذين قد كانوا على بصيرة من أمره وجعلهم بكفرهم شر البرية ورضي عن الآخرين ورضوا عنه، وأسكنهم في جواره ومنحهم الفوز الأكبر والحياة الأبدية، وإن كانوا قبل بعثته عليه الصلاة والسلام على جهالة وعمى فلم يضرهم إذ قد سبق لهم في الأزل «أولئك هم خير البرية» (آية: 7).

787. قال الجمهور أنها مدنية، وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها نزلت بمكة وبمثلها قال يحيى بن سلام. (أنظر: الالتقان: 36/1 والدر المنثور: 377/6).

ومن وجوه مناسبتها أنه لما تقدم بيان عظيم فضل القرآن ودرجته، كشفت هذه السورة أن المشركين الذين كانوا ينتظرون الوحي من السماء قد اختلفوا بشأنه وأنهم شر البرية وأن من سلك نهجه أولئك هم خير البرية، الفائزين في الآخرة. وقال السيوطي: «هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها، كأنه لما قال سبحانه: «إنا أنزلناه» قيل: لم أنزل؟ فقيل: لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة وهو رسول من الله يتلو صحفا مطهرة، وذلك هو المنزل» (تناسق الدرر: 155).

سورة الزلزلة⁷⁸⁸

وردت عقب سورة البرية ليبين بها حصول جزاء الفريقين ومآل الصنفين المذكورين في قوله: «إن الذين كفروا من أهل الكتاب» إلى قوله «شر البريئة» (البينة: آية: 6) وقوله: «إن الذين آمنوا... إلى خاتمة السورة» (الآيتان: 7-8)، ولما كان حاصل ذلك افتراقهم على صنفين ولم يقع تعريف بتباين أحوالهم، أعقب ذلك بمآل الصنفين واستيفاء جزاء الفريقين لمجمل ذكرهم فقال تعالى: «يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم...» (الآيتان: 6-7).

سورة العاديات⁷⁸⁹

أقسم سبحانه على حال الإنسان بما هو فقال: «إن الإنسان لربه لكنود» (آية: 6) أي كفور يبخل لما لديه من المال كأنه لا يجازى ولا يحاسب على قليل ذلك وكثيره من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وكأنه ما سمع بقوله: «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» (الزلزلة: آية: 7) «وإنه لحب الخير» أي المال «لشديد» (آية: 8) لبخيل «وإنه على ذلك لشهيد» (آية: 7) وإن الله على ذلك لمطلع فلا نظر في أمره وعاقبة مآله إذا بعثر ما في القبور وحصل ما الصدور، أي ميز ما فيها من الخير والشر ليقع الجزاء عليه «إن ربهم بهم يومئذ لخبير» (آية: 11) لا يخفى عليه شيء من أمرهم «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (الزلزلة: الآيتان: 7-8).

788. هذه السورة مدنية في قول ابن عباس وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود وجابر وعطاء، وقد ورد في فضلها ما أخرجه الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ «إذا زلزلت» عدت له بنصف القرآن، وفي رواية أخرى عنه أنها تعدل ربع القرآن. (أنظر: تفسير ابن كثير: 347/7-348، والدر المنثور: 379/6، والقرطبي: 146/20).

789. هذه السورة مكية، ونقل القرطبي في تفسيره أنها مدنية، ولكن المتأمل لها يجد طابعها تابع السور المكية. وقد أبدى المصنف في مناسبتها وجهها قويا ظاهرا، ويمكن أن يضاف إليه، أنه بعد تشوف السامع والقارئ إلى معرفة جزاء العامل بالذرة خيرا أو شرا، جاءه الجواب في هذه السورة الكريمة أن ذلك يكون إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير.

سورة القارعة⁷⁹⁰

لما قال تعالى: «أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور» (العاديات: الآيتان: 9-10) وكان ذلك مظنة أن يسأل متى ذلك، فقليل يوم القيامة الهائل الأمر، الفطيع الحال، الشديد البأس والقيامة هي القارعة، وكررت تعظيماً لأمرها كما ورد في قوله تعالى: «الحاقة ما الحاقة» (الحاقة: الآيتان: 1-2) وقوله تعالى: «فغشيهم من اليمِّ ما غشيهم» (طه: آية: 78) ثم زاد عظيم هولها إيضاحاً بقوله تعالى: «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» (آية: 4) والفراش ما تهافت في النار من البعوض، والمبثوث المنتشر «وتكون الجبال كالعهن المنفوش» (آية: 5) والعهن الصوف المصبوغ وخص لإعداده للغزل، إذ لا يصبغ بخلاف الأبيض فإنه لا يلزم فيه ذلك، ثم ذكر حال الخلق في وزن الأعمال وصيرورة كل فريق ما كتب له وقدر.

سورة التكاثر⁷⁹¹

لما تقدم ذكر القارعة وعظيم أهوالها أعقب بذكر ما شغل وصد عن الاستعداد لها وألهى عن ذكرها وهو التكاثر بالعدد والقربات والأهلين؛ فقال: «ألهاكم التكاثر» (آية: 1) وهو في معرض التهديد والتفريع، وقد أعقب بما يعضد ذلك وهو قوله: «كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون» ثم قال: «كلا لو تعلمون علم اليقين» (الآيات: 3-5) وحذف جواب لو، والتقدير لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر، قال صلى الله عليه وسلم: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً... الحديث)⁷⁹² وقوله تعالى: «لترون الجحيم» (آية: 6) جواب لقسم مقدر أي والله لترون الجحيم، وتؤكد بها التهديد، وكذا ما بعد إلى آخر السورة.

⁷⁹⁰. وهي مكية بالاتفاق، وقد تضمنت زيادة تخويف من اليوم الآخر، وبيان لعواقب تحصيل ما في الصدور، وجزاء العاملين الذين تقدم ذكرهم في سورتي الزلزلة والعاديات.

⁷⁹¹. وهي مكية وتسمى «المقبرة» عند جميع المفسرين كما قال أبو حيان، وقال الألويسي هي مدينة تركت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة، ثم قال: ولقوة الأدلة على مدنيتهما قال بعض الأجلة أنه الحق. (روح المعاني: 232/30). وأخرج الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر؟ (أنظر: الدر المنثور: 386/6).

⁷⁹². أخرجه من حديث أنس بن مالك أحمد والشيخان والترمذي والنسائي، وكان ذلك في خطبة الكسوف. (أنظر: فيض القدير على الجامع الصغير: 316/5).

سورة العصر⁷⁹³

لما قال تعالى: «أهاكم التكاثر» (الآيتان: 1-2) وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه وذلك لبعده عن علم بموجب الطبع أنه كان ظلوما جهولا، أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو سان؛ فقال: «والعصر إن الإنسان لفي خسر» (آية: 1) فالقصور شأنه والظلم طبعه الجهل جبلته فيحق أن يلهيه التكاثر ولا يدخل الله عليه روح الإيمان «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» إلى آخرها (آية: 3) فهؤلاء الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

سورة الهمزة⁷⁹⁴

لما قال سبحانه «إن الإنسان لفي خسر» (العصر: آية: 2) أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره واغتراره وظنه الكمال لنفسه حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال ظنا أنه يخلده وينجي، وهذا كله عين النقص الذي هو شأن الإنسان وهو المذكور في السورة نبيل، فقال تعالى: «ويل لكل همزة لمزة» (آية: 1) فافتتحت السورة بذكر ما أعد له من العذاب جزاء له على همزه ولمزه الذي أتم حسده، والهمزة: العياب الطعان، واللمزة مثله، ثم ذكر تعالى ماله ومستقره بقوله: «لينبذن في الحطمة» (آية: 4) أي ليطرحن في النار جزاء على اغتراره وطعنه.

793. وهي مكية، وقد قيل فيها أنها مدنية كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره، وقال السيوطي في مناسبة هذه السورة لما قبلها وما بعدها: إن سورة التكاثر بعد القارعة واقعة موقع العلة خاتمة ما قبلها، كأنه قيل: لما قال هناك "فأمة هاوية" (القارعة: 8) قيل: لم ذلك؟ فقال: لأنكم "أهاكم التكاثر" (1) فاشتغلتم بدنياكم وملاؤم موازينكم بالحطام فخنفت موازينكم بالآثام، ولهذا أعقبها بسورة العصر المشتملة على أن الإنسان في خسر، بيان الخسارة تجارة الدنيا، وربح تجارة الآخرة، ولهذا أعقبها بسورة الهمزة المتوعد فيها من جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخله، فانظر إلى تلاؤم هذه السور الأربع وحسن اتساقها. (أنظر: تناسق الدرر: ص: 157).

794. وهي مكية بالاتفاق.

سورة الفيل⁷⁹⁵

لما تضمنت سورة الهمة ذكر اغترار من فتن بهاله حتى ظن أنه يخلده، وما أعقبه ذلك أتبع هذا بأصحاب الفيل الذين غرهم تكاثرهم وخدعهم امتدادهم في البلاد واستيلاؤهم حتى هموا بهدم البيت المكرم، فتعجلوا النعمة، وجعل الله كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل، أي جماعات متفرقة ترميهم بحجارة من سجيل حتى استأصلتهم وقطعت دابرهم فجعلهم كعصف مأكول، وأثر لهم ذلك، اغترارهم بتوفر حظهم من الخسر المتقدم

سورة قريش⁷⁹⁶

لا خفاء باتصالهما أي أنه تعالى فعل ذلك بأصحاب الفيل ومنعهم عن بيته وحرمة لانتظام شمل قريش وهم سكان الحرم وقطان بيت الله وليؤلفهم بهاتين الرحلتين فيقيموا بمكة وتأمين ساحتهم.

795. هذه السورة مكية بالإجماع: وقد أبدى الألوسي مناسبة وجيهة لما قبلها حيث قال "لما تضمن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد له عليه الصلاة والسلام، عقب ذلك بقصة أصحاب الفيل للإشارة على أن عقبي كيدهم في الدنيا تدميرهم، فإن عناية الله عز وجل برسوله صلى الله عليه وسلم أقوى، وأتم من عنايته سبحانه بالبيت، فالسورة مشيرة إلى بيان مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الآخرة". (روح المعاني: 232/30).

796. وهي مكية في قول الجمهور وهو الظاهر، وصلتها بالتي قبلها واضحة كما قال المؤلف، منة الله على أهل الحرم الذي صان مستقرهم، وأهلك من أراد بهم شرا، وكان من مقاصد صاحب الفيل "أبرهه" حرمان أهل مكة مما ألفوه من تجارتهم. وذهبت طائفة إلى أن هذه السورة "والفيل" سورة واحدة واحتجوا عليه بأن أبي بن كعب لم يفصل بينهما بالبسملة في مصحفه بما روى عن عمرو بن ميمون الأزدي قال صليت المغرب خلف بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ في الركعة الأولى و"التين" وفي "الثانية" "الم تر" و"لإيلاف قريش" من غير أن يفصل بالبسملة، وأجيب بأن جمعا أثبتوا الفصل في مصحف أبي والمثبت مقدم على النافي، وبأن خبر ميمون إن سلمت صحته محتمل لعدم سماعه ولعله قرأها سرا، ويؤيد استقلالها أيضا كون أيها ليست على نمط أي ما قبلها، وأنه بعد ثبوت تواتر الفصل لا يحتاج إلى دليل. (أنظر روح المعاني: 233/30).

سورة الماعون⁷⁹⁷

لما تضمنت السورة المقدمة من الوعيد لمن انطوى على ما ذكر فيها مما هو جار على حكم جهل والظلم الكائنين في جبلة الإنسان ما تضمنت كقوله تعالى: «إن الإنسان لربه لكنود» العاديات: آية: 6) «إن الإنسان لفي خسر» (العصر: آية: 2) «يحسب أن ماله أخلده» الهمزة: آية: 3) وانجر أثناء ذلك مما تثيره هذه الصفات الأولية إلى ما ذكر أيضا فيها الشغل بالتكاثر والطعن على الناس ولمزهم والاغترار المهلك أصحاب الفيل أتبع ذلك ذكر صفات قد توجد في المنتمين إلى الإسلام أو يوجد بعضها، وأعمال ممن يتصف بها وإن يكن من أهلها؛ كدع اليتيم وهو دفعه عن حقه، وعدم الرفق به، وعدم الخس على إطعام لسكين، والتغافل عن الصلاة والسهو عنها، والرياء بالأعمال، ومنع الزكاة، والحاجات تي يضطر فيها الناس بعضهم إلى بعض، ويمكن أن يتضمن إبهام الماعون هذا كله. ولا شك أن هذه الصفات توجد في المنتمين إلى الإسلام⁷⁹⁸ فأخبر سبحانه أنها من صفات من كذب بيوم الدين ولا ينتظر الجزاء والحساب، إشارة إلى أن هؤلاء هم أهلها ومن هذا قبيل قوله صلى الله عليه وسلم: (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا)⁷⁹⁹ وقوله عليه صلاة والسلام: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)⁸⁰⁰، وهذا الباب كثير في الكتاب السنة، وقد بسطته في كتاب: «إيضاح السبيل من حديث سؤال جبريل»، فمن هذا القبيل - الله أعلم - قوله: «أرايت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم» (الآيتان: 1-2) أي هذه الصفات: من دفع اليتيم، وبعد الشفقة عليه، وعدم الخس على إطعامه والسهو عن الصلاة والمراة بالأعمال، ومنع الحاجات كلها من شأن المكذب بالحساب والجزاء، أن نفع البعد عنها إنما يكون إذ ذاك، فمن صدق به جرى في هذه الخصال على السنن لشكور والسعي المبرور، ومن كذب به لم يبال بها وتأبط جميعها، فتتزهوا أيها المؤمنون عنها ليست من صفاتكم في أصل إيمانكم الذي بايعتم عليه، فمن تشبه بقوم فهو منهم⁸⁰¹،

79. وتسمى سورة أرايت، والدين، والتكذيب، وهي مكية في قول الجمهور. وقال قتادة وآخرون أنها مدنية.

79. ب: بالاسلام

79. أخرجه أحمد والشيخان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وتماه "ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها. إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر". وأخرجه الشيخان كذلك من طريق عبد الله بن عمر بن الخطاب وفيه "إذا اتّمتن خان". (أنظر: الفتح: 171/1).

80. أخرجه أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعا وتماه: "ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبه ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن". وجاء أيضا من طريق ابن عباس مرفوعا عند أحمد والبخاري والنسائي. أنظر الفتح: 363/3.

80. "من تشبه بقوم فهو منهم" أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر بسند ضعيف. أنظر الدرر المنثور: 164.

فاحذروا هذه الرذائل، فإن دع اليتيم من الكبر الذي أهلك أصحاب الفيل وعدم الحظ على إطعامه فإنما هو فعل البخيل الذي يحسب أن ماله أخلده، والسهو عن الصلاة م ثمرات أهاكم التكاثر والشغل بالأموال والأولاد فنهى عباده عن هذه الرذائل التي يثمره ما تقدم، والتحمت السور.

سورة الكوثر⁸⁰²

لما نهى عما يلتذ به من أراد الدنيا وزينتها من الإكثار والكبر والتغرر بالمال والجاه وطلد الدنيا، أتبع ذلك بما منح نبيه مما هو خير مما يجمعون وهو الخير الكثير، ومنه الخوض الذي ترده أمته في القيامة، لا يظماً من شرب منه، ومنه مقامه المحمود الذي يحمد فيه الأولو والآخرين عند شفاعته العامة للخلق وإراحتهم من هول الموقف، ومن هنا الخير قدم في دنياه كتحليل الغنائم والنصر بالرعب والخلق العظيم، إلى ما لا يحصى من خير الدنيا والآخرة مما بعض ذلك خير من الدنيا وما فيها. واحدة من هذه العطايا «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» (يونس: آية: 58) ومن الكوثر والخير الذي أعطاه الله كتابه المبين الجامع لعلم الأولين والآخرين، والشفاء لما في الصدور، ولما كم له سبحانه من النعم ما لا يأتي عليه حصر مما لا يناسب أدناه نعيم الدنيا بجملتها قال منها على عظيم ما أعطاه: «ولا تمدن عينيك...» إلى قوله «ورزق ربك خير وأبقى» (طه آية: 131) فقد اضمحل في جانب نعمة الكوثر الذي أوتي كل ما ذكره تعالى في كتابه من نعيم أهل الدنيا، وتمكن من تمكن منهم وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة، فلم يقع بعده ذكر شيء من نعيم الدنيا ولا ذكر أحد المتنعمين بها لانقضاء هذا الغرض وتمامه، وسور الدين⁸⁰³ آخر ما تضمن الإشارة إلى شيء من ذلك كما تقدم من إشارتها، وتبين بهذا وج تعقيها، والله أعلم.

⁸⁰². قال ابن عباس وطائفة مكية، وقال الحسن وطائفة مدنية.

قال الإمام فخر الدين الرازي هي - أي سورة الكوثر - كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله سبحانه فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل «إنا أعطيناك الكوثر (1) أي الخير الكثير. وفي مقابلة ترك الصلاة «فصل» (2) أي دم عليها، وفي مقابلة الرياء «لربك» (2) أي لرضاه لا للناس وفي مقابلة منع الماعون «وانحر» (2) وأراد به التصديق بلحوم الأضاحي، قال: فاعتبر هذه مناسبة العجبية. (أنظر: تناس الدر: ص: 158).

⁸⁰³. هي سورة الماعون.

سورة الكافرون⁸⁰⁴

لما انقضى ذكر الفريقين المتردد ذكرهما في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره على اختلاف حوال كل فريق وشتى درجاتهم وأعني بالفريقين من أشير إليه في قوله سبحانه: «اهدنا لصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم» (الفاتحة: الآيتان: 6-7)، فهذا طريق أحد لفريقين، وفي قوله «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» (الفاتحة: آية: 7) إشارة إلى طريق من كان في الطرف الآخر من حال أولئك الفريق، إذ ليس إلا طريق السلامة أو طريق هلاك، «فريق في الجنة وفريق في السعير» (الشورى: آية: 7) «فمنكم كافر ومنكم مؤمن» (التغابن: آية: 2) والسالكون طريق السلامة على درجات، فأعلى درجاتهم مقامات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم يليهم أتباعهم من صالحى العباد وعلمائهم العاملين عبادهم وأهل الخصوص منهم القرب، ثم أحوال من تمسك بهم ورتبهم مختلفة، وإن جمعهم جامع وهو قوله: «فريق في الجنة»، وأما أهل التنكب عن هذه الطريق وهم الهالكون على طبقات أيضا، ويضم جميعهم طريق واحد، فكيف ما تشعبت الطرق فإلى ما ذكر من لطريقين مرجعهما، وباختلاف سبل الجميع عرفت أي الكتاب وفصلت ذكره كله تفصيلا لا يبقى معه ارتياب لمن وفق. فلما انتهى ذلك كله بما يتعلق به، وتداولت بيانه الآي من مدن قوله بعد أم القرآن «هدى للمتقين» (البقرة: آية: 2) إلى قوله: «إن شأنتك هو الأبر» (الكوثر: آية: 3) أتبع ذلك بالتفاصيل والتسجيل فقال تعالى: «قل يا أيها الكافرون» (آية: 1) لين سبحانه أن من قضى عليه بالكفر والموافاة عليه لا سبيل إلى خروجه عن ذلك، ولا يقع

804. وتسمى أيضا "المقشقة" من قشقش المريض إذا صح وبرأ، وتسمى - كما في جمال القراء - سورة العباد، وتسمى أيضا "الإخلاص" قال ابن مسعود والحسن وعكرمة وابن عباس في أحد قوليه مكية، وقال ابن الزبير وقتادة وآخرون مدنية، ويظهر والله أعلم أنها مكية. وأما فضلها فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي في اليوم والليلة الحديث رقم: 801 وأبو داود: 5055 - غيرهم من فروة بن نوفل عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "إذا أخذت مضجعا فاقرا" قل يا أيها الكافرون "م نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك". وأنظر أحاديث أخرى في فضلها في عمل اليوم والليلة ص: 468. أما سبب تأخيرها إلى هذا الموضع فقد أبدى فيه المصنف رحمه الله نظرا عجيبا.

ومما ظهر لي من مناسبتها أنه لما تقدم ما أعطاه الله تعالى لنبيه من الخير الكثير، ومن المخالفة للمنافقين والكافرين، في سورة السابقة جاءت هذه السورة لتعلن للكافرين أنه لا مساومة، ولا مهادنة، فلکم طريقكم ولي طريقي، وقد تقدمت بعض معالمة في "الكوثر" وأبرزها الصلاة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام "بين الرجل والكفر ترك الصلاة". وأيضا لما قال تعالى في السورة السابقة "إن شأنتك هو الأبر" كان ذلك إذعانا لهم وحكا عليهم بأنهم سيموتون على كفر، فكان شأنك الذي قال هذه الكلمة مكتوب عليه أنه سيظل أبر ولن يهتدي إلى الإسلام، شأن الأسود بن عبد المطلب، أمية بن خلف، العاصي بن وائل، الوليد بن المغيرة، فهذا فريق يقابله فريق آخر الفريق الموصول بالله، والفريقان لا يمكن أن يتخذ منهجهما في الحياة: لا في تصور العقيدة، ولا في الشريعة، ولا في طريقة التعبد ولا في منهج التفكير ولا في لمبادئ، لذلك قال تعالى بعد سورة الكوثر "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون... إلى آخر السورة" فجاءت تعبيراً عن المعنى الذي نعب عنه حديث في العرف الديبلوماسي بقطع العلاقات، خاصة وقد أعقبت بسورة النصر، إيذانا بأن العاقبة لحمد وأنصاره والدائرة ستكون حتما على مبغضي الرسول والكائدين له.

منه الإيمان أبدا «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله» (الأنعام: آية: 111).

ولو أنهم بعد عذاب الآخرة، ومعاناة البعث وعظيم تلك الأهوال، وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا وقولهم «ربنا أخرجنا»⁸⁰⁵ نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل» (فاطر: آية: 3) فلا أجيئوا إلى هذا وارجعوا لعادوا إلى حالهم الأول، «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه» (الأنعام آية: 28) تصديقا لكلمة الله وإحكاما لسابق قدره «أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار» (الزمر: آية: 19) فقال لهم «لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد» إلى آخرها (الكافرون: الآيات: 2-6) فبان أمر الفريقين وارتفع الإشكال واستمر كل على طريقه «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» (فاطر: آية: 3) «إن عليك إلا البلاغ» (الشورى: آية: 48) فتأمل موقع هذه السورة وأنها الخاتمة لما فصل في الكتاب، يلح لك وجه تأخيرها، والله أعلم.

سورة النصر⁸⁰⁶

لما كمل دينه واتضحت شريعته واستقر أمره صلى الله عليه وسلم، وأدى أمانة رسالته حق أدائها عرف عليه السلام نفاذ عمره وانقضاء أجله، وجعلت على ذلك علامة دخول لناس في دين الله جماعات بعد التوقف والتشط حكمة بالغة « ولو شاء الله لجمعهم على هدى » (الأنعام: آية: 35)، وأمر بالإكثار من الاستغفار المشروع في أعقاب المجالس وفي طراف النهار وخواتم المأخذ مما عسى أن يتخلل من لغو أو فتور، فشرع سبحانه الاستغفار يحرز لعباده من حفظ أحوالهم ورعي أوقاتهم ما يكفي بعلي أجورهم كما وعدهم « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » (الأنعام: آية: 115) وقد بسطت ما أشارت إليه هذه السورة العظيمة، وكل كلام ربنا عظيم فيما قيدته في غير هذا⁸⁰⁷، وأن أبا بكر رضي الله عنه عرف منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعت إليه نفسه الكريمة على ربه، وعرف بدنو أجله، وقد أشار إليه هذا الغرض أيضا بأبعد من الواقع في هذه السورة قوله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم... » الآية (المائدة: آية: 3) وسورة براءة، وأفعاله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع، لكن لم يبلغنا استشعار أحد من الصحابة رضي الله عنهم يقين الأمر إلا من هذه السورة، وهي عرفت بإشارة براءة وآية المائدة تعريفا شافيا واستشعر الناس عام حجة الوداع وعند نزول براءة ذلك لكن لم يستيقنوه، وغلبوا رجاءهم في حياته صلى الله عليه وسلم، ومنهم من توقف، فلما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) استيقن أبو بكر رضي الله عنه ذلك استيقانا حمله على البكاء لما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

806. وهي مدنية بالإجماع، وقد جاء عن ابن عمر أنها نزلت وسط أيام التشريق من حجة الوداع في العام العاشر للهجرة، وتسمى سورة التوديع.

ومن مناسبتها ما أبداه فخر الدين الرازي بقوله: كأنه تعالى يقول: لما أمرتكم في السورة المتقدمة بمجاهدة الكفار، بالتبري منهم وإبطال دينهم جزيتك عن ذلك بالنصر والفتح وتكثير الاتباع. وقال: ووجه آخر وهو أنه لما أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ناسب تحميلة مشقاته وتكاليفه فعقبها بمجاهدة الكفار والتبري منهم، فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح، وإقبال الناس أفواجا إلى دينه، وأشار إلى دنو أجله، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، (أنظر: تناسق الدرر: ص: 159).

807. لعله يقصد كتابه "ملاك التأويل" الذي بسط فيه أوجه تشابه الآية.

سورة المسد⁸⁰⁸

هذه السورة وإن نزلت على سبب خاص وفي قصة معلومة، فهي مع ما تقدمها واتصل بها في قوة أن لو قيل قد انقضى عمرك يا محمد وانتهى مما قلدته من عظيم أمانة الرسالة أمرك، وتأدية ما تحملته وحن أجلك، وإمارة ذلك دخول الناس في دين الله أفواجا واستجابتهم بعد تلكؤهم، والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك، وإن كان أقرب الناس إليك، فقد فصلت سورة «قل يا أيها الكافرون» بين أولئك وأعدائك، وبأن بها حكم من اتبعك ومن عاداك ولهذا سماها عليه الصلاة والسلام المبرئة من النفاق⁸⁰⁹، ليعلم كفار قريش وغيرهم انه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان وأن القربات غير نافعة ولا تجديه شيئاً إلا مع الإيمان «لكم دينكم ولي دين» (الكافرون: آية: 6) «أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون» (يونس: آية: 41) «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» (التوبة: آية: 71) وها هنا انتهى أمر الكتاب بجملته.

⁸⁰⁸. وهي مكية بإجماع، وما أبداه المصنف وجه قوي، ويمكن أن يلاحظ من التناسب مع ما قبلها، أنه لما تقدم الإعلان بالنصر للنبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى ناسب أن يأتي إعلان بإهلاك أعدائه ومناوئيه وحساده وشائتيه ولو كانوا من أقرب الناس إليه.

⁸⁰⁹. وأخرج ابن أبي حاتم عن رزاية بن أوفى قال: كانت هذه السورة تسمى المقيشة (أنظر: الدر المنثور: 404/6). قال السيوطي: قال الإمام (أي الفخر الرازي) وجه اتصالها بما قبلها أنه لما قال: «لكم دينكم ولي دين» (6) فكانه قيل: إلهي، وما جزائي؟ فقال الله له: النصر والفتح فقال: وما جزاء عمي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: «تبت يدا أبي لهب» (1) الآيات.

قال: فتأمل هذه المجانسة الحافلة بين هذه السور مع سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله، بأمره. (أنظر: تناسق الدرر: 160).

سورة الإخلاص⁸¹⁰

لما انقضى مقصود الكتاب العزيز بجملته عاد الأمر إلى ما كان، وأشعر العالم بحالهم من رددهم بين عدمين ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، فوجودهم منه سبحانه وبقاؤهم به وهم جميع ما يصدر عنهم من أفعالهم وأقوالهم، كل ذلك خلقه واختراعه، وقد كان سبحانه لا عالم ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان لا يفتقر إلى أحد ولا يحتاج إلى عين، ولا يتقيد بالزمان ولا يتحيز بالمكان، فالحمد لله رب العالمين أهل الحمد ومستحقه طلقاً، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» (الآيات: 1-4) الموجود الحق وكلامه الصدق، وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة للذين يتقون، فطوبى لمن استوضح أي كتاب الله وأتى الأمر من بابه وعرف نفسه ودنياه وأجاب داعي الله ولم ير فاعلاً في الوجود حقيقة إلا هو سبحانه، ولما كمل مقصود الكتاب واتضح عظيم رحمة الله به لمن تدبر واعتبر وأناب، كان مظنة لاستعاذة واللجأ من شر الحاسد وكيد الأعداء، فختم بالمعوذتين من شر ما خلق وذراً، وشر الثقلين.

810. تسمى هذه السورة بالإخلاص لما فيها من التوحيد، وسميت أيضاً "الأساس" لأن التوحيد أساس وأصل لسائر أصول الدين.
 قيل أنها مكية، وقيل مدنية، وفي فضلها وردت أحاديث كثيرة وأنها تعدل ثلث القرآن، (أنظر: الدر المنثور: 410/6 وما بعدها، وفضائل القرآن للنسائي ص: 82).

سورة الفلق⁸¹¹

قد أشير - أي في الكلام على ارتباط الإخلاص - على وجه ارتباطها أنفاً، وذلك أوضح إن شاء الله.

سورة الناس⁸¹²

وجه تأخيرها عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية، ألا ترى عموم قوله: «من شر ما خلق» (الفلق: آية: 2) وإيهام (ما) وتنكير غاسق وحاسد، والعهد فيما استعيد من شره في سورة الناس، وتعريفه ونعته، فبدأ بالعموم، ثم أتبع بالخصوص، ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه وأوفى بالمقصود، ونظير هذا في تقديم المعنى الأعم ثم إتباعه بالأخص ليتناول الدقائق والجلال قوله سبحانه: «بسم الله الرحمن الرحيم» فمعنى الرحمان ومعنى الرحيم واحد إلا في عموم الصفة الأولى وكونها في المبالغة، وقد تعرض لبيان ذلك المفسرون ولذلك نظائر.

⁸¹¹. سورة الفلق، وسورة الناس تسميان بالمعوذتين لافتتاحهما بقل أعوذ، وقد نزلتا معاً بالمدينة في قول قتادة وأحد قولي ابن عباس، وهو الراجح وفي قول الحسن وعكرمة وآخرون أنها مكيتان، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يكثروا من قراءتهما.

⁸¹². أما مناسبة ختم القرآن بالمعوذتين فقد نقل السيوطي عن ابن جرير عن شيخه ابن الزبير في ذلك ثلاثة أمور: الأول: لما كان القرآن العظيم من أعظم نعم الله على عباده، والنعم مظنة الحسد، فختم بما يطفئ الحسد من الاستعاذة بالله.

الثاني: إنما ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيها: أنزلت على آيات لم أر مثلهن قط، كما قال في فاتحة الكتاب: لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلهما: فافتتح القرآن سورة لم ينزل مثلهما، واختتم بسورتين لم ير مثلهما، ليجمع حسن الافتتاح والاختتام.

الثالث: إنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن بالمعوذتين لتحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن، فتكون الاستعاذة اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، ليكون القارئ محفوظاً بحفظ الله الذي استعاذ به من أول الأمر إلى آخره. (أنظر: معترك الأقران: 77/1، 78).

الفهارس

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأبيات الشعرية

فهرس الكتب

فهرس الأعلام

فهرس البلدان

فهرس بأهم المصادر والمراجع

1- فهرس الموضوعات

3	صدير
5	قديم
9	قدمة
14	لجزء الأول: الدراسة
17	لقسم الأول: جمع القرآن وترتيبه
19	لمبحث الأول: جمع القرآن وتدوينه
21	جمع القرآن وتدوينه
22	كتاب الوحي
23	حفظ الصحابة للقرآن
24	تدوين الصحابة للقرآن
25	جمع القرآن في عهد الخلفيتين أبي بكر وعثمان
25	أولا: جمع القرآن في عهد أبي بكر
29	ثانيا: جمع القرآن في عهد الخليفة عثمان بن عفان
29	1 - دواعي هذا الجمع
30	2 - تشكيل لجنة الجمع
33	3 - منهج الجمع العثماني
35	4 - تحريق عثمان للمصاحف المخالفة
36	شبهة تعارض المصحف العثماني مع مصاحف بعض الصحابة
39	المبحث الثاني: ترتيب القرآن الكريم
41	ترتيب الآيات
44	ترتيب السور

44	ترتيب السور اجتهادي.....
45	ترتيب السور توقيفي إلا الأنفال وبراءة.....
46	الخلاف في ترتيب السور لفظي.....
47	ترتيب السور توقيفي.....
49	الرأي المختار.....
50	ترتيب القرآن حسب النزول.....
51	الإعجاز في ترتيب القرآن.....
53	إعادة ترتيب النص القرآني.....
54	موقف بعض المستشرقين من ترتيب القرآن.....
56	رفض تفسير القرآن حسب ترتيب نزوله.....
61	المبحث الثالث : التناسب وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم
63	التناسب وجه من وجوه الإعجاز.....
63	تعريف التناسب.....
63	علم المناسبات وأهميته.....
64	أنواع التناسب.....
66	التناسب في نظم القرآن.....
67	تناسب الحروف في الكلمات.....
70	تناسب الكلمات في الجمل.....
74	تناسب نظم الآيات في السور.....
76	أمثلة من وحدة السور وترباطها.....
79	التناسب بين كتب التفسير والتأليف المستقل.....
79	أهمية المناسبة في التفسير.....

أولا : تناسب الآيات عند المفسرين	80
أمثلة من تفسير الفخر الرازي	81
أمثلة من تفسير الشيخ محمد عبده	82
أمثلة من تفسير سيد قطب	84
ثانيا : تناسب الآيات والسور	86
ثالثا : تناسب السور	88
القسم الثاني: عصر ابن الزبير وترجمته ومؤلفاته	89
المبحث الأول : عصر ابن الزبير	91
عصر ابن الزبير	93
الحالة السياسية في عصره	93
أ. نهاية الموحدين	93
ب. سقوط المدن والقواعد الكبرى	94
ج. الزعامات وانبعاث روح الطوائف	95
الحياة العلمية في عصر ابن الزبير	98
أولا : البيوت العلمية	98
ثانيا : المراكز العلمية	100
ثالثا : الرحلات العلمية	103
رابعا : حركة التأليف في هذا العصر	105
المبحث الثاني : ترجمة ابن الزبير	109
ترجمة ابن الزبير	111
1. اسمه ونسبه	111
2. مولده ونشأته	112

3 . وفاته	114
4 . شيوخ ابن الزبير	114
إجازة ابن الزبير من أقطار مختلفة	123
5 . مكاتبه العلمية	126
6 . تلاميذ ابن الزبير	133
7 . مؤلفات ابن الزبير	141
المبحث الثالث	143
تحقيق عنوان الكتاب	145
وصف النسختين المعتمدتين	147
قيمة المخطوطتين	148
منهج التحقيق	149
دليل الإشارات والرموز	150

الجزء الثاني: تحقيق النص

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	153	سورة الأنبياء	222
باب التعريف بترتيب السور	156	سورة الحج	224
سورة أم القرآن	161	سورة المؤمنين	225
سورة البقرة	163	سورة النور	227
سورة آل عمران	168	سورة الفرقان	228
سورة النساء	171	سورة الشعراء	230
سورة المائدة	173	سورة النمل	233
سورة الأنعام	176	سورة القصص	234
سورة الأعراف	182	سورة العنكبوت	237
سورة الأنفال	186	سورة الروم	240
سورة براءة	191	سورة لقمان	242
سورة يونس	192	سورة السجدة	243
سورة هود	194	سورة الأحزاب	246
سورة يوسف	198	سورة سبأ	250
سورة الرعد	202	سورة فاطر	252
سورة إبراهيم	205	سورة يس	254
سورة الحجر	209	سورة الصافات	256
سورة النحل	211	سورة ص	257
سورة الإسراء	212	سورة الزمر	258
سورة الكهف	216	سورة المؤمن (غافر)	260
سورة مريم	219	سورة حم السجدة (فصلت)	262
سورة طه	220	سورة الشورى	265

الموضوع	الصفحة		الصفحة
سورة الزخرف	267	سورة التحريم	308
سورة الدخان	269	سورة الملك	309
سورة الشريعة (الجاثية)	271	سورة ن (القلم)	311
سورة الأحقاف	273	سورة الحاقة	313
سورة القتال (محمد)	274	سورة المعارج	314
سورة الفتح	275	سورة نوح	315
سورة الحجرات	279	سورة الجن	316
سورة ق	281	سورة المزمل	317
سورة الذاريات	283	سورة المدثر	318
سورة الطور	285	سورة القيامة	319
سورة النجم	287	سورة الإنسان	320
سورة القمر	288	سورة المرسلات	321
سورة الرحمن	294	سورة عم (النبأ)	322
سورة الواقعة	296	سورة النازعات	323
سورة الحديد	297	سورة عبس	324
سورة المجادلة	298	سورة التكويد	326
سورة الحشر	300	سورة الإنفطار	326
سورة الممتحنة	301	سورة التطفيف	327
سورة الصف	302	سورة الانشقاق	328
سورة الجمعة	303	سورة البروج	328
سورة المنافقين	304	سورة الطارق	329
سورة التغابن	306	سورة الأعلى	330
سورة الطلاق	307	سورة الغاشية	331

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
سورة الفجر	332	سورة التكاثر	346
سورة البلد	333	سورة العصر	347
سورة الشمس	334	سورة الهمزة	347
سورة الليل	335	سورة الفيل	348
سورة الضحى	336	سورة قريش	348
سورة الشرح	338	سورة الماعون	349
سورة التين	339	سورة الكوثر	350
سورة العلق	341	سورة الكافرون	351
سورة القدر	343	سورة النصر	353
سورة البينة	344	سورة المسد	354
سورة الزلزلة	345	سورة الإخلاص	355
سورة العاديات	345	سورة الفلق	356
سورة القارعة	346	سورة الناس	356

2- فهرس الآيات القرآنية

الواردة في الدراسة مرتبة حسب الحرف الأول من الآية

الموضوع	الصفحة
أ.	
أنتم أشد خلقاً أم السماء	73
ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب	79
ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم	83
ألم تر كيف فعل ربك بعاد	84
إقرأ باسم ربك الذي خلق	65
إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون	37-9-3
إن سعيكم لشتى	85
إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها	64
إن الله عنده علم الساعة	65
إن الله علیم بذات الصدور	64
إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات	79
إن هذا إلا سحر يؤثر	66
ت.	
تبّت يدا أبي لهب	68-50
ج.	
جنات تجري من تحتها الأنهار	35

-س-

86 سيصلى نارا ذات لهب

-غ-

74 غير أولي الضرر

-ف-

85 فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه

86 فأنذرتكم نارا تلظى

35 فإن الله هو الغني الحميد

69 فيها رحمة من الله لنت لهم

69 فلما أن جاء البشير

74 فلما سمعت بمكرهن

-ك-

196 كتاب أحكمت آياته

84 كلا إذا دكت الأرض دكا

85 كلا بل لا تكرمون اليقيم

82 كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا

50 لا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق

72 ليس كمثله شيء

-ه-

82 هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا

-و-

84 وأتموا الحج والعمر لله

42 والذين يتوفون منكم

82 وإلهمكم إله واحد

- 74 وإن خفتم عيلة
- 263 وإنه لكتاب عزيز
- 50 وقرآنا فرقناه لتقرأه
- 85 وما خلق الذكر والأنثى
- 84 والفجر وليال عشر
- 68 ولقد أنذرهم بطشنا
- 53 ولو كان من عند غير الله
- 85 والليل إذا يغشى
- 73 ومن آياته الليل والنهار
- 64 وهو على كل شيء قدير

-ي-

- 83 يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
- 72 يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث
- 82 يا أيها الناس اعبدوا ربكم

3- فهرس الأحاديث النبوية

الموضوع	الصفحة
أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية	41
أربع من كن فيه كان منافقا خالصا	165
الإسلام ثمانية أسهم	173
أعطيت مكان التوراة السبع الطوال	47
إقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران	159
إن بينك وبينها بابا مغلقا	276
وإنما كان الذي أوتيت وحيا	153
كان إذا آوى إلى فراشه	160
إنهم من العتاق الأول	159
بني الإسلام على خمس	173
خذوا القرآن من أربعة	23
تكفيك آية الصيف	42
استقرؤوا القرآن من أربعة	32
صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبع الطوال	47
الشرك في أمتي أخفى من ديب النمل	165
ضعوا آية كذا في موضع كذا	48-43
ضعوا هؤلاء الآيات في السورة	41
عرفت فالزم	337
كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن	24

- كنت أكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم 22
من أحب أن يقرأ القرآن غصا 32
ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر 153
من حفظ عشر آيات من سورة الكهف 42
ويل للعرب من شر قد اقترب 276
يا جبريل من هذا والذي بعثك بالحق 214
يا علي إن القرآن خلف فراشي 25
يؤتي بالقرآن يوم القيامة وأهله 159

يا أيتها النفس المطمئنة 84

4 - فهرس الأبيات الشعرية

الموضوع	الصفحة
والنجم تستصغر الأبصار صورته	81
غرناطة ما لها نظير	113
بلد يحف به الرياض كأنه	113
فلو قيل مبكاها بكيت صباية	155

5 - فهرس الكتب

أ-

أخبار محمد بن إسحاق	106
اختصار حديث مالك للدارقطني	106
اختصار الكامل في الضعفاء والمتروكين لابن عدي	106
الاحتفال في استيفاء ما للخيال من الأحوال	801
أرجوزة في الرد على الشوذية	371
رأس مبنى العلم رأس معنى الحلم	107
أسرار التنزيل	87
الإشارة	107
الاعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الاعلام	133
الإفصاح عمن عرف بالأندلس بالصالح	107
اقتراح المتعلمين في اصطلاح المتكلمين	106

الافتاء بما تضمنه من مغازي الرسول ومغازي الثلاثة الخلفاء 106

الانتصار 43

إيضاح السبيل في حديث جبريل (عليه السلام) 105

-ب-

البحر المحيط 120

برنامج رواياته 133

البرهان في ترتيب سور القرآن 141

البرهان والدليل في خواص سور التنزيل 107

-ت-

تاريخ الميرية 107

تاريخ علماء الأندلس 133

تاريخ القرآن 54

تحفة الأبرار في مسألة النبوة والرسالة وما استملت عليه من أسرار 107

تخليص التلخيص 107

التصور والتصديق في التوطئة لعلم التحقيق 106

تعليق على كتاب سيبويه 141

التكميل والإتمام لكتاب التعريف والاعلام 106

تلخيص الدلالة في تخليص الرسالة 107

تناسق الدرر في تناسب السور 88

التنبه على أوهام الغافقي 106

تنظيم الدرر في علماء الدهر 106

106	توهين الطرفي في حديث الأربعين
جـ	
119	جمع التلقينات
119	الجميل للزجاجي
88	جواهر البيان في تناسق سور القرآن
حـ	
106	الحافل في تذييل الكامل
107	حركة الدخولية في المسألة المالكية
106	حكم الدعاء في أدبار الصلوات
107	الحلية في ذكر البسملة والتصلية
خـ	
107	خطر فنظر ونظر فخطر على تنبيهات وثائق ابن فتوح
107	خطرة المجلس في كلمة وقعت في شعر استنصر به أهل الأندلس
دـ	
129	درة التنزيل وغرة التأويل
ذـ	
142	الذيل على الصلة (صلة الصلة)
	الذيل على طبقات الحفاظ
رـ	
106	رجال المعلم بزوائد البخاري على مسلم
106	الرحلة النباتية
105	ردع الجاهل عن اعتناق المجاهل
119	إرشاد أبي المعالي

- 107 رصف المباني في حروف المعاني
- 108 رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة.
- 106 رقم الحلل في نظم الدرر.
- 99 الروض المنظور في أوصاف ابن منظور.
- 108 رياضة الآن في شرح الخزرجي

-ز-

- 142 الزمن والمكان
- 106 الزهرة الفاتحة في الزهرة اللائحة

-س-

- سبيل الرشاد فضل الجهاد
- السحب الواكفة والظلال الوارفة في الرد على ما تضمنه المظنون من اعتقادات
- 107 الفلاسفة
- 107 سلوة الخاطر فيما أشكل من نسبة الرتيب إلى الذاكر
- 130 السنن الكبرى

-ش-

- 142 شرح الإشارة
- 106 شرح حشائش دياسقور ديوس وأدوية جالينوس
- 43 شرح السنة
- 107 شرح الكوامل
- 107 شرح مغرب أبي عبد الله ابن هشام
- 134 شمائل النبي صلى الله عليه وسلم

-ص-

- 137 صحيح البخاري

102	صحيح مسلم
241	الصلة لابن بشكو ال
142	صلة الصلة
107	الصيب الهتان الواكف بعناية الإحسان
	ظ-
106	ظهور الإعجاز بين الصدور والأعجاز
	ع-
107	العبارة الوجيزة عن الإشارة
	ف-
108	الفصول والأبواب فيمن أخذ عني من الشيوخ والأتباع والأصحاب
41	فضائل القرآن
107	الفعل المبرور والسعي المشكور من نوازل ابن منظور
27	فهم السنن
	ق-
107	قاعدة البيان وضابطة اللسان
54	القرآن، نزوله وتدوينه
137	القوانين الفقهية
	ك-
119	كتاب الأربعين
107	كتاب الأربعين حديثا في الرقائق موصولة
	كتاب التيسير
	كتاب سيبويه

106	 كيفية الأذان يوم الجمعة
	لـ-
107	 لذات السمع من القراءات السبع
107	 اللطائف الروحانية والمعارف الربانية
	مـ-
107	 المؤتمن من أنباء من لقيه من أبناء الزمن
107	 ما كثر وردده في مجالس القضاء
107	 المجتبي النظر والمقتفى الخطر
106	 المختصر في السلوك عن ذهاب البصر
107	 المرجع بالدرك على من أنكر وقوع الشرك
106	 المستدركة
106	 المسلسلات من الأحاديث والآثار والإنشاءات
86	 مشاهد القيامة في القرآن
107	 مشبهات اصطلاح العلوم
106	 المشرع الروي
55	 آرثر جفري
47	 المصاحف لابن أبي أشته
	 المصاحف لنولدكة
157	 مصنف ابن أبي شيبة
106	 مطلع الأنوار ونزهة الأبصار
133	 معجم شيوخه
106	 مفتاح الإحسان في إصلاح اللسان
105	 ملاك التأويل

الموطأ.....	107
-ن-	
نزهة البصائر والأبصار	142
نظم الدرر في تناسب الآي والسور	145
نظم الدراري فيما انفرد به مسلم عن البخاري	106
نظم السلوك في شيم الملوك	107
نفح الكمّات في شرح المقامات	106
نفحات النسوك وعيون التبرك المسبوك	107
النفحة الوسمية والمنحة الجسمية	107
نكتة المثل ونفثة السحر الحلال	106

6- فهرس الأعلام

مرتبة حسب حروف المعجم مع مراعاة اسقاط «أبو» و«ابن» و«ال»

الموضوع	الصفحة
أ-	
آدم عليه السلام.....	168-171-184-196-212-214-220-222-258
أبان بن سعيد-207-208-209-211-212-213-220-238-283-295	
164-177-178-179-195-205	
إبراهيم عليه السلام	101-102
إبراهيم بن أبي الأحوص	137
إبراهيم بن جعفر بن الزبير	137
إبراهيم رضي الدين الواسطي	125
إبراهيم بن محمد بن العاص الشوخي	134
إبراهيم بن محمد الكاد	114
إبراهيم بن يحيى بن زكريا	134
إبليس	184-186-188
أبي بن كعب	22-23-29-31-32-33-36-44
أحمد بن أحمد الأنصاري	134
أحمد بن أبي محمد القرطبي	114
أحمد بن جعفر بن سيد بونة	104
أحمد بن حامد الارتاجي	124

115	أحمد بن الحسين المرادي
116	ابن أحمد بن الشيخ الفهري
135	أحمد بن الصباغ
115	أحمد بن عبد اله بن عميرة
123	أحمد بن محمد بن شراج
135	أحمد بن محمد بن قعنب
115	أحمد بن محمد العاصي
124	أحمد بن مزين
115	أحمد بن مضرس
115	أحمد بن عبد الله بن عميرة
135	أحمد بن عبد الولي العواد
115	أحمد بن يونس بن فرتون
121	أبو احمد يونس بن أبي البركات
79-69-59-39-21	ابن الأحمر
200	إسحاق
103	أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الرفيع
135	إسحاق بن ابي بكر الطبري
101	أبو إسحاق البلقيني
104	أبو إسحاق التلمساني
44	إسحاق بن عياش
57	أسعد أحمد علي
115	إسماعيل بن يحيى الأزدي

أبو الأسود الدؤلي.....	35
أصحاب الكهف.....	219-217
أم سلمة.....	36-23
أنس بن مالك.....	36-31-23
ابن أم مكتوم.....	23
امرأة العزيز.....	74
امرأة فرعون.....	309
أم ورقة بنت عبد الله.....	23
أوس بن حذيفة الثقفي.....	47
أبو أيوب الأنصاري.....	23

-ب-

الباجي.....	142-132-130
ابن الباشا البغدادي.....	146
البخاري.....	139-137-124-119-106-100-47-42-32-26-25-23
أبو البركات ابن الحاج البلقيني.....	139-130-107-103-102
برهان الدين البقاعي.....	100-88-87
البزار.....	411-214
ابن بشكوال.....	133
بلاشير.....	54
بلعام.....	188-186-184-183
البيهقي.....	46-45-24

أبو بكر الأنباري	48
أبو بكر بن رشي	116
أبو بكر الصديق	27-26-23-22
أبو بكر بن عبيدة	104
أبو بكر عبيد الله بن منظور	107
أبو بكر بن العربي	301
أبو بكر بن علي الأنصاري	125
أبو بكر بن محمد الزيات	99
أبو بكر بن محمد مشليون	123
أبو بكر محمد بن الفضل اللخمي	101
أبو بكر محمد القرشي	100
أبو بكر النيسابوري	86-81-63

ت

الترمذي	41-23
جبريل	144-105-49-48-45-43-25
جريجوري التاسع	94
ابن الجزري	136-135
ابن جزي الكلبي	131-129
أبو جعفر (من أهل المدينة)	116
أبو جعفر بن أبي حبل	141
أبو جعفر أحمد الحميري	101
أبو جعفر أحمد بن مفرج العشاب	104

116	أبو جعفر بن محمد بن خديجة
214	أبو جعفر محمد بن علي
130	أبو جعفر محمد الطنجالي
47	أبو جعفر النحاس
276	أبو جعفر المنصور
130	جلال الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الاقشيري
125	جمال الدين بن أبي بكر بن محمد بن محمد أبو يعقوب
139	جمال الدين بن محمد بن أحمد الشريسي
97	ابو الجيوش نصر بن محمد
50-41-24-23	الحاكم
146	حاجي خليفة
301	خاطب بن ابي بلتعة
	أبو حامد الغزالي
88	ابن حيان
44	حبان بن يحيى
116	أبو الحجاج بن محمد المريلي
33	ابن حجر
36-32-30-29-23	حذيفة
36-32-23	أبو حذيفة
116	أبو حسين بن أحمد الغزال
35	حسن البصري
101	أبو الحسن بن بقي

101	أبو الحسن بن صابر الدباج
101	الحسن بن زرقون
126	أبو الحسن الحفار
101	أبو الحسن علي العبدري
102	أبو الحسن القيحاطي
99	أبو الحسن النباهي
177	الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص
124	الحسين بن علي بن أبي الفرج الجوزي
48-42	ابن الحصار
36-33-30-29-23	حفصة (أم المؤمنين رضي الله عنها)
141	أبو حفص الزييات
121	أبي حمزة
88	ابن حيان
120	أبو حيان محمد بن يوسف النفري
خ	
22	خالد بن سعيد
22	خالد بن الوليد
24	خالد بن الأثر
27	أبو خزيمة الانصاري
217	الخضر عليه السلام
157-21	الخطابي
129	الخطيب الاسكافي

- الخطيب بن جعفر الزيات 99
 الخطيب ابو العباس بن خميس 100
 ابن خيرة 101
 خير الدين الزركلي 145

-د-

- الدارقطني 106
 الداني 121
 داود عليه السلام 253-252
 أبو داود 47-14-23
 أبو الدرداء 42-23
 دون نينوى دي لارا 97

-ذ-

- الذهبي 138
 ذو القرنين 217

-ر-

- الرافعي 76-68-67
 ربيعة 75
 الربيع بن أنس 213
 أبو الربيع سليمان الكلاعي 106

-ز-

- ابن الزبير 111-109-107-105-104-103-102-101-100-98
 116-115-114-113-112-
 الزبير بن ابي جعفر بن الزبير.....

الزركشي	97-50-46-44-43-42
الزبير بن العوام	22
زكرياء	338
أبو زكريا بن عبد الملك	116
زيد بن ثابت	49-33-32-31-23-27-26-24-22
أبو زيد عم أنس بن مالك	23
أبو زيد الشريشي	116

-س-

سالم بن معقل	23
سانوشو	97
سعد بن عبيد	23
سعد بن زيد	24
سعيد بن خالد	74
سعيد بن العاص	22
سلمان	278
سليمان بن بلال	75
سيبويه	141-131-128-119
سيد قطب	88-87-84-81-73-67-66-65-64-50-48-46-45-44-43 ...
السيوطي	146-88-87-63

-ش-

ابن شاس	118
شرف الدين عبد المومن الدمياطي	104
ابن الشراط	141

شريك.....	148
شعيب عليه السلام.....	291-207-199
شمس الدين ابو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي.....	207-130
شمس الدين محمد الداودي.....	145
ابن أبي شيبة.....	47

-ص-

صالح عليه السلام.....	291-199
صبحي الصالح.....	80

-ط-

الطبراني.....	22
طلحة.....	23
الطبيي.....	53

-ع-

عائشة رضي الله عنها.....	41-36-23
أبو عامر يحيى بن عامر.....	106
عبادة بن الصامت.....	23
ابن عباس.....	51-50-49-46-41-23
أبو العباس بن محمد بن البطيط.....	123
عثمان بن أبي العاص.....	41
عثمان بن عبد الرحمن الربيعي.....	124
عثمان بن عفان.....	37-36-35-34-33-32-31-29-23-22
عثمان بن طلحة العبدي.....	80
عثمان بن محمد بن الحاج.....	118

100	عبد الحق بن يوسف بن تونارت
112	عبد الحي الكتاني
106	ابن عدي
99-12	عبد الرحمن اللخمي
118	عبد الرحمن بن عبد المنعم الفرس
124	عبد الرحمن بن أبي محمد مكّي الشافعي
126	عبد الرحمن ابن إدريس المنجرة
31	عبد الرحمن بن هشام
159	عبد الرحمن بن زيد
13	عبد السلام المهراس
50	أبو عبيد
36	عبيد بن عمير
117	ابو عبيد الله الصديقي
145	عبد العزيز بن عبد الله
118	عبد العظيم بن مجد الله البلوي
124	عبد الغني بن سليمان بن بنين
126	عبد القوي بن عطايا بن عبد القوي
118	عبد الله بن أحمد بن سعيد الغافقي
116	أبو عبد الله أحمد السهاني
118	عبد الله بن أحمد بن عطية القيسي
116	أبو عبد الله أحمد الالشي
135	عبد الله بن الجبر بن عثمان اليحصبي

أبو عبد الله الحارث المحاسني	27
أبو عبد الله الخضار	104
عبد الله دراز	78-76-67-52
عبد الله بن رواحة	22
عبد الله بن الزبير	36-31
عبد الله بن سعيد بن أبي سرح	22
عبد الله بن سعيد السلماني	136
عبد الله بن سلام	231
عبد الله بن عبد البر الرعيني	131
أبو عبد الله بن عبد الرحمان البلنسي	117
أبو عبد الله بن عبد الكريم الجرشي	117
عبد الله بن عمر	23
عبد الله بن عمرو بن العاص	23
ابن عبد الله بن عسكر	106
عبد الله بن علي بن سلمون الكتاني	130
أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي	101
أبو عبد الله محمد الاستجي	101
أبو عبد الله بن محمد بن يربوع	100
أبو عبد الله محمد بن لب	101
أبو عبد الله محمد اللوشي	130
أبو عبد الله محمد المليكي	105
عبد الله بن مسعود	44-36-33-32-31-30-29-23

أبو عبد الله الميورقي	101
عبد الله بن يحيى بن زكريا الانصاري	136
عبد الله بن يحيى بن ربيع	118
أبو عبد الله العبدري	126
أبو عبد الله بن عيسى	124
عبد المجيد بن علي الانصاري	124
ابن عبد الملك المراكشي	126
عبد المنعم بن سمالك العاملي	118
عبد المهيم بن عبد المهيم الحضرمي	136
عبد الواحد بن سليمان بن عبد الواحد	136
عبد الواحد بن محمد بن علي الأموي	136
عبد الواحد المراكشي	
عز الدين بن عبد العزيز السلمي	124
عطاء	51
ابن عطية	74-45
عكرمة	53
أبو العلاء المامون	93
ابن علي بن أبي التقي	104
علي بن أبي طالب	214-36-23
علي بن عبد الله الغافقي	118
ابن علي الدهان	116
علي بن سلمان الأنصاري	136

أبو علي الشليوبين	101
علي بن عتيق بن أحمد الهاشمي	136
علي بن عمر الكتاني القيحاطي	136
علي بن محمد الجياب	137
علي بن محمد الصباغ العقيلي	137
علي بن محمد الكتاني	
أبو علي منصور المشدالي	103
أبو علي بن الناظر بن الأحوص	102
عمرو بن العاص	32-31-23-22
أبو عمر بن عبد الله بن حوط	
أبو عمر عثمان بمن منظور	99
أبو عمر عز الدين بن جماعة	130
عمر بن الخطاب	36-31-26-23
أبو عمر الم رابط	141
عيسى عليه السلام	303-300-219-213-174-171-
عيسى بن سليمان الشافعي	125
عيسى بن مظفر بن عبد الله	126

فـ

أبو فارس بن عبد العزيز الهواري	104
فاطمة بنت الخطاب	24
أبو الفتوح نصر بن أبي الفرج	121
فخر الدين الرازي	81-63-3

ابن فرحون 145-135
 ابن الفرضي 133
 فرعون 325-323-309-270-262-257-237-236-235-234-230-222-84
 فرناندو بن الفونسو التاسع 96-95-94

ق-

قارون 262-237
 ابن القاسم بن الأيسر 101
 أبو القاسم بن عبد الرحيم 104
 قاسم بن عبد الكريم جابر الأنصاري 137
 أبو قاسم عمر بن عبد الكافي 54
 أبو قاسم محمد بن أحمد الحسيني 105
 أبو قاسم بن محمد بن رحمون 117
 أبو قاسم محمد اللغمي القبطي 237

ك-

كعب بن الأشرف 80-79
 كثير بن أفلح 31

ل-

ليب السعيد 28
 لسان الدين بن الخطيب 113
 لقمان 51
 أبو لهبلوط 248-245-244-243-242

م-

مالك بن ابي عامر 31

أنس بن مالك	31-23
مالك بن عبد الرحمان بن فرج	120
محمد صلى الله عليه وسلم	86-80-41-30-11-9-3
محمد بن ابراهيم بن باق	137
محمد بن ابراهيم بن روبيل	137
محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المقدسي	126
محمد بن ابراهيم بن مستقور الغرناطي	121
محمد بن أحمد الأشعري	138
محمد بن أحمد الأنصاري	140
محمد بن أحمد حقاك السلمي	138
محمد بن أحمد خليل السكوتي	121
محمد بن أحمد بن خميس الانصاري	138
محمد بن أحمد الزييات الكلاعي	134
محمد بن أحمد بن سيد الناس	123
محمد بن أحمد بن شقرال اللخمي	138
محمد بن اسحاق	106
ابن محمد بن بالغ	116
محمد بن البغدادي	125
محمد بن بيش العبدري	138
محمد البياني	138
محمد جمال الدين يوسف بن مسدي	125
محمد بن حسان القيسي الوادي آشي	139

121	محمد بن عبد الرحمن بن جوهر
125	محمد بن عبد الدائم أبو المكارم
100	محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي
125	محمد أبو عبد الله ضياء الدين
93	أبو محمد عبد الله الملقب بالعدل
140	محمد بن عبد الله بن أرقم النميري
140	محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي
140	محمد بن علي بن قطرال الانصاري
140	محمد بن علي بن مثبت
56	محمد عزة دروزة
120	محمد بن عيضا بن موسى اليحصبي
120	محمد بن عيسى بن هلال
96	محمد الفقيه
97	محمد سعيد رمضان البوطي
121	محمد بن سعيد الطراز
31	محمد بن سيرين
140	محمد بن محمد بن ادريس القضاعي
138	محمد بن محمد الانصاري
117	أبو محمد بن محمد الجياني
138	محمد بن محمد بن سهل
138	محمد بن محمد الطنجالي
120	محمد بن محمد بن لب الكناني

محمد المنوني.....	13
محمد بن محمد بن يوسف الطنجالي.....	138
أبو محمد المخلوع.....	93
محمد بن مخلوك.....	146
أبو محمد الملقب بالرشيد.....	93
محمد بن القاسم بن ابي رمان.....	140
محمد بن القاسم بن عمران الحضرمي.....	140
ابو محمد القرشي.....	44
محمد بن يحيى بن بكر الاشعري.....	104
محمد بن يوسف اللوشي.....	130
محمود الدمشقي.....	126
أبو مدين شعيب بن الحسين.....	104
مريم.....	310-303-300-220-219-174-51
مسلم.....	111-106-102-42-23
مصعب بن عمير.....	23
مصطفى بن سعد بن أبي وقاص.....	32-31-23
مصطفى المراغي.....	88
معاد بن جبل.....	23
أبو المعالي أحمد بن اسحاق القوسي.....	104
معبد بن خالد.....	47
مكي.....	43
موسى عليه السلام.....	231-230-222-221-219-218-214-213-199

324-279-236-235-

أبو موسى الأشعري..... 36-33-44

محمد بن موسى بن جرادة..... 139

-ن-

نجيب الدين بن عبد اللطيف بن عبد المنعم بن هبة الله المراني أبو محمد..... 125

نصر بن عاصم..... 35

ابن نصر..... 160

نوح عليه السلام 199-185-206-214-238-257-262-281-290-291

316-315-291-290

نولد كي..... 54

-ه-

هامان..... 234

هبة الله الخرائي ابو محمد..... 125

أبو هريرة..... 213-25-23

هود عليه السلام..... 292-206-201-199-195-194

ابن هود..... 93

هوير..... 54

-و-

وائل بن حجر..... 208

واثلة بن الأسقع..... 47

وزيره بن الحكيم..... 97

ابن وضاح..... 120

أبو الوليد اسماعيل..... 98

67	الوليد بن المغيرة
64	ولي الدين الملوي
75	ابن وهب
	-ي-
219	يحيى (عليه السلام)
121	يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن بن ظافر بن ابراهيم المرادي
123	يحيى بن عباس بن أحمد القيسي ابو زكرياء
117	أبو يحيى بن عبد الرحيم
139	يحيى بن عبد الله بن محمد اللخمي
121	يحيى بن عبد الملك بن يحيى بن ابي الغصن اللخمي أبو زكرياء
101	أبو يحيى محمد بن رضوان النصري
140	يحيى بن مسعود المحاربي
46	يحيى بن معين
35	يحيى بن يعمر
46	يزيد الفارسي
256-254-221-135	يس
56	أبو اليسر عابدين
117	أبو يعقوب المحاسني
125	أبو اليمن بن عساكر
202-200-199-198-179-74-70	يوسف (عليه السلام)
140	يوسف بن ابراهيم الفهري
122	يوسف بن ابي ریحانة المالقي

- يوسف بن ماهك 41
- يوسف بن موسى بن سليمان الهنشتاغري 141
- أبو يوسف يعقوب المريني 97
- يونس (عليه السلام) 354-350-337-333-313-230-194-192

7 - فهرس البلدان

الصفحة	البلد
أ-	
25	أحد
95	أربونة
96	أرجونة
30-29	أرمينية
122-101	أريولة
97	إستجة
140	اسطبونة
100	اشيلية
104	افريقيا
137-132-118-107-104-103-102-101	ألمرية
135-134-133-132-130-128-127-	الأندلس
126-123-122-119-118-113-112-111-107-105- 104-103-102-100-99-98-97-96-95-94-93-12	
94	أنيشة
94	إيطاليا
ب-	
23	بئر معونة
103-104	بجاية
83-80-79-10	بدر

برجة 135-103
 بسطة 135-128
 بلنسية 101-95-94
 بيت المقدس 50

-ت-

تلمسان 103
 تونس 103

-ج-

الجحفة 50
 الجزائر الشرقية 94
 الجزيرة الخضراء 100-96-12
 جيان 113-112-111-100-95-12

-ح-

الحبشة 50
 الحجاز 104-103
 الحديبية 50

-خ-

خراسان 278

-د-

دانيه 95
 دمشق 104

-ر-

الرباط 147-13
رندة 141-112-104-102-101-12

-س-

سبأ 145
سبته 101
سلا 103
سوريا 103
السودان 105

-ش-

شاطبة 95
الشام 113-105-56-30-29
شريش 97
شقير 95

-ط-

الطائف 50
طريف 97

-ع-

العراق 113-105-103-29

-غ-

غرناطة
12 - 93 - 95 - 96 - 97 - 98 - 100 - 101 - 102 - 103 - 104 - 105 - 112 -
113 - 114 - 117 - 119 - 120 - 121 - 126 - 130 - 131 - 132 - 134 -
135 - 136 - 137 - 138 - 139 - 140 .

-ف-

فاس 115-103-102

فرنسا 94

-ق-

القدس 140

قرطبة 01-96-94-12

قسنطينية 123

قشتالة 95-94

قنسرين 113

قوص 124

-ك-

الكوفة 32-29

-ل-

لوشة 135

-م-

ملقة 141-140-134-132-131-124-122-120-119-117-12

المدائن 30

المدينة .. 113-104-75-55-51-50-33-32-30-23-22

مراكش 103

مصر 124-105-103

المشرق 131-130-125-121-119-104-102-78-12

المغرب 135-134-128-119-104-103-102-97-96-93-42-12-4

مكة	125-104-79-75-51-50-41
مoule	148-147
مورقة	94
-و-	
وادي آشي	138-130-122-12
-ي-	
اليامة	26
اليمن	105

8 - فهرس المصادر والمراجع

- الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ت 911 هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط المكتبة الثقافية بيروت 1937م، والطبعة الأولى لسنة 1967م مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بمصر.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ) تحقيق: محمد عبد الله عنان، ط 2 الشركة المصرية للطباعة والنشر 1973م.
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري وبهامشه الناسخ والمنسوخ، لهبة الله بن سلامة، ط عالم الكتب، بيروت، (دون تاريخ).
- الإصابة في تمييز أسماء الصحابة نسخة مصورة عن الطبعة الأولى 1328 هـ. للحافظ ابن حجر: 852.
- أصول الدين، لعبد القاهر البغدادي.
- الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل بن الزرق، لعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي).
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي، ط 9، سنة 1973 م، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.
- الأعلام لخير الدين الزركلي، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت، وطبعة المطبعة العربية، بمصر، 1927م.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، ت 745 هـ، ط 1، سنة 1328 هـ، مطبعة السعادة بمصر.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني، ت 1250 هـ، ط 1 سنة 1348 هـ، مطبعة السعادة.
- برنامج الوادي آشي، محمد بن جابر (ت 749 هـ)، تحقيق: محمد محفوظ، ط 1، سنة 1980م، دار العرب الإسلامي، بيروت.
- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794 هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1 سنة 1957 م، دار إحياء الكتب العربية.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط القاهرة 1964م.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لأبي عبد الله محمد المراكشي ابن عذاري القسم الثالث ، ط تطوان 1960.
- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لمنصور علي ناصف ط 2 للبابي الحلبي.
- تاج العروس للزبيدي ط 1 المطبعة الخيرية بجمالية مصر 1306هـ.
- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ت 1945 ترجمة عبد الحليم النجار والملحق رقم 2 من طبعة ليدن 1338 (الطبعة الألمانية).
- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة د. عبد الرحمن علي الحجي ط 1 دار القلم 1976.
- تاريخ توثيق نص القرآن الكريم لخالد عبد الرحمن العك توزيع دار القلم، دمشق بدون تاريخ.
- تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن حرير الطبري ت 310 هـ تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط ذخائر العرب 1960م .
- تاريخ القرآن لابراهيم الأبياري ط دار الشروق.
- تاريخ قضاة الأندلس المعروف بالمرقبة العليا لأبي الحسن النباهي ولد سنة 713هـ نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر وتوزيع بيروت.
- تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ط. دار الثقافة العربية للطباعة.
- تجريد أسماء الصحابة للذهبي ت 748 هـ دار المعرفة بيروت نسخة مصورة.
- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ابن العلي محمد عبد الرحمن ت 1353 هـ. نسخة مصورة عن الطبعة الهندية.
- تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي نسخة مصورة بيروت.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض ت 544 هـ. ط. وزارة الأوقاف المغربية.

- التسهيل لعلوم التنزيل لإبن الجزى الكلبي ت 693هـ ط 2 سنة 1973 دار الكتاب العربي بيروت.
- التصوير الفني في القرآن للشهيد سيد قطب ط 7 سنة 1971م دار إحياء التراث العربي بيروت.
- التفسير البياني للقرآن الكريم د. عائشة الرحمن دار المعارف مصر.
- التفسير الحديث لمحمد عزة روضة: ط 1 بدار إحياء الكتب العربية لعيسى الباني الحلبي مصر 1962.
- تفسير الطبري نسخة مصورة بدار الفكر بيروت 1968م.
- تفسير القرآن الكريم منهج ليسر التربوي د أسعد أحمد علي طبع بدار السؤال للطباعة والنشر بدمشق 1979م.
- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن نسخة مصورة بدار إحياء التراث العربي بيروت.
- تفسير ابن كثير ط 2، 1970 بدار الفكر بيروت والعزواليها.
- التفسير الكبير للفخر الرازي ت 606هـ طبع سنة 1934، المطبعة البهية المصرية الأزهر.
- تفسير المراغي نشر مكتبة ز، مطبعة البياني الحبي بمصر ط 3.
- تفسير المنار للشيخ محمد عبده، ت 1923 ط 4، سنة 1373 هـ مكتبة القاهرة.
- التكملة لكتاب الصلة لأبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبارت 659 هـ ط القاهرة 1963.
- تلخيص الخبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير للحافظ ابن حجر العسقلاني ت 852هـ. نشر السيد عبد الله هاشم اليمني 1384هـ.
- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني ط 1، المطبعة العامرة الشرفية 1321هـ مصر.
- تناسق الدرر في تناسب السور (أسرار ترتيب السور) للسيوطي تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط 2، سنة 1978 دار الاعتصام.
- تهذيب الأسماء واللغات ليحيى بن شرف النووي ت 676 هـ ط 1 المنيرية.

- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ت 852 هـ ط مصورة عن الطبعة الهندية.
- ثبت البلوي أبي جعفر الوادي آشي ت 938 هـ تحقيق عبد الله العمراني ط 1 سنة 1983 دار الغرب الإسلامي بيروت.
- جامع الترمذي مع تحفة الأحوزي للمباركفوري نسخة مصورة بدار الكتاب العرب بيروت.
- الجامع الصحيح للإمام مسلم ت 261 هـ. ضبط محمد فؤاد الباقي.
- الجامع الصغير للسيوطي مع فيض القدير للمناوي نشر دار المعرفة بيروت 1972.
- الجمع الصوتي للقرآن الكريم د. لييب السعيد ط 2 سنة 1978 دار المعارف بيروت.
- جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزائد ، لمحمد بن سليمان الروداني ت 1094 هـ ط عبد الله هاشم اليماني.
- جواهر البيان في تناسب سور القرآن للنسخ عبد اله بن الصديق الغماري الحسني مطبعة محمد عاطف وسيد طه بمصر (دون تاريخ).
- جواهر القرآن للإمام الغزالي ت 505 هـ ط 5 دار الآفاق الجديدة بيروت 1981.
- حق التلاوة لحسن شيخ عثمان ط 2 سنة 1977 م مؤسسة الرسالة المكتبة السلفية.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم ت 430 هـ طبع المكتبة السلفية.
- الحلية السيرة لابن الأبار تحقيق حسين مؤنس القاهرة 1967.
- الخصائص الكبرى للسيوطي ط دار الكتب العلمية بيروت توزيع دار الباز مكة المكرمة.
- درة الحجال في أسماء الرجال لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي (ابن القاضي) ت 1025 هـ تحقيق محمد الأحدي أبو النور، 1970 م.
- الدرر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ جلال الدين السيوطي ت 911 نسخة مصورة عن طبعة طهران.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ط دار الجليل.
- الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي تحقيق الشيخ خليل محيي الدين الميس ط 1 دار العربية 1984 م.

- الديباج المذهب لابن فرحون اليعمرى ت 799 هـ تحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور، ط مكتبة دار التراث القاهرة.
- الذيل والتكملة لكتبي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشى ت 703 هـ تحقيق د. محمد بن شريفة وإحسان عباس، ط دار الثقافة بيروت.
- الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ سعيد حوى ط 3 سنة 1973.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب القيسي ت 437 هـ د. أحمد حسن فرحات، ط دار المعارف للطباعة دمشق 1973 م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل محمد الألوسى ت 1270 هـ ط. إدارة الطباعة المنيرية بمصر.
- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت 275 هـ ضبط وتعليق محيى الدين عبد الحميد نشر دار إحياء السنة النبوية.
- سنن ابن ماجة القزوينى ت 275 هـ ط. دار إحياء الكتب العربية 1372 هـ ضبط محمد فؤاد عب الباقي.
- سنن الدرامى عبد الله بن عبد الرحمن ت 252 هـ نشر عبد الله هاشم اليماني.
- سيرة ابن هشام ت 218 هـ ضبط وتعليق محمد يحيى الدين عبد الحميد ط. دار الفكر.
- شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد بن مخلوق ط. مصورة عن الطبعة الأولى المطبعة السلفية بمصر 1349 هـ.
- شذرات الذهب في خبر من ذهب لابن العماد الحنبلي ت 1089 هـ ط 1 بدون تاريخ نسخة مصورة بالمكتب التجارى بيروت.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار التراث العربى بيروت.
- الشفا للقاضى عياض ت 544 هـ نشر المكتبة التجارية الكبرى وتوزيع دار الفكر.
- صحيح ابن حبان دار الكتب العلمية بيروت تحقيق محمد عبد الرواق حمزة
- الصلة لابن بشكوال ط الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.

- صلة الصلة لابن الزبير ت 708 هـ القسم الأخير من الكتاب تصحيح وتعليق أليف بروفنسال ، المطبعة الاقتصادية بالرباط 1938 م.
- طبقات ابن سعد، نسخة مصورة، ط دار صادر بيروت.
- طبقات الحفاظ للسيوطي، تحقيق علي محمد عمر ط 1، سنة 1973، مطبعة الاستقلال الكبرى، نشر مكتبة وهبة.
- طبقات المالكية (مجهول المؤلف) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 3928 د.
- طبقات المفسرين لشمس الدين محمد بن علي الداودي ت 945 هـ تحقيق علي محمد عمر ط 1 مطبعة الاستقلال الكبرى، نشر مكتبة وهبة.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والعرب والبربر ومن ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن بن خلدون، ط بيروت 1958-1959.
- عصر اليوم والليلة للإمام النسائي ت 303 تحقيق د. فاروق حمادة، ط 1 مطبعة النجاح بالدار البيضاء.
- عيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس ت 747 هـ نشر دار المعرفة بيروت.
- غاية النهاية في طبقات القراء لابن الأثير الجزري ت 833 هـ غني بنشره ج. برجستراسر، ط دار الكتب العلمية بيروت، 1980.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ت 850 هـ. ط المطبعة السلفية.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزن ت 456 هـ ط 1 بمصر.
- فضائل القرآن لابن كثير ت 774 هـ ط 4 سنة 1979 دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- فضائل القرآن للنسائي ت 303 هـ تحقيق د. فاروق حمادة ط سنة 1980 نشر دار الثقافة بالدار البيضاء.
- الفهرست لابن النديم ت 385 هـ ط المطبعة الرحمانية بمصر (بدون تاريخ).

- فهرست الشيخ عبد الرحمن بن إدريس المنجرة المسماة «الإسناد الشفيح يوم التناد» مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 2285.
- فهرس الفهارس والإثبات لعبد الحي الكتاني، ط المطبعة الجديدة بالطالعة 1946 فاس.
- في ظلال القرآن لسيد قطب، ط 7 سنة 1971، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- القرآن نزوله تدوينه ترجمته تأثيره لبلاشير ترجمة رضا سعادة ط 1 سنة 1974، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- الكشف للزخشي.
- كشف الأستار عن زوائد البزار لنور الدين الهيثمي ط 1 تحقيق الشيخ الأعظمي.
- كشف الظنون لحاجي خليفة مصورة عن ط 1 منشورات مكتبة المثنى بغداد.
- لسان العرب لابن منظور إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم نرعشلي ط.
- العلم د بشير التركي ط 1 سنة 1979 مطبعة الاتحاد العم التونسي للشغل.
- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح ط 10 سنة 1977 دار العلم للملايين، بيروت.
- مجلة الأمة عدد 32 شعبان 1403هـ.
- المحرر الوجيز لابن عطية ت 599 ع ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب.
- مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن، د. محمد عبد الله دراز ط، دار القلم دار القرآن الكريم، الكويت.
- مدخل إلى علوم القرآن والتفسير د. فاروق حمادة ط 1 سنة 1979 مكتبة المعارف، الرباط.
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس) لأبي الحسن النباهي ولد سنة 713 هـ نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم ت 405 هـ نسخة مصورة بدار المعرفة، بيروت.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ت 241 هـ. ط 1 بمصر نسخة مصورة عنها، نش الكتاب الإسلامي ودار صادر بيروت.
- المصاحف لابن أبي داود السجستاني ت 316 هـ المطبعة الرحمانية القاهرة 1355 هـ.
- مصادر السيرة النبوية د. فاروق حمادة، ط 1، دار الثقافة الدار البيضاء.
- المصباح المنير لشهاب الدين الفيومي ط. 1 مصطفى بابي الحلبي، مصر.
- مصنف ابن أبي شيبة ت 235 هـ تحقيق عبد الخالق الأفغاني ط 2 سنة 1979، الهند.
- مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت 211 هـ ط 1 سنة 1970 تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام السيوطي تحقيق محمد علي الجاوي ط دار الفكر العربي.
- مع الرعيل الأول لمحّب الدين ابن الخطيب ط 1 مصر.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب بعد الواحد المراكشي ت 647 هـ تحقيق محمد سعيد العريان، ط القاهرة 1960.
- المعجم في أصحاب الصدي لابن الأبار القضاعي ت 658 هـ دار الكتاب العربي القاهرة 1967.
- معجم البلدان لياقوت الحموي ط. دار صادر بيروت 1957.
- المعجم الكبير للطبراني ت 360 هـ ط 1 تحقيق الشيخ حمدي السلفي.
- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- معرفة القراء الكبار للذهبي ط 1 تحقيق محمد سيد جاد الحق.
- المغرب في حلي المغرب لابن سعيد الأندلسي ت 685 تحقيق شوقي ضيف ط القاهرة 1964.
- المغني في الضعفاء للإمام الذهبي ت 748 تحقيق د. نور الدين عتر ط 1.
- المقاصد الحسنة للسخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت 902 هـ نشر مكتبة الخانجي 1375 هـ.

- مكتبة جلال الدين السيوطي، أحمد الشرقاوي إقبال ط. دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل لابن الزبير ت 708 هـ ط 1، سنة 1988، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- الملل والنحل للشهرستاني ت 548 هـ ط 1 المطبعة الأدبية 1317 هـ.
- مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط دار الفكر (دون تاريخ).
- من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ط 5 سنة 1977، مكتبة الفارابي.
- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب 1975.
- الموطأ للإمام مالك ت 179 هـ ط. دار إحياء الكتب العربية، مصر.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم د محمد عبد الله دراز ط 2 سنة 1970 دار القلم، الكويت.
- نبوة محمد في الكتاب المقدس د. أحمد حجازي السقاط ط 1 سنة 1978 دار الفكر العربي.
- نظم الدرر في تناسب الآي والسورة للباقعي إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط ت 885 هـ مخطوط الخزانة العامة رقم 181 ق ونسخة الخزانة الملكية رقم 2695-الرباط.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري ت 833 هـ ط المكتبة التجارية الكبرى تصحيح محمد علي الضياع.
- نظم المتناثر في الحديث المتواتر للسيوطي تحقيق الشيخ خليل محيي الدين الميس ط 1 سنة 1984 ط دار العربية.
- نظم المتناثر في الحديث المتواتر للسيد محمد بن جعفر الكتاني نشر دار الكتب العلمية بيروت 1980 مصورا عن ط فاس 1328 هـ.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب لأ
العباس أحمد المقرئ ت 1041 هـ تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968.
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين لمحمد عبد الله عنان ط. القاهرة 1966.
- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ت 606 هـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي
ومحمود محمد الطناحي، نشر المكتبة الإسلامية.
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للإمام محمد بن علي الشوكاني ت 1250 هـ ،
مصطفى الباني حلبي المشي، بغداد.
- الوافي بالوفيات لصلاح الدين بن أبيك الصفدي، ت 764 هـ.
- وفيات الأعيان لابن خلكان أحمد القاضي ت 681 هـ ط 1 بدون تاريخ.

